

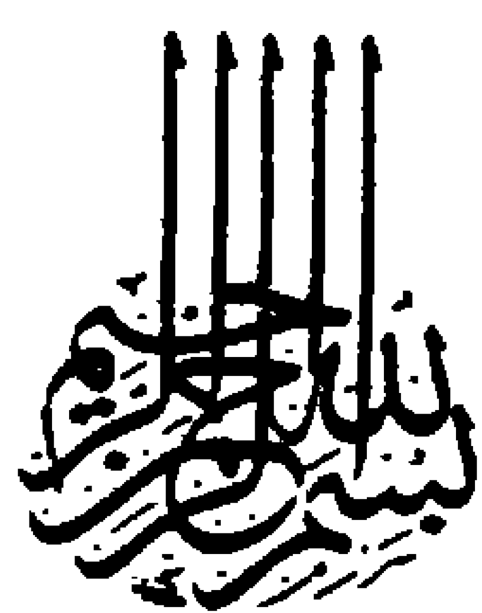
المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 36

أحمد بوشرب

مغاربة في البرتغال

خلال القرن السادس عشر

مغاربة في البرتغال





منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 36

مغاربة في البرتغال

خلال القرن السادس عشر

دراسة في الثقافة والذهنيات بالمغرب
من خلال محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية

أحمد بوشرب

1996

الكتـاب	:	مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر
المؤلـف	:	أحمـد بـوشـرب
الناشر	:	منـشورات كلية الآداب ـ الرباط
سلسلـة	:	رسائـل وأطروحـات
الغـلاف	:	إعـداد عمر آفـا
الخطـوط	:	بلعيد حميـدي
الحقـوق	:	محفوظـة للكلية بمقتضى ظهيـر 29/ 7/ 1970
الطبـع	:	مطبعة فضالة ـ المحمديـة
ردمـك	:	4 ـ 82 ـ 825 ـ 9981
رقم التصنيف الدولي	:	1113 ـ 0334
رقم الإيداع القانـوني	:	1516 / 1996
الطبعـة الأولى	:	1996

طبع هذا الكتاب بدعم من برنامج التعاون
بين كلية الآداب ومؤسسة كونراد أديناور

إهداء

إلى آمنة

شكر

نوقش هذا البحث يوم 31 مارس 1987، بجامعة Paul Valéry ، بمدينة Montpellier،
ونال درجة الدكتوراه بميزة مشرف جدا، مع التوصية بالطبع. وقد كان تحت عنوان :

"Les crypto-musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVI ème siècle"

والدراسة الذي أتشرف بوضعها بين يدي القارئ الكريم ترجمة أمينة للنص الفرنسي، باستثناء الفصلين الأول والثامن،اللذين يهمان التاريخ الداخلي للبرتغال، واللذين تصرفت في ترجمتهما واقتصرت فيهما فقط على ما يخدم البحث.

وأود بالمناسبة أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان للأستاذ Louis CARDAILLAC الذي تفضل بالإشراف على هذه الدراسة، وخصها برعايته، وأفادها كثيرا من تجربته وعلمه الواسع في ميدان البحوث الموركسية والجدل الديني الذي عرفته إسبانيا بين الموركسيين والمسيحيين الأقحاح.

كما أود أن أتقدم بصادق الشكر للأستاذ عبد الواحد بنداود، قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الذي تفضل بإدراج هذه الدراسة ضمن منشوراتها.

الرموز المستعملة

A.E.S.C.	= Annales, Economie, Société, Civilisation.
A.N.T.T.	= Arquivo Nacional da Torre do Tombo.
B.E.S.M.	= Bulletin Economique et Social du Maroc.
Dic. Hist. Port.	= Dicionário de História de Portugal.
édit.	= édition.
fasc.	= fascicule.
fol.	= folio.
Inq. Evora, Proc.	= Inquisição de Evora, Processo.
Inq. Lix., Proc.	= Inquisição de Lisboa, Processo.
introd.	= introduction.
Liv.	= Livro.
Ms	= Manuscrit.
Publ.	= Publication.
r°	= recto.
Rev.	= revue.
s.d.	= sans date.
S.I.H.M. Port.	= Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, Série Sa'dienne, Portugal.
s.s.	= pages suivantes
trad.	= traduction.
v°	= verso.
vol.	= volume.

المُقــدِمةُ

تمكـن البرتـغاليون مـن احتلال عـشرة ثغـور مغربيـة فيمـا بين 1415 و 1515. ونظرا لما كان المغرب يعاني منه من تفكك وفوضى، ونظرا لتفوقهم في ميدان السلاح وتقنيـات الحرب، عاثوا فسادا فـي مناطق شاسعة مـن خلال غارات خاطفة ومـفاجئة كانت تنتهي أحيانا بأسر مئات المغـاربة.وقد سبق لنا في دراسة أخرى أن بيّنا خطورة ذلك الغزو على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية بمنطقة دكالة . ونطمح من خلال هذه الدراسـة إلى تحديد نتائج الغزو المذكـورعلى الثقافة والذهنيـات والعقيدة بالمغرب، وذلك بتتبـع ظروف إقامة عدد كبير من المغاربة في البـرتغال خلال النصف الأول من الـقرن الـسادس عـشر، وتحـديد نوعـية الـعلاقـات التي ربـطتـهم بـالمجتـمع البرتغالي، وموقفهـم من ذلك البلد وسكانه وقيمهم ومعتقداتـهم. واعتمدنا بالأساس في دراسة هـذه الجوانب عـلى مصـادر محاكـم التفـتيـش التي عـانى المغـاربة من عـسف محققيها، ومن محن الاعتقال بزنازنها.

واختلفـت دوافع التحاق أولئـك المغاربة بالبرتـغال كما سنرى، إذ كـان منهم من أكره على ذلك بسبب الأسر أو الشراء، وكان منهم من التجأ إلى ذلك البلد لأسباب سياسية أو قضائية.

وبالرغم من عدم توفر ما يسمح بتقدير عـدد أولئك المغاربة، نعتقد، اعتمادا على ما ورد بمختلف المصادر البرتغالية، بأن عددهم قد يكون بلغ حوالي المائة ألف فيما بين 1525 و1530، إن صحت بعض الـتقديرات المتعلقـة بما اشتراه البرتغالـيون والإسبان خلال مجاعة 1521.

وهكذا نكون قد توخينا من هذه الدراسة هدفا محددا يتمثل في توضيح ما إذا كان أولئك الغرباء، الذين دخـلوا البرتغال على دفعات وفرض عليهـم التنصر في الظروف

التي سنعود إليها، قد انسلخوا من هويتهم وعملوا على الاندماج داخل المجتمع البرتغالي وتبني قيمه، أو أن سنوات الغربة، مهما طالت، لم تنسهم وطنهم وقيمهم.ومما لاشك فيه أن دراسة هذا الموضوع تتطلب منا تحديد خصائص الثقافة والعقليات والقناعات الدينية بالبلدين، الأمر الذي يجعل هذه الدراسة تهتم بموضوع بكر لم تسبق إليه، وهو موضوع الثقافة الشعبية والذهنيات ببلادنا خلال القرن السادس عشر. ومما زادها أهمية اعتمادها على مادة مصدرية جديدة، لم يسبق توظيفها في أية دراسة مغربية، تبدو وكأنها لا تهم تاريخنا البتة، تتمثل في مصادر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية.

وبما أن موضوعنا يهم أساسا الجوانب الثقافية والذهنية من خلال العلاقة التي ربطت الجالية المغربية بالمجتمع البرتغالي، فإننا لم نول الجوانب العسكرية والسياسية للغزو البرتغالي بالمغرب من تاريخ احتلال سبتة (1415) إلى معركة وادي المخازن (1578) إلا اهتماما محدودا. وعلى العكس من ذلك، أولينا الجوانب الإيديولوجية، وما تولد عنها من تصورات ومواقف، ما تستحقه من عناية، ذلك أن الجهاد بالنسبة للمغاربة، والحرب الصليبية بالنسبة للبرتغاليين، أسهما بشكل مباشر في تزايد العداء بين الطرفين منذ مطلع القرن الخامس عشر.غير أن اهتمامنا بتلك العلاقات لم يقتصر على هذا الجانب. فبما أن موضوعنا يهم أقلية غريبة عن المجتمع الذي كانت تعيش فيه، فقد أولينا عناية خاصة لمفهوم "مسقط الرأس" وما ينتج عن الابتعاد عنه من شعور بالغربة ومن رغبة ملحة في العودة إليه. ونعتقد أن العامل المذكور لعب دورا كبيرا في تحديد موقف الجالية المغربية من الإقامة في بلاد الغربة، ومن سكانها وقيمهم ومعتقداتهم. ففي الوقت الذي كان العامل المذكور عنصر استقرار وتمسك بالأرض بالنسبة لموريسكيي إسبانيا، مثل بالنسبة للجالية التي تهمنا عنصر نفور من ذلك الاستقرار.فمن الأكيد أنهم لم يرتدوا ليستمروا في العيش في البرتغال كما فعل موريسكيو إسبانيا، بل على العكس من ذلك، كان جلهم يتوخى من تلك الردة توفير فرص نجاح أكبر لمحاولات الفرار إلى " بلاد المسلمين".

وكان علينا، لإنجاز هذا البحث، الخوض في ميدان لم تهتم به الدراسات التاريخية بعد، سواء بالمغرب أو في البرتغال. ففي الوقت الذي نعدم فيه ببلادنا دراسة تهم من قريب أو بعيد موضوعنا هذا، كاد اهتمام أكبر المؤرخين البرتغاليين من O.Martins إلى V.M. Godinho أن يقتصر على التوسع والكشوف وإنشاء إمبراطورية

تجارية كبرى، دون العناية بتاريخ الإسلام والمسلمين بذلك البلد، سواء قبل التنصير الإجباري أو بعده. وتجدر الإشارة إلى أن D. Lopes الذي يعتبر أشهر المستعربين البرتغاليين، كاد أن يحصر إسهامه في ميدان التاريخ على الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، ولم يهتم قط بالوجود الإسلامي ببلاده.

ولإنجاز بحثنا هذا، اعتمدنا مادة علمية ضخمة، برتغالية ومغربية، لا يزال جلها مخطوطا، ولم يعرف إلا استغلالا محدودا.كما أن هذه المصادر، ورغم اختلاف طبيعتها، تتكامل بشكل جيد .فإذا كانت المصادر المغربية تفيد في فهم مواقف وتصرفات المغاربة المقيمين في البرتغال، فإنه يتعذر كذلك الوقوف على عدد من جوانب الثقافة والعقليات بالمغرب (رؤية الآخر، المواقف من الموت والحياة، الإيمان بالأولياء والسحر والشعوذة مثلا) دون اعتماد مصادر محاكم التفتيش البرتغالية. كما يبقى توظيف تلك المصادر ضروريا بالنسبة لكل دراسة تتوخى تتبع النتائج السوسيو-ثقافية للغزو الإيبيري لسواحل المغرب، تلك النتائج التي لم تقتصر كما سنرى ذلك بتفصيل، على الجوانب الاقتصادية والديموغرافية والسياسية، بل شملت المعتقدات، وأحدثت أزمة ضمير حقيقية بالبلاد.

وتتشكل المصادر المغربية التي اعتمدناها من كتب الحوليات والتراجم، وخصوصا من ثلاثة أنواع عرفت خلال القرن السادس عشر، والقرن التالي، نوعا من الازدهار: كتب المناقب والكرامات، وكتب النوازل، وأخيرا كتب المصلحين الذين حثوا الناس على الجهاد ومحاربة البدع.وتمثل هذه المؤلفات مصدرا أساسيا بالنسبة لموضوع يهتم بالثقافة والعقليات، وخصوصا بجانبها الشعبي، إذ أنها تعكس مشاغل واهتمامات عامة الناس. فهي تسهم بشكل مباشر في فهم كثير من جوانب الثقافة التي جاء أولئك المغاربة، الذين كان جلهم من الرحل الأميين، مشبعين بها إلى البرتغال. كما نقف من خلال تلك الأنواع الثلاثة على جل مظاهر أزمة ضمير المغربي التي تولدت عن طغيان الإنسان والطبيعة.وتسمح أخيرا بتتبع انعكاس الأزمة المذكورة على أخلاق المغربي، وعقيدته ورؤيته للآخر، سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا.

وتبقى وثائق محاكم التفتيش البرتغالية المصدر الأساسي لتتبع ظروف إقامة الجالية المغربية في البرتغال.فهي تتكون من محاضر المحاكمات، و"كتب الاعترافات" Livros das confessões و"كتب التبليغات" Livros das denúnciações ومن "دفاتر الادعاء"

ولوائح الحفلات Livros das visitações، و"كتب الزيارات" ، Cadernos do Promotor Fiscal الدينية (autodafés)، وقوائم المعتقلين، ولوائح الذين سلموا للقضاء المدني، أي أعدموا حرقا، إلخ.

ويبقى استغلال هذه المادة المصدرية الضخمة عملا شاقا، يكاد يكون متعذرا نظرا لكثرة وثائقها من جهة، ولظروف العمل بالأرشيف الوطني من جهة ثانية. ليس من السهل على الباحث استخراج المحاضر التي تخص المغاربة من بين مجموع المحاضر التي يبلغ عددها أربعين ألف، خصوصا وأن محاضر محكمتي لشبونة وكوينبرة (Coimbra) غير مفهرسة، بحيث إن الجذاذات الموضوعة رهن إشارة الباحثين لا تذكر إلا إسم المتهم وسنة اعتقاله ورقم المحضر، مع العلم أن أهم إشارة، وهي التي تخص التهمة أو الدين الأصلي للمتهم، غير مذكورة.ومع ذلك استطعنا، بعد مقابلة المحاضر، واعتمادا على ما ورد بها من تبليغات أو إشارات، العثور على 385 محضر محاكمة "مورسكيين"، كان منهم 261 مغربيا.وفضلا عن ذلك، اعتمدنا على عدد من محاضر محاكمة اليهود المتنصرين الذين كان تسعة منهم مغاربة، وعلى عدد من محاضر محاكمة العلوج الذين اشتغلوا بالمغرب وعادوا منه لأسباب معينة. وقد مكنتنا محاضر محاكمة أولئك اليهود من لمس حدة الشعور بالغربة لديهم والحنين إلى بلدهم، بينما أفادتنا محاضر محاكمة العلوج، الذين كان بعضهم برتغاليين، من مقارنة موقفهم من المغرب بموقف المغاربة من البرتغال. وسمحت لنا محاضر محاكمة مسيحيين أقحاح من تحديد الأوضاع الدينية في البرتغال وطباع سكانه وأخلاقهم.

وتغطي سجلات الاعترافات والتبليغات التي اعتمدناها الفترة الممتدة من 1537 إلى 1600، ومجموعها 32 كتابا ضخما. ويتمثل إسهامها الرئيسي في التعريف بنوعية العلاقات التي كانت قائمة بين أولئك الغرباء من جهة، وبينهم وبين البرتغاليين من جهة ثانية، كما تمكن من قياس نسبة عفوية تلك الاعترافات لدى أفراد الجالية المغربية.

وتسمح دفاتر الادعاء أو ما يمثل اليوم النيابة العامة بتعويض نسبي للفهارس المنعدمة، كما تسمح بحصر التهم والخطايا المنسوبة للمغاربة.لذا لم نوظف دفاتر محكمة يابرة لكون محاضرها مفهرسة، وأفدنا بالمقابل من 12 دفترا من دفاتر المحكمتين الأخريين تهمان الفترة الممتدة بين 1537 و1639.

صحيح أن هذه المصادر لا تستحق الثقة التامة، وأنها على العكس من ذلك، تدفع إلى الشك والحيطة، طالما أنها لا تعكس إلا وجهة نظر محكمة التفتيش والمجتمع البرتغالي الذي احتمى بها للدفاع عن قيمه. ومن جهة أخرى، كان الخوف من الإعدام والرغبة في تقليص مدة الاعتقال يؤثران بالتأكيد على الاعترافات.

ورغم ذلك، لا تقلل هذه العيوب التي ينتبه إليها الباحث بكل سهولة، من قيمة مصادر محاكم التفتيش التي مثلت مصدرنا الأساسي لسببين رئيسيين. فهي أولا المادة الوحيدة التي تخص هذه الأقلية، التي لا يمكن بتاتا دراسة أوضاعها وظروف عيشها دون الرجوع إليها.ومن جهة أخرى، لا تخلو هذه المصادر، رغم العيوب السابقة الذكر، من فائدة. فلا غنى للباحث عنها بالنسبة لتحديد أسباب وتواريخ دخول المغاربة للبرتغال، وأوضاعهم القانونية (العبيد والأحرار) والمعيشية، وظروف تنصرهم، وحياتهم العائلية والزوجية، وموقفهم من البرتغال وسكانه، ومن الإسلام والمسيحية إلخ .

وبعد، فقد تساءلنا عما إذا كان علينا، اقتداء بما فعله مؤرخونا، قدماء ومحدثين، تجاهل هذه الحقبة وغض الطرف عنها كلية نظرا لما عرفته من غزو مسيحي لسواحلنا، ومن حروب أهلية ومجاعات وأوبئة، وما نتج عنها من محن ومآسي.

إننا بحصر مظاهر تلك الأزمات وبتحديد خطورتها وانعكاساتها على البلاد والعباد، نهدف إلى تقديم الدليل على قدرة بلادنا على تجاوز الفترات الصعبة، والتغلب على تقلبات الزمان . فقد استطاعت، رغم كل تلك المحن، أن تفشل المخططات التي كانت تستهدف المس باستقلالها ووحدة ترابها، وأن تحافظ على عقيدتها ومقومات شخصيتها. ومما لا شك فيه أن ذلك لا يتأتى إلا لأعرق الشعوب.

تميمة وجدت في عنق المدعو Diogo de Abranches حين اعتقاله سنة 1542

(Inquisição de Lisboa, Processo n° 3206, fol. 6r°)

الباب الأول

تكون الجالية المغربية بالبرتغال

الفصل الأول

أسباب استقرار المغاربة في البرتغال

ارتبط دخول آلاف المغاربة إلى البرتغال واستقرارهم به منذ العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر بالغزو البرتغالي لسواحلنا الذي انطلق كما هو معروف باحتلال سبتة سنة 1415. وتطلعنا المصادر البرتغالية، سواء منها الإخبارية أو المتعلقة بمحاكم التفتيش، على مختلف الوسائل التي التجأ إليها البرتغاليون لجلب آلاف الأسرى المغاربة إلى بلادهم، وعلى الدوافع والأسباب التي أكرهت آلافا أخرى على عبور البحر والنزوح أفرادا وجماعات إلى تلك البلاد خلال القرن السادس عشر.

وبما أن تكوّن جالية مغربية مهمة في البرتغال يعود بشكل مباشر إلى الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، فإننا سنعرض بسرعة لأهم مراحله.

لقد تطلب الغزو البرتغالي للسواحل المغربية قرنا كاملا من الزمن،(1415-1515)، وغطى كل عهد أسرة أفيش (Avis) التي ارتبط مصيرها به (1). ففيما بين 1415، تاريخ احتلال سبتة، وسنة 1515، تاريخ اندحار حامية المعمورة (المهدية الحالية)، الذي أوقف نهائيا التوسع بالمغرب إلى حين مغامرة دون سبستيان سنة 1578، استطاع حكام لشبونة السيطرة على عشرة ثغور(2).

---

(1) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور**، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984، صص 159 وما بعدها..

(2) **Sources inédites de l'Histoire du Maroc (S.I.H.M.), Bibliothèques et archives de Portugal**, 1ère série, Paris : P. Geuthner, 1934, T. 1, pp. VII-XII, et 695-701; D. Lopes, "Os Portugueses em Marrocos", in, : **História de Portugal**, direc. Damião Pires, Barcelos : Portucalense Editora, 1931, III pp. 385-544.

عن هزيمة المعمورة، راجع: الحسن الوزان، **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، صص 166 - 168، وكذا: **S.I.H.M. Port.**, I, pp. 695-702 .

وقد افتقر الغزو المذكور إلي الاستمرارية وغلب عليه الارتجال والتردد، وعانى من انقسام كلمة المسؤولين بشأن الاقتصار عليه أو التخلي عنه وإعطاء الأولوية لإنشاء امبراطورية تجارية تتمحور حول الهند. كما واجه، وبشكل مبكر، مقاومة عنيفة جعلت المسؤولين عنه يراجعون باستمرار برامجهم ومخططاتهم. فمن الأكيد أنهم فكروا في بداية الأمر في غزو المغرب كله(3)، غير أنهم اضطروا، بسبب المصاعب التي واجهتهم، إلى تبني عمليات الكشوف وإنشاء امبراطورية تجارية، والاقتصار بالمغرب على بعض المراكز التي احتلت لأسباب سنعود إليها.

ومما لاشك فيه أن التحول الذي طرأ على مخططات التوسع بالمغرب نتج عن مقاومة عنيفة واجهتهم بالثغور الأولى التي سقطت في أيديهم، كما نتجت عن ضعف الإمكانات المالية والبشرية التي كان البرتغال يعاني منها، والتي سنعود إليها بتفصيل في فصل لاحق. فبعد احتلال سبتة، وعلى إثر الصعوبات التي واجهت الغزاة بها بسبب الحصار الذي ضرب حولها، التجأ الملك البرتغالي إلى ملوك المسيحية، وخصوصا إلى البابوية(4)، لطلب مساعدتها في حربه الصليبية. غير أن اندحار الجيش البرتغالي أمام أسوار طنجة سنة 1437(5)، والنتائج الخطيرة التي تولدت عنه، أكرهت حكام لشبونة على التخلي عن مخططهم بالمغرب، وفرضت عليهم تكريس وسائل البلاد المادية والبشرية لاستكشاف السواحل الإفريقية أولا، ثم للبحث عن طريق بحري للوصول إلى الشرق الأقصى ثانيا(6). وقد كرس هذا التوجه إعادة

---

(3) P. Chaunu, **L'expansion Européenne du XIIIe au XVe siècles**, Paris, P.U.F. 1969, p. 121.

(4) C. Witte, "Les bulles pontificales et l'expansion portugaise au XVe siècles", **Rev. d'histoire ecclésiastique**, (Louvain), XLVIII, 1953, pp. 683-718; XLIX, 1954, pp. 438-461; LI, 1956, pp. 413-453, et 809-836; LIII, pp. 5-46 et 443-471.

أحمد بوشرب، **دكالة**، ص 149.

(5) Rui de Pina, **Crónica de D. Duarte**, Porto, Lello e Irmão Editores, 1977, pp. 512, s.s.; D. Lopes, "Os Portugueses ...,"*Op. cit.*, pp. 407 et s.s.; J. Cortesão, **Os Descobrimentos portugueses**, Lisboa : Livros Horizonte, II, pp. 394 et s.s.; O. Martins, **Os filhos de João I**, Lisboa : Guimarães et Ca Editores, 1973, pp. 245 et ss.

(6) أحمد بوشرب، "المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و16م" ضمن : **في النهضة والتراكم، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية**، مهداة للأستاذ محمد المنوني، الدار البيضاء، توبقال، صص 183-222.

اكتشاف الجزر الأطلسية ذات الموقع الاستراتيجي على الطريق البحرية من جهة، وتجاوز رأس بوجدور، الذي كان يمثل بداية بحر الظلمات، من جهة ثانية (7). لذا كان الأمير هنري الملاح من أكبر المتحمسين لغزو المغرب قبل أن يصبح المشرف على الكشوف والمؤطر لها وممولها الرئيسي، وأول منظم للتجارة بسواحل غرب إفريقيا(8). غير أن البرتغاليين لم يترددوا في استغلال الفرص التي أتيحت لهم للسطو على الموانئ التي تخدم أهدافهم. وقد تمسكوا بتلك التي سقطت في أيديهم إما لأسباب استراتيجية أو تجارية.

وبالطبع، برر المسؤولون البرتغاليون تخليهم عن سياسة الحرب الشاملة بالمغرب بتبريرات دينية. فبما أن الكشوفات الجغرافية تطلبت مجهودا ماليا مهما ووقتا طويلا، فإنها قدمت للرأي العام كعملية مكملة لحروب المغرب، ومحاولة لتطويق الإسلام وضربه من الخلف، والقضاء على موارده المالية (تجارة القوافل) والبحث عن دول مسيحية للتحالف معها ضده (9). وقد جند كتاب البلاط لترويج هذه التبريرات. غير أن النبلاء والفرسان، الذين كانوا أكبر المتضررين من الأزمة الخانقة التي كان البرتغال يتخبط فيها، كانوا يفضلون الحروب بالمغرب لما تسمح به من إمكانيات الترقية الاجتماعية والاغتناء السريع من الأسرى والغنائم على الكشوفات الجغرافية وإنشاء مراكز تجارية. لذا كان البلاط البرتغالي خلال العقود الأولى من التوسع منقسما على نفسه بشأن طرق الغزو والغايات المتوخاة منه. فإذا كانت الطبقة التجارية الصاعدة تدافع عن التوسع التجاري، فإن العسكريين كانوا يدافعون – تحت غطاء صليبي – عن "المغامرة المغربية"(10).

لهذه الأسباب التي ألمحنا إليها بسرعة، مر الغزو البرتغالي لسواحل المغرب بمرحلتين متميزتين من الناحية الجغرافية والزمانية، ومن خلال الوسائل المسخرة، والغايات المتوخاة منها.

---

(7) P. Chaunu, **L'expansion**, *Op. cit.*, pp. 110-136; A. Baião, **História da Expansão portuguesa no mundo**, Lisboa, Editorial Atica, 1937, I, pp. 246 et s.s.

(8) **História de Portugal**, *Op. cit.*, III, pp. 372-373; J. Cortesão, **Os Descobrimentos**, I, p. 334; **Dic. Hist. Port.**, III, pp. 195-198; V. M. Godinho, **A Expansão Quatrocentista portuguesa,** Lisboa, 1945, etc..

(9) أنظر مثلا رسالة الملك البرتغالي إلى أسقف براغا يخبره بوصول دو غاما إلى الهند:
As Gavetas da Torre do Tombo, Lisboa : Centro de Estudos ultramarinos, XII, 1977, pp. 237-242.

(10) V.M. Godinho, "Les Grandes Découvertes", **Bulletin des Etudes Portugaises**, Coimbra, Livraria Bertrand, T. XVI, 1952, p. 43, et 35-36.

لقد كانت المرحلة الأولى تهم الشمال المغربي(11)، وعرفت اغتصاب أربعة ثغور: سبتة (1415) القصر الصغير (1458) أصيلا وطنجة (1471). وقد تطلب غزو هذه المدن وسائل عسكرية ضخمة وتحضيرا طويلا وسريا. فقد كانت "الارمدا" البرتغالية تضم يوم 21 غشت 1415 مائتين وعشرين مركبا، وكان عدد قطعها يوم الهجوم على القصر الصغير مائتين وثمانين مركبا كان على متنها خمسة وعشرون ألف مقاتل. وقد منيت ثلاث محاولات ضد طنجة بفشل ذريع جعل الإخباريين البرتغاليين ينعتونها بـ: "مقبرة النبلاء" لكثرة من ماتوا بها(12).

وقد عرفت هذه المرحلة فترات توقف طويلة. فقد اكتفى البرتغاليون بعد احتلال سبتة بالدفاع عنها، ولم يحاولوا مد نفوذهم إلا بعد اثنتين وعشرين سنة بهجومهم على طنجة سنة 1437. كما أن بين هذه المحاولة والهجوم على القصر الصغير إحدى وعشرين سنة، إلخ. هذا مع العلم أن الفترة الممتدة بين سنة 1438 (بيعة أفونصو الخامس الملقب بالإفريقي لكثرة حروبه بالمغرب) وسنة 1471 (تاريخ احتلال أصيلا وطنجة) تعتبر من أنشط مراحل التوسع بالمغرب.

ورغم احتلال هذه الثغور الأربعة، اقتصر النفوذ البرتغالي على الساحل، ولم يشمل إلا رقعة ضيقة بالداخل، وذلك رغم الغارات التي كانت الحاميات تنظمها، ورغم الفراغ السياسي الذي كان الشمال المغربي يتخبط فيه لضعف المرينيين أولا، والوطاسيين ثانيا (13).

لقد كان البرتغاليون يعيشون حالة حصار مستمر داخل قلاعهم كما لو كانوا حسب تعبير مؤرخ برتغالي(14) في جزيرة، وذلك لعنف المقاومة التي كان الفقهاء والمتصوفة وقواد الشاون وتطوان والقصر الكبير يؤطرونها (15). ولجعل حد لهذه الوضعية غير المريحة التي كانت تثقل كاهل الخزينة البرتغالية وتفرض عليها استيراد

---

(11) أحمد بوشرب، **دكالة**، صص 164-165

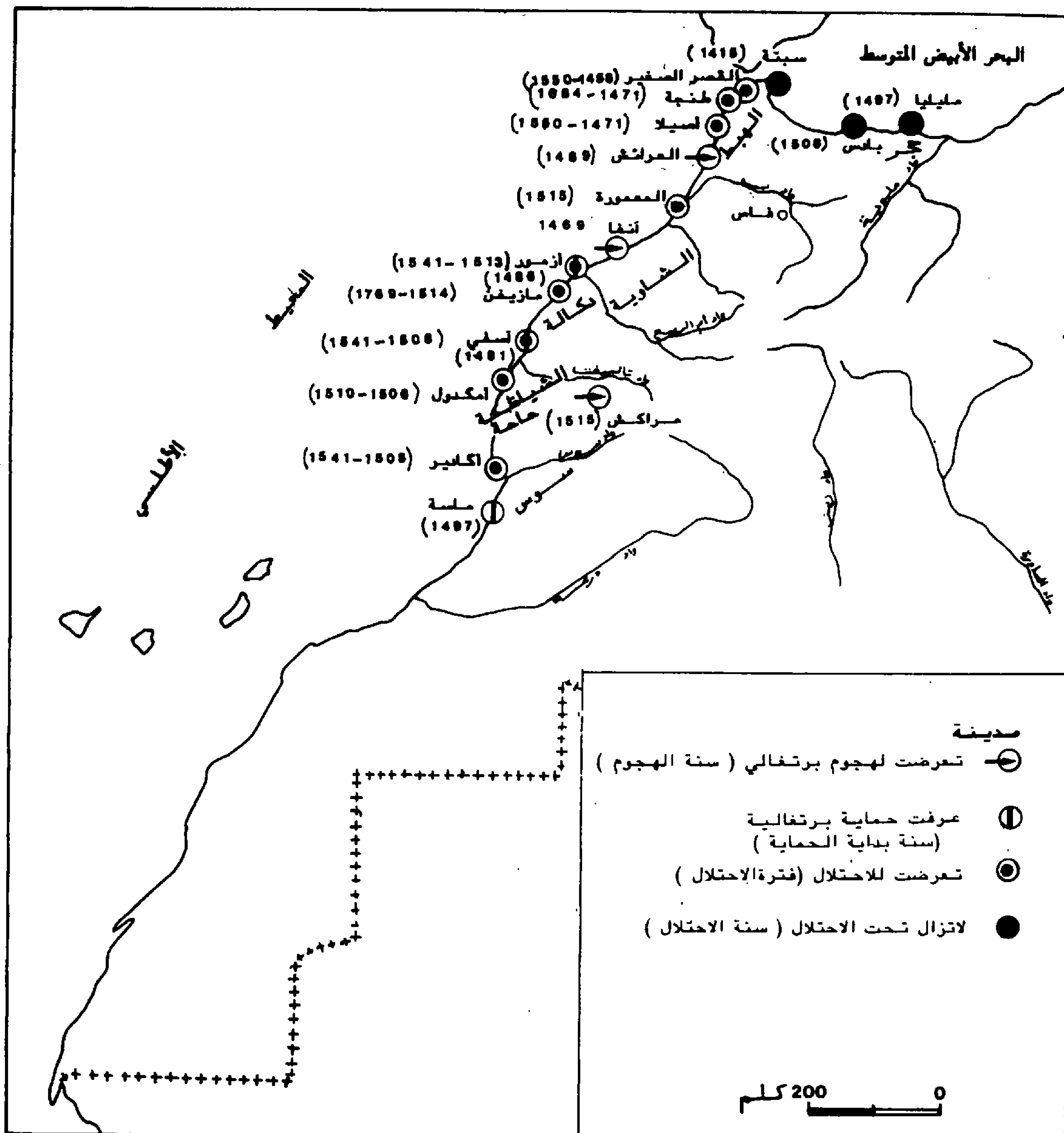
(12) Ch. M. Witte, "Les bulles...", LIII, 1958, p. 18 n° 1.

(13) R. Ricard, "Le Maroc septentrional d'après les chroniques portugaises" in : **Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc**, Coimbra, Acta Universitatis Conimbrigensis, 1955, pp. 3-77.

(14) D. Lopes, "Les Portugais au Maroc" **Rev. d'Histoire Moderne**, XIV, n° 39, Août-Sept. 1939, p. 340.

(15) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، أطروحة دكتوراة مرقونة، الجزء الأول.

الغزو الإيبيري لسواحل المغرب الأقصى خلال القرنين 15 و 16م



كل حاجيات الحاميات الأربع، قـــرر البرتغاليون تحصين جزيرة المليحة بنهر اللكوس، والاستقرار بها، نظرا للدور الذي يمكن أن تلعبه في اخضاع القصر الكبير، ولقطع الطريق على الإمدادات العسكرية التي كانت تصل من الغرب وسايس، وكذا لضمان محاصيل منطقة غنية لحاميات الثغور المحتلة. وقد منيت هذه المحاولة، التي تمت سنة 1489، بفشل برتغالي ذريع لم يحسن محمد الشيخ الوطاسي استغلاله سياسيا وعسكريا(16).

وهكذا لم يكن البرتغال يتحكم سنة 1500، أي بعد خمس وثمانين سنة من بداية الغزو، إلا في المدن الأربع السابقة الذكر. فقد احتفظت ثغور مهمة كالعرائش وسلا وتطوان باستقلالها. كما عرفت هذه المرحلة توقفا بعد 1481 دام حتى سنة 1508 لانشغال البرتغال آنذاك بحربه مع قشتالة وبالبحث عن الطريق البحرية للوصول إلى الهند، خصوصا وأن تجاوز خط الاستواء أولا، ثم رأس الرجاء الصالح ثانيا، جعل المسؤولين البرتغاليين يعتقدون أنهم على وشك تحقيق حلمهم.

أما المرحلة الثانية(17) فقد همت السهول الممتدة جنوب أبي رقراق. وبخلاف المرحلة الأولى، لم يكن للعامل الاستراتيجي أية أهمية، وسيطرت عليها العوامل التجارية سيطرة مطلقة. فحينما تضرر البرتغاليون من النشاط القرصني الذي كان سكان أنفا يحترفونه، اكتفوا سنة 1469 بإرسال أسطول إليها لتخريبها وتحطيم أسوارها قبل الانسحاب منها(18). غير أن الامتناع عن احتلال أنفا لا يعني أن المسؤولين البرتغاليين لم يكونوا يولون تلك السهول وحواضرها أية أهمية، بل على العكس من ذلك، فرضت عليهم الظرفية الاقتصادية التي خلقها غزو حواضر شمال المغرب أولا، ثم إنشاء مراكز تجارية بغرب افريقيا ثانيا، تتبع ما يدور بها من أحداث، وتفادي سقوطها في أيدي الإسبان الذين كانوا نشيطين بتلك الربوع.

---

(16) D. Lopes, "Os Portugueses ..." *Op. cit.*, pp. 450-452; Ch. M. Witte, "Une Lettre inédite du Roi Jean II au Pape innocent VIII sur l'affaire de Graciosa", **Studia** (Lisbonne) n° 1, 1958, pp. 91-100.
الحسن الوزان، **وصف أفريقيا**، ج1، صص 239-240؛ أحمد بوشرب، "وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة المليحة" **مجلة كلية الآداب**، فاس، عدد 2-3، صص 376-387؛ محمد الكراسي، **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل**، نشر عبد الوهاب بنمصور، المطبعة الملكية، 1963 صص 15-17.

(17) أحمد بوشرب، **دكالة**، صص 164 وما بعدها.

(18) R. de Pina, **Crónica de Dom Afonso V**, édit. citée, p. 816; D. Lopes, "Os Portugueses ...", *Op. cit.*, 1955, pp. 98 et ss.

لقد نتج عن احتلال الثغور الشمالية فقدانها لأدوارها التجارية السابقة، وتحولها إلى ثكنات شبه جامدة. لذا انحرفت الطرق التجارية الداخلية في اتجاه الموانئ التي لم تكن قد احتلت بعد، ومنها موانئ السهول الغربية. كما استفادت حواضر تلك السهول من تنظيم التجارة البرتغالية بغرب افريقيا بعد تجاوز رأس بوجدور والتغلب على الصعوبات التي كان يطرحها في وجه الملاحة. فقد اكتشف البرتغاليون جزيرة "أركان" (Arguim) بالساحل الموريطاني سنة 1443(19)، ونظموا التجارة بها ابتداء من سنة 1455.

وتؤكد الوثائق العلاقة بين اهتمام البرتغاليين بحواضر دكالة وبداية التعامل التجاري بغرب افريقيا. فللحصول على التبر والعبيد، كان على البرتغاليين عرض سلع اعتاد المغاربة عرضها بالسودان، باستثناء الملح المتوفر بالساحل. لذا التجأوا في البداية إلى شمالي غرب أوروبا لاقتناء القمح، ولتونس وبجاية ووهران وتلمسان، لشراء الأنسجة الصوفية، وذلك قبل أن ينتبهوا إلى أن دكالة، الموجودة على طريقهم، تنتج لوحدها من هذه المواد ما يمكن أن يسد حاجيات البرتغال وتجارته بغرب إفريقيا(20)، وأن يوفر كذلك من الحبوب ما يغطي حاجيات البرتغال وحاجيات ثكنات الثغور الشمالية الأربع التي كانت تصل إلى ألفي طن من الحبوب سنويا(21).

وهكذا أضحت السفن المتجهة صوب "أركان" تتوقف بآسفي وأزمور وبمرافئ أخرى صغيرة بدكالة، كتيط ودار الفارس، لشراء الحبوب والخيول والأنسجة الصوفية. ونظرا لكثرة إقبال الأفارقة على تلك الأنسجة، أضحت تعرف بالمصادر البرتغالية بـ"أثواب أركان"، وأصبحت تمثل أهم سلعة تعرض بـ : لامينا (Lamina)، أهم مركز لاستخراج الذهب بغرب أفريقيا. وبالطبع ازدادت أهمية تلك السهول بالنسبة للمسؤولين البرتغاليين، الذين حاولوا إدماجها مع سواحل غرب أفريقيا في كتلة جغرافية لا تتجزأ(22).

(19) R. Ricard, "Le commerce de Berbérie et l'organisation de l'empire portugais aux XVe et XVIe siècles", in: **Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc,** *Op. cit.*, 1955, pp. 98 et ss.

(20) V.M. Godinho, "Les Grandes Découvertes ...", pp. 31-34; R. Ricard, **Etudes** ..., *Op. cit.*, pp.93-96.

(21) Oliveira Marques, **Introdução à história da agricultura em Portugal,** Lisboa, Cosmos, 1978, p. 245.

(22) أحمد بوشرب، **دكالة**، صص. 113-115، 307-308

وفرضت تلك المكانة التجارية على السلطة المركزية بلشبونة التخلي عن الطرق المستعملة بالشمال للتحكم في السهول الغربية المغربية، طالما أن الالتجاء إلى الوسائل العسكرية يؤدي حتما إلى تخريب المنطقة وإلحاق الضرر بمصالح البرتغال التجارية. لذا اعتمدت التوغل السلمي ومحاولة كسب ثقة أعيان وحكام أهم الحواضر، ودفعهم بإغراءات مختلفة، كالرشاوي والإشراك في التجارة، إلى الدخول تحت الحماية البرتغالية. وهكذا اعترف قائد آسفي بتلك الحماية قبل 1481(23)، وتلاه أعيان أزمور سنة 1486(24)، وماسة سنة 1497(25). وكادت حواضر أخرى كالمدينة الغربية بدكالة، ومراكش أن تعرف نفس المصير(26).

وبالطبع، لم تكن مثل هذه السياسة لترضي العسكريين الذين استغلوا اضطراب الأحوال بتلك الحواضر بسبب الحروب بين الأعيان لدفع الملك البرتغالي إلى التدخل العسكري بدعوى إرجاع الأمن، وبالتالي الرواج التجاري إليها. وهكذا احتلت آسفي سنة 1508، وأزمور سنة 1513 والبريجة سنة 1514.. وكان البرتغاليون قد استقروا قبل ذلك بكل من فونتي (1505)(Santa Cruz do Cabo de Gué) وأمكدول (1506) (Mogador).

وانطلاقا من هذه الثغور، شرعت الحاميات البرتغالية في انتهاج سياسة الأرض المحروقة، واعتماد "اقتصاد الغارة" للاغتناء السريع (27).

وهكذا نلاحظ أن القرن الخامس عشر لم يمكن البرتغاليين من الحصول على عدد كبير من الأسرى للسببين اللذين ألمحنا إليهما: فقد كانوا خلال المرحلة الشمالية يفتقرون قبل 1481 إلى الوسائل، وكانت المقاومة تحد من خطورة الغارات البرتغالية. وحالت سياسة الحكم غير المباشر المتبعة لعدة عقود دون الحصول على الأسرى بجنوب نهر أبي رقراق.

وتغيرت الأوضاع في مطلع القرن السادس عشر. فقد استطاع البرتغاليون إنشاء امبراطورية تجارية لا تغيب عنها الشمس، كما أحكموا سيطرتهم على

---

(23) نفسه، صص 174 وما بعدها. S.I.H.M. Port. I, pp. 151-161

(24) *Ibid*, I, pp. 1-3

(25) *Ibid*, I, pp. 234-239

(26) أحمد بوشرب، دكالة، صص. 193 - 194.

(27) نفسه، صص. 205 وما بعدها.

السواحل المغربية من سبتة إلى فونتي. وانطلاقا من هذه الثغور، استغل العسكريون ضعف السلطة المركزية وتناحر القبائل لتنظيم غارات خاطفة ووحشية أصبحت تستهدف مناطق بعيدة عن الساحل، خصوصا تلك التي استطاعوا الحصول فيها على قبائل حليفة، كما حدث بدكالة، التي كانت خاضعة ليحيى أوتعفوفت(28)، أو بالسوس، حيث اعتمدوا على المساعدة الثمينة التي قدمها لهم مالك بن داود(29). وبذلك وصل مدى الغارات المنظمة من لدن حامية أصيلا ضواحي القصر الكبير وتطوان ووزان الحالية. وقدّر أحد المؤرخين اعتمادا على إشارات واردة بالمصادر البرتغالية أن عسكريي تلك الحامية أسروا بمنطقة بني كرفط وحدها ما ينيف عن الخمسة آلاف شخص(30).

وكانت سطوة البرتغاليين بالسهول الغربية أكبر، نظرا لانبساطها، ولكونها كانت تعاني من فراغ سياسي بسبب بعد الوطاسيين وانشغالهم بجهات أخرى، ونظرا كذلك لوجود عملاء كبار سخروا أنفسهم وقبائلهم لخدمة الغزاة مقابل استفادة مادية كبيرة. فقد عرضت حامية أزمور منطقة الشاوية لعدة غارات تجاوز مداها أحيانا الرباط. ووصلت غارات حامية آسفي، التي كانت أكثر نشاطا، شرق مراكش ومنابع تانسيفت من جهة، ومشارف السوس من جهة ثانية(31). فخلال غارة استهدفت سنة 1511 دواوير بضاحية رأس بدوزة، أسر برتغاليو آسفي567 شخصا(32)، كما استولوا خلال غارة استهدفت يوم 15فبراير 1514مشارف الحوز على 420 أسيرا(33). وبالشاوية وحدها أسر برتغاليو أزمور خلال سنتي 1518 – 1519 ما لا يقل عن ألفي شخص(34).

(28) D. Lopes, 'Bentafuf, alcaide mouro ao serviço de Portugal", in : **Textos em aljamia portuguesa**, 2e édit. Lisboa, Imprensa Nacional, 1940, pp. 107 et s.s., B. Rosenberger, "Yahya U Ta'fuft (1506-1518) : des ambitions déçues", **Hespéris-Tamuda**, Vol. XXXI, 1993, pp. 21-59.
(29) **S.I.H.M. Port.**, II, pp. 128-131.
(30) B. Rosenberger, "compte rendu" in : **Hespéris-Tamuda**, XII, 1971, p.203.
(31) D. de Góis, **Les Portugais au Maroc de D. de Góis, extraits de la "crónica de felicíssimo rei Do Manuel."** Trad. R. Ricard; Rabat : Félix Machado, 1937, pp. 67-76, 83-95, 104-125, 130-147, 160-167, etc.
(32) *Ibid.*, p. 72.
(33) *Ibid.*, 132, **S.I.H.M., Port.** I, p. 480.
(34) *Ibid.*, pp. 179-189.

واعتمادا على مصدرين برتغاليين(35) يغطيان الفترة الممتدة بين 1495 (تتويج دون أمنويل) و1550 (إخلاء أصيلا والقصر الصغير)، أحصينا عدد الأسرى الذين غنمهم البرتغاليون، فبلغ عددهم 9287، مع العلم أن المؤلفين لم يذكرا عدد أسرى كل الغارات، ولم يحدداه إلا بالنسبة لاثنين وسبعين غارة من مجموع مائة وست وثلاثين، (55 ٪) أي أنه من المحتمل جدا أن يكون العدد الحقيقي على الأقل ضعف ما أحصيناه. ويوضح الجدول التالي الإشارات الواردة بالمصدرين.

سنة الغارات	عدد الأسرى
1495	28
1503	180
1503	110
1504	60
1505	35
1508	45
1510	20
1511	697
1512	1199
1513	50
1514	1544
1515	576

(35) D. de Góis, ***Op. cit.***, L. de Sousa, **Les Portugais et l'Afrique du Nord, extraits des "Annales de Jean III"**. Trad. R. Ricard, Paris, 1940.

1516	55
1517	78
1518	341
1519	2133
1520	500
1521	705
1522	600
1524	10
1525	48
1526	25
1527	74
1528	21
1529	17
1541	77
المجموع	9287

وكان دخول البرتغاليين عنوة إلى المدن المغربية ينتهي بأسر آلاف المغاربة. فبعد دخولهم إلى أصيلا أسروا 5000 شخص(36). ورغم أن المصادر لم تزودنا بالعدد الدقيق بالنسبة لمدينة آسفي، فإنه من الممكن لمس أهميته من خلال الطرق المستعملة من لدن العسكريين، تلك الطرق التي فضحها أعيان المدينة في رسالة إلى الملك البرتغالي(37).

(36) R. de Pina, **Crónica de D. Afonso** V, édit. citée, p. 822; D; Lopes **História de Arzila durante o domínio português (1471-1550 e 1577-1589)**, Coimbra, imprensa da Universidade, 1924, p. 50.
(37) **S.I.H.M. Port.** I, pp. 182-183.

وعانى سكان المدينة الغربية بدكالة من نفس التصرفات بعد دخول البرتغاليين إليها، كما تشهد على ذلك رسالة محاسب مدينة آسفي المؤرخة في 5 دجنبر 1513، والموجهة إلى العاهل البرتغالي(38).

وفضلا عن أسرى الحرب، اختطف البرتغاليون مئات الأسر أو الأشخاص العزل. وكانت هذه الأعمال تتكرر خلال الاضطرابات التي تتلو احتلال بعض المدن، كما حدث بآسفي، أو خلال تأخر وصول الرواتب. وقد وصلتنا بمصادر متنوعة إشارات إلى تورط المسؤولين البرتغاليين المحليين في مثل هذه الأعمال. ففي رسالة سكان آسفي إلى الملك البرتغالي السابقة الذكر، نقف على الدور الكبير الذي لعبه القبطان في حث جنوده ووسطائه من اليهود والمسلمين على اختطاف السكان وبيعهم لتجار الرقيق البرتغاليين. فقد أكدوا أن عامل آسفي البرتغالي :

«قال لفرسانك ورجالك أن من أصاب منهم ما يشري من المسلمين في الخفا يشتريه، وبهذا الأمر يا مولانا عادت رجالك تشتري المسلمين ويأخذونهم غصبا وقهرا، وعادت السراق من المسلمين واليهود يسرقون أولاد العربان والمصامد. وكان بآسفي يا مولانا كثير من ضعفاء العرب الذين ما عندهم بهايم للرحيل، ولا كان لهم جهد عليه، فسرقت أولادهم وأخذت منهم، وكذلك أولاد المصامد والمسروقين من العربان... من دخل منهم لآسفي ما يرجع لأهله، وعاد كل أحد يسرق ويبيع حين أصاب من يشتري منه، حتى انغدر الكثير منهم الذي ما عرفنا له عدد من أهلِن براً وأهلن البلد، وطلعو لبلادك والكثير منهم طلع لجزيرة الخشب...»(39).

واعتقلت محكمة تفتيش لشبونة قبطان طنجة بتهمة أسر المغاربة الذين كانوا يقبلون على المدينة. وقد أكد شهود دفاع المتهم، الذين كان منهم قباطنة سابقون ببعض الثغور المغربية، أن مثل تلك الأعمال كانت عادية بالمغرب، وأنها لم تكن تزعج أحدا(40). واشتكى بعض سكان أزمور البرتغاليين من تصرفات قبطانهم التي كانت تضر بمصالح بلدهم، وخصوصا منها أسر وبيع كل من يقبل على المدينة(41). وقد سجلت لنا وثائق كثيرة، برتغالية ومغربية، الطرق المعتمدة من لدن أولئك

(38) *Ibid.*, p. 454.
(39) *Ibid.*, I, pp. 182-183.
(40) Inq. Lix. Proc. n° 12572 fol. 8 r°, 22 v°.
(41) **S.I.H.M. Portugal**, II, p. 177 note 1.

"الحناشة،" وكذا احتجاجات السلطات الوطاسية والسعدية(42) ضد "اقتناص" الإنسان المغربي وبيعه كسلعة. كما كاتب يحيى أوتَعفُوفْت عدة مرات الملك البرتغالي في هذا الشأن، وبين له انعكاسات تلك التصرفات السلبية على مصالح البرتغال بالمنطقة(43). ويبين تقرير رفعه قبطان آسفي إلى الملك البرتغالي الطرق المعتمدة من لدن الجنود لخطف المغاربة كلما كانت سفينة تتأهب لمغادرة الميناء(44).

وكان الشراء الوسيلة الثانية المعتمدة من لدن البرتغاليين للحصول على اليد العاملة المغربية. وقد كان المعروضون على البيع ممن كانوا عبيدا أصلا(45)، أو مغاربة أحرارا اختطفوا أو أسروا على يد أفراد قبيلة معادية. ونظرا للإقبال على الإنسان المغربي، اختصت بعض القبائل بضواحي أكادير، حيث كان العبيد يمثلون أهم سلعة، في اقتناص إخوانهم في الدين وبيعهم للنصارى (46). وقد أطلعنا أحد أفراد الحامية البرتغالية على الطرق المستعملة من لدن تلك القبائل وطريقة البيع بأكادير، كما أشار في رسالته المؤرخة في ماي 1518 إلى أن تجارة الرقيق بذلك الثغر كانت تضمن للملك البرتغالي أهم الأرباح (47).

وتؤكد محاضر محاكم التفتيش أن عددا كبيرا من المغاربة المقيمين في البرتغال دخلوا هذا البلد بعد شرائهم بثغر من الثغور. فقد ذكرت المسماة Antónia Roboa أمام المحققين الذين سألوها عن مسقط رأسها، وعن سبب دخولها إلى البرتغال أنها "اختطفت وبيعت بأزمور"، ومن هناك نقلت إلى البرتغال(48). وذكر António Vaz أنه اختطف وبيع بآسفي(49). وطالت الاختطافات مناطق داخلية. فقد ذكرت Breatiz Fernandez أنها اختطفت سنة 1521 من منطقة تبعد عن آسفي بأكثر من ثلاثين كيلومترا(50). واختطف آخرون بضواحي مراكش وبيعوا بآسفي(51). واغتنى بعض

(42) *Ibid.*, II, pp. 348-350.
(43) *Ibid.*, II, pp. 100-106.
(44) احمد بوشرب، **دكالة**، صص. 585-587.
(45) *Ibid.*, I, pp. 183, 488, II, p. 227, etc.
(46) *Ibid.*, I, pp. 185-186.
(47) *Ibid.*, loc. cit.
(48) Inq. Lix Proc. n° 6753 fol. 4 v°.
(49) Inq. Lix Proc. n° 10857 fol. 3 r°.
(50) Inq. Lix Proc. n° 1104 fol. 6 r°.
(51) Inq. Lix Proc. n° 1592 fol. 4 v°.

القواد من دور الوساطة في هذه التجارة. فقد جمع يعقوب بن الغربي ثروة طائلة من بيعه لإخوانه في الدين كرها أو عن طيب خاطر خلال مجاعة 1521 التي سنعود للحديث عنها. فحينما اضطر للفرار من أزمور للالتحاق بمراكش، ترك ما لا يقل عن ستة عشر مليون ريال برتغالي، وهو مبلغ خيالي بالنسبة لقيمة الريال آنذاك (52).

غير أن حركة البيع عرفت خلال مجاعة 1521 الكبرى رواجا لم تعرف مثله من قبل. فقد أشار إخباري إلى أن المغاربة أصبحوا يقبلون مجردين من سلاحهم لعرض أنفسهم على المسيحيين وبيع نسائهم وأبنائهم وأنفسهم بعد ذلك بثمن بخس، حتى إن بعضهم عرضوا أنفسهم بالمجان، ولم يطلبوا سوى تعهد المسيحي بسد رمقهم(53).

وتعرض إخباريون آخرون كـ (دوكويش) (de Góis)(54) و(دوسوزا) (de Sousa)(55) ودو طوريس (Diègo de Torres)(56)، وخصوصا (برنالدو رودريغش) (B. Rodriguêz)(57) لخطورة تلك المجاعة، وأشاروا إلى الأعداد الهائلة من المغاربة الذين بيعوا خلالها ونقلوا إلى إسبانيا أو البرتغال أو الجزر الأطلنطيكية التابعة لهما. فنظرا لبخس الأثمان المطلوبة، والأرباح المغرية التي أصبحت تلك التجارة تسمح بها، تخلت المراكب التي كانت تقبل على أزمور، عن نقل الشابل «لشحن آلاف المسلمين الشباب والمسلمات الجميلات إلى لشبونة أو إشبيلية. أما عن الثمن، فلم يحدث أن اختلف مسلم مع المشتري، لأن عددا منهم ضحوا بحريتهم وقبلوا أن يركبوا السفن مقابل الغذاء الذي كان يقدم لهم فقط »(58).

وقد سمع الإخباري (رودريغش) الذي كان يقيم بأصيلا، بما كان يحصل عليه التجار من أرباح، فانتقل إلى أزمور حيث اشترى مغربية وابنها. وقد أكد أنه رغم قلة

---

(52) **S.I.M.H. Port.**, II p. 319.

(53) R; Ricard "Les Portugais et l'Afrique du Nord sous le règne de Jean III (1521-1557), d'apprès la chronique de Francisco de Andrade", **Hespéris**, 1937, XXIV, 4e trim., pp. 259-345.

(54) D. de Góis, *Op. cit.,* p. 228.

(55) L. de Sousa, **Les Portugais** ..., *Op. cit.,* p. 25.

(56) D. de Torres, **Relations de l'origine et succez des Chérifs et l'estat des Royaumes de Marroc, Fès et Tarudant,** trad. franç. Duc d'Angoulême, Paris : 1636, I, p. 94.

(57) B; Rodriguês, **Anais de Arzila**, édit. D. Lopes, Publ. Academia das Sciências de Lisboa; Coimbra : imprensa da Universidade, 1915, vol. I, p. 327.

(58) L. de Sousa, *Op. cit.,* p. 25.

تجربته في ميدان التجارة، استطاع، لكثرة العرض وانخفاض الأثمان، إنجاز صفقة مربحة. وقدر نفس الإخباري عدد الذين كانوا يغادرون يوميا أزمور بألف شخص، وذكر أنه شاهد يوم وصوله إلى تلك المدينة خمسين مركبا راسيا بمينائها مشحونا بالمغاربة وعلى أهبة الإقلاع(59).

وأضاف الإخباري (دو كُويْشْ) إلى ما سبق معلومات أخرى تهم نزوحا جماعيا إختياريا لمئات، إن لم يكن لآلاف الدكاليين الذين استأذنوا الملك البرتغالي في عبور البحر إلى البرتغال فرارا من الجوع. وقد ذكر أن عددهم بضواحي لشبونة، التي نصبوا بها خيامهم، كان كبيرا(60).

وقدر بعض المؤرخين، اعتمادا على إشارات المصادر السابقة الذكر، عدد من انتقل إلى إيبيريا طوعا أو كرها خلال هذه المجاعة بمائة ألف(61)، كان جلهم من الشاوية، وخصوصا من دكالة. وكان هؤلاء النازحون من الأطفال والشباب ومن الفتيات على وجه الخصوص، لأنه «لم يكن أي أحد يرغب في شراء الرجال والنساء»(62).

وقد يخامرنا بعض الشك بشأن صحة المعلومات الواردة بالمصادر الإخبارية البرتغالية عن هذا النزوح الجماعي خلال مجاعة 1521، إلا أن محاضر محاكمات المغاربة المقيمين في البرتغال من لدن محاكم التفتيش، للأسباب التي سنعود إليها، لا تدع أي مجال للشك. لقد ذكر جلهم أمام المحققين أن تاريخ دخولهم إلى البرتغال كان «خلال المجاعة الكبرى التي عرفتها بلاد المسلمين، والتي تسببت في هجرة عدد منهم إلى هذه المملكة»(63).

وكانت بعض تلك المحاضر أكثر دقة إذ أرخت للوصول بسنة المجاعة «التي حدثت سنة واحد وعشرين»(64)، بينما أرخت أخرى بسنة وفاة الملك امنويل التي

---

(59) B. Rodriguês, Anais ..., *Op. cit., I*, p. 328.
وعن هذه المجاعة :
B. Rosenberger et H. Triki : "Famine et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles", **Hespéris-Tamuda**, Rabat; vol. XIV, fascicule unique, 1937, pp. 109-175.
(60) D. de Góis, *Op. cit.*, p. 228.
(61) B. Rosenberger et H. Triki, 'famine ...", p. 134.
(62) B. Rodriguês, **Anais** ..., *Op. cit.*, I, pp. 327 et s.s.
(63) Inq. Evora, Proc. n°8203 fol. 6 v°; n°1265 fol. 2 r°.
(64) Inq. Lix Proc. n° 3550 fol. 3 r°; 1991 fol. 3 v°.

تصادف سنة المجاعة المذكورة(65). ونقف أحيانا بالمحضر الواحد على إشارة إلى الحدثين معا(66).

ومن خلال نفس المحاضر نعلم أن أسرا بأكملها بيعت خلال المجاعة المذكورة واقتيدت إلى البرتغال في نفس المركب، كما حدث لـ Joana Caldeira التي نزحت بمعية أمها وأخويها،(67) أو Francisco Dias الذي هاجر رفقة أخويه وأختيه(68).

وإلى جانب الذين أكرههم الأسر أو الشراء على ترك مسقط رأسهم والهجرة، نزح آخرون من تلقاء أنفسهم خلال القرن السادس عشر لأسباب مختلفة أهمها اثنان:

- كان الأول قضائيا أو أخلاقيا إذ كان بعض القتلة والسراق يفرون من وجه العدالة ويلتجئون إلى أحد الثغور المحتلة قبل عبورهم البحر إلى البرتغال كما فعل كل من António de Ataíde (69) António de Carvalho(70). وباغث آخر زوجته مع عشيقها فثأر لشرفه بقتلهما قبل أن يلتحق بطنجة ثم بلشبونة(71). وتكثر بالمحاضر الإشارة إلى مثل هذه الأسباب.

- أما السبب الثاني، فكان سياسيا وارتبط بالاضطرابات والتقلبات السياسية التي عرفها المغرب خلال القرن السادس عشر، خصوصا فيما بين 1549 (دخول السعديين لفاس) و1578 (معركة وادي المخازن). وقد نتج عن هذه الاضطرابات استقرار جالية مهمة من اللاجئين السياسيين المغاربة بلشبونة. وإذا استثنينا الحالات الشخصية المعزولة، التي كان الخلاف مع السلطان والخوف من بطشه سببا في فرار أصحابها(72)، يمكن اعتمادا على إشارات المحاضر حصر أربع موجات مهمة.

لقد وصلت أولاها خلال سنة 1549، بعد دخول محمد الشيخ السعدي إلى فاس. وقد تلا ذلك هجرة أعداد لا يمكن مع الأسف حصرها إلى لشبونة للالتحاق بأبي حسون الوطاسي الذي سبقهم إليها لطلب النجدة. وكان من المهاجرين

(65) Inq. Lix Proc. n° 1104 fol. 6 r°.
(66) Inq. Lix. Proc. n° 3189 fol. 9 r°.
(67) Inq. Evora, Proc. n° 3038 fol. 2 v°, 3 r°.
(68) Inq. Evora, Proc. n° 5174 fol. 1 v°.
(69) Inq. Lix. Proc. n° 10860 fol. 17 r°.
(70) Inq. Lix. Proc. n° 10820 fol. 6 r° - v°.
(71) Inq. Lix. Proc. n° 172 fol. 2 r°.
(72) Inq. Lix. Proc. n° 2254 fol. 2 r°.
– Inq. Lix Proc. n° 4189 fol. 9 r°. *Cf.* aussi Proc. n° 10816 fol. 7 r°; n°2254 fol. 4 r°, etc.

أعيان من فاس وتطوان وبادس...(73). وبما أن البرتغاليين لم يكونوا آنذاك على استعداد للدخول في مغامرة عسكرية جديدة بالمغرب، فإن أولئك الأعيان استقروا كلاجئين سياسيين بلشبونة.

ووصلت الدفعة الثانية سنة 1554، بعد دخول محمد الشيخ السعدي الثاني لفاس، وإفشاله لمحاولة إحياء الدولة الوطاسية بمساعدة عثمانية.

وارتبط دخول المجموعة الثالثة بعزل المتوكل السعدي، واحتمائه بدون سبستيان سنة 1576. وتخبرنا المحاضر أن الملك البرتغالي أسكنهم أولا بإحدى دور العاصمة قبل أن ينقلهم لكثرة أعدادهم إلى ضواحيها حيث شيد لهم مخيما مستقلا(74). وقد التحق عدد من أبناء هؤلاء بآبائهم فيما بعد(75).

أما المجموعة الرابعة والأخيرة، فقد أعقبت هزيمة دون سبستيان وحليفه محمد المتوكل. وبالطبع اضطر أنصار هذا الأخير إلى عبور البحر والاستقرار في البرتغال. وكان الأميران الشيخ والناصر ضمن هذه المجموعة قبل أن ينقلا لإسبانيا لاستغلالهما في التشويش على المنصور. وتشير محاضر محاكم التفتيش إلى أن الأمير الأول كان وحاشيته بلشبونة سنة 1590 (76).

ولم يكن وصول هذه المجموعة، التي كانت تغلب عليها العناصر الشابة سهلا. فقد اضطر المدعو João Mourisco إلى الالتحاق بسبتة قبل أن يعبر البحر إلى جبل طارق لينتقل منه إلى إشبيلية ثم إلى البرتغال(77). غير أن مغامرة المغربي Manuel Garcia قد لا تصدق. فبعد اندحار البرتغاليين بوادي المخازن، فر من تطوان رفقة ستة عشر أسيرا مسيحيا إلى الجنوب المغربي ثم إلى جزيرة "أركان" بالساحل الموريطاني. وبما أن تلك الجزيرة كانت تعاني من نقص في المؤونة، فإن القبطان البرتغالي رفض السماح لغير المسيحيين بدخولها. وهكذا التحق صاحبنا بحرا بجزر الرأس الأخضر حيث تنصر وأقام بضعة شهور قبل أن يجد وسيلة للإبحار في اتجاه لشبونة(78).

(73) Inq. Lix. Proc. n° 10839 fol. 5 v°

(74) Inq. Lix. Proc. n° 12293 fol. 37 r°, **Liv. denúncias**, VIII fol. 241 r°, *Ibid*, fol. 33 r° - v°; **Liv. denúncias**, VII fol. 38 v°, 115 r° et VIII fol. 301 v° - 302 r°.

(75) Inq. Lix. **Liv. visitações São Roque**, fol. 4 v°, 5 r°

(76) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, VII, fol. 38 v°, 50 r°, 115 r°.

(77) Inq. Evora, Proc. n° 7643, fol. 18-20.

(78) Inq. Lix. Proc. n° 1114, fol. 7 r°, 13 r°.

وقد كون أولئك اللاجئون السياسيون مجموعة من المغاربة تختلف في كل شيء عن المجموعة الأخرى التي اضطرها الأسر أو الجوع أو جريمة ما إلى الهجرة. فإذا كان اللاجئون أحرارا ويتمتعون بمعاشات ملكية، فإن جل عناصر الفئة الأخرى كانوا أسرى أو عبيدا أو أشخاصا استعادوا حريتهم بعد معاناة كبرى، وكانوا جميعهم يعانون من الفاقة والبؤس، ويجدون -كما سنرى بتفصيل- صعوبة في ضمان قوتهم اليومي.

ومما لاشك فيه أن ظروف الإقامة ببلاد المهجر انعكست على العلاقة بين مكونات الجالية المغربية، رغم أن الفئتين كانتا معا تعانيان من الحنين إلى أرض الوطن، ومن عنصرية وتعصب المجتمع المسيحي.

وهكذا تكونت في البرتغال جالية مغربية كبيرة يحتمل كثيرا أن يكون عدد أفرادها قد تجاوز - حوالي 1525-1530 - مائة ألف نفر. وإذا كنا سنعود بتفصيل في باب لاحق لظروف عيش المغاربة في البرتغال، ولنوعية العلاقة التي كانت تربطهم بالمجتمع المسيحي، فلا بأس من الإشارة هنا إلى أن وصول المغاربة إلى البرتغال صادف فترة من التعصب والعداء للمسلم مهدت لإنشاء محاكم التفتيش الدينية. وقد بدأت هذه المرحلة بالقرارالذي اتخذه دون أمنويل يوم 5 دجنبر 1496، والقاضي بإكراه مسلمي البلاد على التنصر أو الهجرة(79). ويبدو أن جل عناصر الجالية الإسلامية آثرت الهجرة على التنكر لدينها. وقد وصلنا ما يثبت أن المهاجرين التحقوا إما بالأندلس(80)، التي كان الإسلام معترفا به فيها، أو بالمغرب(81).

ولعل هذه الهجرة الجماعية للمسلمين من البرتغال هي سبب غياب جالية موريسكية منحدرة من مسلمي البرتغال الذين فرض عليهم التنصر في التاريخ المذكور. فرغم كثرة وتنوع المصادر البرتغالية، لم نقف ولو على إشارة واحدة تخص تلك الجالية المورسكية. فمصادر محاكم التفتيش لا تشير، على كثرتها وتنوعها، إلا إلى "موريسكيين" أجانب، بخلاف ما هو معروف بإسبانيا. وقد جلب هؤلاء من

---

(79) I. Révah, **Etudes portuguaises**. Paris, Fundação Calouste Gulbenkian, Centre Culturel Portugais, 1975, pp. 190-191; **A. Herculano, História da orígem e estabelecimento da Inquisição em Portugal**, Lisboa, Livraria Bertrand, 1979, I., pp. 116-126.

(80) M.J. Pimenta Tavares, "Judeus e Mouros em Portugal dos séculos XIV e XV; tentativa de estudo comparativo" **Rev. de História economica e social**, n° 9, janv.-juin, 1982, p. 89, note 61.

(81) Inq. Lix. Proc. **Liv. denúncias**, I, fol. 104 v°.

مختلف المناطق الإسلامية التي وصلها النفوذ البرتغالي. وكان أولئك الموركسيون الذين مثلوا أمام المحققين، والذين تمكنا من العثور على محاضر محاكماتهم، موزعين جغرافيا على الشكل التالي:

مسقط الرأس	العدد
المغاربة	261
الجزائريون	8
التونسيون	10
الهنود المسلمون	34
الأتراك	27
مسلمون من غرب أفريقيا	15
مورسكيون من إسبانيا	11
أبناء مورسكيين ولدوا في البرتغال	11
مسقط رأس غير محدد	8
المجموع	385

نلاحظ إذن أن معطيات المشكل المورسكي في البرتغال تختلف اختلافا كبيرا عما نعرفه عنه بإسبانيا. فمصادر محاكم التفتيش اعتادت، ربما لانعدام جالية مورسكية حقيقية، اعتبار أولئك الأجانب مورسكيين. وبالفعل، لم نتوصل بأية إشارة إلى المآل الذي آل إليه الذين قبلوا التنصر وفضلوا البقاء بالبلاد على الهجرة خلال المدة الفاصلة بين الردة الإجبارية وإنشاء محاكم التفتيش سنة 1536. وبخلاف ما يوحي به سكوت النصوص، لم تكن الأربعون سنة الفاصلة بين الحدثين كافية لإدماجهم داخل المجتمع المسيحي بشكل تام، خصوصا وأن هذا الأخير كان، كما سنرى، يعارض

الاندماج المذكور. وانطلاقا من هذه الملاحظة، يمكن الجزم، بخلاف ما ادعاه Costa Lobo(82)، بأن المسلمين الذين استمروا في الإقامة في البرتغال تحت هذه الصفة أو كمتنصرين كانوا قليلين. ويؤكد مؤشران أطروحة الهجرة الجماعية لجل مسلمي البرتغال بعد 1496 التي نقترحها :

1 – ففي المراسلات التي تبادلها الملك البرتغالي مع الفاتكان ومع بعض أعيان دولته في شأن أسباب ودواعي المطالبة بإنشاء محاكم تفتيش في البرتغال على شاكلة ما كان موجودا بإسبانيا، لا نجد أية إشارة إلى الموريسكيين، بل على العكس من ذلك، بالغ العاهل البرتغالي في وصف المخاطر التي يمثلها اليهود المتنصرون (المسيحيون المحدثون) على أخلاق وعقيدة المسيحيين، ولم يشر إلى وجود موريسكيين(83).

2 – لم نقف بمصادر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية، رغم كثرتها وتنوعها، ولو على إشارة صريحة واحدة إلى موريسكي منحدر من مسلمي البرتغال. فكل الذين بلغ عنهم أو حوكموا كانوامسلمين أجانب، تذكر تلك المصادر بصريح العبارة مسقط رأسهم وظروف دخولهم البرتغال وتاريخه. وكان الذين تنعتهم تلك المصادر بـ "ذوي الأصل الإسلامي" (mouros de nação) ، والذين كانوا دون الخامسة والعشرين (سن الرشد القانوني بالنسبة لمحاكم التفتيش)، كانوا أبناء أولئك المهاجرين، وولدوا بالبرتغال.

ورغم أننا لم نقف على إشارة صريحة إلى موريسكيين برتغاليي الأصل، وذلك رغم بحثنا الطويل بالأرشيف البرتغالي، وإطلاعنا على جل وثائق محاكم التفتيش التي تتعلق بالإسلام والمسلمين، فقد وقفنا مع ذلك في بعض محاضر محاكمات مغاربة كانوا يقيمون بلشبونة خلال العقد الخامس من القرن السادس عشر على

(82) A. Costa Lobo, **História da sociadade em Portugal no século XV**, Lisboa, Cooperativa Editora, 1979, pp. 39-40.
(83) A. Herculano, **História**, *Op. cit.*, I, 165-224; I. Révah, **Etudes**, pp. 197-202.

إشارات إلى بعض الموريسكيين الذين كانوا يقومون بوظائف لا يتأتى لأجنبي القيام بها، كما تراكمت لديهم ثروات يصعب على أجانب دخلوا البلاد في حالة عبودية جمعها. فمن المحتمل جدا أن يكون بمدينة إلفش Elvas، التي كان بها حي إسلامي قبل 1496، بعض هؤلاء المورسكيين، ذلك أن أحدهم كان يملك عبدا من أصل مغربي(84). كما أن بعضهم الآخر كان يقوم ببعض الوظائف التي يتعذرعلى الأجانب القيام بها. فقد كان المدعو Diogo Fernandez قابض جبايات الخمر بضواحي لشبونة سنة 1554، بينما كان Henrique de Meneses ترجمان الملك. وكان بلشبونة مورسكي آخر يقوم بمهمة solycitador das partes، وهو منصب قضائي لا يمكن لأجنبي أن يقوم به(85).

وقد سبق لنا أن نبهنا إلى خصوصية المشكل المورسكي في البرتغال(86)، كما سبق لنا أن عبرنا عن أسفنا لسكوت المصادر عن المورسكيين الأقحاح، ذلك أن السكوت المذكور يحرمنا من معرفة علاقة تلك الأقلية الدينية بالمجتمع المسيحي من جهة، وعلاقتها بمن تسميهم محاكم التفتيش مورسكيين مع أنهم كانوا أجانب عن البلد. فهؤلاء المورسكيون لم يتنصروا تمسكا بأرضهم كما هو معروف بإسبانيا، بل على العكس من ذلك، لم يكن لهم أي رابط يربطهم بتلك الأرض التي أدخلوا إليها قهرا، وفي ظروف لم يكونوا يتحكمون فيها.

ويصعب علينا تحديد أماكن إقامة المغاربة الذين أدخلوا إلى البرتغال لانعدام المصادر، ولكوننا اعتمدنا فقط على الإشارة إلى مكان الإقامة خلال الاعتقال. غيرأنه من السهل الجزم بأن أغلبهم استقر بلشبونة، لكونها نقطة الوصول، وعاصمة البلاد. وكانت يابرة تلي لشبونة من ناحية عدد المغاربة المقيمين بها. كما استقرت أعداد مهمة منهم بمدن الشرق مثل Elvas و Olivença. ووصلتنا إشارات إلى استقرار عدد

(84) Inq. Evora, Porc. n° 9823, fol. 5 r°

(85) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 8 r°, 11 r°; n° 6465, fol. 82 r°, n° 2240, fol. 10 r°.

(86) A. Boucharb, "Spécificité du problème morisque au Portugal", in : **Les Morisques et leur temps**, édit. C.N.R.S., 1983, pp. 219-233.

لا يمكن مع الأسف تحديده بالجنوب البرتغالي وبالجزر الأطلنطيكية. وتجدر الإشارة إلى أن مصادرنا لا تشير إلى وجودهم بالشمال، وكانت الإشارة الوحيدة تخص مغربية كانت تقيم بمدينة Coimbra.

وبما أن من مهام تلك المحاكم محاربة الإسلام بالبلاد، فإنها خصت الجالية الإسلامية، التي كان المغاربة أكثر أفرادها عددا وتماسكا ببعض اهتمامها. فما هي إذن ظروف الإقامة التي وفرها البرتغال للمغاربة وكيف تعاملوا معها ؟ هذا ما ستجيب عنه بالتتالي الفصول اللاحقة. ولفهم هذه المسألة لا بد من تحديد سمات الثقافة التي جاء المغاربة مشبعين بها، ومن دراسة أوضاع البرتغال الاقتصادية والاجتماعية حين استقرارهم به.

الفصل الثاني

النتائج السوسيو-ثقافية للغزو البرتغالي لسواحل المغرب

لا يجادل أحد في خطورة الغزو البرتغالي لسواحل المغرب وانعكاسه السلبي على تطور بلادنا اللاحق، وفي كونه سبب أزمات سياسية واقتصادية وديموغرافية خطيرة، وأحدث هزات عنيفة داخل المجتمع المغربي، وخلق بلبلة كبيرة في الأفكار والمعتقدات. ومما يؤكد خطورة تلك المخلفات استمرار بعضها إلى يومنا هذا، بالرغم من الانتصار في معركة وادي المخازن والقرون الطويلة التي تلتها.

وهكذا تصبح دراسة تلك النتائج ضرورية لفهم ذلك التطور الشاذ الذي عرفه المغرب بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. غير أن النتائج الفكرية تشكّل أحسن معبر عن ذلك التطور. فاستمرار ظواهر اجتماعية ومواقف ذهنية أفرزتها المخلفات السابقة الذكر، وانتشارها على مدى واسع خلال القرون اللاحقة، يؤكدان تعميق، أو على الأقل استمرارية، الأسباب نفسها التي أدت إلى ظهورها.

لقد نتج عن انتشار الفوضى بسبب ضعف السلطة المركزية والحروب بين القبائل، وبسبب الغارات البرتغالية والإسبانية وردود الفعل المغربية التي تولدت عنها، وعن تفشي المجاعات والأوبئة، التي عرفت كما سنرى حدة لم تعرفها من قبل، سقوط المغرب في أزمة عامة وحادة جعلت سكانه يشعرون بعدم الاطمئنان على أنفسهم وذويهم وممتلكاتهم. لذا أضحى الخوف من القتل أهم مشكل يواجه المغربي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، الأمر الذي تولدت عنه أزمة ضمير حادة تجلت بشكل واضح في التفسير الذي أعطاه المغربي لمشاكل عصره، وفي المواقف الذهنية التي وقفها منها، وأخيرا في الحلول التي تصورها لتجاوزها، أو على الأقل للتخفيف من حدتها.

وإذا كانت تلك التفسيرات والمواقف والحلول هي موضوع هذا الفصل، فلا بأس من توضيح جانب منهجي أساسي. قد يقال إن بعض الظواهر الاجتماعية والمواقف الذهنية التي سنحللها تعود إلى مراحل سابقة، وأنها غير مرتبطة ارتباطا مباشرا بنتائج الغزو الإيبيري والأزمة العامة التي تولدت عنه. إلا أنه، وإن سلمنا بصحة ذلك بالنسبة لبعض الظواهر فقط، يمكننا الجزم ببقائها آنذاك على شكل هامشي لم يثر انتباه المعاصرين، وبأنها لم تعرف انتشارا واسعا ومثيرا للانتباه إلا خلال مرحلة دراستنا. ولا شك في أن ظاهرة الانتشار الواسع هذه تحمل دلالة أعمق من ظاهرة البروز والبقاء المهمش لقرون طويلة. ويكفي أن نشير هنا إلى أن الناصري تنبه إلى العلاقة بين الغزو المسيحي وأزمة ضمير المغربي التي سنعود لتحليلها، وذلك حينما كتب :

«... واعلم أنه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام، منها ظهور الفرنج بالديار المغربية، واستيلاؤهم على ثغورها بما لم يعهد مثله قبل ذلك لاسيما البرتقال والأصبنيول (...) ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية، وأرباب الأحوال والجذب، في بلاد الشرق والغرب، لكنه انفتح به للمتسورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق، متعسر الرتق، فاختلط المرعى بالهبل وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل، وصعب على جل الناس التمييز...»(1)

ولعل ما أفرزه العصر السعدي من إنتاج فكري يمثل خير معبر عما نقول. فالمواضيع التي شغلت بال جل المثقفين، والشكل الذي أعطوه لمؤلفاتهم، والمضامين التي حملتها تؤكد سيطرة سمات وخصائص بقيت خلال المراحل السابقة هامشية.

إن المتتبع للإنتاج الفكري الذي عرفه المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر يقف بدون شك على خصائص ميزته بشكل واضح عما عرفه خلال المراحل السابقة. ويمكن ذكر ثلاث منها أساسية في رأينا:

---

(1) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا**، ج 4 ص 163 (ط. البيضاء).

1) من ناحية الكم، لا يجادل أحد في كون المرحلة التي تهمنا عرفت انتعاشا مهما بالمقارنة مع المرحلة الأخيرة من عهد بني مرين وعهد الوطاسيين كله(2)،

2) أصبحت الثقافة المغربية المكتوبة على عهد السعديين تعرف ازدواجية ظهرت بشكل واضح ومتميز لأول مرة، وذلك بعد أن عاد الاعتبار إلى الثقافة الشعبية التي لم تكن تحظى من المثقفين خلال المراحل السابقة إلا بالسخرية والازدراء. لقد أصبحت ثقافتنا خلال «العصور الحديثة» تعرف تيارين متباينين :

أ ـ تيارا كلاسيكيا مرتبطا بالماضي، منهجه النقل واتخاذ العبرة – منهجا ومضمونا – من السلف الصالح. وهو يعبر عن اهتمامات ومشاغل فقهاء المدن وعلمائها الذين كانوا مرتبطين بالبلاط.

ب ـ تيارا يمكن تسميته «بالتيار الشعبي» لكونه يسلط الأضواء على عامة الناس ومشاغلها واهتماماتها وعقليتها، وذلك من خلال كتب التراجم ومناقب الأولياء والمتصوفة، وأحيانا كتب النوازل. حقيقة أن هذا النوع الأخير من الإنتاج الفكري عرفته المراحل السابقة، إلا أنه بقي آنذاك نشاطا هامشيا لا يثير الاهتمام، ولم يعرف ذلك الازدهار المثير للانتباه إلا في المرحلة التي تهمنا.

3) إن التيارين معا يفصحان عن أزمة ضمير حادة تتجلى في خوف المغربي من المستقبل، وفي عدم اطمئنانه على مصيره، وعدم رضاه على زمانه وعصره، وفي حرصه على الهروب منه وتجاهله بمواقف مختلفة نذكر منها الآن اثنين مرتبطين بالتمييز الطبقي السابق الذكر :

أ – إما تمجيد الماضي على حساب الحاضر؛

ب – أو تناسي الواقع المر والمخجل في نفس الوقت بمواقف ذهنية سنعود إلى تحليلها وإبراز مدى انتشارها.

وهذه المواقف جميعها تشهد على تخبط المغربي في أزمة ضمير حادة مست خاصة المجتمع وعامته. ولفهم حدة تلك الأزمة والحلول التي اقترحت لتجاوزها لا بد من تحديد أسبابها وأهم مظاهرها، ذلك أن تلك الأسباب ساهمت مساهمة كبرى في

---

(2) راجع محمد حجي ، **الحركة الفكرية في عهد السعديين**، فضالة 1977،جزءان.
Mohamed Benchekroun : **la vie intellectuelle sous les Mérinides et les Wattasides**. Rabat 1974.

تحديد الشخصية الثقافية المغربية، والمآل المأساوي الذي آل إليه أحيانا ممثلوها كما يتجلى ذلك من خلال مثالين يقدمهما لنا عبد الرحمن المجذوب وابن عسكر الشفشاوني. فالأول يمثل نموذج الرجل الذي انعكست عليه أحداث العصر (الغزو البرتغالي لتيط، مسقط رأسه (1514)، مجاعة (1521) التي عانى منها كثيرا... الخ) فاتخذ منها موقفا تجلى في يأسه الكبير وشؤمه وعدم ثقته في عصره ومعاصريه(3). أما الثاني فيمثل نموذج الفقيه الذي كرس نفسه لتخليد كرامات الأولياء والفقهاء وحماة البلاد والعباد ضد الغزاة، في حين أن قدره شاء أن يموت إلى جانبهم في معركة وادي المخازن(4).

فما هي أسباب تلك الأزمة؟

لعل أهم ما أصبح يميز المغربي في مطلع القرن السادس عشر هو شعوره الحاد بالخوف على نفسه وذويه وأملاكه، وذلك لتدخل طغيان الإنسان والطبيعة خلال تلك الفترة.

لقد سبقت الإشارة إلى مراحل الغزو البرتغالي لسواحلنا ولسياسة الغارة التي كانت الحاميات البرتغالية تنهجها بالثغور المحتلة، وما نتج عن ذلك من اضطرابات وخوف لدى السكان من الغارات المفاجئة التي كانت تنتهي بمئات الأسرى وبالاستيلاء على الأملاك والأنعام. وسنرى الوقع الذي تركته تلك الحروب في نفوس المغاربة، والتفسير الذي أعطي لغلبة النصارى وللإهانات التي لحقت بالمغاربة المسلمين. ولم يعان المغاربة من الغارات البرتغالية وحدها، بل عانوا كذلك من «الحركات» التي قادها الحكام، وخصوصا الوطاسيون، ضدهم. ويتعلق الأمر هنا على الخصوص بقبائل السهول الغربية التي تعاملت مضطرة، ولمدة قصيرة، مع المستعمر البرتغالي.

---

(3) عبد الرحمن الفاسي، **ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب**، مخطوط الخزانة الحسنية، 1222.

S. J. Millie et Khalifa, **Les quatrains de Mejdoub le sarcastique, poête maghrébin du XVIe siècle**, Paris, Maisonneuve et Larose, 1966; A. de Prémare, ***Sidi Abd-er- Rahman el Majdub***, Paris, C.N.R.S. / Rabat : SMER, 1985.

(4) محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، نشر محمد حجي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم(1)، المقدمة.

ومعلوم أن مقاومة البرتغاليين لم تحظ باهتمام كبير من لدن المرينيين أولا، والوطاسيين ثانيا. ويعود هذا التجاهل إلى كثرة مشاغل حكام فاس وقلة إمكانياتهم.ولم يكن السلاطين يحصلون على نتائج ملموسة كلما اضطروا إلى التحرك، وذلك لمناعة التحصينات التي شيدها البرتغاليون، ولكثرة مدافعهم، ولافتقار المغاربة إلى جيش رسمي وإلى أسطول يحول دون توصل الثغور المحاصرة بالإمدادات، وكذا إلى مصلحة تموين تسمح بحصار طويل(5). لذا كان الوطاسيون -والسعديون في بداية أمرهم- يكتفون بنسف محاصيل البرتغاليين وأسر من فوجئ منهم خارج الأسوار ومعاقبة المتعاملين معهم(6). لقد كانت ردود الفعل الوطاسية عبارة عن «حركات» لا تدوم طويلا، ولا تهدف إلى تحرير الثغور بقدر ما كانت تهدف إلى الحيلولة دون نشر البرتغاليين لنفوذهم بالداخل، وحرمانهم من المنتجات المحلية للرفع من مصاريف الدولة البرتغالية بالثغور المحتلة. لذا تمت جل «الحركات» خلال فصل الصيف، لمنع القبائل الخاضعة من دفع الضرائب وبيع الحبوب للبرتغاليين. ولتحقيق هذا الهدف، أضحوا يعملون على إفقار القبائل الخاضعة للنصارى، كما فعلوا بدكالة خلال السنوات 1514، 1515، 1517، 1518 التي خربوها ورحلوا قسما من سكانها(7). وكان ذلك الموقف الذي اتخذه المسؤولون المغاربة وليد تقويم سياسي خاطئ. فقد اعتقدوا أن سطوة البرتغاليين تعود إلى تعامل بعض القبائل معهم، لذا عملوا على معاقبتها على ذلك، دون توفير شروط الصمود والمقاومة لها. وبما أن القبائل المهددة بشبح الغارات البرتغالية كانت عاجزة عن تحقيق رغبة السلطان الوطاسي، فإن هذا الأخير ألح عليها بـ: "الحركات"، وعمل على إفقارها، الأمر الذي جعل تلك القبائل تخاف كثيرا تحركه نحو مناطقها كما لو كان الأمر يتعلق بقوة عدوة ؛ مما جعل القبائل المغربية بين نارين، كلما مالت إلى جهة، عاقبتها الجهة الأخرى على ذلك.

---

(5) انظر ما كتبه شاهد عيان:الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 1980، ج.1، صص 243.

(6) أحمد بوشرب، **دكالة**، صص380-389 .

D. de Góis, *Op. cit.*, pp. 117-125; **S.I.H.M. Port** I, pp. 534-539, 540-541, 545-551, etc.

(7) أحمد بوشرب، **دكالة**، صص 380-381، الوزان،ج1، صص 120-121.

يفهم من هذا إذن أن أكبر مشكل أصبح المغربي يعاني منه هو انعدام الأمن وخوفه باستمرار من التعرض لغارة إما برتغالية أو مغربية تنتهي بأسره وإهانته والاستيلاء على ممتلكاته. ويتجلى الخوف الذي استحوذ على المغاربة باستمرار بسبب طغيان الإنسان، سواء كان مغربيا أو برتغاليا، في المثالين التاليين :

- لقد ذكر الإخباري البرتغالي (رودريغش)، الذي عاش بأصيلا ودوّن أخبار برتغالييها، أن سكان الهبط أصبحوا بسبب خوفهم من الغارات البرتغالية يقومون بدرس محاصيلهم وهم على ظهور جيادهم تأهبا للفرار(8). ولم يكن الخوف من البرتغاليين ينحصر في هذا الباب، بل كان المغربي معرضا للقنص من طرف البرتغاليين المتهافتين على أسر المغاربة إما بعد دخولهم إلى أسواق المدن المحتلة، أو بسبب «قناصة» مختصين (حناشة في مصادرنا المغربية) يختطفون المغاربة العزل(9).

- أصبح تحرك الوطاسي نحو سهل دكالة يمثل شبحا مخيفا بالنسبة للقبائل التي أضحت تعمل كل ما في وسعها لمنعه من ذلك، وكانت مستعدة لأداء الثمن غاليا(10). وتعبر رسالة بعث بها أحد الدكاليين إلى شيوخ عبدة في يونيو 1517 لإشعارهم بدخول السلطان إلى المنطقة عن خوف القبائل الكبير من الحركات الوطاسية :

«... اسلام عليكم، السلطان جا، اهربوا لشْريف، وكل ما شدْكم فيه اعطوله، لا تفرْطو فيه، والسلام، أكان ما قْبلْ عليكم الشريف اهربوا لِلْمْلَى النّصر، مْلَى مراكش، أكان اعطوْا الناس الخيل أعطُوا اللاولاد، أكان مَوْنْكُم ارْفْدُوا بأَمانُ، إذا ما موّنكم اهربوا لبلاد تنجوْ فيها، مْلَيْ بْبُكَرْ وملي بُحَسّنْ، وملي النّصرْ، وملي محمد الشريف طلعوا الْفُقْ، وملي محمد خرج لَزْمَرْ وآسفِ وأنتم دَبْرُوا على أرواحكم لا تكدبوا فْهذا...»(11).

وازدادت حدة هذا الخوف الدائم الذي كانت قبائل السهول المغربية تعاني منه بسبب الغارات البرتغالية أو الوطاسية أو السعدية، بتزايد الفتن والحروب بين القبائل التي لم تنج منها أية منطقة مغربية. وتتجلى هذه الظاهرة فيما يلي :

(8) Bernaldo Rodriguês, **Anais de Arzila**; *Op. cit.*, II, p. 64.
(9) **S.I.H.M. Portugal**, I pp. 182-83, II, 100; 106-348 ... etc.
(10) *Ibid*, II, pp. 106, 721.
(11) *Ibid*, II, p. 95.

– في تدخل رجال الزوايا والأولياء لضمان الأمن وجعل حد للحروب بين القبائل، كما يتجلى ذلك من خلال محاولات الفقيه عبد الله الغزواني وفقيه آخر قتل خلال قيامه بهذه المهمة(12)؛ وكذلك من خلال ما قام به محمد بن المبارك بالسوس، الذي سن كما هو معروف أياما حرما نجح في إقناع قبائل المنطقة بالامتناع عن الاقتتال خلالها(13).

– بروز جماعات من قطاع الطرق والسراق الذين أصبحوا يجوبون المناطق ولا يميزون بين العدو والصديق إن صحت رواية الإخباري البرتغالي (كويش)(14).

– عرض عدد كبير من الأسرى المغاربة بالثغور قصد بيعهم للبرتغاليين بعد أسرهم خلال الحروب التي كانت تدور بين القبائل المغربية(15).

وفضلا عن طغيان الإ نسان، سواء كان مسلما أو مسيحيا،عانى المغربي كذلك من طغيان الطبيعة المتمثل في الجفاف والمجاعات والأوبئة.

فمن سوء حظ مغاربة القرن السادس عشر، تزامنت هذه الفتن مع فترات طويلة من الجفاف والمجاعات. لقد عرف ذلك القرن إحدى عشرة سنة من الجفاف نذكر منها سنوات : 1511 و 1517 و 1519– 1520 و 1540. ولم يكن القرن التالي أحسن حالا إذ عرف في المجموع 27 سنة بدون مطر(16). وكانت المجاعات والأوبئة وموت الإنسان والأنعام أهم نتائج تلك السنوات العجاف الطويلة. إلا أن القرن السادس عشر أعطى لسنوات الجفاف بعدا لم تعرفه من قبل. فلقد نتج عن الغارات البرتغالية، وردود الفعل المغربية، وهجرات القبائل من السهول، تقلص الرقعة المزروعة، الأمر الذي انعكس على مخزون القبائل من الحبوب، وقلل بالتالي من إمكانيات الصمود في وجه المجاعات، وأعطى لهذه الأخيرة بعدا خطيرا يتجلى فيما يلي :

(12) محمد المهدي الفاسي، **ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع** .ط. حجرية ص 41، وكذا 72.
(13) ابن عسكر الشفشاوني، **دوحة الناشر**، ص114.

(14) D. de Góis, **Les Portugais**, *Op. cit.*, p. 93.
(15) **S.I.H.M. Portugal** I, p. 183, 488, II p. 227.
(16) B. Rosenberger, H. Triki, "Famines et épidémies ;", *op. cit.*, p. 68.

– لم تعد المجاعات مرتبطة بالظروف المناخية، إذ عانى سكان بعض المناطق الساحلية منها في سنوات عادية(17).

– أصبحت تلك المجاعات خطيرة جدا، خصوصا بالسهول الغربية التي كانت فيما مضى أكثر قدرة على الصمود خلال المجاعة. وتقدم لنا مجاعة 1521 مثالا معبرا عن تلك الوضعية التي سقط المغرب فيها. فقد شمل الجفاف البلاد كلها، إلا أن سهول الشاوية ودكالة وعبدة والحوز... كانت أكثر تضررا منها. وتفاديا للموت جوعا، أضحى المغاربة يبيعون أبناءهم ونساءهم قبل بيع أنفسهم لتجار الرقيق الإسبان والبرتغاليين بآسفي وأزمور بثمن زهيد، وأحيانا مقابل تعهد المشتري بضمان القوت اليومي فقط(18). ويؤكد إخباريون هذه الحقيقة(19)، كما تؤكدها الأعداد الهائلة من المغاربة الذين أدخلوا البرتغال خلال تلك المجاعة(20).

وتلا هذه المجاعة الخطيرة وباء الطاعون الذي «... اختطف أولئك الذين استطاعوا الإفلات من قساوة المجاعة بسبب احتياطهم أو ادخارهم للقمح. ويؤكد الكثيرون أن ذلك الوباء فتك فتكا كبيرا بالإنسان والحيوانات...»(21)

ولإعطاء فكرة عن خطورة تلك المجاعة، نذكر بشراء البرتغاليين والإسبان خلالها بآسفي وأزمور ما يقرب من مائة ألف مغربي نقلوهم إلى إيبيريا والجزر التابعة لها.(22)

وعرف المغرب أوبئة أخرى أهمها طاعون 1557، 1580 وخصوصا وباء 1597 - 1610 الذي كان المنصور السعدي أشهر ضحاياه.(23)

---

(17) راجع دراستنا السابقة الذكر، صص 448-450.

(18) D. de Torres, **Relations de l'origine**, *Op. cit.*, I, p. 194.

(19) D. de Góis, **Les Portugais** ..., *Op. cit.*, p. 228. J. de Sousa, **Les Portugais et l'Afrique du Nord** ..., *Op. cit.*, p.25. B. Rodriguês, **Anais de Arzila**, *Op. cit.*, I, p. 327.

(20) أحمد بوشرب: **دكالة والاستعمار**... صص 317-319. وكذا مقالنا : "الموريسكيون بالبرتغال" **المجلة التاريخية المغربية** (تونس) يونيو 1982 وبمجلة **المناهل**، عدد 24 (1982) .

(21) J. de Sousa, **Les Portugais** ..., *Op. cit.*, p. 25.

(22) B. Rosenberger - H. Triki, "famines ..." p. 134; B. Rosenberger C. Rendu in: **Hesp.-Tamuda**. Vol. XII, 1971 p. 203.

(23) B. Rosenberger - H. Triki, *art. cité*, p. 156 et s.s.

ومما لا شك فيه أن تلك المآسي الناتجة عن سطوة المسيحيين وانعدام الأمن وتفرق كلمة المسلمين وتفشي المجاعات والأوبئة ستؤثر لا محالة على نفسية المغربي وعقليته وعقيدته.

وبما أن المآسي المذكورة مرتبطة بالغزو الإيبيري وما تولد عنه من فتن، وبعجز المغاربة عن الرد على التحدي المسيحي، فإنه يمكننا أن نتساءل عما إذا استطاع المغاربة التغلب عليها بإعادة توحيدهم المغرب على يد الشرفاء السعديين وتحريرهم لجل الثغور المحتلة.

لم يكن ذلك ممكنا للأسباب التالية :

السبب الأول : لم يكن التحرير كاملا. فقد حال وجود البرتغاليين بمازيغن دون استغلال منطقة غنية ومهمة تمتد بين أزمور وتيط والمدينة الغربية. وبقيت تلك الربوع فارغة إلى عهد المنصور السعدي كما تشهد على ذلك رواية أحمد أفوكاي(24)، بل وحتى القرن السابع عشر على الأقل، كما تؤكد ذلك المصادر البرتغالية المتعلقة بمازيغن(25). كما أن بقاء البرتغاليين في طنجة وسبتة حال دون انتعاش القسم الشمالي من الهبط.

السبب الثاني : بقي المغرب مفتقرا إلى الأمن حتى في عهد السعديين بسبب التدخلات الأجنبية (الأتراك حين وقعة وادي اللبن، الإسبان حين ثورة الناصر بن الغالب)(26)، وبسبب فشل السعديين في ضمان الأمن الداخلي وعجزهم عن التغلب على المشاكل الهيكلية التي عانت منها الدول المغربية السابقة. فقد كانت الفترات الهادئة كلية في عهد الشرفاء السعديين استثناء. وهكذا حطمت الحروب التي دارت بين المتوكل والمعتصم كل ما تم إنجازه خلال حكم الغالب الذي أجمعت المصادر على أن عهده كان عهد أمن وانتعاش ورخاء(27)؛ بينما نسفت الحروب التي دارت بين

(24) راجع قسما من رحلته **الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام** لإبن إبراهيم عباس المراكشي، ج2، ص 274. ونشر محمد رزوق القسم المذكور تحت عنوان: **ناصر الدين على القوم الكافرين**. منشورات كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء.

(25) R. Ricard (trad.) **Mazagan et le Maroc sous le règne de Moulay Zidane**, Paris, 1956, pp. 51, 57, etc.

(26) محمد الصغير اليفرني، **نزهة الحادي بملوك القرن الحادي**، نشر هوداس، ط.2. صص 100-102؛ عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، ب.ت. صص171--174.

(27) اليفرني، **نزهة الحادي**، ص 46.

أبناء وحفدة المنصور السعدي كل ما أنجزه خلال فترة حكمه الهادئ نسبيا. ومعلوم أن هذه الفترة الأخيرة التي عانى المغاربة خلالها من كل أنواع المحن والكوارث تمتد من 1603 إلى 1670 تقريبا، أي أنها أطول من فترة الاستقرار النسبي الذي عرفته الدولة في مرحلتها الأولى(1554-1603).

السبب الثالث : فقد المغرب بسبب الحروب والمجاعات والأوبئةالسابقة الذكر الحافز الضروري لكل انتعاش، والمتجلي في الضغط الديموغرافي. ولهذا سيطر الترحال والاعتماد على تربية الماشية بالسهول الغربية، الأمر الذي كرس التحول نحو نمط من الإنتاج سماه طراس Terrasse بالاقتصاد التائه (l'économie égarée)(28). وعثرنا على تقييد يتعلق بآسفي وضواحيها في آخر العهد السعدي يؤكد استمرار المغرب في معاناته من قلة الإنتاج وخطورة المجاعات، وبالتالي من أزمته الديموغرافية الحادة :

«... وفي عام ثمانية وخمسين وألف كان المرض قاسيا وكثرت الأموات حتى كان من العشرة يبقى واحد، وفي البوادي لا يحصى ولا يعد عدد الأموات (...) وفي ذي القعدة من سنة 1060هـ بلغت الأقوات مبلغا، ولم ينزل المطر وارتفعت الأسعار وغلت الأقوات غلاء غير معهود (...) وفي سنة 1062 هـ لم يزل الأمر يزداد شدة (...) وارتفعت أسعار الأقوات ارتفاعا بليغا (...) وفسدت البلاد وخربت القرى جميعا وفر الناس للحوز ومراكش وسوس الأقصى وجعلوا يموتون جوعا، واشتغل أهل البادية بنهب القرى. وفي سنة 1062 هـ... تفاحش الموت في الناس جوعا وعجز الناس عن الدفن... وبقي الميت حتى تأكله الكلاب (...) واعتمد الناس على أكل «تالكوهت» «وأيرني» حتى صار لا يوجد في الأسواق إلا هو، وكان مأكلهم سنتين... وخلت البلاد، وضاعت الأعراب، وخلت القرى بأسرها، ولم يبق فيها من فيه الروح أصلا (...) حتى صار الرجل يهرب من أولاده... »(29) .

وهكذا يكون المغرب قد عاش نفس المحنة التي عرفها خلال جفاف ومجاعة 1520-1521، الأمر الذي سيؤدي بكل تأكيد إلى استمرار نفس النتائج السوسيوثقافية التي عرفها منذ بداية القرن الخامس عشر بسبب المد الإيبيري وردود الفعل المغربية التي سببها.

---

(28) H. Terrasse, "Le Maroc ancien pays d'économie égarée". **Revue de la Méditerranée.** IV, 1947, pp. 1-39.

(29) تقييد لأحد حفدة أبي محمد صالح مسجل بإحدى كنانيش الفقيه الكانوني.

فمصادر القرن السادس عشر، المغربية منها والأوروبية، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك استمرار معاناة المغربي من طغيان الإنسان والطبيعة.

وإذا كانت الحروب والغارات واقتناص الرجال تعرض حياة المغربي للخطر، فإن الشعور بالخوف تقوى لديه بسبب كثرة الحيوانات المفترسة، وعلى رأسها الأسود التي أقلقت كثيرا راحته خلال القرن السادس عشر.

لقد استغلت الأسود والخنازير البرية وحيوانات أخرى التراجع الديموغرافي بالسهول الغربية، وتقلص الرقعة المزروعة بها للتسرب إلى المناطق الساحلية.

ووردت بالمصادر البرتغالية إشارات كثيرة إلى وجود السباع بتلك المناطق، وإلى تضرر السكان منها. فلقد أرغم أسد برتغاليي آسفي على العودة إلى المدينة بعد أن غادروها بنية الهجوم على بعض الدواوير المغربية(30). وفي رسالة إلى الملك البرتغالي مؤرخة في 15 يناير 1527، كتب قبطان مازيغن أنه لما علم بوجود لبؤة وشبلين بالضواحي خرج لقتلهم، فتطلب منه ذلك مجهودا كبيرا نتج عنه جرح بعض الرماة والخيول(31). وعلق الإخباري (دو سوزا) على الحادث بقوله. «... أكد القبطان الذي سبق له قتل سباع أخرى أنه لم ير مثلها لا في الضراوة ولا في الخفة...»(32) ونظرا لكثرة السباع بقرية تيط سمتها المصادر المتعلقة بمازيغن خلال القرن السابع عشر «قرية السباع»(33). وأشار مارمول إلى أن مدينة في مثل أهمية أزمور أصبحت في نهاية القرن السادس عشر ملجأ لتلك الحيوانات المفترسة(34). وكانت المناطق الوعرة والمغطاة تتوفر على أعداد أكبر من هذه الحيوانات. فأثناء قيام البرتغاليين بغارة على منطقة حاحة، اضطروا إلى إقامة حرس «.. حول المخيم تنبؤا بالسباع التي أقلقتهم إلى حد أن أي أحد لم يستطع أن يستريح...»(35). وأكد الوزان هذا بالنسبة لنفس المنطقة(36) في حين تؤكد نوازل الزياتي تضرر سكان غمارة من هذا

(30) **S.I.H.M., Port.** III, p. 443.
(31) *Ibid*, *II*, p. 389.
(32) L. de Sousa, **Les Portugais**, *Op. cit.*, p. 85.
(33) R. Ricard, **Un document** ..., *Op. cit.*, p. 10.
(34) مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرين، الرباط، 1988-1989، ج.2، ص98 .
(35) D; de Góis, **Les Portugais** ..., *Op. cit.*, p. 199.
(36) الحسن الوزان، ج.1، ص 82.

الحيوان المفترس(37). لذا كانت حماية المغربي ومواشيه من تلك الحيوانات من بين الخوارق المنسوبة لأولياء ذلك العصر. ولاشك في أن المطلع على كتب التراجم سيلاحظ الحضور الغريب للأسود بها(38).

وبالطبع لابد وأن يهتم خاصة المغاربة وعامتهم بهذه المآسي والكوارث والإهانات التي لحقت بهم، وأن يجدوا لها تبريرا وتفسيرا، وأن يقفوا منها مواقف معينة، وأن يقترحوا حلولا لتجاوزها. لذا وجب علينا الآن تحديد أهم مظاهر أزمة الضمير لدى المغربي التي تولدت عما سبقت الإشارة إليه بسرعة.

كان أهم تلك المظاهرشعور حاد بالذنب. لقد كان تفسير المغاربة لتلك الأوضاع المعيشة، وتلك المحن والمآسي تفسيرا بسيطا لا يأخذ بعين الاعتبار شروط الغلبة التي كانت متوفرة لدى المسيحيين ومساهمة أوضاعنا الداخلية في تسهيل مهامهم، بل جعلها التفسير المذكور مظهرا خارجيا لعقاب إلهي استحقه المغاربة بسبب ابتعادهم عن الكتاب والسنة. لذا تجلى أهم مظهر من مظاهر أزمة ضمير المغاربة خلال القرن الذي يهمنا في شعور حاد بالذنب. وتبرز هذه الحقيقة واضحة من خلال ما كتب خلال المرحلة التي تهمنا، وذلك رغم اختلاف مواضيع التأليف واهتمامات المؤلفين : فلقد أرجع ابن يجبش التازي سطوة المسيحيين وهزائم المغاربة إلى ابتعاد هؤلاء عن تعاليم دينهم وافتراق كلمتهم، وانكبابهم على الملذات وجمع المال كما لو كانوا شعبا بدون كتاب أو دين:

«... فبسبب فرقتكم، تجاسر العدو دمره الله على هتك حرمتكم، فانتهزوا تلك الفرصة التي القلوب منها أعظم غصة، وملكوا تلك البلاد كما قدره الله وأراد، فبادروا رحمكم الله لنصر دينكم، لأن ما أصابكم إنما هو من ضعف إيمانكم، وقلة يقينكم واستهزائكم بأمور الدين ومخالفتكم لسنة سيد المرسلين، ومجاهرتكم بالفواحش لرب العالمين، وانشغالكم بجمع الحطام (...) أطعتم الشيطان وعصيتم الرحمان وأعطيتم النفس مرادها ومشتهاتها، وبلغتموها من المعصية غاية مناها ومنتهاها (...) كأنكم لم ينزل عليكم كتاب، ولا أمركم ولا نهاكم رب الأرباب...»(39) .

(37) J. Berque, **L'intérieur du Maghreb**, Paris, 1978, pp. 152-153.

(38) ابن عسكر، **دوحة الناشر، مصدر سابق**، صص 73،35.

(39) أبو بكر البوخصيبي، **أضواء على ابن يجبش التازي**، البيضاء 1976، ص 125، وما بعدها.

ونجد نفس التبرير الديني للأزمة لدى الحسن الوزان الذي اعتبر احتلال أزمور عقابا إلهيا لسكانها الذين بالغوا في ارتكاب الفواحش(40).

لذا كان هذا التبرير مصحوبا باستمرار بالوعظ والإرشاد والنصيحة كما يتجلى من كلام ابن يجبش وعبد الله الهبطي وابن عرضون. غير أن المتتبع لذلك الإنتاج الفكري الذي أفرزته الأزمة المذكورة يقف بسهولة على اقتناع مهم لدى كتاب العصر تجلى في كونهم خصوا فترتهم بالابتعاد عن الكتاب والسنة والانكباب على الملذات، والإفراط في البدع. فابن عرضون مثلا، يصف المغرب خلال القرن العاشر الهجري بالعبارات التالية : «.. لاسيما ما ظهر في عصرنا من الأمور الفظيعة، وأبدع في مصرنا من الأفعال الوضيعة (...) وقد ظهر ذلك في زماننا وانتشر وكثر استعماله عند مشايخ مصرنا حتى انتشر وفشا...»(41).

ويرتبط هذا التحليل لأوضاع المغرب آنذاك بأزمة حادة جعلت المغربي يمجد الماضي بشكل ربما لم يسبق له مثيل، وجعلته يخص عصره بكل الرذائل والبدع.

ويتجلى شعور المغربي بالذنب في اقتناعه باختلاط الحلال والحرام في كل مرافق حياته، وفي حرصه الغريب على تفادي الخطيئة، ورغبته في معرفة كل ما يمكن أن يؤدي إلى الابتعاد عن تعاليم الإسلام، وبالتالي الإسهام في تعميق الأزمة، وفيما أصبح يوليه من أهمية لمسألة الحلال والحرام. فلخوف المغربي من سقوطه في الخطيئة أضحى يحاسب نفسه بدقة مثيرة للانتباه، وبشكل ربما لم تعرفه المراحل السابقة. ويتجلى هذا الخوف من الخطيئة في الأمثلة المعبرة التالية :

– لقد أثار استعمال التبغ جدلا حادا بالمغرب ساهم فيه علماء أجلاء كان منهم من كان طرفا في النزاع، وحاول إقناع مخاطبيه بحلية تلك المادة،(42)

– وبلغت الأزمة والشعور بالذنب حدا كبيرا إذ أصبح المغربي يستفسر الفقهاء عما إذا كان المجاهد الذي يموت وهو ملطخ بدم الكافر شهيدا حقا(43)، وعما إذا كان يحل للمسلم تداول العملات المسيحية واستهلاك مواد مستوردة من دول مسيحية

(40) الوزان، **مصدر سابق**، ص 125.
(41) أحمد بن عرضون : **مقنع المحتاج في أدب الأزواج**، مخطوط الخزانة العامة كـ 102، ورقة 209، وكذا 160 .
(42) راجع عن هذا الموضوع ما أورده محمد حجي في دراسته السابقة الذكر، ج1 .صص 246-266.
(43) Cité par J. Berque, *Op. cit.*, p. 156.

كالورق والصابون والأثواب ومواد معدنية أخرى لما قد تحتوي عليه من مواد محرمة كالكحول وشحم الخنزير(44)، أو لكونها صنعت على يد الكفار.

- إلا أن الأخطر هو أن يسأل عامة الناس فقهاء عصرهم عما إذا كان يحل لهم شراء كل ما يعرض بالسوق من بهائم، دون تمحيص، مع العلم أن عارضها، خصوصا إذا كان من الأعراب، قد يكون سرقها(45).

ووصل الشك حدا جعل المرء يتحفظ فيما يخص ما يعرض عليه من الطعام، لذا مثلت النوازل المتعلقة بالغصب قسما مهما من فتاوي الزياتي. ولهذا السبب كذلك أفرزت هذه الظروف الصعبة فتاوي ونوازل تعكس أزمة ضمير المغربي خلال تلك المرحلة، كنوازل مزونة التي تتعلق بالغرب الجزائري، والزياتي المتعلقة ببلاد غمارة.

وتتجلى أزمة ضمير المغربي في ردة عدد ممن عجزوا عن مواجهة مشاكل عصرهم. لقد شغلت الردة في هذه الحقبة بال الرأي العام والمسؤولين سواء منهم البرتغاليون أو الوطاسيون أو السعديون الذين كان موضوع مراسلتهم أحيانا يتعلق بها(46). وأولتها المصادر البرتغالية عناية كبرى. فإذا كانت قد سكتت عن حالات ردة النصارى أو شهّرت بمن ارتدوا (وصفت بعضهم بالجبن)، فإنها أكدت على الخصوص على الحالات التي تهم المسلمين المتنصرين وطبعتها بطابع مثالي، وخصت أصحابها بأعمال وأقوال كانت الغاية منها إرضاء كبرياء نصارى ذلك الوقت المتعصبين. وأخذ بعض المؤرخين حرفيا ما كتبه الإخباريان (كويش) و (دوسوزا)، وزادوا عليه أحكام قيمة مشبعة بروح الظهير البربري، وموجهة حسب ميول الناشر. فلقد كتب (ريكار R.Ricard) في مقال نشره بمجلة دينية سنة 1930 وهو يتحدث عن أولئك «الشهداء» من المسلمين المتنصرين الذين فضلوا الموت في سبيل مجد الصليب كما يقول (كويش) «... إن تاريخهم (المتنصرين المقتولين على يد المسلمين) مثال رائع يجب أن يذكر أمام أولئك الذين يدعون أن المسلمين غير قابلين

(44) *Ibid*, pp. 172 et s.s.
(45) *Ibid*, pp. 185-188.
(46) L. de Sousa, **Les Portugais** ..., *Op. cit.*, p. 157, **S.I.H.M. Port.**, II, p. 496, III, p. 272, *Ibid*, **France**, I, p. 114.

للتنصر. فبما أن اعتناقهم لعقيدة المسيح لم يكفهم، فإنهم أرادوا أن يموتوا دونها...»(47). وسنرى بعد قليل أن المؤلف أورد في محل آخر ما ينفي هذا الادعاء.

وطبيعي أن تشمل الردة كل الديانات نتيجة احتكاكها، واصطدامها، وطبيعي كذلك أن تكون حالات ردة النصارى قليلة بالنسبة للحالات التي شملت غيرهم، ذلك أن الغزو البرتغالي لشواطئ المغرب، وما تولد عنه من حروب واختطافات خلق أزمات عميقة داخل المجتمع المغربي. ومما له دلالته أن تكون الردة فقط بالمناطق التي كان البرتغاليون متحكمين فيها. كما أن حالات الردة لم تكن وليدة عمل المبشرين الذين لم يجدوا آذانا صاغية في المناطق التي عملوا بها، وخصوصا بفاس. وهذا ما يؤكد أن المرتدين من المسلمين كانوا ممن عجزوا عن مواجهة تحدي القرن (الحروب، انتصار النصارى، المجاعات...). وتمكننا بعض الحالات من إعطاء الدليل على هذه البلبلة التي حلت بالأفكار، وعن أزمة الضمير التي أصبح الفرد يعاني منها : فلقد التحق أحد أقارب قائد القصر الكبير بأصيلا وتنصر بها، ورغم ما حصل عليه من جاه، ندم على فعله وعاد إلى القصر؛ ولكنه سرعان ما ندم ثانية فعاد إلى أصيلا وتنصر من جديد. ولم يدم طويلا على حالته هذه، فعاد إلى القصر حيث أمر القائد بقتله(48). وتتجلى هذه الأزمة كذلك في كون بعض أولئك المتنصرين أصبحوا - إن صحت روايات الإخباريين - يقودون البرتغاليين إلى دواويرهم ليتم نهبها وأسر سكانها(49).

ويمكن حصر أسباب ردة المغاربة آنذاك في ثلاثة :

1) الجهل الذي خيم على البلاد بسبب تراجع المؤسسات التعليمية، وقلة العارفين بشؤون الدين. ويتجلى من مؤلف الوزان ومن ألفية الهبطي وغيرهما تلاشي الروح الدينية لدى العامة بالبوادي المغربية. فلقد ذكر الوزان عن أعراب السهول مايلي «... وأكثر هؤلاء القوم ليسوا بمسلمين ولا بالأحرى مسيحيين

---

(47) R. Ricard, **Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de l'Espagne et du Portugal**. Louvain, 1930 p. 232.

(48) L. de Sousa, **Les Portugais** ..., *Op. cit.*, pp. 83-84.

(49) L. de Sousa, **Les Portugais**, *Op. cit.*, p. 28, 44-45, 65, 81, 135; B. Rodriguês, **Anais**, *Op. cit.*, I, pp. 52, 76, 90, 119, 134, 139, etc.

لا إيمان لهم ولا دين، بل ليس لهم حتى ظل الدين، لا يؤدون أي صلاة، وليست لهم مساجد، وإنما يعيشون كالبهائم، وحتى إذا وجد من بينهم من له ذرة شعور بالدين اضطر إلى أن يعيش كغيره ما دام ليس هناك مبادئ دينية ولا فقهاء ولا أية قاعدة من القواعد...»(50).

2) الأسر الذي ينتج عنه تحويل الضحية إلى عبد، قد تعود له حريته بالتنصر، وذلك في حالة ما إذا تعذر عليه تحرير نفسه.

3) المجاعات : تكثر حالات الردة في فترات الجفاف وانعدام المواد الغذائية لأن المغاربة كانوا يعتقدون أن النصارى يتوفرون باستمرار على المواد الضرورية. فلقد نصب عدد من المغاربة خيامهم حول مازيغن وتنصروا آملين بذلك تحسين ظروف معيشتهم(51).

وكان بعض ضعاف الشخصيات يجدون في التنصر وخدمة البرتغاليين وسيلة للاغتناء وتحسين أوضاعهم المادية.

وعرفت السهول الغربية موجة من الردة بعد مجاعة 1521، لم يسبق للمغرب أن عرفها. فلقد أرغمت المجاعة أعدادا كبيرة على التنصر وطلب الالتحاق بالبرتغال للعيش هناك. وصور الإخباري (كويش) هذه الحالة ومصير المرتدين بلشبونة بقوله: «... وفي هذه السنة (1521) حدثت مجاعة كبرى سواء بذلك القسم من إفريقيا أو بشبه الجزيرة (ايبيريا)، وكانت جد خطيرة إلى حد أن عددا كبيرا من المسلمين الحلفاء بآسفي وأزمور طلبوا من الملك (دون امنويل) عبور البحر للمجئ إلى البرتغال ليتنصروا ولكي يضمنوا به عيشهم، الشئ الذي لم يكن بإمكانهم القيام به ببلادهم آنذاك نظرا للجفاف... وقد عبروا البحر في أعداد كبيرة حتى إن لشبونة والضواحي كانت مليئة بهم. ومات جلهم من الجوع والبؤس، ذلك أن المملكة كانت تفتقر كثيرا إلى المواد الغذائية...»(52)

---

(50) الوزان، ج 1.ص 71.

(51) **S.I.H.M. Port.**, I p. 183.
(52) D. de Góis, *Op. cit.*, p. 228.

4) أسباب شخصية : لقد التجأ إلى الثغور المغربية المحتلة عدد ممن فروا من وجه العدالة بعد اقترافهم لجرائم مختلفة كالقتل أو السرقة، كما قصدها عدد من أعيان مدينة فاس والقصر الكبير وتطوان وبادس لأسباب سياسية.. وكان لجوء هؤلاء المغاربة إلى الثغور أو إلى البرتغال يؤدي في غالب الأحيان إلى ردتهم لشدة الضغوط التي كانوا معرضين لها كما سنرى.

ولم يكن جل المتنصرين- إن لم نقل كل المتنصرين- صادقين، ولم يكن ارتباطهم بالمسيحية كبيرا. فلقد كتب القبطان (ليط A.Leite) إلى الملك يخبره بأن عددا كبيرا من المسلمين المتنصرين رغم أنهم ارتدوا – حسب ادعائه – من تلقاء أنفسهم، فإنهم لا يزالون يعيشون على الديانة الإسلامية، وأنهم طلبوا عدة مرات من السلطان الوطاسي أو من الشريف السعدي القدوم لأخذهم، الشيء الذي حاولاه مرتين، مما سبب للمدينة عددا من المشاكل. واقترح نفيهم إلى إحدى جزر المحيط ليضطروا هناك إلى اعتناق الديانة النصرانية، وليصدقوا في تنصرهم(53).

وأكد كاهن أزمور بعد ثمان سنوات نفس الحقيقة. فلقد كان المسلمون المتنصرون يعيشون جهرا مع نساء مسلمات، واحتفظوا لأنفسهم بشعائرهم وأسمائهم السابقة. وعاد بعضهم إلى الديانة الإسلامية، مما أعطى للقبطان مبررا لبيع إثنين منهم. وينطبق نفس الشيء على اليهود. ونظرا لعدم تمسك المرتدين بدينهم الجديد، اقترح الكاهن المذكور إنشاء «محكمة تفتيش» بأزمور(54).

ولم يكن مرتدو الشمال أكثر ارتباطا بالديانة التي دخلوها رغم ما قالته المصادر البرتغالية. وينطبق نفس الشيء على مسيحيي البرتغال المحدثين أنفسهم الذين كانوا يجدون في شراء الحبوب بسلا والمعمورة والعرائش مبررا للمجيء إلى المغرب مصحوبين بأموالهم للرجوع إلى ديانتهم الأصلية. ولا يخرج سكان جنوب ماسة المختطفون على يد إسبان الجزر الخالدات عن هذه الملاحظة كما أثبتت ذلك دراسة لريكار R.Ricard (55).

(53) **S.I.H.M. Port.**, II, p. 476.
(54) *Ibid*, III, p. 83.
(55) R. Ricard, **Relations des Iles Canaries et de la Berbérie**, Paris, 1935.

وأمام هذا، بُلّغ عن عدد من سكان أزمور المرتدين من اليهود والمسلمين. ووصلتنا بعض أصداء تلك التبليغات تعود إلى سنوات 1537 - 1541(56).

وتجلت أزمة ضمير المغربي كذلك في توقع نهاية العالم وظهور المهدي المنتظر. حقيقة أن فكرة المهدي المنتظر ليست غريبة بالمغرب، إلا أن الجديد بشأنها هو طغيان الفكرة بإلحاح منذ نهاية القرن الخامس عشر، ذلك أن المغربي عجز عن مواجهة مشاكل عصره بثبات، لكونها كانت فوق طاقته، وشملت كل مرافق حياته. فلقد عاين كما بينا سطوة النصارى وعجز المغاربة عن الرد على التحدي، وعانى من مساعدة بعض المغاربة المسيحيين في حروبهم وغاراتهم ضد إخوانهم في الدين، وأحيانا ضد قراهم وأسرهم، وعانى كثيرا من القلاقل والفتن والغارات والمجاعات والأوبئة، وما نتج عنها من ردة وبيع الأهل للنصارى قبل بيع النفس... لذا حار كثيرا في أمره واعتقد أن هذه المصائب علامة على عقاب إلهي، وعلى قرب الساعة وظهور المهدي المنتظر. وعزز تزامن هذه المشاكل مع القرن العاشر الهجري هذه الفكرة. وبما أن الاعتقاد كان راسخا لدى المغاربة بأن «صاحب الوقت» سيظهر بالجنوب، فإن المرحلة التي تهمنا عرفت على الأقل أربعة أشخاص أعلنوا مهدويتهم، كان ثلاثة منهم من الجنوب، هذا فضلا عن الدولة السعدية التي ظهرت هناك، وخص سلاطينها الأوائل أنفسهم بهذه الصفة.

وتؤكد رواية لابن عسكر رسوخ هذا الاعتقاد في حتمية ظهور المهدي، ذلك أن شخصا سماه المؤلف (برزيز) دخل المسجد الأعظم بالقصر الكبير وادعى أنه عيسى بن مريم فآمنت به «آلاف الخلق...»(57)، كما تؤكده الحجة التي قدمها الفقيه عبد الرحمن التمانارتي لإبطال مهدوية التاهرتي (1630-1626). فقد ادعى هذا الفقيه المصلح أن مهدوية الشخص المذكور باطلة، وذلك لسبب واحد، وهي أنه ظهر بتيزنيت وليس برباط ماسة، المكان الحقيقي الذي سيظهر به «صاحب الوقت» !(58).

ومعلوم أن ابن أبي محلي الذي عاين الأزمة العامة التي عرفها المغرب بعد موت المنصور السعدي بسبب المجاعات والأوبئة وتناحر أبناء المنصور وتسليم

---

(56) أحمد بوشرب، **دكالة**، صص588-591.

(57) ابن عسكر، **الدوحة، مصدر سابق**، صص 31-32.

(58) محمد حجي، **الحركة الفكرية... مرجع سابق**، ص ص 231-235.

العرائش للإسبان (1610)، قدم نفسه كمنقذ للبلاد والعباد، وعومل كمهدي منتظر من طرف فئات عريضة جدا من سكان الجنوب المغربي. وعبر ابن أبي محلي نفسه عن أسباب اهتمامه بموضوع المهدي المنتظر بقوله : «... فإن قلت مالي أراك معتنيا بهذا المنتظر في كل كتبك المتقدمة والمتأخرة، قلت سببه أني جئت في زمان انتظاره...». ولإقناع المغاربة بمهدويته، ذكر بصفات المهدي قبل أن يلح على اجتماعها في شخصه «... وللمهدي المنتظر في الأخبار.. إمارات في معناه ومبناه وزمانه ومكانه وإسمه وأبيه وأمه وأصحابه وأنسابه، فليبحث عنها مريد..». وبما أن القرن العاشر انتهى دون ظهوره، فإنه علق على ذلك بقوله «.. أعني المهدي المنتظر في القرن العاشر أوبعده قريبا منه (...) إذ هو من الغيب المختص بالرب... فالعجز عن الإدراك فيه كغيره من العيوب في الإدراك. وعند جُهَيْنَة الخبر اليقين، ولتعلمن نبأه بعد حين...». ولهذا نصح معارضيه بالتخلي عن موقفهم العقيم وتصديق مهدويته بقوله:

«... ولذلك سددت هذا الباب في دعوى الناس قاطبة للجهاد ليلا يطول الخصام الذي لا يعرفه إلا الصمصام، قبولا وردا فيفوت القصد والمرام، واقتصرت على الدليل القطعي في المسألة، وإن كان إذنا عاما مع الحال الخاص والصيام، فوجب النهوض والقيام، ولا عدوان إلا على الظالمين اللئام، بجهاد عبدة الأصنام، ومن يتعرض دونهم من الجهلة أو الظلام...»(59).

ويتجلى عجز المغربي كذلك عن مواجهة مشاكل عصره بنفسه في بحثه عن حماية مادية ومعنوية من شبح الخوف الذي سبقت الإشارة إليه. لذا خوّل المجتمع هذه المهمة لرجال التصوف والأولياء، الذين تعززت مكانتهم لذلك لدى عامة الناس وخاصتهم، ولدى الحكام والمحكومين على حد سواء.

حقيقة أن مكانة الأولياء بالمغرب كانت باستمرار مهمة، كما تؤكد ذلك كتب التراجم والمناقب المتعلقة بالقرون الوسطى، إلا أن هذه الفئة الاجتماعية لم يسبق لها أن عرفت مكانة اجتماعية ونفوذا سياسيا شبيها بما عرفته خلال هذه الحقبة(60).

---

(59) **نفسه**، ص ص 227-230. وعن غامرة ابن أبي محلي، راجع: عبد المجيد القدوري، **ابن أبي محلي، الفقيه الثائر**، الرباط، منشورات عكاظ، 1990.

(60) أحمد الوارث، **الأولياء بالمغرب خلال القرن السادس عشر**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرقونة، مكتبة كلية الآداب فاس، جزءان.

ومقابل هذه الخطوة وفرت هذه الفئة للمجتمع ضمانة وحماية حقيقية على الأقل في الميادين التالية :

- حماية من استبداد الحكام وممثليهم،
- حماية من الغارات البرتغالية بتأطير الجهاد لتقاعس الوطاسيين عن القيام بواجبهم،
- حماية من الفتن التي اندلعت بين القبائل بسبب ضعف السلطة المركزية.

ووصلتنا إشارات كثيرة إلى قيام الأولياء والمتصوفة بهذه المهام الثلاث. كما وفر الأولياء للمجتمع حماية ضد طغيان الطبيعة خلال الجفاف وتفشي الأوبئة مثلا. وبلغ الخوف على المحاصيل حدا جعل قبائل الحوز تلتجئ إلى كرامات عبد الله بن حسين لطرد الطيور المضرة بالحقول، وذلك بتعليق تمائم مقابل نصيب من الغلة(61).

وهكذا أصبحت مكانة الولي لا تعوض، كما يتجلى ذلك من خلال الأمثلة التالية:

1 - من خلال حرص القبائل على أن يقيم ولو ولي واحد بين ظهرانيها. فلما غادر عبد الله بن حسين تمصلوحت واستقر بوادي نفيس، التحق به سكان القرية وقالوا له : «... والله لا رجعنا إلى ديارنا إلا إذا رجعت معنا »(62).

2 - من خلال مكانة رجال الزوايا والمتصوفة لدى حكام المغرب. فقد أصبح الوطاسيون يعملون على التقرب إلى الأولياء بالهبات والعطاءات... ويعطينا المجذوب علي بن أحمد الدوار فكرة عن تلك المكانة. فرغم أن هذا الأخير كان «... بهلولا مجذوبا على طريقة الملامتية، تعتريه أحوال الجذب في كل حين..»، فإن أبواب قصر الوطاسي كانت مفتوحة في وجهه، وكان كلما دخله «... تلقاه النساء والأولاد فيقبلون يديه وقدميه، ولا يلتفت إلى أحد، ويدفعون إليه الحوائج الرفيعة، والذخائر النفيسة، ويلبسه السلطان من أشرف لباسه...»(63).

وتحتوي كتب التراجم على عدد كبير من الحالات المشابهة.

3 - في ازدحام الناس على نعوش الأولياء وأمتعتهم قصد الحصول منها على شيء يحتفظ به للتبرك. فلما توفي المجذوب السابق الذكر «...تساقط الناس على جنازته وتقاسموا أعواد نعشه وسجادته ولباسه... وحضر السلطان والفقهاء وغيرهم جنازته...»(64).

---

(61) ابن عسكر، **الدوحة**، صص 104-106، محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص 57.

(62) الدوحة، ص 107.

(63) **نفسه**، ص 81.

(64) **نفسه**، ونفس الصفحة.

هذا وتجدر الإشارة إلى كون هذه الظاهرة جديدة، وأن السلطان أصبح يشيع جنازة مجذوب «... لا يلتفت إلى أحد». فلما توفي يحيى بن علال بن عمر الخلطي، «... تزاحم الناس على جنازته حتى كاد يقتل بعضهم بعضا، وتقاسموا أعواد نعشه تبركا به لما يعلمون من فضله...»(65).

4 - في طغيان أدب التراجم الخاصة بالأولياء على غيره من الفنون الأدبية. لذا تعززت ظاهرة غريبة، تتعلق بتوزيع المهام بشكل واضح داخل المجتمع المغربي يذكّر بما كانت عليه أوربا خلال القرون الوسطى، إذ أصبح قسم يحكم، وآخر يعبد، وثالث يضمن قوتهما.

5 - كما تتجلى مكانة الأولياء لدى المغاربة من خلال محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية، إذ كان المغاربة المقيمون في البرتغال كثيري التوسل والالتجاء إلى الأولياء المغاربة، وخصوصا إلى أبي العباس السبتي، الذي كان ذا مكانة خاصة إلى حد أن المحققين أصبحوا يسألون كل المورسكيين، ولو لم يكونوا مغاربة، عما إذا سبق لهم أن توسلوا إليه واستنجدوا به. فلقد بلغ عن مغربية قالت بعد إقامة دامت خمسين سنة بالبرتغال لبرتغالي أراد أن ينتزع منها قفة كانت بيدها : «... أتوسل إليك بأبي العباس السبتي أن تترك سبيلي...»(66).

ومقابل هذه الضمانات المادية والمعنوية التي وفرها الأولياء، اغدقت عليهم الدولة والمجتمع الهبات والعطاءات، الأمر الذي جعل من التصوف حرفة مربحة، خصوصا في مرحلة عم فيها الكساد، وخيمت الأزمة على كل قطاعات الإنتاج. وهكذا أصبحت أعداد غير قليلة من المجتمع تعيش في رغد على حساب سذاجة العامي. ويتجلى هذا التحول من خلال تكاثر عدد مريدي الزوايا. فلقد نسبت المصادر للجزولي حين تسميه (12265) مريدا. وكانت زاوية سعيد أمسناو تضم من 800 إلى 1000 مريد يعيشون على نفقتها(67). ومعلوم أن هذه الزواية لم تكن من أهم ما كان معروفا بالمغرب. وبالطبع نتج عن تكاثر هؤلاء المريدين تعطيل طاقات إنتاجية مهمةأصبحت تعيش من التطفل والصدقات. ويتجلى هذا التطفل من خلال مثالين

---

(65) **نفسه**، ص 140.

(66) Inq. Lix. Proc. n° 12689, fol. 8 r°.

(67) محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، صص 44 - 66 .

اخترناهما من بين عدد كبير مما ورد عرضا بكتب التراجم. فعن الظروف التي التحق فيها الإمام عبد الله الغزواني بالطائفة الجزولية ذكر صاحب **ممتع الأسماع** أنه حضر لأول مرة مجمعهم مع بعض رفاقه بعد أن أقنعهم بما يلي: «... لنتفرج على حضرتهم ونشبع من الكسكسو...»(68). كما يتجلى ذلك التفاني في خدمة المتصوفة فيما ذكره نفس المؤلف عن أبي الحسن المصمودي. فلما زارته جماعة من المريدين «... أمر امرأته بالانصراف إلى أهلها وأدخلهم الدار وأراهم القمح والسمن والعسل والخليع وسائر ما في الدار من المتاع، وقال لهم دونكم والدار، ما فيها لكم، وذهب إلى المسجد، فأقاموا فيها أياما يأكلون ويتصرفون تصرف المالك في ملكه إلى أن انصرفوا...»(69).

وهكذا تراكمت ثروات ضخمة لدى جل الزوايا، وذلك في وقت قصير جدا. فبعد موت عبد الله بن حسين أقام ابنه موسما ذبح خلاله بين يوم وليلة 700 شاة، و200 من البقر و20 من الإبل. وكان المستفيدون من طعامه 12500 زائر(70)!

كما تتجلى هذه الثروات من خلال غنى عبد الكريم الفلاح . ف «كل واحدة من قدور طبخته الكبرى يطبخ فيها الثور أو الثوران في مرة واحدة، ويذبح في كل يوم البقر والغنم والإبل، وعنده بلاط واسع مجصص يبرد فيه الكسكس بالألواح كما يفعل بصابة الزرع عند التدرية والتصفية...»(71) .

وبسبب الدور الاجتماعي المهم الذي أنيط بالزوايا، أصبح لها وزن سياسي خطير عرفت الدولة السعدية الناشئة كيف تستغله لانتزاع الانتصار من أيدي أعدائها البرتغاليين والوطاسيين. وتكفي الإشارة هنا إلى الدور الذي تنسبه المصادر المغربية لبعض أقطاب الزاوية الجزولية كعبد الله الغزواني ومحمد أبي الرواين الذي ذكر أنه «... كان أحد الأسباب في تمكين السلطان من الملك وإخراج بني مرين منه(72)»،

(68) **نفسه**، ص 35.
(69) **نفسه**، صص 31،35،82.
(70) **نفسه**، ص 57.
(71) **نفسه**، ص 86.
(72) **نفسه**، ص 109.

أو علي بن أحمد الدوار السابق الذكر الذي كان يصيح وسط فاس «... اخرجوا يابني مرين، والله مانترككم ببلادنا....»(73).

وإذا كانت الدولة السعدية قد استغلت الزاوية الجزولية في إعادة توحيد المغرب، فإنها كلفتها كذلك بمراقبة ما يدور بالبلاد وإشعارها بكل ما يمكن أن يمس بالأمن والاستقرار. ومقابل هذا وذاك خصتها بامتيازات وإقطاعات ضخمة أصبحت إقطاعات تمليك بعد أن كانت فيما مضى إقطاعات استغلال فقط(74).

وطبعا تعود هذه المكانة التي خص المجتمع بها الأولياء والمتصوفة على حساب الفقهاء الذين همشوا وتراجعت مكانتهم، إلى العلاقة الجدلية التي أصبحت تربط المجتمع بالولي: فعلى الأول تلبية رغبات وحاجيات الولي، مهما كانت كثيرة، بينما كان المنتظر من الثاني توفير حمايته المادية والمعنوية.

أمام حدة الأزمة وشموليتها، واعتقاد المغاربة أنها مظهر خارجي لعقاب إلهي ينذر بقرب الساعة، اتخذت منها مواقف مختلفة ومتباينة لاختلاف الحلول التي أعطيت لها. وسنكتفي في هذا العرض بتصنيف تلك المواقف ما دام كل واحد منها يستحق دراسة خاصة.

أجمعت المصادر المغربية المتعلقة بالقرن السادس عشر على انكباب المغاربة بالمدن والبوادي على الرذائل والفواحش التي بلغت حدا غريبا أعطاها حضورا متميزا بمصادرنا.

فبعد أن أشار الوزان إلى قلة ارتباط الأعراب بالإسلام، أشار وهو يتحدث عن أخلاق الأزموريين إلى «... إغراقهم في اللواط وشيوعه فيهم حتى أنهم كانوا لا يجدون غضاضة في أن يبحث الأب لولده عن صديق مداعب لطيف...»(75). ونبه نفس المؤلف إلى شيوع هذه الظاهرة بفاس إلى حد أن السكان اعتادوها، مما لم يعد

---

(73) **نفسه**، ص 84 ؛عبد الرحمن الفاسي، **ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب**. مخطوط الخزانة الحسنية عدد 1222ورقة 30.

(74) أحمد بوشرب، **دكالة**، ص 467-469؛ أحمد بن عرضون، **مقنع، مصدر سابق**، ص 127.

G. Lazareev, "Les concessions foncières au Maroc", in : **Etudes sociologiques sur le Maroc**, Publ. B.E.S.M., Rabat, s.d., pp. 43-79.

(75) الوزان، ج1، ص 125.

يلزم الشواذ الذين يقلدون النساء في زيهن وزينتهن بالتستر.فحين تعرض الرحالة المغربي إلى فنادق فاس كتب «... وأسوأ ما في هذا الأمر مساكنة رهط يقال لهم "الهيوي"، وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهن، ويحلقون لحاهم، ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن (...) ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها...»(76).

ويتجلى انكباب المغاربة على الشهوات وسقوط فئات عريضة منهم في الزنا في الحضور المثير للانتباه الذي أصبح للمرأة بمصادرنا المتعلقة بالفترة.

فلقد أشار الوزان في مواضع مختلفة من مؤلفه إلى شيوع الزنا وسكوت المجتمع عنه(77). وذكر ابن عسكر أن من خوارق محمد بن عيسى الفهدي دفين مكناس: الحيلولة دون سقوط مريده محمد أبي الرواين في هذا الإثم الذي كان متعودا عليه. ويفهم من رواية ابن عسكر أن الوقوف على «امرأة عربية» لم يكن يمثل أية صعوبة(78).

وبما أن المرأة تمثل عنصر المتعة الأول، فقد أشارت المصادر المغربية، وخصوصا منها **«ألفية»** الإمام الهبطي ومن أخذ عنها، كابن عرضون، إلى العناية الخاصة التي أصبحت تخصص لجسم المرأة، وإلى بروز طقوس خاصة ببعض وسائل الزينة والتجميل كالوشم الذي شمل كل أطراف الجسد، وانكبت عليه كل فتيات العصر، إلى حد أن الهبطي ذكر أن القليل منهن كن يتزوجن دون وشم. ومما يؤكد تساهل المجتمع في هذا الباب وتراجع الغيرة على الشرف، الصورة التي تركها لنا الإمام الهبطي عن الوشم والمكانة الاجتماعية الجديدة للوشام. فلقد أضحى يتجول في بوادي المغرب وهو لابس ومزين كالنساء، يصبغ الفم ويكحل العين «ويعطى من الفرص ما يزيل الكلفة بينه وبين الفتاة من مواكلة ومداعبة، ثم يؤتى بنساء واشمات يكشفن عن أجسامهن أمام الوشام ليقلد رسومهن على أعضاء الفتاة من الجبين إلى الساق...»(79). وطبعا يستغل الشباب هذه الفرص للتفرج على الفتيات العاريات.

---

(76) **نفسه**، ص 183.

(77) **نفسه**، ص ص 70, 71 . 183, 205, 215... إلخ.

(78) ابن عسكر، **دوحة...** ص 76.

(79) محمد حجي، **الحركة...** ص 219.

ومن جهة أخرى، تتجلى المكانة الجديدة لجسم المرأة في الاستثمار الجديد لكل عناصر الإثارة كالزينة المثيرة للإنتباه، والاختلاط بالرجال في الغناء والرقص، وحتى في الأودية والأنهار قصد السباحة عاريات(80).

وفي هذه الأثناء التي قلت فيها الحشمة والغيرة، شاع تعاطي الخمر في مدن وبوادي المغرب(81)، الأمر الذي أدى إلى انتشار الزنا وتفاحش أمره. فلقد نبه الوزان إلى قلة غيرة الأعراب على بناتهم، بينما تؤكد النوازل انشغال المغاربة بظاهرة التخليق والهروب بالنساء المتزوجات. وعن هذه الظاهرة كتب محمد حجي :«.... وقد تعددت حوادث هروب الرجال بالنساء في المغرب السعدي بادية وحاضرة، وبخاصة بعد موت أحمد المنصور، حتى لم يكن يخلو شهر من حادث اختطاف...»(82).

وإذا كانت هذه التصرفات الجنسية وليدة رغبة في الاستفادة أكثر خلال ظروف جد قاسية، فتجدر الإشارة إلى عفويتها من جهة، وانتشارها بكل أطراف المغرب من جهة ثانية. غير أن بعض الطوائف ظهرت وأعطت نفسها مهمة تقنين هذا الانكباب على الشهوات وتأطيره، وأشهر هذه الطوائف، العكاكزة(83).

ففضلا عن إعلان خروجهم عن الإسلام وإعطاء أنفسهم نبيا وكتابا، وإسقاطهم، إن صدقت رواية مخبرينا، كل الفرائض من صلاة وصيام... استباحوا المحرمات كأكل الخنزير والميتة، وأباحوا الزنا والقيام به دون تستر، وحثوا على مساعدة من يرغب فيه(84). فقد ذكر أحمد بن القاضي: «...وقد اختلقوا بدعتهم من ترك الصلاة والصوم واستباحة الزنا والدياثة والقيادة أذلهم الله وأخزاهم...»(85).

وبين الحسن اليوسي من جهته أن الجانب الجنسي أضحى يمثل لديهم أحسن معيار لامتحان مدى صدق المريد الذى أصبح عليه أن يتخلى عن قيمه السابقة

---

(80) عبد الله الهبطي، **الألفية السنية...**، الأبواب: 8، 9، 11...

(81) **نفسه**، الباب الحادي عشر، الوزان، ج1 . ص ص 138، 238... الخ

(82) محمد حجي، **الحركة...** ص 308.

(83) عبد الله النجمي، "العكاكزة". **مجلة كلية الآداب**، الرباط عدد 5 – 6 والمصادر والمراجع التي ذكرها.

(84) الحسن بن مسعود اليوسي، "رسالة العكاكزة"، منشور ضمن رسائل المؤلف التي حققتها الأستاذة فاطمة القبلي، البيضاء، ج I ص ص 274 وما بعدها.

(85) أحمد بن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، ج I ص 165 (تحقيق محمد الانوري).

من غيرة على العرض وحفاظ على الكرامة(86). ووصلت شيوعية النساء لديهم حدا جعلهم يعتبرون المرأة مجرد آلة متعة تتداولها الأيدي، واعتبروها «كالسجادة، صل واعط أخاك يصلي...»(87).

ومما يؤكد طغيان جانب الشهوة لدى هذه الطائفة، التصنيف الذي أعطاه ابن عسكر لأتباعها، إذ جعلهم «... من الغوغاء وأجلاف العرب، وأهل الشهوات من الحواضر»(88). ومعلوم أن هذه الطائفة تنسب إلى الصوفي الشهير أحمد بن يوسف الملياني المتوفى بين سنة 1521 و1525، وأنها استمرت في استقطاب أعراب وبرابرة المغرب حتى عهد المولى اسماعيل الذي عرفت خلاله أقصى ما وصلته من انتشار(89)، وذلك رغم محاولات بعض السلاطين السعديين القضاء عليها، الأمر الذي يؤكد استمرار نفس مظاهر الأزمة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وأمام هذه الوضعية، فضلت بعض العناصر تهميش نفسها والعيش بعيدا عن المجتمع.

اعتاد المجتمع المغربي، كباقي المجتمعات، تهميش الفئات التي تميزها صفات معينة، كاليهود والمجاذيم والحمق... الخ. إلا أن المرحلة التي تهمنا شهدت بروز جماعات كثيرة آثرت الابتعاد عن المجتمع والعيش إما في جماعات صغيرة منغلقة على نفسها، أو الانعزال الكلي والالتجاء إلى الجبال والغابات. وقد كان في هذين الاختيارين غاية معينة:

– ففيما يخص النساك والزهاد الذين ابتعدوا عن الناس، نجد أن التبرير الذي برروا به موقفهم ينطلق من حكم قاس على المجتمع المفرط في الخطيئة، ومن رغبة في استغلال ما تبقى من العمر في العبادة والتكفير عما ارتكب من ذنوب.

وكثر الزهاد في هذه الفترة وانتشروا بجل جبال المغرب كما تؤكد ذلك المصادر المغربية والبرتغالية. فلقد ذكر الوزان أن عددهم كان كبيرا بكل من جبل الحديد وبني ماكر والجبل الاخضر(90). وطبعا صاحب هذا الاختيار ظروف عيش جد قاسية،

(86) الحسن اليوسي، "رسالة العكاكزة"، **مصدر سابق**، ص 282.
(87) **نفسه**، ص 281.
(88) ابن عسكر، **الدوحة**، ص 125.
(89) محمد حجي، **الحركة**... ص 240.
(90) الوزان، ج 1. صص 126,89.

تؤكد رغبة المغربي في تعذيب نفسه الميالة إلى الشهوات. وسنرى أنواعا أخرى من تعذيب النفس. فقد ذكر ابن عسكر أن أبا شامة عبد الرحمن الدكالي كان «... قائم الليل، صائم النهار لايفتر ساعة عن العبادة، وإذا أدركه النوم نام في ثيابه وألصق جنبه بالحصر، وجعل الحجر تحت رأسه لايلتفت إلى الدنيا ولا لأهلها، ولا يقبل من أحد شيئا...»(91). وكان أبو زيد عبد الرحمن بن ريسون «... ورعا زاهدا استوحش من الخلق حتى لا يراه قريب ولا بعيد، وبيته مغلق عليه أبدا، وفراشه قشور شجر البلوط...»(92).

وفضلا عن هؤلاء النساك، ابتعدت جماعات صغيرة عن المجتمع الذي تنكرت لقيمه وعملت على استغلال ما تبقى من العمر في الملذات والشهوات. ففضلا عن سكان فنادق فاس الشواذ، ذكر الوزان بنفس المدينة جماعات أخرى كالسحرة والعرافين وبعض فرق الصوفية التي سنت لنفسها قوانين وقيما تختلف كل الاختلاف عما يتبناه المجتمع(93).

وحاولت عناصر أخرى تناسي الواقع المر والمخجل بمواقف نذكر منه:

أ - تجاهل قيم المجتمع كما يتجلى ذلك من خلال تصرفات المجاذيب الذين تكاثروا. وتعطينا كتب التراجم فكرة عن هذه الشخصيات الغريبة التي خصها المجتمع المغربي، عامته وخاصته، بتقدير واحترام كبيرين. فلقد كتب ابن عسكر عن علي بن أحمد الدوار «... وكان بهلولا مجذوبا على طريق الملامتية، تعتريه أحوال الجذب في كل حين، وليس له أهل ولا قرار، يخبر بالمغيبات ويكاشف به من لقاه (كذا)، لا يلتفت إلى مدح ولا إلى ذم، يدخل ديار ملوك بني مرين فتلقاه النساء والأولاد فيقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت إلى أحد، ويدفعون إليه الحوائج الرفيعة والذخائر النفيسة، ويلبسه السلطان من أشرف لباسه، فإذا خرج تصدق بجميع ذلك. ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس أكمام الحلة التي تكون عليه ويبرقعها بالزيت أو بالسمن »(94).

---

(91) ابن عسكر، **الدوحة**، ص 57.
(92) **نفسه**، ص 18.
(93) الوزان، ج.1، صص 204-207.
(94) ابن عسكر، **الدوحة** ، ص 81 .

وورد بمصادر أخرى ما يعبر أكثر عن تنكر هؤلاء المجانيب لقيم المجتمع. ونظرا للمكانة الخاصة التي أصبحت للمجاذيب، فإن المولى أبا الشتاء، دفين فشتالة، أصبح مدرسة حقيقية لتخريجهم(95)..

ب – كما أفرزت هذه الأزمة طائفة حاولت تناسي الواقع المخجل بالرقص والانتقام من النفس بعد الدخول في نوع من الغيبوبة. ويصاحب هذا الرقص افتراس الأنعام الحية والانتقام من النفس بأعمال وصفها لنا عبد الرحمن الفاسي بقوله: «... وكثير منهم يمر بالأسواق فيخطفون الصابون وغيره فيأكلونه، ويدخلون بيوت النار ولا يتضررون، ويشيرون بالهتك وبالبعج، وغير ذلك...»(96). ومعلوم أن عيساوة، أشهر ممثلي هذه الطوائف تنتسب إلى محمد بن عيسى الفهدي السابق الذكر، الذي توفي سنة 1526 أو 1527، أي بعد مجاعة 1521 بقليل، وقبل إعادة توحيد المغرب، وفي وقت لم يستطع المغرب فيه تحرير أي ثغر. ومعلوم أن طائفة عيساوة عرفت انتشارا كبيرا بعد القرن السادس عشر، وتفرعت عنها طوائف أكثر شذوذا كحمادشة والدغوغيين.

وحاولت فئات أخرى القضاء على الأزمة بالوعظ ومحاربة البدع.

ويلاحظ أن الفقهاء الذين كرسوا أنفسهم لهذه المهمة ينتمون إلى العامة التي كانوا على علم بمستواها الثقافي المنحط.لذا قام هؤلاء الفقهاء المصلحون بثلاثة أعمال متكاملة نذكرها بسرعة :

– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أصبح شرطا ضروريا للقضاء على البدع التي استحدثتها العامة. وكان هذا الأمر بالمعروف موجها إلى عامة الناس وإلى الفقهاء والحكام(97). وفضلا عن التأليف والكتابة بأسلوب قريب إلى فهم العامي، وفي مواضيع تهم دينه وأخلاقه، قام بعض الفقهاء، كالإمام الهبطي وابن خجو، بالتحرك داخل المنطقة رفقة طلبتهم قصد الوعظ والإرشاد وتكسير أواني الخمر وآلات الطرب...(98).

(95) محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص 73.
(96) عبد الرحمن الفاسي، **ابتهاج القلوب... مصدر سابق**، ورقة 43.
(97) تعرض محمد حجي لهذا الموضوع في أطروحته : **الحركة**... ص ص217–226.
(98) أحمد بن عرضون، **مقنع المحتاج... مصدر سابق**، ص ص 163 –166.

– وعلما من هؤلاء المصلحين بأن ما استحدث من بدع يعود إلى الجهل الذي خيم على العقول، انكب عدد منهم على تعليم الناس بالقرى والمداشر، بعد أن كان التعليم حكرا على المدن.

– وكان العمل الثالث يتمثل في الحث على مرابطة الغزاة والدفاع عن البلاد إما بالتأليف كما فعل ابن يجبش التازي، أو بالمشاركة الفعلية في الغارات التي استهدفت الثغور المحتلة. وكان حكم بعض هؤلاء المصلحين قاسيا على من تقاعس عن هذا الواجب(99). ولما عاينوا قلة اهتمام الوطاسيين بالجهاد، كرسوا أنفسهم للدعاية للشرفاء السعديين الذين ظهروا بالسوس. ومعلوم أن الشرفاء السعديين وصلوا إلى السلطة اعتمادا على المساندة الكبرى التي خصتهم بها الزاوية الجزولية.

(99) ابن عسكر، **الدوحة**، ص 60 حيث أورد قصة محمد بن يحيى البهلولي الذي اعتبر إمامة من لا يجاهد باطلة لانعدام شروط الرجولة فيه.

أمر باعتقال المدعو Jo ão Fernandes بتهمة تسهيل اتصال المغاربة الراغبين في الفرار من البرتغال بالبحارة، متبوع بمحضر إيداعه بسجن محكمة التفتيش يوم 3 ماي 1554

(Inquisição de Lisboa, Processo n° 8425, fol. 1v°)

الفصل الثالث

أوضاع البرتغال الاقتصادية والاجتماعية والدينية

تعرفنا على أسباب وظروف التحاق الجالية المغربية بالبرتغال، وعلى الثقافة التي جاءت عناصرها مشبعة بها. وسنخصص هذا الفصل لدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي كان يعرفها ذلك البلد، قصد فهم ظروف إقامة أفراد الجالية التي تهمنا، وتحديد نوع العلاقة التي ربطت عناصرها بالمجتمع المسيحي.

إن دراسة الأوضاع الاقتصادية في البرتغال خلال القرن السادس، وظروف العيش التي كان يسمح بها، تلزمنا بأخذ عاملين أساسيين بعين الاعتبار: العلاقة القائمة بين الموارد وعدد السكان من جهة، وكيفية توزيع الثروة الوطنية بين مختلف مكونات المجتمع من جهة ثانية.

يبدو أن عدد سكان البرتغال لم يتجاوز خلال العقد الثاني من القرن الخامس عشر مليون نسمة(1). وأثبت الإحصاء العام للسكان المنجز بأمر ملكي فيما بين 1527–1531 وجود 280528 كانون، أي ما يمثل 1400000 ساكن، إن اعتبرنا أن الكانون الواحد كان يضم في المتوسط خمسة أفراد(2). وبهذا العدد مثل البرتغاليون حسب نفس الإحصاء، ثلث سكان إنجلترا، وكانوا أقل من ساكنة إسبانيا سبع مرات. أما بالمقارنة مع فرنسا، فقد كان العدد أقل أربع عشرة مرة(3).

---

(1) V.M.Godinho, **Estrutura**, *Op. cit.*p. 20.

وعن تزايد عدد سكان البرتغال خلال القرن الخامس عشر، راجع:

A. Costa Lobo, **História,** *Op. cit.*pp. 11-13.

(2) *Ibid,* pp. 27 et s.s; V.M.Godinho, "Sociedade portuguesa" in: **Dic. Hist. Port. VI**, pp. 22-51.

(3) V.M. Godinho, **Estrutura**, p. 21, "Sociedade portuguesa", pp.20-21.

وبلغت الكثافة السكانية بالبرتغال 7,15 في الكيلومتر المربع. وبالطبع يحجب هذا المعدل تفاوتا واضحا بين المناطق، ذلك أن أكثرها ساكنة عرفت معدلا يصل الى 35 فردا في الكيلومتر المربع، في حين لم تتجاوز تلك الكثافة جنوب نهر Tejo 7,7.

وبالطبع، كان جل البرتغاليين قرويين. فحسب الإحصاء المذكور، كانت المدن والقرى الواحدة والتسعين التي كان لها ممثلون بمجلس الكورتيس تضم 63572 كانون، أي ما يمثل 6,22% من المجموع(4). غير أن 37 فقط من هذه الحواضر والقرى كانت تتجاوز 500 كانون، مع العلم أن هذا العدد لم يكن حتى بالنسبة لمعايير القرن السادس عشر كافيا لإدراجها ضمن المدن. ومن هذه الأخيرة، ضمت 14 منها فقط ساكنة تتراوح بين 4000 و10000 نسمة. وكانت المدن التي يتجاوز عدد سكانها العشرة آلاف ثلاثا فقط : يابرة (12660)، بورطو (13500) ولشبونة (70000).

وبذلك لم يكن الحضريون يتجاوزون في أحسن الحالات 12% من مجموع السكان(5). وشكّلت لشبونة أكبر مستفيد من القرن السادس عشر الذي عرف أوج التوسع البرتغالي وإنشاء إمبراطورية تجارية لا تغيب عنها الشمس. فقد ارتفع عدد سكانها من 70000 إلى 100000حوالى 1550 والى 120000 بعد أربعين سنة.

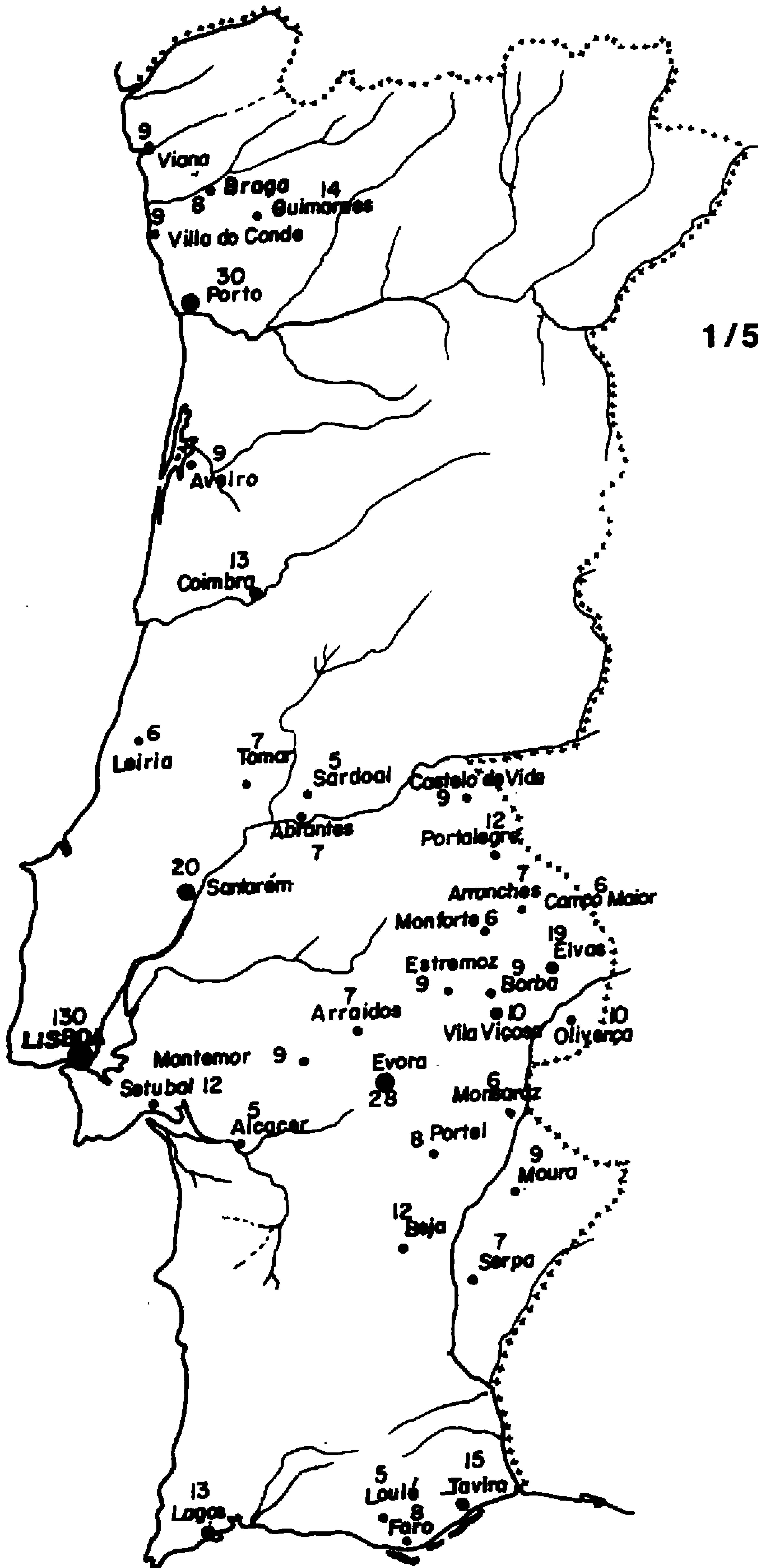
لقد كان البرتغال خلال الفترة التي تهمنا قليل الموارد، يعاني من معطيات طبيعية صعبة، وكان ولا يزال يتكون من منطقتين طبيعيتين مختلفتين يفصل بينهما نهر Tejo : منطقة شمالية وأخرى جنوبية(6).

فالأولى جبلية، تضم 95٪ من هضاب وجبال البلاد التي يتجاوز علوها 400 متر عن سطح البحر. وقد أسهمت هذه التضاريس في عزل المنطقة عما يحيط بها، ووفرت لها كميات هامة من التساقطات. ومن جهة أخرى، يمتاز الشمال بكثافته السكانية العالية، وبسيطرة الملكية الفردية الصغرى ذات المردود المرتفع.

---

(4) *Ibid*, **Estrutura**, pp. 24-25.
(5) *Ibid*, pp. 38-39.
(6) O.Ribeiro, "Portugal" in: **Dic. Hist. Port.** V.pp 132-134; O. Marques, **Introdução à História**, *Op. cit*. pp. 8-9.

الحضريون في البرتغال سنة 1525 (بالآلاف)



المقياس : 1/500.000

نقلا عن : Dic . Hist. Port I I p.62

أما الجنوب، فتغلب عليه السمات المتوسطية.فهو منطقة سهول جافة، يمكن أن تتجاوز بها المدة التي تنعدم خلالها التساقطات ستة أشهر، بينما لا تتجاوز بالشمال شهرين؛ كما أنها منطقة الملكيات العقارية الكبرى التي تسيطر بها الزراعة الخفيفة للحبوب.وإذا كان السكن متشتتا بالشمال، فإنه يرتكز بالجنوب على قرى كبرى تجذرت بها الأعراف والتقاليد الجماعية.

لقد حدت العوامل الطبيعية من فرص الاستغلال الزراعي بالبرتغال. فالتربة فقيرة بكل ربوع البلاد، عدا بالأودية(7). لذا خيم شبح الجفاف والمجاعة باستمرار على البلاد لعدم انتظام سقوط الأمطار وسوء توزيعها خلال السنة. وقللت الوسائل المعتمدة في الاستغلال الزراعي وطرق استعمالها، والاقتصار على زراعة الحبوب من مردودية الأرض. كما أسهمت البنية العقارية بدورها في الحد من تلك المردودية.فقد كانت أغلب الأراضي الصالحة للزراعة في ملكية الأسرة الحاكمة والنبلاء والجماعات العسكرية والكنيسة. لقد كانت جماعات "المسيح" و (Avis) و(Santiago) تسيطر على مناطق بأكملها. كما كان رجال الدين والنبلاء، الذين كانوا يمثلون نسبة قليلة من مجموع السكان، يتصرفون في ثلث الأراضي الزراعية. فقد بلغت مداخيل الكنسة سنة 1537 مليون "كروزادو" أي أربعمائة مليون ريال برتغالي، وهو ما يعادل مداخيل الدولة البرتغالية(8)! وبالطبع كانت الملكيات الكبرى مستغلة استغلالا ضعيفا أو متروكة بدون حرث لقلة اليد العاملة. وأسهم النظام الجبائي البرتغالي، الذي كان يعفي كبار الملاكين، ويثقل كاهل صغار الفلاحين، في التخلي عن الزراعة والهجرة الى المدن أو الى المستعمرات، أو في دفع المزارعين إلى احتراف الجندية.

لهذه العوامل، ولأخرى لم نرد الخوض فيها، ظل الإنتاج الزراعي ضعيفا لا يفي بحاجيات البلاد التي عرفت منذ القرن الثالث عشر تزايدا مهما في سكانها، وخصوصا في الحضريين منهم. وقد أكدت دراسات جادة معاناة البرتغال باستمرار من نقص في إنتاج الحبوب لأسباب طبيعية بالطبع، وأخرى بشرية مرتبطة بالملكية

(7) O. Marques, **Introdução**, pp. 22-23,46.

(8) V.M.Godinho, "Finanças públicas e estrutura do Estado" **Ensaios**, 2ème édit. Lisbonne, Sá da Costa,1978, II, p. 65.

العقارية وباستغلال المزارع(9). وقد أكدت الدراسة التي خصصها Oliveira Marques للفلاحة بالبرتغال خلال القرون الوسطى هذه الحقيقة(10).

لقد اضطرت البلاد نتيجة ارتفاع عدد سكانها خلال القرن الخامس عشر، وبسبب تزايد نسبة الحضريين منهم، الى استيراد الحبوب مرة كل ثلاث سنوات على الأقل(11).وكانت الحبوب تجلب من إنجلترا، التي كان إنتاجها خلال القرون الوسطى يعرف فائضا يسمح بالتصدير، ومن شمالي غرب أوروبا، وفرنسا وإسبانيا وصقلية والمغرب(12).

ومعلوم أن التوسع الذي عرفه البرتغال منذ العقود الأولي من القرن الخامس عشر زاد من استهلاكه للحبوب، وزاد بالتالي من تبعيته في هذا الباب.

ولضمان أسواق دائمة، وكذا للتقليل من الكميات المستوردة، اتخذ المسؤولون البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر عدة إجراءات متكاملة: التحكم في السهول الغربية المغربية واحتكار أسواقها من جهة، وتحويل الجزر الأطلنطيكية المكتشفة حديثا (أصور وماديرا) الى خزان للحبوب بتكثيف الزراعة بها من جهة ثانية.وإذا كانت السهول المغربية قد أفادت البرتغال الذي حصل منها بواسطة الضرائب والشراء والنهب على كميات هائلة، فإنه سرعان ما أصبح، بسبب الخراب الذي تسرب اليها بعد 1514، مضطرا إلى جلب الحبوب إلى مدنها المحتلة التي أضحت في حالة حصار مستمر، وأصبحت حامياتها وسكانها البرتغاليون يعانون من الفاقة، وكانوا لعدة مرات على أبواب المجاعة. وأسفر استغلال ماديرا (1425) والأصور (1439) في البداية عن نتائج مشجعة لكون المناخ والتربة كانا يسمحان بمحاصيل تفوق محاصيل البرتغال كله ثلاثين مرة(13). إلا أن الأرخبيلين سرعان ما اتخذا مسارين مختلفين. فسرعان مااختصت ماديرا في زراعة قصب السكر، في حين استمرت جزر الأصور في إنتاج الحبوب(14).

---

(9) A.Costa Lobo, **História**, *Op. cit.*; pp. 131, 153 -154, 188, 220 .

(10) O. Marques , **Introdução**, *Op. cit.* pp. 38-39.

(11) Godinho, "Les Grandes Découvertes", *Op. cit.*; pp.31-32.

(12) O.Marques, **Introdução**, *Op. cit.*pp 151 et s.s, Godinho, **Os Descobrimentos**, *Op. cit.*II, pp. 264 et s.s, 297-332.

(13) O. Marques, **Introdução**, *Op. cit.* p. 248.

(14) Godinho, **Os Descobrimentos**, II, pp. 283-286.

ونظرا لعجز البرتغال عن ضمان أمنه الغذائي، وفشله في سد جزء كبير من حاجياته اعتمادا على حبوب المغرب، اضطرت الدولة الى اتخاذ مجموعة من الإجراءات. ففضلا عن منعها تصدير الحبوب من المناطق التي كان الإنتاج بها مهما، سمحت بالاستيراد، وتدخلت لمراقبة الأثمان، وأشرفت على بناء مخازن الحبوب وتموين المناطق الفقيرة، وحثت على الرفع من الإنتاج بتخويل المزارعين قروضا وبرفع مجموعة من الحواجز التي كانت تحول دون تسويق الحبوب بين مختلف المناطق(15). غير أن هذه الإجراءات لم تحل دون تعرض البلاد لمجاعات خطيرة خلال سنوات: 1556 - 1557، 1561 - 1562، 1573 - 1574، 1576، 1582 - 1583، 1597-1598(16). غير أن أخطر المجاعات كانت خلال الموسم الفلاحي 1520-1521(17).

ونظرا لعجز الدولة عن ضمان ا لكميات الكافية من القمح والشعير، تدخلت السلطات المحلية باتخاذ قرارات صارمة ومخالفة أحيانا للقانون. ولأخذ فكرة عن معاناة بعض المناطق خلال السنوات العجاف، نشير إلى صعوبة تموين منطقة Algarve التي كانت محظوظة نسبيا، لكونها على الساحل، ولقربها من منطقة الأندلس الغنية، وكذا من منطقة Alentejo البرتغالية التي كانت زراعة الحبوب تسيطر بها. فقد كانت بلدياتها تجد صعوبة كبرى في الحصول على ما كان يحتاجه سكانها من حبوب(18). لذا اضطرت الى تشييد مخازن بلدية كانت حبوبها تعرض في حالة الندرة. كما التجأت تلك البلديات أحيانا إلى مصادرة الاحتياطي الشخصي وتوزيعه على السكان، أو إلى القيام بأعمال منافية للقانون، كتحويل الحبوب الموجهة الى مناطق أخرى بالقوة. فقد عانت مدينة Faro خلال سنة 1556 من نقص كبير في الحبوب، الأمر الذي جعل بلديتها لا تتورع في تحويل سفينة فرنسية محملة قمحا كان تجار مدينة سان لوكار الإسبانية قد دفعوا ثمنه. وقد وصلتنا أصداء أخرى عن قرصنة مماثلة قامت بها بلديات أخرى من "الغرب" البرتغالي(19). ومما لا شك

(15) O. Marques, **Introdução**, p.372.
(16) *Ibid,* 373, F.S.Loureiro, **D. Sebastião antes e depois Alcácer Quibir**, Lisboa, Vega, 1978, p., 23 et s.s.
(17) D. de Góis, *Op. cit.* p, 228, F.Luis de Sousa, *Op. cit.* p. 25, D. de Torres, **Relation**, *Op. cit.* I, p. 94, B.Rodriguês, **Anais**, *Op. cit.* I, p.327.
(18) J.A.Romero Magalhães, **Para o studo**, *Op. cit.*, p. 65.
(19) *Ibid,* pp 76-77.

فيه أن سكوت الدولة عن مثل هذه التصرفات معبر في حد ذاته عن شبح المجاعة التي كان يخيّم بثقله على البلاد وسكانها.

والغريب أن البرتغاليين تخلوا، رغم ما سبقت الإشارة اليه، عن الاهتمام بالزراعة. فقد استغرب الهولندي كليناردو(Clenardo) الذي أقام بالبرتغال فيما بين 1535-1537 الإهمال لهذا القطاع الحيوي الذي لم ير له مثيلا في بلد آخر(20). وقد برر الإخباري البرتغالي دو كويش(de Góis) هذه الظاهرة بتفضيل مواطنيه الجندية والهجرة إلى المناطق المكتشفة لما كانت تغري به من إمكانيات للثروة والجاه، وأضاف أن سلبيات تلك الهجرة «لم تقتصر على إهمال النشاط الزراعي، بل طالت كذلك الحرف التي كانت من قبل مزدهرة»(21).

وبالفعل، أثار إهمال برتغاليي القرن السادس عشر للأعمال اليدوية انتباه الأجانب الذين استغربوا استيراد جل المواد المصنعة، أو صنعها على يد أجانب مقيمين بالبرتغال.وقد تعرض الهولندي السابق الذكر باستغراب كبير لهذه الوضعية ووصفها بقوله: «أظن أنه لولا العدد الكبير من الأجانب، ومن مواطنينا الذين يهتمون بالحرف، لاستحال علينا العثور على إسكافي أو حلاق»(22). وسبق للمسرحي البرتغالي الشهير جيل فيسانت(Gil Vicente) أن برر هذا الإهمال في مطلع القرن السادس عشر بسيطرة عقلية القرون الوسطى التي تفضل العمل العسكري على غيره(23). وبالطبع عززت الحروب الكثيرة المعلنة على الإسلام بالمشرق والمغرب هذه العقلية.وبذلك أضحت الجندية أحسن وسيلة للاغتناء والارتقاء الاجتماعي، وأصبحت تبعا لذلك تستهوي الجميع، حتى إن العيش من حرفة أخرى بات يعتبر إهانة كبرى، حسبما سجل ذلك بسخرية المسرحي المذكور.

وإذا كانت الجندية تشغل نسبة مهمة من الأشخاص النشيطين، فإن جحافل أخرى كرست نفسها لخدمة الكنيسة. فقد انتقد (فيسانت) السابق الذكر، الكثرة المبالغ

(20) G. Cerejeira, **O Renascimento**, *Op. cit.* I, p. 251.
(21) in: *Idem*, p. 185.
(22) Lettre à Látomo, 26/3/1535, *Idem*, p. 251.
(23) *Idem*, p.253.

فيها في عدد الرهبان بالبلاد(24). وبالطبع أصبح عدد المواطنين الذين لا يقومون بأي نشاط منتج مقلقا. فقد نبّه الكورتيس المجتمع سنة 1525 الى خطورة هذه الظاهرة، وتأسف لاستمرارها. كما تأسف العاهل البرتغالي بدوره لتقاعس الناس عن العمل وانتشار القمار بينهم، ولما كان يتولد عنه من سرقة وفوضى ومآسي عائلية. كما عبر ممثلو الفئات الدنيا بالمجلس المذكور عن قلقهم لكثرة أعداد غير المنتجين من النبلاء والفرسان المرتبطين بهم، خصوصا وأنهم أضحوا يعيشون في بذخ مبالغ فيه. وقد اعتبر أولئك الممثلون أن البلاط الملكي كان يجسد تلك العقلية السيئة ويركزها في الأذهان بفوضاه وتبذيره للأموال، وحشده لمئات النبلاء والفرسان. وبما أن الملك اعتاد التنقل بين مختلف مناطق البلاد، فإن الحشود التي كانت ترافقه من نبلاء وخدام وجنود مثلوا عنصر تخريب حقيقي للمناطق التي كانوا يعبرونها، إذ أن بعض النبلاء كانوا يجدون متعة في سرقة المزارعين وتخريب ممتلكاتهم(25).

وقد نتج عن هذه الوضعية ندرة في المواد الغذائية بالبلاد، وارتفاع كبير في أثمانها، كما تؤكد ذلك مصادر مختلفة. فقد أشار الهولندي السابق الذكر في مراسلة خلال 1537 الى ندرة اللحوم بالبرتغال، وإلى صعوبة الحصول عليها، ونبه إلى ما كان يتطلبه الحصول عليها من انتظار وشجار بين الزبناء. وأضاف مخبرنا بأن المال لم يكن كافيا لقضاء المآرب بالبرتغال. فالندرة تفرض على الزبون التوسل الدائم للبائع. وقد وصف لمراسله ما عاينه بنزل بمنطقة الألنتيجو: فقد اضطر للنوم بدون عشاء بعد أن تعذر الحصول على لحم أو بيض، وبعد أن لم يستسغ العشاء بالبصل الطازج لانعدام غيره(26). لذا لم يخفْ (كليناردو) تعجبه من وفرة المواد فور عبوره الحدود البرتغالية ودخوله منطقة (غالسيا) الإسبانية(27).

ونلمس من خلال رسالة ملكية مؤرخة في 9 يوليوز 1550، وأخرى محررة في 8 ماي1561 موجهتين لمراقبي الأسواق بلشبونة قصد تسهيل تموين قضاة محكمة

(24) In: A.J. Saraiva, **Inquisição e Cristãos Novos**, 4ème édit., Porto, Editorial Nova Limitada, 1969, p 58.
(25) A. Herculano, **História da origem**, *Op. cit.* I, 175, III, p. 31.
(26) In, Cerejeira, *Op. cit.* pp. 99-100, 250, 253.
(27) *Ibid.* p. 307.

التفتيش أو خدامهم قبل غيرهم(28)، أن ذلك التموين ظل صعبا فيما بين التاريخين على الأقل. وفي رسالة أخرى مؤرخة في 2 فبراير 1571 وسّع العاهل البرتغالي ذلك الامتياز ليشمل كذلك باقي محققي محاكم التفتيش بكل من يابرة وكوينبرا. فقد أصبح هؤلاء بموجب ذلك الامتياز يتمتعون بالأسبقية في التموين السريع من اللحم والسمك والفحم وخشب التدفئة(29). ولخص المؤرخ P.de Azevedo هذه الوضعية الغريبة بقوله: «كنا نستورد القمح والشيلم والجبن والزبدة وكذا البيض والدجاج، بل وحتى الديكة، حسب تعبير أجنبي ماكر»(30)!

وبالطبع، ارتفعت الأثمان ارتفاعا مهولا خلال القرن السادس عشر، كما يشهد على ذلك شعر G.de Resende(31)، ومراسلات (كليناردو)، الذي أكد أن كل شيء باهظ الثمن، حتى ماء الشرب، إلى حد أنه نبّه مراسله إلى أنه بالرغم من مدخول سنوي يصل إلى 100000 ريال، فإنه لم يكن يعيش في النعيم والوفرة، لأنه لا توجد أرض أغلى من البرتغال، كما وضح ذلك من خلال بعض الأمثلة.فمجرد حلق ذقنه كان يكلفه ثلاثين ريالا في الأسبوع، وهو مبلغ يتجاوز حسب مخبرنا إمكانات عدد كبير من الأسر، ويغضب بكل تأكيد الكثير من مواطنيه. ومع ذلك، يضيف كليناردو، لم يكن الحلاق يستجيب لكل نداءاته، وكان عليه أن يترجاه ليحضر(32). وقد أكد الإخباريان البرتغاليان (S.de Miranda) ودو كويش(33) بدورهما على ذلك الغلاء.

ورغم أنه يتعذر علينا تتبع تطور الأثمان عبر مختلف عقود القرن السادس عشر، فإن الإشارات المتفرقة التي وصلتنا تبقى مع ذلك معبرة. فإذا كان ثمن "الكيل" (alqueire) من القمح يتراوح في مطلع القرن السادس عشر بين 16 و20 ريالا، فإنه قفز إلى 150 سنة 1530(34). ويسمح لنا تتبع تطور ثمن القمح بأرخبيل الأصور، حيث كان متوفرا بكثرة، بأخذ فكرة عن ذلك الغلاء.

---

(28) A. Baião, "A Inquisição em Portugal e no Brasil", **Arq. Hist. Port.**, *Op. cit.*, 1921, p.57.
(29) *Ibid.*, p.58.
(30) L. de Azevedo, **Epocas de Portugal económico**, 4ème édit., Lisboa : Livrária Clássica Editora, 1978, pp.20-21.
(31) G. de Resende, **Miscelánia**, Lisboa : Imprensa Nacional, 1973, pp 367, 370.
(32) Lettre à Látomo du 26 mars 1535, in : Cerejeira, *Op. cit.*, p.250, pp.251-253.
(33) *Ibid.*, p.187.
(34) "Mémoire de G. Mendez de Sacoto à Jean III à propos des conquêtes portugaises au Maroc" (1530), in : **S.I.H.M. Port.**, II, p.522.

التاريخ	الكمية	ثمن المد
1510	مد	240 ريال
1514	مد	1400ريال
1533 - 1534	مد	2000 ريال
1539	مد	3450 ريال
1541	مد	3900 ريال
1575	مد	12750 ريال

وعرفت أثمان الزيت والخمر بدورها ارتفاعا مهما. ومعلوم أن القمح والزيت والخمر كانوا يمثلون أساس التغذية بالبرتغال خلال القرن السادس عشر(35).

ولم تساير الرواتب الارتفاع المذكور. ففي الوقت الذي تضاعفت فيه الأجور أو ارتفعت ثلاث مرات فيما بين 1540 -1588 بمدينة كوينبرا (Coimbra)، ارتفعت الأثمان من جهتها ثمان مرات(36). وعرفت مدينة (Porto) نفس الوضعية فيما بين 1545 - 1575(37). وقد يتجلى لنا التفاوت الحاصل بين الأجور ومستوى المعيشة في الدافع الذي حدا بالملك يوحنا الثالث إلى الرفع من رواتب أساتذة جامعة لشبونة.كما أن الاعتبار ذاته حتم الرفع من أجور محققي محاكم التفتيش البرتغالية منذ 1583(38).

وانعكست هذه الوضعية على مستوى المعيشة بالبرتغال، الذي كان منحطا خلال القرن الذي يهمنا، على الأقل بالنسبة للأغلبية الساحقة من السكان. فقد أشار إيطالي إلى أن تغذية عدد كبير من البرتغاليين كانت تقتصرعلى الخبز والماء(39). كما أشار كاتب برتغالي سنة 1531 إلى فاقة سكان وسط البرتغال(40). وفي سنة 1541، ذكر (دو كويش) أن تغذية المزارعين كانت تقتصر على «الفواكه البرية والعسل

(35) V.M. Godinho, **Os Descobrimentos**, *Op. cit.*, II, p.343.
(36) F. Sales Loureiro, **D. Sebastião**, *Op. cit.*, p. 65 et note 64.
(37) *Ibid*, loc.cit.
(38) A. Baião, "A Inquisicão"..., *Op. cit.*, p.52.
(39) A. Costa Lobo, **História**, *Op. cit.*, p.240.
(40) *Idem*, p.533.

والأعشاب»(41). وبالطبع، لم تتوفر هذه الإمكانية للحضريين،مما يفهم منه أن معاناتهم كانت أكبر.

لذا اجتاحت المدن جحافل كبرى من المتسولين. فقد انضافت إلى اليتامى والأرامل والمكفوفين الذين كانت المدن متعودة عليهم، أعداد هائلة من المتقاعسين عن العمل، ومن قدماء المحاربين والمغامرين الذين عادوا من المستعمرات، والذين فقدوا عادة العمل اليدوي(42).

وتجدر الإشارة إلى أن الأرامل كن يمثلن 21٪ من سكان يابرة وباجة، و31٪ من سكان Vila do Colo(43). وتشير مصادر محاكم التفتيش إلى كثرة الأطفال اليتامى أو المهملين من لدن آبائهم بكل من لشبونة ويابرة(44).

وبذلك انتشر التسول وأضحى معضلة اجتماعية. فقد كان أسقف يابرة يعول لوحده أكثر من ألف شخص(45). وانتشر المتسولون بكل مكان، وفي أعداد هائلة. ولم تكن هذه الظاهرة تضر بالاقتصاد وحسب، بل كانت تخل كذلك بالأمن العام، وتشغل بال السلطات العمومية، التي أصدرت للحد منها عدة قرارات خلال سنوات 1538، و1554، و1570، و1579، بقيت حبرا على ورق، لكون الظاهرة كانت راسخة ومتجذرة(46).

ولم تكن أحوال الفرسان والنبلاء أحسن، ذلك أن القرن السادس عشر كان بأوروبا في غير صالح هاتين الطبقتين، كما أثبتت ذلك الدراسة القيمة للمؤرخ F.Braudel(47).

---

(41) *Idem*, p.554.

(42) *Cf. art.* "Mendicidade" in : **Dic. Hist. Port.**, *Op. cit.*, IV, pp. 254-255.

وعن الوضعية بحوض الأبيض المتوسط، راجع:

F. Braudel, **La Méditerranée**, *Op. cit.*, II, pp.80-83.

(43) F.S. Loureiro, **D. Sebastião**, *Op. cit.*, p.37.

(44) Inq. Evora, Proc. n°186 fol. 4 r°, 6 v°, 18; n°8056 fol. 3 r°; inq. Lix. Proc. n° 6614 fol. 2-4 ; n° 4026 fol. 3 etc.

(45) L. de Azevedo, **Epocas**, *Op. cit.*, p.19.

وعن عدد العاطلين، راجع:

G. de Resende, **Miscelânia**, *Op. cit.*, p.368.

(46) **Dicionário**..., *Op. cit.*, IV, p. 255.

(47) F. Braudel, **La Méditerranée**, *Op. cit.*, II, p.59.

عرف البرتغال بدوره أسرا نبيلة كبرى كآل براغنصا (Bragança) التي احتكرت إثني عشر لقبا من ألقاب النبلاء، منها دوقان، وآل Meneses التي احتكرت ستة ألقاب، أو آل ...Coutinho, de Melo, Castro. ورغم أن هذه الأسر كانت دون غنى وثروة النبلاء القشتاليين والأرغونيين(48)، فإنها كانت مع ذلك تحتكر الثروات الوطنية.

غير أن مصادر القرن السادس عشر تؤكد تراجع مستوى معيشة النبلاء، والصغار منهم على وجه الخصوص، بحيث أن بعضهم عانى فعلا من الفاقة والبؤس. فقد نتج عن حرصهم على الاحتفاظ، مهما كانت التضحيات، بمظاهر البذخ والغنى رغم تراجع مداخيلهم وتفاحش الغلاء، تأزم وضعيتهم المادية وتعرضهم لسخرية وتهكم معاصريهم(49). فقد استهزأ بهم الهولندي (كليناردو) ونعتهم بآكلي الفجل، الذين يصومون ببيوتهم ليتمكنوا من الخروج محفوفين بكل مظاهر البذخ، ولكي «يمشوا وخلفهم بالشارع عدد من الخدم يفوق عدد الريالات التي ينفقونها على بيوتهم»(50). كما سخر سفير فرنسا في البرتغال سنة 1560 من نفس التصرفات، ومن العدد الهائل من الخدم الذين كان الفرسان والنبلاء يحرصون على اصطحابهم كلما خرجوا إلى الشارع(51). وسبق المسرحي البرتغالي (Gil Vicente) هؤلاء الأجانب إلى وصف الفاقة التي كان النبلاء، والصغار منهم على وجه الخصوص، يعانون منها في العقد الأول من القرن السادس عشر(52).

وليس من الغريب، والحالة هذه، أن يغادر آلاف البرتغاليين البلاد بحثا عن وسيلة رزق تضمن تحسين أوضاعهم المادية، وأن تستفحل لذلك ظاهرة الهجرة من البلاد. وقد كان الأمراء والنبلاء سباقين إلى ذلك. فقد أوشك الأمير دون فرناندو، شقيق هنري الملاح، بسبب قلة الأراضي التي كانت من نصيبه، على الهجرة إلى بعض الدول الأوروبية لعرض خدماته العسكرية على حكامها(53). لذا كانت الهجرة ظاهرة ميزت القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالبرتغال. وتمثل هذه الهجرة في حد

(48) O. Marques, **Introdução,** *Op. cit.*, p.387.
(49) F. Braudel, **La Méditerranée**, *Op. cit.*, II, p.59.
(50) Lettre à látomo du 26 mars 1535, in: G. Cerejeira, *Op. cit.*, I, p.260
(51) Cité in : **Dic. Hist. Port.**, VI, pp. 43-44.
(52) G. Cerejeira, *Op. cit.*, I, p..200.
(53) R. de Pina, **Crónica de D. Duarte**, *Op. cit.*, pp. 512 - 513.

ذاتها دليلا على حدوث اختلال في التوازن بين الموارد وعدد السكان، طالما أن ركوب البحر كان مخاطرة حقيقية.ويقدر عدد الذين كانوا مقيمين بالثغور المغربية وحدها بثلاثين ألف شخص خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر(54). وقدر المؤرخ البرتغالي V.M. Godinho عدد النازحين من البرتغال فيما بين 1500 و1580 بـ 280000 شخص، وبأكثر من 300000 شخص فيما بين 1640 - 1700. كما قدر نفس المؤرخ عدد البرتغاليين الذين كانوا يعيشون خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر خارج بلادهم بما يتراوح بين 100000 و150000 نسمة(55). وعوض هؤلاء المهاجرين آلاف العبيد الذين جلبوا من مختلف المناطق التي وصلها النفوذ البرتغالي، بأفريقيا والشرق، والذين كان المغاربة يمثلون نسبة مهمة منهم. وبالطبع، يسهل على المرء، من خلال ما سبق، تصور ظروف العيش القاسية التي كان عليهم تحملها.

وهكذا نخلص إلى نتيجة مهمة بالنسبة لبحثنا، وهي أن أوضاع البرتغال الاقتصادية خلال القرن السادس عشركانت سيئة، إذ كانت ندرة المواد الغذائية وغلاؤها سمتي القرن. ويحق لنا الآن التساؤل على ضوء هذه النتيجة عن انعكاسات تلك الأوضاع على طبع وعقلية البرتغاليين وقناعاتهم الدينية وتصورهم للعالم الذي كان يحيط بهم.

من الأكيد أن ظروف العيش الصعبة، والضغوط المختلفة التي كان المواطن العادي يواجهها في كل لحظة، انعكست على طبع البرتغالي وحددت السمة العامة للمجتمع آنذاك، وحولت أحيانا الانفعالات الفردية المعزولة، إلى هزات اجتماعية خطيرة.

ففي لشبونة، اندلعت ثورة سنة 1506 لمجرد أن شخصا اتهم جهرا اليهود المتنصرين بالهرطقة. وكان ذلك كافيا لمهاجمة الحي الخاص بتلك الأقلية بدون تردد، وقتل أكثر من 2000 شخص. وقد أجمعت الدراسات على خشونة طبع برتغاليي ذلك العصر، وميلهم إلى العنف(56).

---

(54) A. Costa Lobo, **História.**, *Op. cit.*, p.48.

(55) V.M. Godinho, **Estrutura**..., *Op. cit.*, pp.58-60, A. Herculano, **História da orígem.**, *Op. cit.*, I, pp.140 et ss. I. Révah, **Etudes portugaises**, *Op. cit.*, p.193 etc.

(56) A. Costa Lobo, **História**, *Op. cit.*, I, pp.235-236, H.Cidade, **A literatura**, *Op. cit.*, I, p.15 ; F.S. Loureiro, **D. Sebastião**..., *Op. cit.*, pp.69-70.

وتعكس وثائق «التشريفات الملكية» البرتغالية (Chancelarias reais) هذا الطبع العنيف والحاد، من خلال ما تزخر به من «رسائل العفو» (cartas de perdão) التي منحها الملك البرتغالي لبعض المجرمين مقابل الخدمة العسكرية أو الهجرة لمدة معينة إلى أحد الثغور المغربية المحتلة أو لمدينة برتغالية يحددها. وقد وظفنا الرسائل التي تهم الفترة الممتدة من سنة 1415 إلى 1456، والتي نشرها P. de Azevedo ، وأخرى تهم المرحلة 1481 – 1492، نشرها Laranjo Coelho و David Lopes.(57). وتكمن أهمية هذه الوثائق في كون الرد الملكي على طلبات العفو يورد نوعية الجريمة، والظروف التي اقترفت فيها، والأسباب التي أدت إليها.

ويبين الجدول التالي مختلف الجرائم التي التمس من أجلها العفو الملكي. وقد فصلنا بين رسائل المرحلتين لتحديد تطور الجريمة بالبرتغال خلال القرن الخامس عشر.

1 – الجرائم الواردة بالرسائل التي نشرها P. de Azevedo

نوع الجريمة	عددها	النسبة المأوية
القتل	468	٪61.17
محاولة القتل	02	٪ 0.26
الضرب والجرح	82	٪ 10.71
السرقة	52	٪ 6.79
جرائم جنسية	72	٪ 9.41
تقصير خلال القيام بالواجب	38	٪ 4.96
عصيان السلطة وإهانة موظف	24	٪31.13
شطط في استعمال السلطة	06	٪ 0،78
إضرام النار عمدا	3	٪ 0،39

(57) P. Azevedo, **Documentos...**, *Op. cit.*, I, p.306, pp.321,576...

دين غير مؤدى	1	٪ 0،13
سحر وشعوذة	1	٪ 0،13
تحريض على الفساد (رهبان)	1	٪ 0،13
قذف، سب	1	٪ 0،13
أسباب غير محددة	14	٪ 1،83
المجموع	765	

نلاحظ إذن أن جرائم القتل والاغتيال تمثل لوحدها أكثر من 60٪ من مجموع الجرائم المذكورة برسائل طلب العفو. وإذا أضفنا إليها جرائم الضرب والجرح ومختلف مظاهر العنف، تفوق النسبة 70٪.

والظروف التي تم فيها القتل معبرة في حد ذاتها. فالتربص منعدم، وتم القتل في لحظة الخلاف الذي كانت أسبابه تافهة تعكس طبع ومزاج البرتغالي العنيف والمندفع والحاد. ويتجلى ذلك الطبع كذلك من خلال العلاقة التي كانت تربط الجاني بالضحية. ففضلا عن الأصدقاء، طال العنف الإخوة والأزواج والأصهار(58).

وتؤكد مصادر عهد الملك يوحنا الثاني ما لاحظناه بالنسبة للفترة السابقة كما يتجلى ذلك من خلال الجدول التالي:

(58) *Ibid.*, II, pp. 355-381.

نوع الجريمة	العدد	النسبة
القتـــــــل	52	٪16،72
محاولة القتل	2	٪ 0،64
الضرب والجـرح	56	٪ 18،00
إهانة موظف، عصيان	82	٪26،36
هروب من السجـــــــن	3	٪ 0،96
عدم احترام قوانين البلاد	14	٪ 4،50
تزويـــــر	8	٪ 2،57
استغلال النفوذ	4	٪ 1،28
جرائم ذات طابع جنسي	32	٪ 10،28
سرقـــــة	13	٪ 4،18
شهادة الزور	9	٪ 2،89
زندقـــــة	5	٪ 1،60
شعوذة وسحر	2	٪ 0،32
سب وقذف	2	٪ 0،32
أسباب غير محددة	27	٪ 8،68
المجموع :	311	

نلاحظ إذن تراجعا واضحا لجرائم القتل ولمختلف مظاهر العنف، وإن بقيت تحتل مع ذلك نسبة مهمة، وصلت إلى 35٪ من المجموع.ورغم أن الوثائق التي نحن بصددها لا تحدد ظروف الجريمة بنفس الدقة التي نجدها في سابقاتها، فإنها تسمح لنا

مع ذلك بلمس نوع من التحول فيما يخص نوعية الضحايا. فقد سجلنا لأول مرة حالات قتل الأبناء أو العبيد من لدن أسيادهم(59).

وتعكس «رسائل العفو» تحولا آخر أكثر وضوحا تجلى في تراجع هيبة السلطات المحلية، ذلك أن 34،39٪ من الجرائم تخص إهانة موظفين أو الاعتداء عليهم خلال قيامهم بمهامهم.فقد حوكم 35 شخصا غيابيا بسبب انتزاع سجناء بالعنف من أيدي السلطات القضائية.

وإذا اعتبرنا مجموع الجرائم السابقة الذكر، والتي بلغ عددها 1114، نجد أن التي تخص منها العنف تتوزع على الشكل التالي:

الجريمة	العدد	النسبة
القتل	520	٪46،6
العنف	138	٪12،38
إهانة موظف والإستهانة بالقانون	186	٪16،69
المجموع	844	٪75،76

وهكذا تمثل الجرائم التي حصرناها في الجدول أعلاه، ثلاثة أرباع الجرائم التي استوجبت اللجوء إلى العفو الملكي.

وتسمح الأرقام المعبرة التي سبق عرضها بخلاصتين:

1- لقد اجتاز البرتغال خلال القرن الخامس عشر، وخصوصا خلال العقود الثلاثة الأخيرة منه، مرحلة اضطراب صعبة تجلت في انتشار السرقة وقطع الطرق، وتزايد جرائم القتل والضرب والجرح، وتكاثر حالات الاغتصاب، وعدم احترام الدين وعصيان ممثلي السلطة.وتفاقمت الوضعية بنزوح آلاف اليهود الإسبان بعد طردهم من لدن الملكين الكاثوليكيين(60). وصادف تزايد الاضطراب بالبلاد بداية نزوح آلاف المغاربة إثر احتلال أصيلا (5000 أسير) وما تلاه من غارات، الأمر الذي يجعلنا نلمس من الآن صعوبة إقامتهم بالبرتغال.

(59) L. Coelho et D. Lopes, **Documentos,** *Op. cit.*, pp 353,358,303, 311,369.
(60) M. Tavares, **Os Judeus,** *Op. cit.*, p.247.

وفضلا عن «رسائل العفو»، تعكس قوانين البلاد طبع برتغاليي القرن السادس عشر. فقد كان الحكم بالإعدام، ولتهم بسيطة، كسرقة أشياء تافهة، أمرا عاديا(61)، كما كان جلد المجرمين بالساحات العمومية لا تثير حساسية أو اشمئزاز أحد، بل على العكس من ذلك، كان يجلب إلى تلك الساحات آلاف المشاهدين(62).

وقد حال الطبع العنيف للفرسان والنبلاء المتشبثين بعقلية القرون الوسطى، وكذا ظروف العيش القاسية التي سبقت الإشارة إليها، دون تهذيب الطباع وتليينها. وليس من الغريب أن يكون أكثر من 30٪ ممن التجأوا إلى العفو الملكي من العسكريين والفرسان. وتجذرت هذه العقلية العسكرية العنيفة أكثر بدخول البرتغاليين في حروب مستمرة مع المسلمين بعد 1415. ويمكن الوقوف بسهولة على هذه العقلية من خلال مؤلفات الإخباري (Eanes de Zurara)(63)، ورسائل (Afonso de Albuquerque)، الذي يفتخر فيها بما خربه من أراض وعمران بالخليج العربي والبحر الأحمر، وبما قتله وأسره من مسلمين(64). وتعكس المصادر البرتغالية نفس العقلية لدى حاميات الثغور المغربية المحتلة.فقد كانت الحرب ضد المغاربة تمثل بالنسبة إليهم «رياضة» لا يمكنكهم الاستغناء عنها حسب تعبير المؤرخ (P. de Cenival)(65). لقد كانوا يفرضون مشاركتهم في الغارات والحروب، ويخالفون أوامر وتعليمات رؤسائهم بحثا عن مناوشة المغاربة، حتى ولو لم تكن الظروف تسمح بذلك(66). وكان منهم من تصرف بوحشية كبرى. فبعد غارة استهدفت دواوير بالشاوية سنة 1519، أسر البرتغاليون 197 شخصا كانت ضمنهم زوجة ابن القائد الناصر بودومة، التي كانت يداها ورجلاها مثقلة بالحلي. وتملك الجشع نبيلا برتغاليا سارع إلى قطع أطراف الفتاة

---

(61) A. Costa Lobo, **História**, *Op. cit.*, pp.235-237; O. Martins, **Os filhos**, *Op. cit.*, p.13 ; L. Coelho et D. Lopes, **Documentos**, *Op. cit.*, p.272.

(62) A. Costa Lobo, **História**, *Op. cit.*

(63) E. de Zurara, **Crónica de Guiné**, *Op. cit.*, p.45. H.Cidade, **A Literatura**, *Op. cit.* I, pp. 24 et ss. M. Barradas de Carvalho, "L'idéologie religieuse dans la Crónica de Guiné", **Bulletin des Etudes Portugaises**, XVIII, 1955, pp.47-48.

(64) A. de Albuquerque, **Cartas de... seguidas de documentos que as elucidam**, Lisboa: Academia Real das Sciências, 1884, I, pp.199, 278, 295, 325, etc. *Cf.* aussi : A. Baião (direction de) **História da Expansão portuguesa no mundo**, *Op. cit.* II, p.118 ; D. Peres (direction de) **História de Portugal**, *Op. cit.*, IV, pp.42 et s.s.

(65) **S.I.H.M.** Port., I, p.1.

(66) B. Rodriguês, **Anais**, *Op. cit.*, I, p.167, 246 ; II, p.122 et ss. D. Lopes, "Os Portugueses...", *Op. cit.*, IV, p.92, etc.

«ليستولي على الحلي بكل سهولة»(67)! وتكثر بالمصادر البرتغالية الإشارات إلى مثل تلك التصرفات(68).

ومن جهة أخرى، لا تدع المصادر التي اعتمدناها أدنى شك بشأن تراجع القيم الأخلاقية لدى البرتغاليين، وانتشار الرذيلة بينهم. فقد شاع الزنا بين جميع الأعمار والفئات الاجتماعية. وتبين «رسائل العفو» التي سبقت دراستها أن الزنا كان من أهم أسباب جرائم القتل. فقد ضبط أشخاص وهم يزنون مع أمهات زوجاتهم أو مع أخواتهن(69). ووصلتنا إشارات إلى هروب عدد من النساء من بيوتهن للالتحاق بعشاقهن. وكان من هؤلاء من اختص في إغراء النساء المتزوجات وإبعادهن عن بيوتهن طمعا في جمالهن أو مالهن(70). وكان الزانون أحيانا شيوخا ضبط بعضهم عدة مرات.وكثر متخذو الخليلات، حتى وإن كن أخوات، وكان منهم من أنجب من الأختين أبناء(71)!

وتشير مصادر محاكم التفتيش، التي سنعود إلى تحليلها، إلى عدد من النبلاء وكبار الدولة الذين اشتروا من أجل المتعة عددا من الأسيرات احتفظوا بهن بنفس البيت الذي كانت تعيش به الزوجة الشرعية، وأنجبوا منهن أحيانا(72). ولم يسلم الرهبان من السقوط في الرذيلة والجري وراء الشهوات، إذ كان منهم من أنجب أطفالا لم يتورعوا فيما بعد في مساندة ترشيحهم لمراكز عليا في الكنيسة(73). وتؤكد مصادر محاكم التفتيش بدورها تفشي ظاهرة الزنى، وقلة اكتراث الناس، وضمنهم الرهبان، بنداءات الكنيسة(74).

---

(67) D. de Góis, *Op. cit.*, pp.184-185.

(68) A.N.T.T., **Cartas dos governadores de Africa**, doc.n°76; **S.I.H.M. Port.**, II, 2ème partie, p.425.

(69) P. de Azevedo, **Documentos**, *Op. cit.*, I, p.228, 603.

(70) *Ibid.*, I, pp. 60, 319 ; II, pp. 49, 513, 624, 626, 637.

(71) *Ibid.*, I, p.377 ; II, p.66.

(72) Inq. Evora, Proc. n° 4497 fol. 2 v°; n°5006 fol. 2 r°; n° 9177 fol.4 r°; Inq. Lix. Proc. n° 6732 fol. 2 v°; n° 9310 fol.12 r°.

(73) J.S. da Silva Dias, **As correntes do sentimento religioso em Portugal**, Coimbra, 1960, I, p. 60. A. Herculano, **História da orígem**, *Op. cit..*, III, p.40.

(74) Inq. Lix. Proc. n° 7075 fol. 15 r°. Inq. Lix. Proc. n° 710, sentence. Inq. **Lix. Liv. denúncias**, II, fol. 41 v°. Inq. Evora, Proc. n° 11252, fol. 5 r°. Inq. Evora, Proc. n° 8433 fol.2r°

وفضلا عن الزنا، انتشرت ظاهرة الاغتصاب. ووقفنا على حالات غريبة ببعض محاضر محاكم التفتيش(75). كما انتشر اللواط بين كل الأعمار والفئات والأجناس(76)، وظهرت دور مختصة بلشبونة أصدرت محكمة التفتيش أمرا بإغلاقها(77).وقد جمعنا من الوثائق ما يسمح بتزكية استنتاج الهولندي كليناردو الذي كتب بأنه يتعذر أن تجد بالبرتغال كله شابا يصل طاهرا عفيفا إلى الزواج. لذا لم يخف خوفه على أخيه الذي لحق به من معاشرة «شبان فقدوا عفتهم»(78).

صحيح أن هذه الشهادات لا تسمح، على كثرتها وتنوعها، بتعميم حكمنا هذا على المجتمع برمته.غير أن مهام الأشخاص المشار إليهم في الوثائق، وأعمارهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وقلة خوفهم على سمعتهم، والسهولة الكبيرة التي كانت السلطات تتعامل بها مع الزناة، تسمح بالجزم بأن المجتمع البرتغالي كان متعودا على الرذيلة ومتسامحا بشأنها.

هل يمكن اعتبار استنتاجنا هذا، والذي يشاطرنا فيه باحثون برتغاليون معاصرون، مؤشرا على تراجع الشعور الديني خلال القرن السادس عشر؟

لقد أكد الباحث José Sebastião da silva Dias، الذي انكب لمدة طويلة على مشكل الشعور الديني بالبرتغال خلال القرن الذي يهمنا، أن البلد المذكور مر بأزمة دينية حقيقية خلال القرن السادس عشر(79). فقد حمل الرهبان، بجهلهم لعقيدتهم، وغيابهم

---

(75) Inq. Lix. Proc. n° 1604 fol. 1 r°, 2 r°.

(76) انظر حالة ذلك الجندي المسن الذي كان يعمل بحامية أزمور والذي التحق بلشبونة لأسباب إدارية:
Inq. Lix. Proc. n° 4079 fol. 2 v°, 4 v°.

وعن الأحداث راجع : *Cf.* Inq. Lix.proc. n° Proc. n° 4026 fol.3 v°.

انظر حالة راهب كان يتعامل مع صبيين كانا يساعدانه بشكل مرضي:
Inq. Lix. proc. n° 12641, fol.3-7.

انظر كذلك محاكمة نبيل برتغالي بنفس التهمة:
Inq. Lix. Apartados, pasta 5, proc. n°3529.

وعن محاكمات المغاربة بسبب التهمة ذاتها، راجع:
Inq. Lix. Proc. n° 12108, 1617, 2033 etc. Inq. Evora, Proc. n° 8056, etc.

وعن السود، راجع:
António Negro : Inq. Lix. Proc. n° 10868.

وعن اليهود المتنصرين : Inq. Lix. Proc. n°5887, fol. 2 v°.

وعن المسيحيين الأقحاح:
Inq. Lix. Proc n° 4039, 10988, 5883, 5887 etc.

(77) Inq. Lix. Proc. n° 5887 fol. 1 v° ; n° 12588 fol. 1 v°.

(78) G. Cerjeira, *Op. cit.*, I, pp.169-202.

(79) J.S. da Silva Dias, **As correntes.**, *Op. cit.*, I, p.41.

عن كنـائسهم وأديرتهـم، وبالتفســخ الذي عرفـتـه قيمـهم، مـسؤولـية كبـرى في ذلك. وذكر بأن الـشعب لم ينـقطع، من خـلال ممثليه فـي الكورتيس، عـن المطالبـة بإصلاح الأوضاع، وباتخاذ الإجراءات الزجرية اللازمة(80).

ووصلتنا شهـادات كثيرة عن تقصير الكنـيسة بالبرتغال في القيـام بدورها. فقد أكد الملك يوحنا نفسه في رسالة إلى سفيره بالفاتكان، على المستوى المنحط الذي كان عليه كـهنـة ورهبـان البـلاد. ففـي الأديرة بـلغ الـتـفسـخ أوجه، وانـحصـر همّ رؤسـاء تلـك المؤسـسات في تـوفيـر كل شروط الـعيش الـرغيـد من خيـول أصيلـة، وكلاب وطـيور للصيد، وعدد كبير من الخدام والعشيقات اللواتي أنجبن لهم أطفالا احتفظوا بهم داخل نفس الأديرة. وكانت الراهبات، اللواتي ولد بـعضـهن داخل نفس المؤسسات، قد أنجبن أبناء احتفظن بهم داخلها حتى ولو كانـوا ذكورا. وظل الشعب جاهلا لدينه طالما أنه لم يجد من يعلمه إياه، وذلك رغم كثرة الرهبان. فقد بلغ عددهم في قرية صغيرة أربعين، كانوا يقـضـون وقتهم في الـتنافس حول إقامـة الصلوات والدفن وبـقية الشعائـر.واختار كثير منهـم الرهبنة للإفلات من يد العـدالة المدنية. وتزوج عدد كبير مـنهم سرا، الأمر الذي تسبب في قتل كثير من الأبناء الذين أنجبوهم(81).

وبالطبع، بـدأ الناس يفقدون ثقتهـم في الرهبان، وشرعوا في التـساؤل عن الداعي إلى ذلـك الجيـش من رجـال الديـن الذين بـلغ عـددهم راهـبا لـكل 36 مواطنا(82)! فقد اعتقلت محكمة التفتيش الدينية بلشبونة Andre Fernandez، لكونه تسـاءل «عن الداعي إلى وجود رهبان، لكونهم لا يصلحون لشـيء، ولكونهم لصوصا يسرقون الجميع، ولا يفعلون شيئا غير الأكل»(83)!

لذا لم تـكن عامة الـبرتغاليـين تعرف إلا القـليل من ديـنها. فقد اسـتغرب برتـغالي جهل مواطنيـه للمبادئ الأساسية لعقـيدتهم، بينما أكد أحد الجـزويت أن سكان شمال البلاد كانوا يجهلون دينهم كما لو كانوا وثنيين(84)!

(80) *Ibid.*, I, pp. 44-45, 51,53. A. Herculano, **História da origem**, *Op. cit.*, I, p.176.
(81) A. Herculano, *Op. cit.*, III, pp.36-40 ; J.S. da Silva Dias, *Op. cit.*, I, pp. 50-54.
(82) V.M. Godinho, "Complexos histórico-geográficos", in : **Ensaios**, II, p. 28 ; A. Herculano, *Op. cit.*, III, pp. 36-38.
(83) Inq. Lix. Proc. n° 1050 fol. 7 r°.
(84) J.S. da Silva Dias, *Op. cit.*, II pp. 60-61.

وتؤكد وثائق محاكم التفتيش ما عاينه هؤلاء الملاحظون.فقد كان برتغالي اعتقل لسبب أخلاقي، قليل المعرفة بعقيدته(85). وكان آخر يجهل جل الصلوات(86)، بينما عجز بحار عن ترتيلها، ولم يعرف سبب احتفال المسيحيين بعيد مولد السيد المسيح(87)! وبالطبع، كان هذا المجتمع الجاهل لعقيدته عاجزا عن تلقينها لمن فرض عليهم التنصر من المسلمين واليهود والمجوس.

وهكذا تخلى البرتغاليون شيئا فشيئا عن القيام بشعائرهم الدينية، وقل اعتبارهم لها. فقد حوكم مئات االبرتغاليين بسبب القذف الذي استهدف كل رموز المسيحية(88). وحوكم شخص كان يردد أنه لا يرى داعيا للقيام بالشعائر الدينية، وكان يحصر المسيحية في الإسم والإيمان لا غير(89). وكان قبطان طنجة وعاملها، حسب عدة شهادات، قليل التردد على الكنيسة وكثير الاستهزاء بمن يفعل ذلك.كما اتهم بمعارضة تنصر بعض الأسرى. وأكد راهب طنجة للمحققين الذين استدعوه للشهادة أن المتهم كان قليل الإيمان، وأنه كان متزوجا بإبنة أخته، وأنه كان يكره مستخدميه على العمل يوم الأحد والأعياد، وأنه قليلا ما كان يتردد على الكنيسة للصلاة(90).

وبالرغم عن هذه الشهادات التي لم نورد إلا بعضها، يمكن التأكيد على أن الشعب بقي، مع ذلك، متمسكا بعقيدته التي كيفها مع مستواه الثقافي وهمومه اليومية.فقد اختار لنفسه تصورا بسيطا للدين امتزجت فيه الخرافات وبقايا الوثنية بالعقيدة الكاثوليكية(91). لقد كان الاعتقاد راسخا في السحر والقوى الطبيعية حتى لدى المثقفين(92) وقضاة محكمة التفتيش(93).

---

(85) Inq. Lix. Proc. n° 4079 fol. 5 v°.

(86) Inq. Lix. Proc. n° 5540 fol. 17 r°.

(87) Inq. Lix. Proc. n° 9518 fol. 10-12 r°.

(88) Inq. Lix. Proc. n° 1601, sentence.Inq. Lix. Proc. n° 1691 fol. 1 r°. Inq. Lix. Proc. n° 9518 fol. 3 r°. J. Delumeau, **La peur**, *Op. cit.*, p. 401.

(89) J.S. da Silva Dias, **As correntes**, *Op. cit.*, I, pp.60-62. Inq. Lix. Proc.n°6747,fol.5 v°.Inq. Lix. Proc. n° 3990 fol. 18r°

(90) Inq. Lix. Proc. n° 12572 fol. 140 v°.

(91) G. Fereire, **Maîtres et esclaves, la formation de la société brésilienne**, Paris : Gallimard, 1978, pp. 52, 217.

(92) G. de Resende, **Miscelânea**, *Op. cit.*, p.378.

(93) Inq. Evora, Proc. n°5044 fol. 5 r°; 9470 fol. 9 r°.

وتسمح مصادر ووثائق كثيرة بالوقوف على جانب آخر من جوانب الشعور الديني لدى برتغاليي عصر التوسع والكشوف. لقد كانوا بسبب نجاحهم السياسي والعسكري يشعرون باعتزاز ديني ووطني كبير، وكانوا يعتبرون أنفسهم أسمى الشعوب المسيحية(94).

لقد برر مثقفو القرن السادس عشر المنجزات العظمى التي حققها وطنهم رغم صغره وقلة إمكاناته، بتبرير ديني. فنجاح البرتغاليين يعود في رأيهم إلى نبل الحوافز التي دفعتهم إلى المخاطرة وركوب البحر. فبخلاف الإغريق والرومان، لم يكن البرتغاليون يتوخون، في رأي أولئك المثقفين، إلا هدفا واحدا هو نشر المسيحية على حساب الوثنية والإسلام. لذا اعتبروا جنودهم «فرسان العقيدة والإيمان»(95). فهم يعتبرون أن التوسع المذكورلم يكن يهدف إلى الربح بقدر ما كان يطمح إلى القضاء على الإسلام ونشر المسيحية في كل الربوع التي لم تكن تدين بها(96). وكان هذا الاعتقاد راسخا لدى كل من الحكام والمثقفين. فقد أكد الملك يوحنا الثاني في إحدى رسائله أن دور الملوك المسيحين يجب أن يقتصر على نشر المسيحية، دون اعتبار التضحيات، وهو الأمر الذي تجند له أسلافه(97). ولام الإخباري باروش (J. de Barros) باقي الأمم المسيحية على تقاعسها عن القيام بذلك الواجب، ومعاكستها للمجهود البرتغالي بتنافسها فيما بينها، وبتحالفها مع المسلمين(98). لذا لم يتردد أولئك الكتاب في صب جام غضبهم على الشعوب الأوروبية وحكامها. فقد اعتبروا الألمان «ثوارا على خليفة السيد المسيح»، واتهموا العاهل الفرنسي بالخيانة، بينما اعتبروا أن الملك الإنجليزي «الذي منح نفسه دينا مسيحيا جديدا»، لم يكن يتورع في محاربة المسيحيين. كما اتهموا الإيطاليين بخيانة قيم ماضيهم المجيد، وبالتناحر فيما بينهم(99).

(94) In: H. Cidade, **A Literatura,** *Op. cit.*, I, p.15. Luís de Camões, **Os Lusíadas**, *Op. cit.*, p.190.

(95) H. Cidade, *Op. cit.*, I, pp.37 et ss. G. Cerejeira, *Op. cit.*, p.181, note 1.

(96) H. Cidade, *Op. cit.*, I, p. 46 et ss. J.S. da Silva Dias, **Os descobrimentos e a problemática cultural do século XVI**, Lisboa, Editorial Presença, 1982, p.48 et ss ;L.F. Barreto, **Descobrimentos e Renascimento, formas de ser e pensar nos séculos XV et XVI**, 2e éd. Lisboa : Imprensa Nacional - Casa da Moeda, 1983, pp. 160-161.

(97) M. Tavares, "Judeus e Mouros...", *Op. cit.*, pp.87-88.

(98) J. de Barros, **As Décadas da Asia,** Lisboa : Agencia das Colónias, 1945, II, p. 43 ; H. Cidade, *Op. cit.*, I, pp.46-47.

(99) L. de Camões, **Os Lusíadas**, *Op. cit.*, pp. 228-229.

لقد كان المثقفون البرتغاليون متيقنين من نبل وسمو التوسع الذي شرعت فيه بلادهم، وأكدوا بالتالي أنه الأحسن على الإطلاق، حتى ولو كان توسع الشعوب الأخرى أكثر مكسبا. فقد نصح (Gil Vicente) مواطنيه بعدم التفريط في طابعهم العسكري، وعدم التحول إلى تجار كالجنويين، حتى ولو انعكس ذلك سلبا على مستوى عيشهم(100). ووقف كتاب آخرون نفس الموقف من التوسع البرتغالي(101). إلا أن تمكن البرتغال الصغير الرقعة، والقليل السكان، من إنشاء تلك الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، كان في رأي مثقفي القرن السادس عشر فوق طاقة البلاد. لقد كانت تلك «المعجزة» إذن نتيجة حتمية لتدخل القدرة الإلهية لصالح «شعب الله المختار» (povo eleito)(102). ولم يقتصر هذا التبرير الديني على كتاب الكنيسة، بل تبناه آخرون مشبعون بثقافة أكثر حرية، كالإخباري (دو كويش) الذي اعتبر مبايعة (دون أمنويل) أولا، ثم بلوغ التوسع في عهده مداه، علامة على تدخل إلهي «لكي يسمو إسمه المقدس ويمجد عبر العالم أكثر مما كان عليه من قبل»(103). كما أن الإخباري (دو باروش) كتب صراحة أن الإله كلف البرتغاليين بالانتقام للمسيحية من الإهانات التي تعرضت لها على يد المسلمين، وإلا كيف يفسر أن تكون الدولة الواقعة في أقصى غرب الأمم المسيحية هي الحاملة للواء الحرب ضد الإسلام بالمشرق والمغرب على السواء(104). لقد كان أولئك المثقفون يشعرون بنوع من تبادل الخدمات بين الإله وشعبه المختار.فهذا الأخيرمكلف بنشر المسيحية على «أن يرعى الإله أرواح شعبه». فقد اعتقدوا أنه كلما عجزت الوسائل البشرية إلا وتدخلت العناية الإلهية لحماية الشعب المختار. لقد أكد الإخباري (دو كويش)، رغم فكره النقدي، أن العناية الربانية هي التي جعلت الأمواج تقذف بكميات هائلة من الجراد البحري ليشفي المرضى ويشبع الجائعين من سكان مدينة كننور (Cananor) المحاصرة من لدن المسلمين(105). وتزخر المؤلفات البرتغالية بمثل هذا النوع من التبرير(106).

(100) Cité par H. Cidade, **A Literatura**, *Op. cit.*, pp.81-82.
(101) *Ibid.*, pp. 177-180.
(102) H. Cidade, *Op. cit.*, I, p.61.
(103) *Ibid.*, loc. cit.
(104) J. de Barros, **As Décadas**, *Op. cit.* II, p. 43.
(105) de Góis, **crónica**, *Op. cit.*, II, p. 55.
(106) *Ibid*, pp 62-64; L. de Camões, *Op. cit.* p. 297.

وبذلك يكون البرتغاليون قد أعطوا غاية واحدة لتوسع بلادهم، تنحصر في القضاء علي الإسلام الذي كان يمثل خطرا على المسيحية.فهذا الموقف الذي تبلور خلال مرحلة السيطرة المطلقة على البحار والمحيطات، تحول بسرعة إلى خوف مرضي بظهور إرهاصات التراجع بعد مبايعة يوحنا الثالث سنة 1521. وسنذكر بعجالة أهم مظاهر ذلك التراجع قبل تحديد أهم انعكاساته على السيكولوجية الجماعية بالبرتغال.

لقد كانت الإمبراطورية البرتغالية تعتمد على ثلاث مناطق أساسية: سواحل غرب أفريقيا التي تزود المتربول بالعبيد والتبر، الهند والشرق الأقصى التي كانت تجلب منها التوابل والحرير والعقاقير، وأخيرا منطقة فلندرا، بشمال غرب أوروبا، التي كانت أهم سوق لعرض سلع الشرق الأقصى، وللتزود بالأنسجة والسلاح والفضة الألمانية وبرؤوس الأموال(107). واستفاد البرتغال كثيرا من احتكاره للتجارة بالمناطق المكتشفة، ومن تحكمه في البحار.فقد كانت التجارة الخارجية تدر على الدولة البرتغالية ضعف مداخليها الداخلية(108).

غير أن هذه الوضعية تغيرت بعد 1521. فقد تطلبت المقاومة المتزايدة للبرتغال بالهند والخليج العربي والبحر الأحمر والمغرب(109) تعزيز الحاميات، والإكثار من السفن، والرفع من أعداد الموظفين، الأمر الذي أثقل كاهل الخزينة. وتزامنت هذه الصعوبات السياسية والعسكرية مع تراجع كميات الفضة الألمانية والتبر الإفريقي التي كانت تدخل البلاد. وأسهم التهريب، الذي كان يعمل على تكسير الاحتكار البرتغالي، في تقلص النفوذ البرتغالي. وقد شمل التهريب كل أطراف الإمبراطورية، من سواحل المغرب حتى الشرق الأقصى، وذلك عبر الطرق البرية والبحرية على

---

(107) F.Mauro, **Le XVI e siècle européen, aspects économiques**, Paris: P.U.F., 1966, pp 152-155; V.M.Godinho, " Complexos históricos...", pp. 23-24.

(108) V.M. Godinho, " Les finances publiques et la structure de l'Etat portugais au XVIe siècle", **Economia**, XIV, Lisboa:1962.

(109) أحمد بوشرب، **دكالة**... صص. 349 وما بعدها، **نفسه**: «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي»، **المناهل**، عدد 26، صص. 32 - 83.

السواء. وتراجعت لذلك التجارة البرتغالية بسبب مزاحمة التجار المسلمين والفرنسيين والإنجليز والهولنديين(110).

كما ضايق القراصنة كثيرا التجارة البرتغالية. فقد تضرر البرتغاليون من القرصنة الفرنسية التي كانت فيما بين 1520 – 1530 تختطف لهم سنويا عشرين سفينة. ومعلوم أن حمولة السفن البرتغالية كانت أغلى من غيرها أربع أو خمس مرات(111). وقد أصبحت الوضعية خانقة بالنسبة للملاحة البرتغالية بعد 1550.وقدر باحث برتغالي تكلفة تعزيز الأسطول، والخسائر بسبب القرصنة، والمصاريف التي تطلبتها الاتصالات الدبلوماسية بفرنسا قصد الحد من ضربات القراصنة، بـ 105000 كروزادو كل سنة فيما بين 1520–1550، أي خمس مداخيل البلاد ! كما قدر ما ابتلعته الخسائر بسبب القرصنة خلال سنة 1572 وحدها بمليون كروزادو، أي أربع مائة مليون ريال برتغالي(112)!

وفي الوقت الذي تراجعت فيه عائدات التجارة، وتزايدت فيه الخسائر بسبب نشاط القراصنة، كان على الخزينة البرتغالية تحمل مبالغ مالية كبرى من أجل حماية الإمبراطورية والدفاع عنها.

فإذا كانت مصاريف إدارة الثغور المغربية الثمانية المحتلة بلغت فيما بين 1515–1530 : 1250 كروزادو كل سنة، فإنها تضاعفت بعد التاريخ الأخير. وبلغ مجموع ما صرف كرواتب سنة 1534 وحدها 25000 كروزادو. وكلفت المساعدات الموجهة إلى آسفي التي كان أحمد الأعرج السعدي يحاصرها 10000 كروزادو(113). وبالطبع كانت المصاريف أكبر بكثير في الخليج العربي والهند التي اعتبرت بمثابة بالوعة للأموال البرتغالية(114).

---

(110) V.M. Godinho, "Le tournant mondial de 1517-1521", **Studia**, n° 1 Lisboa: 1958, pp.184-199; **Ensaios**, *Op. cit.*, II, pp 205-221; *Idem*, **Os Descobrimentos**..., *Op. cit.*, II pp. 164 et ss.; "Les incidences de la course et de la contrebande sur l'économie portugaise au XVIe siècle", **Economia**, XIII, Lisboa, 1960, pp 151 et s.s.
ونشرت ترجمة برتغالية للمقال بـ: **Ensaios**, *Op. cit.*, II, 181-203.
وقد أشار نفس المؤلف للتراجع البرتغالي بنفس الكتاب، ج 2، صص. 25، 270 - 271.

(111) V.M. Godinho, "Les incidences...", *Op. cit.*, p. 147.

(112) *Ibid*, 155; *Idem*, **Ensaios**, *Op. cit.*, II, p. 243.

(113) D. Lopes, "Os Portugueses...", *Op. cit.*, IV,, pp. 128-129; L. de Sousa, *Op. cit.*, pp. 160-190; J. Goulven, **Safi aux vieux temps des Portugais**, Lisbonne, 1938, p 109.

(114) V.M. Godinho, "Le tournant...", *Op. cit.*, pp. 197-198; **Os Descobrimentos**..., *Op. cit.*, pp. 154-156-161 et s.s.

وعانت الخزينة البرتغالية من عجز كبير ودائم. وأزم الوضعية سوء التسيير وتبذير البلاط، وإنفاق نسبة كبيرة من مداخيل الدولة في زواج الأمراء والأميرات، وفي مختلف الامتيازات المخولة للنبلاء(115). وقد اضطرت الدولة إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات لتفادي الإفلاس. وكان من أهمها الرفع من الضرائب واللجوء إلى القروض الداخلية بفائدة 7٪ والخارجية بفائدة 25٪. وسرعان ما أصبحت فوائد تلك القروض تمثل في حد ذاتها عبئا كبيرا. فقد بلغت الفوائد المؤداة سنويا فيما بين 1522-1543: 100000 كروزادو. وسرعان ما تجاوزت خدمات القروض كل أرباح التجارة الخارجية البرتغالية(116).

ولتجاوز هذه الأزمة كان على المسؤولين الاختيار بين ثلاثة حلول:

- التقليل من السفن الموجهة إلى الهند. إلا أن التهديد العثماني الذي تزايد هناك حال دون اتخاذ مثل ذلك القرار،

- الحد من الامتيازات المخولة للنبلاء. وكان هذا الإجراء يفرض الاعتماد على المرتزقة دون ضمان نفس الحماس والاندفاع الوطني الذي عبر عنه النبلاء والفرسان البرتغاليون في عدة مناسبات، وخصوصا خلال حصار أحمد الأعرج لآسفي،

- إخلاء الثغور المغربية التي لم تكن تضمن أي ربح مادي أو عسكري(117).

وفضل العاهل البرتغالي الحل الأخير، وفكر جديا في تنفيذه منذ 1529(118)، غير أن معارضة النبلاء ورجال الدين القوية حالت دون ذلك، لاعتقاد تيار واسع بالبلاد أن الحروب الصليبية بالمغرب تمثل حلا لمشاكل البلاد التي سبقت الإشارة إليها(119). لذلك عارض الكثير من البرتغاليين قرار يوحنا الثالث القاضي بإخلاء آسفي وأزمور بعد اندحار جيوشه بمدينة أكادير في ربيع 1541(120) ومدينتي أصيلا والقصر الصغير سنة 1550 إثر دخول محمد الشيخ فاس(121). فقد اعتبر المنادون بإعلان حرب

(115) *Ibid*. "Le Tourant...", *Op. cit*., pp. 197; "Les finances" *Op. cit*., p.113; **Ensaios**, II, p. 62.

(116) *Ibid*., loc. cit.; **Ensaios**, II, p 60;"Les finances...", *Op. cit*., p. 114; A.J. Saraiva, **Inquisição**..., *Op. cit*., p. 55; A. Her culano, **História da orígem**... *Op. cit*, III, pp. 24, 32, 34.

(117) V.M. Godinho, "Les finances... ", *Op. cit*.,p. 110.

(118) **S.I.H.M**. Port., II, pp. 443-445.

(119) **S.I.H.M**. Port., II, p. 522.

(120) *Cf*. **S.I.H.M**.. Port., III; p. 340; J. Figanier, **História de Santa Cruz do Cabo de Gué,** Lisboa: Agência Geral das colónias, 1965, pp. 183 et ss. *Cf* . **S.I.H.M. Port**. , IV, pp 335-338.

(121) **S.I.H.M. Port.**, IV, pp. 338 et ss.

صليبية شاملة بالمغرب ذلك التراجع خيانة عظمى(122)، ويرروا به مختلف الأزمات التي كانت البلاد تتخبط فيها(123). وتزايد عدد المنادين بتلك الحرب الصليبية بعد موت الملك يوحنا الثالث سنة 1557. فخلال حصار الغالب السعدي لمازيغن سنة 1562، بلغ عدد المتطوعين حدا جعل السلطات تحول دون عبورهم جميعا إلى المغرب(124). كما أن الكورتيس نادى في اجتماعه سنتي 1562-1563 بإعلان الحرب الصليبية بالمغرب التي اعتبرها أحسن حل لمشاكل البلاد(125). ولم تكن مغامرة (دون سبستيان) بالمغرب سنة 1578، والتي انتهت بالهزيمة المشهورة، إلا محاولة لتنفيذ تلك الرغبة.وقد أعطى الرأي العام آنذاك لفاجعة وادي المخازن، التي فقدت البلاد بسببها استقلالها وخيرة رجالها، تفسيرا يتلاءم وسيكولوجية الوقت التي تشكلت في ظل ظرفية امتازت بأزمة عامة : لقد اعتبرت تلك الكارثة عقابا إلهيا لشعب خان المهمة الموكولة إليه(126).

وانعكست الأزمة الخانقة التي كانت البلاد تتخبط فيها خلال النصف الثاني من القرن السادس عشرعلى ذهنية البرتغالي الذي أضحى يخاف كثيرا على عقيدته وحريته، خصوصا وأن الأوضاع الدولية كانت في غير صالح بلاده. وأسهم الإصلاح الديني، وتزايد الخطر العثماني برا وبحرا، وتكرر ضربات الجهاد البحري بالأبيض المتوسط والمحيط، في تعزيز ذلك الشعور.لذا تعددت أسباب الخوف لدى برتغالي ذلك العهد: فإذا كان الخوف على العقيدة من الأقليات الدينية المتنصرة قد استوجب إحداث محكمة التفتيش، فإن الخوف من الهرطقة والأفكار الجديدة أحدث رقابة صارمة على الأفكار والكتب أوكلت إلى تلك المحكمة(127). وأضحى الاتصال

(122) L. de Sousa, *Op. cit.*, p. 157.

(123) Durval Pires de Lima, **História da dominação portuguesa em çafim**, Lisboa: 1930, p.107; F.S Loureiro, **D. Sebastião**..., *Op. cit.*, pp. 32-83.

(124) F.S. Loureiro, **Jornada del Rey dom Sebastião à Africa**, Lisboa: Imprensa Nacional, 1978, pp. XII-XIII.

(125) *Ibid.*, p. XV.

(126) *Ibid.*, pp. XXV-XXVII; **D. Sebastião**..., *Op. cit.*, pp. 75-77-83, 93; M.E Cordeiro Fereira, "D. Sebastião", in: **Dic.Hist.Port**. V, pp. 515-518.; A. Ribeiro, "Relação de vida d'El-Rey D. Sebastião", édit. par F.S. Loureiro, **Revista da Faculdade de Letras de Lisboa**, IVe série, n° 2, 1978, p. 540; F.S Loureiro, **Jornada**..., *Op. cit.*, p.124.

(127) I.S. Révah, **La censure inquisitoriale portugaise au XVIe siècle**, Lisboa: Instituto de Alta Cultura, 1960.

بالأجنبي يعتبر أحيانا جنحة كما يتجلى ذلك من خلال محاكمة الإخباري (دو كويش)(128)، ومن خلال السؤال التالي الذي وجهه محقق إلى متهمة: «سئلت عما إذا كانت قد تناقشت مع شخص أجنبي قد يكون لقنها شيئا غير مألوف لدى المسيحيين». وقد سار الجواب في الاتجاه الذي ينتظره المحققون، إذ قالت: «إنها لم تتناقش مع أي أجنبي، كما أنها لم تغادر قط بلدها، وأنها ولدت بهذه المدينة»(129). وقد كان تزايد العداء للأجانب من أهم نتائج هذا الشعور بالخوف.فقد عزا الكورتيس المجتمع سنتي 1562-1563 الانحلال الخلقي وتفشي الرذيلة إلى كثرة الأجانب بالبلاد(130).

وهكذا نلاحظ أن تكوّن جالية مغربية بالبرتغال بعد 1521 تزامن مع مرور البلاد بأزمة إقتصادية وأخلاقية ودينية حادة. وبالطبع لم تتأخر هذه الأزمة في الانعكاس على السيكولوجية الجماعية، وعلى موقف البرتغالي من الآخر، سواء كان يهوديا أو مسلما، كما سنرى ذلك في فصول لاحقة.

---

(128) Inq. Lix. Proc. n° 17170; I. da Rosa Pereira, "O Processo de Damião de Góis na Inquisição de Lisboa (4 de Abril 1571-16 Dezembro 1572)", **Anais da Academia Portuguesa de História**, 2e série, vol XXIII, tome I, 1975, pp. 118-156.

(129) Inq. Lix. Proc. n° 12159, fol. 24 v°.

(130) F.S. Loureiro, **D. Sebastião**..., *Op. cit.*, p. 74; Jornada.., *Op. cit.* p.XI.

أمر باعتقال المدعوة Anna de Melo بتهمة القيام بطقوس إسلامية

(البكاء على زوجها المتوفى حسب الطريقة المغربية، التصدق بالكسكس، الترحم على المتوفى)

(Inquisição de Evora, Processo n° 6868, fol. 1r°)

الباب الثاني

موقف المغاربة من البرتغاليين وقيمهم

الفصل الرابع

ظروف الإقامة في البرتغال

مما لا شك فيه أن انعكاسات الأوضاع المعيشة الصعبة في البرتغال، والتي تفاقمت كما لاحظنا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، كانت أخطر على الأجانب. فقد تعذر على أشخاص. أكرهوا على ترك المال والبنين بمسقط الرأس، وأجبروا على الإقامة ببلد عرف فيه الغلاء أوجه، التكيف مع ظروف عيشهم الجديدة، خصوصا وأنهم حرموا من البنيات الأسرية والقبلية التي كانوا متعودين عليها، والتي كانت توفر لهم ما كانوا يحتاجونه من حماية وتآزر. ومن جهة أخرى، كان أولئك النازحون إما أعرابا رحلا أو من أعيان بعض المدن، أي أنهم لم يكونوا يحسنون أية صنعة يمكن أن تضمن لهم مستوى عيش محترم.

لذا كان المغاربة، الأحرار منهم والعبيد، يقومون بأعمال مضنية. غير أنه يجب التمييز في هذا الباب بين من كانوا يعيشون في حالة أسر، ومن كانوا أحرارا.

فالأسرى، الذين كانوا يمثلون نسبة مهمة من الجالية المغربية، عانوا من إكراهين: ففضلا عن ظروف العيش القاسية التي عانى منها كل المغاربة، حرم هؤلاء من حريتهم ومن صفتهم الآدمية، إذ كان المجتمع آنذاك يعتبر الأسرى مجرد بضاعة. لذا تعاقب على ملكية بعض الأسرى المغاربة عدد من الأسياد. فبعد أسر Breatiz Fernandez بضواحي آسفي، بيعت لمزارع يقطن Vila Redondo استغلها مدة أربع عشرة سنة قبل إعادة بيعها لراهب مقيم بمدينة Vila Viçosa خدمته ثلاث سنوات قبل

أن تستعيد حريتها وبمعيتها طفل أنجبته خلال عبوديتها(1). وبيعت المغربية Luzia، التي وصلت إلى لشبونة سنة 1518، لمسيحي محدث أعاد بيعها بمدينة Elvas. وأعاد المالك الجديد بيعها لشخص لم يحتفظ بها طويلا(2). وقد كان المسيحيون المحدثون أكبر المضاربين في الأسرى المغاربة(3) الذين بيع بعضهم بإسبانيا وفي المستعمرات(4).

وكان الأسرى يبادلون بعبيد آخرين، أو يعارون أو يقدمون كهدايا في بعض المناسبات(5) كما كانوا يورثون ويقدمون كقسم من الصداق(6). ومثل العبيد في نفس الوقت وسيلة إنتاج ومظهرا من مظاهر الغنى، كما كان اقتناؤهم يعتبر استثمارا مربحا بالنسبة للمواطن العادي، خصوصا في حالة اقتناء أسيرة في سن الإنجاب(7). لذا كان الإقبال عليهم كبيرا من لدن مختلف فئات المجتمع البرتغالي. فحتى الكنيسة، من الراهب البسيط إلى الأسقف، أقبلت على تلك "السلعة". وتبقى الأسر النبيلة، والملكية على وجه الخصوص، أكبر مالك للأسرى والعبيد، إذ ضمت قصورها المئات منهم(8).

وكلف الأسرى المغاربة ببعض المهام التي ميزتهم عن باقي الأسرى والعبيد: فقد اعتنوا بالدواب، وبالخيول على الخصوص، لمعرفتهم الطويلة بها بحكم أصولهم البدوية. كما وظفوا في الأعمال الزراعية واجتثاث الغابة واستصلاح الأراضي بالجزر الأطلسية، وكذا في أوراش البناء. وانحصرت مهمة بعضهم في حمل المياه

---

(1) Inq. Lix. Proc. n° 1104, fol. 6 v°

(2) Inq. Evora. Proc. n° 10769, fol. 6 v°.

(3) Inq. Lix. Proc. n° 10864, 7 v°; n° 3182, fol. 4 v° et 6 r°, n° 9193, fol. 25 r°; Evora, Proc. n° 10769, fol. 6 v°.

(4) Inq. Lix. Proc. n° 10864, 7 v°; n° 9884, fol. 12 r°.

(5) Inq. Lix. Proc. n° 3984, fol. 3 r°; n° 5254, fol. 4 r°; 9235, fol. 4 r°.

(6) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol. 8 r°; n° 9236, fol. 8 r°; n° 4031, fol. 5 v°; n° 1636, fol. 46 r°.

(7) Inq. Evora, Proc. n° 1636, fol. 20 r°.
وردت بهذا المحضر إشارة إلى شراء مغربي لعبد بأربعين ألف ريال، أي ما يعادل أربع مرات الثمن الذي دفعه في شراء بغلة .

(8) Inq. Lix. Proc. n° 12383, fol. 7 v°; n° 12684, fol. 1 r°, 16 r°; Evora, Proc. n° 8062, fol. 2 r°; n° 11323, fol. 2 r°. Inq. Lix. Proc. n° 6471 fol. 3 r°, fol. 2 r° n° 4031. عن امتلاك التجار للعبيد
وعن المزارعين Inq. Lix. Proc. n° 10876, fol. 6 r°, Evora, Proc. n° 6085, fol 6 r°; n° 9193, fol. 9 r°.
وعن عدد العبيد بالقصر الملكي Inq. Lix. Proc. n° 6466, fol. 7 V°, n° 10712, fol. 14 v°; n° 3932, fol. 2 r°
وعن الأسر النبيلة: Inq. Lix. Proc. n° 2970, fol. 13 v°, n° 12042, fol. 8 v°; n° 9515, fol. 7 r°; n° 2945, fol. 4 v°; n° 2255, fol. 9 v° etc.

من السواقي...(9). وكان من لا يجد عملا يشغل به أسيره يدفعه إلى الخروج إلى سوق الشغل ويلزمه بدفع مبلغ مالي كل يوم. فقد صرحت Anna Roboa أمام المحققين أن سيدها كان يفرض عليها أن تدفع إليه كل يوم عشرين ريالا(10).

وبالطبع كان الأسرى يعتبرون، حسب عقلية الوقت، مجرد أشياء قابلة للبيع أو المقايضة. ولم تكن كرامتهم تؤخذ بيعن الاعتبار. فقد كان الكثير منهم يجوب الأزقة والأسواق وهو مثقل بالسلاسل والأغلال(11)، التي كان البعض منهم يحملها حتى خلال ما كان يوكل إليه من أعمال شاقة(12). وللتمكن من تمييز أسراهم وعبيدهم عن غيرهم اعتاد البرتغاليون رشم علامات معينة بالنار على وجوههم. فقد ذكر مغربي وُصف بأنه «أسير موريسكي يحمل سلاسل»، أنه رآى «موريسكيا ملتحيا، أبيض اللون، على خدّيه علامات أو حروف»(13). كما رشم صليبان على خدّي ابن مغربيين أنجب خلال أسرهما(14). وقد كانت الظاهرة عامة إلى حد أن المحققين اعتادوا مساءلة المتهمين عما إذا كان الأشخاص المبلغ عنهم يحملون تلك العلامة(15).

وتزخر مصادر محاكم التفتيش بالإشارات إلى معاناة الأسرى من سوء معاملة أسيادهم. فقد جلد المسمى Luís عدة مرات بأمر سيده، بينما اشتكى João Coelho كثيرا من قساوة ممون أحد النبلاء الذي كان يسيء إليه بالضرب والإهانة(16). كما برر أسير آخر محاولته الفرار من البرتغال بالمحن التي يتحملها «ببيت مولاه حيث يشرف سبع مرات في اليوم على الموت»(17).

ولم يقتصر سوء المعاملة على الأسرى المغاربة، بل عانى منه كل المسلمين.فقد اشتكى تركي أسير للمحققين من قساوة سيده الذي كان يثقله بالسلاسل

(9) Inq. Lix. Proc. n° 10712, fol. 7-8,21 v°, 34 r°; n° 2255, fol. 9 v°; n° 10872, fol. 6 r°; n° 6449, fol. 9 r°; n° 2257, fol. 6 v°; n° 3564, fol. 6 v°; Evora, Proc. n° 6085, fol. 6 r°; Lix. Proc. n° 12863, fol. 8 v°, 9 v°; n° 12320, fol. 9 v°, etc.

(10) Inq. Lix. Proc. n° 6753, fol. 7 r°; n° 10921, fol. 4 v°; n° 1636, fol. 39-40.

(11) Inq. Lix. Proc. n° 1623, fol. 8 v°

(12) Inq. Lix. Liv. das reconciliacões, I, fol. 35 r°, Proc. n° 10837, fol. 23 v°, 1626, 6 v°; n° 12869, fol. 10 v°; n° 1208, fol 10 r°.

(13) Inq. Lix. Proc. n° 12067, fol. 2,5.

(14) Inq. Lix. Proc. n° 9236, fol. 3 r°. Evora, Proc. n° 5245, fol. 13 r°.

(15) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol. 10 v°; n° 8425, fol. 51 r°.

(16) Inq. Lix. Proc. n° 9519, fol. 7 v°

(17) Inq. Lix. Proc. n° 10712, fol. 15 r°.

ويميته جوعا(18). واشتكى هندي من قساوة سيدته التي كانت تسيء معاملته وتتركه شبه عار(19). وصرح عبد من حوض السنيغال بأن سيدته «كانت تأمر بخلع ثيابه وتجلده بكل قساوة وبدون سبب أو مبرر»(20). وبرر كل العبيد الذين اعتقلتهم المحكمة بسبب تنظيمهم محاولات فرار من البرتغال قيامهم بذلك بمعاناتهم من قساوة أسيادهم أو العاملين تحت إمرتهم(21)، الأمر الذي يسمح لنا من الآن بأخذ فكرة عن العوائق التي حالت دون اندماج أولئك الأجانب في المجتمع المضيف.

وبالفعل، انعكست، وبسرعة كبيرة، ظروف العيش على سيكولوجية الأسير المغربي. فقد حكم المغاربة بقساوة على البرتغال وسكانه، وأصبحوا يرون فيه بلد الحرمان والمعاناة من العبودية ومختلف الإهانات، حيث كانوا يعتبرون مجرد بهائم. فقد أكد أحدهم أن عبوديته تجعل منه مجرد حمار(22). لذا أجمعوا على ضرورة البحث عن وسيلة للفرار والعودة إلى المغرب. فقد نصح مغربي مواطنا له بالفرار في أقرب وقت ممكن بقوله: «ماذا نفعل هنا؟ فلنذهب إلى بلاد المسلمين لأننا نموت هنا جوعا ونعاني من سوء المعاملة»(23). وغدا جل المغاربة المقيمين في حالة أسر بالبرتغال يتساءلون بشأن إقامتهم بالبرتغال التساؤل التالي: «لماذا علينا أن نتحمل الأشغال والأسواط والإهانة؟ فلنذهب إلى بلاد المسلمين، ولنفر إلى هناك»(24).

وانعكست الأوضاع الصعبة على موقف الأسرى من المسيحية. فالردة التي كانوا يتوخون منها تحسين أوضاعهم والحد من عداء المسيحيين لهم، لم تفد في شيء. فبعد أن ارتد أسير تركي، أرسل إلى أحد الأوراش للعمل إلى جانب أسرى مسلمين، فوجد هؤلاء متعة في الاستهزاء به والسخرية من الحظوة التي خصه بها إخوانه الجدد في

---

(18) Inq. Lix. Proc. n° 5824, fol. 5 v°.

(19) Inq. Lix. Proc. n° 351, fol. 4r°; n° 3304, fol. 11 v°.
واضطرت محكمة التفتيش مرتين على الأقل لشراء لباس لمعتقلين شبه عراة: Inq. Lix. Proc. n° 10843, fol. 1 r°; n° 12319, fol. 1 v°.

(20) Inq. Lix. Proc. n° 6731, fol. 7 r°; 10870, fol. 9 r°.

(21) Inq. Lix. Proc. n° 6424, fol. 3 r°; n° 9236, fol. 6 v°; n° 12869, fol. 7 v°; n° 12042, fol. 11 r°; n° 10843, fol. 4 r°, 11 r°, 16 r°; n° 10712, fol. 15 r°; n° 12084, fol. 7 r°, n° 7245, fol. 10 r°, n° 1626, fol. 10 r°; n° 12827, fol. 5 v°; n° 12320, fol. 5 r°; n° 12829, fol. 2 r°; n° 2947, fol. 6 r°.

(22) Inq. Lix. Proc. n° 10712, fol. 33 r°.

(23) Inq. Lix. Proc. n° 6440, fol. 2 r°.

(24) Inq. Lix. Proc. n° 10821, fol. 2 r°.

الديـن. لذا لم يتـأخر في محـاولة الفـرار صحبتـهم قبـل اعتقالـه ومحاكمـته(25). وكان بعض المغاربـة ينظرون إلى المسيحـية نظرة طبقية ويـعتبرونها دين الأسيـاد فقط. فقد أخبر Cristovão Fernandez المحققين بـحديث معبر دار يومـا بين بعض الأسرى: فبـينما كان يردد صـحبة أسيرين آخـرين بعض الصـلوات المسيحـية، لامهم بحدة أسـير آخر وعاب علـيهم إيمانهـم بإله وبديانـة خاصين بالـبرتغاليـين. وادعى المبلغ أن المخـاطبين فهمـوا سبب غضبه، فطمأنـوه وأكـدوا له أن الله «قـادر على تحريره وإرجاع الحرية إليه»(26).

وبالـفعل امتـنع عدد كـبير مـن الأسرى عن الردة. فـقد كان الـذين تنـعتهم وثـائق محكمة الـتفتيش بـ«مسلـمي الشارة» (mouros de sinal) (لكونهـم كانوا ملزمين بـحمل شارة مميزة)، في حـالة أسر، وكـانوا قليـلي الإكتـراث بالتـنصر لـيقينـهم بأن ذلـك لن يمكـنهـم من تحـسين ظروف عـيشـهم، وأن ردتهـم ستـحرمـهم من إمـكانـية الافـتداء بواسطة أقارب أو عن طريق «الـفكاكين» الذين كانوا يقبلون على البـرتغال بين الفينة والأخرى(27). وفضـلا عـن هذا، تأكدوا بـالتجربـة من أن الردة كانـت تؤدي حتمـا إلى الاعتـقال من لدن مـحكمة الـتفتيـش بدعوى التـمسك بالإسـلام، وأن المحققين «كـانوا يسارعون إلى اعتقال الموريسكيين فور تنصرهم»(28).

وسنرى في فصل لاحق الدور الذين لعبه أولئك المسلمون في بقاء من تنصـر منهم متمسكا بدينه وهويته الثقافية.

وانعكـست ظروف الأسر الـصعبة كـذلك على عواطـف المغاربة. فـحسب تبـليغ توصلت به محكمة التـفتيش، فضلت مغربية قتل ابنتها قبـل فرارها من البرتغال على تركها تعاني من حالة الأسر(29). واتهمت أخرى بـقتل فلذات كبدها لـرفضها «إنجاب أبناء أسرى»(30). ووقفـنا بمحـضر محاكـمة مغـربية عـلى إشارة تـفيد اتهـام مغربـية تمكنت من الفراربقتل فتاة عثر على جثتها(31).

---

(25) Inq. Lix. Proc. n° 10712, fol. 7 v°.
(26) Inq. Lix. Proc. n° 7960, fol. 6 v°, 7 r°.
(27) Inq. Lix. Proc. n° 708, fol. 14 v°; n° 12383, fol. 2 v°, n° 6424, fol. 4-5; n° 9280, fol. 13 r°.
(28) Inq. Lix. Proc. n° 9290, fol. 4 r°.
(29) Inq. Lix. Proc. n° 3182, fol. 8 r°.
(30) Inq. Lix. Proc. n° 6258, fol. 20 v°.
(31) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol. 17 v°.

ولجعل حد لهذه المحن، لم يكن أمام الأسرى إلا خياران: إما الافتداء أو الفرار والعودة إلى مسقط الرأس. وبالطبع لم يكن الحلان في متناول الجميع. فقد عانى Gonçalo من الأسر مدة الأربعين سنة التي قضاها في البرتغال(32). أما Catarina Fernandez، التي قضت بالمهجر نفس المدة، فإنها لم تنعم منها إلا بخمس سنوات من الحرية قبل اعتقالها من لدن محكمة التفتيش(33).

واستعاد بعض الأسرى حريتهم بعد أن أنعم عليهم أسيادهم بذلك، خصوصا في حالة ردتهم عن الإسلام، كما فعل الملك البرتغالي ذلك عدة مرات(34). غير أن أغلب من استعاد حريته أدى عنها ثمنا غاليا. وتزخر مصادر محاكم التفتيش بالإشارات إلى الأثمان التي كان الأسياد يطالبون بها، وإلى طريقة الدفع.

لقد كان الثمن الأكثر ذكرا هو عشرون ألف ريال(35)، غير أنه يبدو أن سن الأسير وبنيته الجسدية كانا يحددان الثمن المطلوب. وهكذا تراوح ما دفعه المغاربة بين 10000 ريال، وهو أدنى ثمن وقفنا عليه، و50000 ريال، وهو أعلاه(36). وحصل بعض الأسرى على المبالغ المطلوبة من الأهل بالمغرب كما حدث لـ Diogo de Melo، أو تم جمعها بعرق الجبين(37). وكان منها ما أدي دفعة واحدة، أو في شكل أقساط. فقد استعاد أحدهم حريته بدفع 28000 ريال خلال أجل حدده سيده في سنة(38). وسمح لأسير آخر بمغادرة المدينة التي يقيم بها مالكه لجمع المبلغ المطلوب لافتداء نفسه(39). لذا وقفنا بمحاضر محاكم التفتيش على حالات كان فيها بعض الأسرى نصف أحرار لدفعهم نصف الثمن المطلوب(40).

---

(32) Inq. Lix. Proc. n° 12487, fol. 5 v°.
(33) Inq. Lix. Proc. n° 3577, fol. 6 r°.
(34) Inq. Lix. Proc. n° 12690, fol. 3 r°; n° 11684, fol. 1 r°; n° 11128, fol. 3 v°; n° 1636, fol. 28 r°; Evora, Proc. n° 9288, fol., 17 v°, etc.
(35) Inq. Lix. Proc. n° 10849, fol. 7 v°; n° 7695, fol. 10 r°; n° 7457, fol. 3r°; 4169, fol. 5 v°; 10837, fol. 65 r°, etc.
(36) Inq. Lix. Proc. n° 8582, fol. 6 v°; n° 9909, fol. 5 v°; n° 12383, fol. 4 v°; 10864, fol. 7 v°; n° 10837, fol. 41 v°.
(37) Inq. Lix. Proc. n° 259, fol. 4 r°.
(38) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 41 v°.
(39) Inq. Lix. Proc. n° 7457, fol. 6 r°.
(40) Inq. Evora, Proc. n° 6736, fol. 7 r°.

وبالرغم من أهمية المبالغ المطلوبة لافتداء الأسرى، استطاع جل المغاربة استرجاع حريتهم في الآجال المحددة لهم لتماسكهم وتآزرهم. فقد تطوع بعضهم لاستجداء ما يسمح بتحرير مواطنيهم.لقد اعترف أحدهم أنه ومغاربة آخرين كانوا يقصدون دور المغاربة «وهم يعزفون بآلة موسيقية ويرددون: إلق هنا بصدقة حبا في محمد وفي ولي من أولياء المسلمين لمساعدة هذه المسلمة أو تلك المورسكية، وذلك باللغة العربية وبحضور عدد كبير من المورسكيين»(41). ويبدو أن المشهد كان يتكرر خلال اليوم الواحد. فقد اعترف نفس المتهم أنه ساهم مرتين في يوم واحد « بعشرين ريال في كل مرة لتحرير بعض المورسكيين»(42).

وكوّن أربعة مغاربة فرقة موسيقية كانت تنتقل خلال الآحاد والأعياد بين بيوت المورسكيين« قصد طلب مساهمة في افتداء بعض المورسكيين الأسرى»(43). إلا أن الأقارب، من زوجات وأهل أو أصدقاء، كانوا يدفعون النصيب الأوفر من ثمن الفدية(44).

ونظرا لتآزر المغاربة الذي سنعود إليه، شملتهم رياح الحرية أكثر من غيرهم من الجاليات الإسلامية الأخرى. لقد كان 71٪ من233 مغربي وصلتنا عنهم معلومات دقيقة، أحرارا وقت اعتقالهم من لدن محكمة التفتيش، بينما لم نقف ولو على تركي أو سوداني واحد حر، رغم كثرتهم. كما لم نقف إلا على هنديين حرين، وثالث لم يكن قد استكمل حريته، وكان عليه أن يدفع النصف الآخر من الفدية(45).

وتعذر على الأسرى تكوين أسر والاستفادة مما كانت توفره الحياة العائلية من استقرارلمنع بعض الأسياد أسراهم من الزواج(46). كما أن الذين انجبتهم أسيرات كانوا يعتبرون عبيدا، وانتزع جلهم من آبائهم في سن مبكرة وبيعوا بداخل البلاد أو خارجها(47).

---

(41) Inq. Lix. Proc. n° 11128, fol. 5 v°.

(42) *Ibid*, loc. cit.

(43) Inq. Lix. Proc. n° 5153, fol. 7 v°; Evora, Proc. n° 6258, fol. 20 r°.

(44) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 65 r°; n° 7246, fol. 4 r°; n° 12383, fol. 2 v°; n° 8582, fol. 20 v°, 41 r°.

(45) Inq. Evora, Proc. n° 6462, fol. 29 r°; n° 6736, fol. 7 r°; Lix. Proc. n° 708, fol. 20 r°.

(46) Inq. Lix. Proc. n° 2970, fol 7 r°; n°1636, fol. 41 r°.

(47) Inq. Lix. Proc. n° 6732, fol. 2 v°; Evora, Proc. n° 10824, fol. 2 v°; n° 4648, fol. 1 v°, etc...

وكان القسم الثاني من الجالية المغربية يتكون من الأشخاص الأحرار "forros" الذين استطاعوا افتداء أنفسهم في الظروف السابقة الذكر، أو دخلوا البلاد من تلقاء أنفسهم للأسباب التي سبق لنا التعرض لها، والتي كانت السياسية والقضائية أهمها.

لقد كان على اللاجئ إلى البرتغال أو الأسير الذي استرجع حريته أن يبحث بكل استعجال عن شغل ومأوى. غير أن أصل المغاربة المكونين أساسا من رحل أو من أعيان بعض المدن، لم يسمح لهم باحتراف مهن مريحة تضمن مردودا محترما.لذا اضطر بعضهم إلى العيش من أعمال لم تكن تتلاءم ومكانتهم الاجتماعية الأصلية. فالقائد سيدي ناصر، الذي رافق السلطان الوطاسي إلى البرتغال، وجد نفسه مجبرا على العمل بإسطبل والمبيت به(48). وسجلنا حالات مشابهة كثيرة(49). وعرف ابن أحد أعيان تطوان ظروفا أصعب. فبعد فراره من تلك المدينة صحبة أسرى مسيحيين،والتحاقه بالبرتغال بعد مغامرة سبقت الإشارة إليها، عانى كثيرا في الحصول على مشغل، ولم يتم له ذلك إلا بعد تدخل محسن برتغالي(50).

لقد كان المغاربة الذين يصلون إلى العاصمة البرتغالية يسارعون إلى الاتصال بمن سبقوهم إلى هناك لمعرفة إمكانيات العمل المتوفرة، و«للبحث عن سبيل لضمان القوت بتلك البلاد»(51).

كان جل المغاربة الأحرار حمالين بميناء لشبونة أو بسوق الحبوب بها. ويفهم من تبليغ توصلت به محكمة تفتيش لشبونة أن سبعة من "موركسيي" مدينة Tavira كانوا حمالين، وأن آخر كان راعيا(52). وقد كادت الشبكة التي كانت لا تغادر أكتاف الحمالين أن تصبح رمز إقامتهم بذلك البلد(53). وبما أن العمل بالميناء لم يكن كافيا لارتباطه بوصول المراكب، فقد اعتاد الحمالون العمل بسوق الحبوب(54).وكان الذين يتنافسون من أجل الحصول على شغل بالمكانين المذكورين كثيرين(55). واستغل

(48) Inq. Lix. Proc. n° 7700, fol. 8 r°.
(49) Inq. Lix. Proc. n° 1617, fol. 2 r°-3 v°.
(50) Inq. Lix. Proc. n° 1114, fol. 12 v°-13 r°.
(51) Inq. Lix. Proc. n° 13187, fol. 5.
(52) Inq. Evora, Proc. n° 9193, fol. 6 r°.
(53) Inq. Lix. Proc. n° 1636, fol. 4 v°.
(54) Inq. Lix. Proc. n° 172, fol. 3 v°, 5 r°; n° 2263, fol. 74, n° 10832, fol. 6 v°.
(55) Inq. Lix. Proc. n° 10832, fol. 6 v°.

بعضهم فرص الشغل الموسمية التي كانت توفرهامنطقة "الغرب" Algarve بالجنوب البرتغالي خلال موسم جني الغلال أو صيد سمك التون. فقد كان موسم الصيد المذكوريضمن شهرا من العمل(56). واعتاد المغاربة المقيمون بالمنطقة المذكورة الالتحاق بأرخبيل الأصورللحصاد أومقايضة بعض السلع بالحبوب التي كانت تنتج هناك بكثرة(57). وكان من المغاربة من استمر بعد افتداء نفسه في العمل، مقابل راتب، في نفس الإسطبل الذي كان يعمل به خلال مدة أسره(58).

واشترى عدد من المغاربة دوابا سخروها للكراء إما داخل الميناء أو لنقل السلع بين المناطق البرتغالية، وبينها وبين إسبانيا(59).وكان مغاربة آخرون يعيشون من بيع الحطب أوالكلإ أوالقصب أو ماء الشرب أو السمك(60). وفتح تسعة منهم خمارات كانوا يبيعون بها الخمر والطعام(61).

وعانت المغربيات بدورهن من الأعمال الشاقة والمرهقة.فقد كان جلهن يعيش من غسل الثياب بالأنهار والأودية، ومن عزل السمك وتجفيفه بميناءي لشبونة أو ستوبال، أو ببعض الأفران(62). وكانت Catarina de Eça الوحيدة التي تحسن حرفة مريحة إلى حد ما تتمثل في صناعة الزرابي(63). وكانت Briatiz Pires تشرف على حانة «تبيع بها الخمر والطعام»(64).

وفضلا عن كون مهن أغلب المغاربة مؤقتة تفرض مددا طويلة أحيانا من البطالة، فقد كانت كذلك شاقة ومتعبة، خصوصا بالنسبة لأفراد تقدم بهم السن ولم يكونوا، كما سنرى، يستفيدون من تغذية كافية. لقد كان المسمى João Fernandez حمالا بسوق

(56) Inq. Lix. Proc. n° 10849, fol. 10 v°; n° 708, fol. 3 v°. etc.
(57) Inq. Lix. Proc. n° 10854, fol. 10 r°.
(58) Inq. Lix. Proc. n° 6787, fol. 5 v°; n° 5254, fol. 3 r°.
(59) Inq. Lix. Proc. n° 6471, fol. 3 v°; n° 12690, fol. 2 r°.
(60) Inq. Lix. Proc. n° 12689, fol. 5 v°; n° 10849, fol. 16 v°; n° 4116, fol. 6 v°; n° 172, fol. 3 r° etc. Inq. Coimbra, Proc. n° 3864, fol. 35 v°.
(61) Inq. Lix. Proc. n° 12932, fol. 3 r°; n° 6424, fol. 3 r°; n° 3590, fol. 15 v°.
(62) Inq. Lix. Proc. n° 3590, fol. 15 v°; n° 3191, fol. 8 r°; n° 7692, fol. 7 r°; n° 6762, fol. 7 r°; n° 7693, fol. 3 r°; 9239, fol. 4 v°; n° 4026, fol. 8 r°; **Liv. denúncias**, II, fol. 44 v°, Lix. Proc. n° 8223, fol. 51 r° etc.
(63) Inq. Lix. Proc. n° 9681, fol. 2 r°.
(64) Inq. Lix. Proc. n° 12932, fol. 3 r°; n° 6424, fol. 3 r°.

حبوب لشبونة رغم سنواته الستين، وكان يعاني لذلك بين الفينة والأخرى «من آلام بضلوعه، وكانت الأكياس التي يحملها ترهقه»(65). ومات مغربي تحت برميل كان يحمله(66)، في حين قضت مغربية نحبها وهي تغسل ثياب مشغليها(67).

ورغم قساوة هذه الأشغال وظرفيتها، فإنها لم تكن تسمح إلا بمداخيل هزيلة. وقد عبر أحدهم عن العلاقة بين الأجر الهزيل والمجهود العضلي المضني بقوله: « إنهم كانوا بهذا الميناء يكسرون ضلوعهم بالتبن كالحمير، دون أن يوفروا في نهاية العام لا ريالا ولا سبتيا»(68). وأكد المسمى António de Sousa أنه وباقي المغاربة لم يكونوا يطيقون العيش بالبرتغال لأن الإقامة به «تفرض عليهم أن يعملوا ويكدوا بدون انقطاع، وأنه وإن كان يكد ويشقى، فإنه لم يكن يجد ما يقتات به»(69).

وأجمع كل المغاربة المقيمين بالبرتغال على أن خلاصهم يكمن في الفرار والعودة إلى وطنهم، وكان مبررهم في ذلك قساوة ظروف الإقامة بالبرتغال.فقد برر مغاربة لأحد مواطنيهم عزمهم على الفرار بقولهم: «إنهم عازمون على الذهاب إلى بلاد المسلمين لأنها وطنهم أولا، وثانيا لأنهم وإن كانوا لا يتوقفون هنا عن العمل، فإنهم يموتون جوعا»(70). وعاب مغربي دخل البرتغال خلال مجاعة 1521 على لاجئ سياسي تبذيره للمعاش الذي يتوصل به من الملك البرتغالي في الخمر مع أن «الذين سبقوه إلى هذا البلد منذ أن كانوا أحداثا لا يملكون شيئا، ولا يتجاوز أجرهم اليومي عشرين ريالا»(71).

وأرغمت هزالة الأجور وغلاء المعيشة الزوجين على العمل.فقد كان أحدهم حمالا بينما كانت زوجته تبيع الماء(72). وكان آخر في خدمة برتغالي بينما كانت زوجته تبيع بعض السلع بالميناء، إلخ(73).

(65) Inq. Lix. Proc. n° 5488, fol. 13 v°.
(66) Inq. Lix. Proc. n° 6754, fol; 10 r°.
(67) Inq. Lix. Proc. n° 9670, fol. 8 r°.
(68) Inq. Lix. Proc. n° 10864, fol. 11 v°.
(69) *Ibid*, fol. 6 v°.
(70) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 50 v°.
(71) Inq. Lix. Proc. n° 12626, fol. 24-25.
(72) Inq. Lix. Proc. n° 172, fol. 3 r°.
(73) Inq. Lix. Proc. n° 1636, fol. 10 v°; n° 12690, fol. 2 r°.

وعلى الرغم من هذه الأعمال الشاقة، عانت أغلبية المغاربة من الفاقة. فقد كانت Antónia Gonçalvez A Canaria تضطر بين الفينة والأخرى إلى التسول أو السرقة بميناء ستوبال (74). كما بررت Maria Fernandez محاولتها الفرار بفقرها وبعدم استعدادها «لقضاء عمرها في غسل الثياب والمعاناة من الفاقة»(75). لذا عجز عدد كبير من المغاربة حتى عن دفع ثمن الوجبات الغذائية التي كانوا يضطرون إلى تناولها بمقرات عملهم، وكانوا يدفعونها بالتقسيط أو بعد آجال معينة(76).

ويسمح لنا جرد الممتلكات الذي كانت محاكم التفتيش تأمر بإنجازه بعيد الاعتقال بأخذ صورة عن الفقر المدقع الذي كان المغاربة يتخبطون فيه. كما أن إشارات وردت ببعض المحاضر لا تدع أي مجال للشك في هذا الأمر المتوقع على كل حال(77).

وهكذا لم يكن في متناول جميع المغاربة ضمان القوت اليومي. وبالطبع كانت معاناة اللاجئين السياسيين أكبر لعدم تعودهم على الحرمان وعدم قدرتهم على تحمل الأعمال الشاقة. لقد وصل فاسي إلى البرتغال سنة 1554 صحبة حماه وصهره، واضطر، لكي يستفيد من المعاش الملكي، إلى التنصر حيث أصبح يسمى João de Sousa. وعاش عالة على صهره قبل أن يصرف له المعاش المذكور. ولما تزوج بنت أحد المغاربة المقيمين بلشبونة، اضطر إلى تركها ببيت ذويها وأقام عند أحد مواطنيه في انتظار صرف المعاش المذكور الذي تطلب تدخلا لدى العاهل البرتغالي(78).

وتراوحت القيمة اليومية لتلك المعاشات بين 30 و 40 ريالا. وبالطبع كان الغلاء يفرض على المستفيد البحث عن مورد إضافي. فقد أصبح أحد اللاجئين حمالا، بينما التحق آخر بالبحرية مقابل راتب شهري وصل إلى 1200 ريال(79). ونظرا لمعاناة البرتغال من بيروقراطية ثقيلة خلال القرن السادس عشر، فإن المعاشات لم تكن تدفع بانتظام، وفي حينها، الأمر الذي كان يؤزم أوضاع المستفيدين منها. ولإعطاء فكرة

---

(74) Inq. Lix. Proc. n° 6762, fol. 2 v°.
(75) Inq. Lix. Proc. n° 3590, fol. 15 v°.
(76) Inq. Lix. Proc. n° 12932, fol. 28 v°; n° 260, fol. 4 r°.
(77) Inq. Lix. Evora, n° 4432, fol. 22 v°-23 r°; n° 5336, fol. 20 r°; Lix. Proc. n° 7695, fol. 24 r°; n° 7692, fol. 7 r°; n° 1104, fol. 7 r°.
(78) Inq. Lix. Proc. n°12626, fol. 22 r°.
(79) Inq. Lix. Proc. n° 10934, fol. 11 r°, n° 11977, fol. 7 v°.

عن تضرر اللاجئين من تلك البيروقراطية نورد المثال التالي: فقد فر شخص من مراكش والتحق بمازيغن حيث خصه عاملها البرتغالي بعناية كبرى، إذ أشرف على تعميده وخصه بدرجة فارس وبمعاش. وللإسراع باستفادته من المعاش المذكور، سهل التحاقه بالبرتغال. إلا أن الحصول على موافقة الإدارة المركزية على المعاش المذكور تطلب من صاحبنا الإقامة بلشبونة سنة كاملة. وبما أنه يئس من قضاء ما أتى من أجله، فإنه حاول الفرار إلى المغرب رفقة مغاربة آخرين(80). واكتوى كل اللاجئين بنار البيروقراطية بالبرتغال. فقد برر برتغالي استدعاه دفاع لاجئ مغربي محاولة هذا الأخير الفرار من البرتغال الذي نزح إليه طوعا بالفاقة التي كان يعاني منها بسبب « تأخر صرف معاشه»(81). ولم تجد صرخات أولئك المستفيدين آذانا صاغية، وواجه لاجئون وفدوا على البرتغال بعد حوالي ثلاثة عقود نفس المشكل. فقد اشتكى المدعو Manuel Coelho خلال شهر أبريل 1587 من ضآلة تلك المعاشات ومن تأخر دفعها الذي كان يعرضه وذويه للجوع، خصوصا وأنه لم يكن يحسن أية حرفة. واعترف الشخص المذكور أمام المحققين بعزمه على الفرار«لكونه كان غريبا بهذه المدينة، وبدون وسيلة عيش تضمن قوته وقوت زوجته وابنته، ولكونه كذلك لا يملك غير المعاش الملكي الذي لا يتجاوز Tostão واحدا لم يصرف له منذ شهر. ونظرا لغيظه بسبب انسداد الأبواب في وجهه، ولعدم اتقانه لحرفة معينة، وبعد أن التقى يوما Constantino de Meneses و Manuel da Cruz، وهما موريسكيان مثله،كانا بدورهما مستاءين لعدم توصلهما بمعاشهما، اتفق معهما على العودة إلى بلاد البرابرة إذا ما أمكنهم ذلك»(82).

وبالطبع كان مستوى عيش غالبية الجالية المغربية متدنيا. فقد كادت الوجبات الغذائية أن تقتصرعلى الخبز والزيت، الأمر الذي لم يكن يتلاءم والمجهود العضلي المطلوب من أشخاص تقدم بهم السن، وأفنوا زهرة شبابهم في الأسر.وكانت الوجبات التي يقدم خلالها اللحم والخضر تكاد تقتصر على الولائم والمناسبات، من زواج، وعقيقة أو وفاة حيث كان الكسكس واللحم يقدمان كما سنرى بوفرة(83).

(80) Inq. Lix. Proc. n° 10820, fol. 6 r°.
(81) Inq. Lix. Proc. n° 6466, fol. 38 v°.
(82) Inq. Lix. **Liv. visitações**; *São Roque*, fol. 23 v°-24 r°.
(83) انظر على سبيل المثال:

Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 4 v°-5 r°; n° 3184, fol. 5 r°; n° 12689, fol. 2 v°; Evora Proc. n° 8582, fol. 7 r°, etc.

وقد حرص أولئك المغاربة، بالرغم من ضآلة مواردهم، على توفير بعض الأموال لأيام المرض أو العطل، أو للفرار إلى أرض الوطن. ووصلتنا إشارات إلى مبالغ مهمة ضبطتها محاكم التفتيش في حوزة بعضهم، كان منها ما احتفظ به عينا أو استثمر في شراء عقارات أو حوّل إلى ذهب أو فضة. فقد كان بحوزة المدعو João Mourisco يوم اعتقاله 10000 ريال، بينما صادر موظفو محمكة التفتيش 30000 ريال وجدوها في حوزة مغربي آخر(84). واضطر آخر إلى الاعتراف بإخفاء 50000 ريال قبيل اعتقاله(85). وكانت مغربية تملك بيتا قدرت قيمته بـ 100000 ريال(86)، إلخ. واشترى حمالون بعض البهائم بينما استثمر آخرون مدخراتهم في شراء عبيد سود(87).

ويبدو أن ظاهرة التمليك مست كثيرا من المغاربة(88)، إلا أنها لا تعكس تحسنا في مستوى عيشهم، بل على العكس من ذلك، كان الادخار يتم على حساب رفاهية المدخرين. فقد كانت Brytiz Viera، التي كانت تعتبر من لدن مواطنيها في وضعية اجتماعية مريحة «دوما وسخة ترتدي ثيابا رثة، وكانت كلما ذهبت إلى السوق لا تشتري لزوجها إلا الخبز الأسود»(89).

غير أنه وجد من المغاربة من استطاع جمع ثروة حقيقية.

فمنهم من لم يكن يجد صعوبة في قرض مواطنيه مبالغ مهمة قصد افتداء أنفسهم(90). واستطاع المسمى João Rodriguez شراء بيتين بمدينة Olivença بـ 70000 ريال(91). وكان آخر يعتبر نفسه في وضعية تستوجب الحمد والشكر لتمكنه من «إمتلاك المسكن والبستان»(92). إلا أن أغنى كل أفراد الجالية على الإطلاق كان هو الشاوي المسمى António Alberto. فبعد افتداء نفسه، فتح حانة بلشبونة كان يبيع بها الخمر والطعام. وقد شرع في الاهتمام بالمضاربات بشراء غلال كروم بعض النبلاء.

---

(84) Inq. Lix. Proc. n° 9884, fol. 14 r°
(85) Inq. Lix. Proc. n° 8493, fol. 2 v°
(86) Inq. Lix. Proc. n° 10839, fol. 5 v°.
(87) Inq. Evora, Proc. n° 5336, fol. 20 r°; Lix. Proc. n° 1117, fol. 3 v°; n° 10817, fol. 37 v°; **Liv. denúncias**, IV, fol. 128 v°.
(88) Inq. Lix. Proc. n° 6762, fol. 12 r°.
(89) Inq. Lix. Proc. n° 7693, fol. 3 v°.
(90) Inq. Evora. Proc. n° 8582, fol. 11 r°, 20 v°, 41 r°.
(91) Inq. Evora, Proc. n° 9823, fol. 16 v°.
(92) Inq. Lix. Proc. n° 7457, fol. 3 v°.

كما بدأ يقرض المزارعين على أن يكون الأداء من غلة الموسم المقبل. وكانت بعض المبالغ المقروضة مهمة حتى إن أحدهم اضطر بعد عجزه عن رد الدين إلى التنازل له عن استغلال مزرعته. وحينما اعتقلته محكمة التفتيش بتهمة محاولة الفرار إلى المغرب، طلب العفو والمغفرة عن خطيئته والتمس إطلاق سراحه عاجلا تفاديا لضياع ماله «المشتت في عدة أماكن»(93). وكان هذا المغربي يتصرف في مبالغ هائلة. فقد اكترى مثلا بيتا بحي Belém بضواحي لشبونة بـ 14000 ريال، ومزرعة بـ 15000 ريال. وكان المزارعون يدينون له بما مجموعه70000 ريال، كان يعتزم استرجاعها خمرا. وكان قبيل شروعه في التخطيط للفرار ينوي شراء بيت بلشبونة بـ 300000 ريال. وقد أنفق خلال الحفل الذي اعتاد موريسكيو العاصمة –الذين كان يرأس جمعيتهم– تنظيمه كل سنة4000 ريال. لذا ادعى أمام المحققين أنه «لا يمكنه مبارحة هذه الأرض التي أنعم الله عليه بها بكل ذلك الفضل»(94). وعلى الرغم من تلك الثروة التي كان كثير من البرتغاليين يحسدونه عليها، ضبط وهو يخطط للفرار في سفينة بحار برتغالي(95)، وكانت الحجج التي جمعتها المحكمة دامغة، مما يؤكد أن العامل المادي لم يكن وحده كافيا لتحديد موقف أولئك الغرباء من البرتغال.

لقد كان من الممكن أن يسهم الزواج والإنجاب بالمهجر في استقرار أفراد الجالية المغربية، وأن يخفف من وطأة الشعور بالغربة، وأن يساعد على مواجهة مختلف المشاكل المتولدة عن الإقامة في بلد يختلف في كل شئ عن الوطن. لذا سنرى الآن ما إذا توفر هذا العنصر لجاليتنا، وهل أمكنهم إقامة علاقات التآزر والتعاضد التي كانوا متعودين عليها داخل أسرهم وقبائلهم.

لقد دخل عدد كبير من المغاربة البرتغال في نفس السفينةالتي حملت بعض أفراد الأسرة. فقد كان لـ João Fernandez أخوان بيابرة وسبتة وثلاث أخوات بالبرتغال وستة من أبناء الأخ أو الأخت(96). وكان لآخر أم وأخ وعم(97). وأدخل مغربي آخر البرتغال

(93) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 2 r°, 39 r°.
(94) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 51 v°.
(95) *Ibid*, fol. 17 r°.
(96) Inq. Evora, Proc. n° 5203, fol. 2 v°.
(97) Inq. Evora, Proc. n° 9823, fol. 3 r°.

صحبة أخوين وأختين(98). ووقفنا على حالات كثيرة مماثلة بوثائق محاكم التفتيش(99).

غير أن إمكانيا ت الاتصال بين الأهل كانت شبه منعدمة. فقد كانت Leanor de Melo تجهل سنة 1559 ما إذا كانت أمها التي أدخلت صحبتها إلى البرتغال سنة 1513 ما تزال على قيد الحياة(100).

ولم يكن الزواج، رغم أهميته الاجتماعية، في متناول كل المغاربة. ففضلا عن وضعية العبودية التي كانت تحول أحيانا دونه، كان الفقر يؤخره كثيرا، رغم أن التكافل بين المغاربة كان يسهم في تجاوز المشكل المادي لتطوع بعضهم لطلب الصدقة وحث الآخرين على الإسهام «في تزويج فقراء»(101). ولم يستطع أبناء المغاربة الذين ازدادوا بالبرتغال الزواج بسهولة(102). وكان المغاربة الذين تمكنوا من الزواج خلال السنوات الأولى من إقامتهم بالبرتغال قليلين. إلا أن بعض اللاجئين السياسيين مثلوا استثناء لكونهم كانوا في عز شبابهم، وكانوا أحرارا ويستفيدون من معاشات ملكية(103). إلا أن زيجاتهم تمت مع بنات مواطنيهم. أما الباقون، فلم تتح لهم فرصة الزواج إلا بعد سنوات طويلة من الغربة، وبعد بلوغ الخمسين بالنسبة للأغلبية(104).

لذا لم تكن الحياة الزوجية تطول بسبب وفاة أحد الزوجين. فقد كانت المغربيات الأرامل كثيرات بمدينة Elvas، وكان منهن من تزوجن عدة مرات كالمسماة Margarita da Costa التي عاشرت بالتتالي ثلاثة أزواج، كان ثانيهم قد فقد بدوره زوجته قبل الدخول بها(105). كما أن عمل الطرفين خارج البيت طوال اليوم، وحدة الطبع الناتج عن صعوبة العيش وكثرة المشاكل، لم تكن توفر للمغاربة حياة عائلية

(98) Inq. Lix. Proc. n° 5174, fol. 1 v°.
(99) Inq. Evora, Proc. n° 4432, fol. 2 v°; n° 5174, fol. 1 v°; n° 6868, fol. 2 r°; n° 11323, fol. 2 v°; n° 7179, fol. 8 v°; n° 3038, fol. 2 v°; Lix. Proc. n° 10864, fol. 9, etc.
(100) Inq. Evora, Proc. n° 7472, fol. 2 v°.
(101) Inq. Lix. Proc. n° 1581, fol. 3 r°; n° 3184, fol. 11 v°.
(102) Inq. Evora, Proc. n° 6847, fol. 28 v°; Lix. Proc. n° 2970, fol. 5 r°.
(103) Inq. Lix. Proc. n° 12626, fol. 5 r°; 6466, fol. 13 v°.
(104) Inq. Lix. Proc. n° 10954, fol. 4 r°; n° 6728, fol. 12 r°; 12194, fol. 7 v°; n° 10953, fol. 4 r°; n° 3577, fol. 6 r°, etc.
(105) Inq. Lix. Proc. n° 12720, fol. 9 v°; n° 9670, fol. 15 r°; n° 11646, fol. 6 v°; Evora, Proc. n° 8433, fol. 6 r°, etc.

مستقرة.فقد كانت Isabel Fernandez تعيش لمدة سبع سنوات بمدينة Almeirim، بينما كان زوجها يقيم بلشبونة(106). واضطر João Barros إلى الزواج من جديد بعد أن هجرته زوجته(107). كما اضطرت Maria Alvarez إلى رعاية أبنائها الثلاثة بعد أن هجرها زوجها(108). وافترق أزواج بعد أيام قليلة من عقد قرانهم. فقد فرت المغربية Luisa Mendez من بيتها بدعوى عدم قدرتها على معاشرة «أعرابي»(109). وسجلت مصادر محاكم التفتيش حالات أخرى من الزيجات الفاشلة(110).

وكان من المغربيات من سبق لهن الإنجاب بالمغرب وانتزعن من أسرهن بأسرهن أو بيعهن خلال مجاعة 1521، ولم يتمكن من الزواج من جديد بالبرتغال. فقد كانت Francisca Fernandez أرملة وأما لثمانية أطفال قبل أسرها، ولم تجد زوجا رغم طول مدة إقامتها بالبرتغال(111). وعرف آخرون نفس المصير.

ويعكس الجدول التالي الحياة العائلية لأفراد الجالية المغربية بالبرتغال وقت اعتقالهم:

الحالة العائلية	العدد	النسبة
متزوجون	112	% 42,91
عزاب	96	% 36,78
أرامل	14	% 0,38
غير محدد	39	% 14,94

وبالطبع عاكس عدم استفادة المغاربة من حياة عائلية قارة استقرارهم بالبلاد واندماجهم بها، وزاد من حدة شعورهم بالغربة والحنين إلى الوطن، خصوصا وأنهم تركوا به الأهل والبنين.

(106) Inq. Lix. Proc. n° 5153, fol. 4 r°.
(107) Inq. Lix. Proc. n° 11128, fol. 3 v°.
(108) Inq. Lix. Proc. n° 3187, fol. 3 v°.
(109) Inq. Lix. Proc. n° 1636, fol. 34 v°.
(110) Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 6 r°; n° 1636, fol. 20 r°; n° 9681, fol. 6 r°; n° 4184, fol. 7 r°; n° 6471, fol. 2 r°; n° 1104, fol. 6 v°; Evora, Proc. n° 9470, fol. 22 r°.
(111) Inq. Lix. Proc. n° 12689, fol. 5 v°.

ومن الأكيد أن الإنجـاب بالغربة يمثل عـاملا من عوامل الاستـقرار. إلا أن الذين تمكنـوا من ذلـك كانـوا قلـة بسـبب الـزواج فـي سن مـتأخـرة، وكذا بـسبـب الأعمـال المتعـبة التي كانـت المرأة تتحمـلها وشدة البؤس الـذي كانت تعانـي منه. فمن مـجموع المغاربة الذين راجعنا محاضـر محاكماتهـم كان لأربعة وستين منهم فقط أبناء على قيد الحياة. ولم يتجاوز عدد من كان له ثلاثة أبناء أو أكثر 13 شخصـا. وتجدر الإشارة إلى أن من كان له أكبر عدد من الأبناء كان يقيم بيابرة وElvas.

عدد الأبناء	المجموع	النسبـة
طفل واحد	151	٪62،1
طـــــفلان	38	٪15،6
3 أطفال	5	٪2،05
4 أطفال	6	٪2،46
5 أطفال	1	٪0،41
6 أطفال	1	٪0,41
عدد غيرمحدد	28	٪11, 52
المجموع : 114 طفلا		

وفقد جل الذين أنجبوا أبنـاءهم مبكرا بسبب نسبة الوفيات المرتفـعة التي اختطفت أحيانا كل أبـناء المغاربة(112). كما فـقدت المغربـيات الأسيرات الأبنـاء الذين أنجبـنهم خلال أسـرهـن وذلك ببيعـهـم داخل البـلاد، بأماكـن كن يجـهلنهـا، أو بالخارج. فـقد رزقت الأسيرة Maria Fernandez ثلاثة أبنـاء عانوا بـدورهم من الـعبـودية، بيـنما ولدت مغربيـة أخرى طفلين بيعـا في سن مبكرة بـأماكـن لم تكن تـعرفها(113). ومثل الـمدعو João Fernandez استثناء لأنه أنجب أربع بنات وإبنين، وبعد وفاة زوجته الأولى، أنجبت زوجتـه الثانيـة بنتا أخـرى. وقد أخبر المحـققين خـلال محاكمـته أن ابنتـه البكر كـانت

(112) Inq. Lix. Proc. n° 1636, fol. 29 r°; n° 2263, fol. 7 v°; n° 7246, fol. 5 r°; n° 6471, fol. 3 v°, etc.
(113) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol. 8 r°; Evora, Proc. n° 10824, fol. 2 v°.

متزوجة بموريسكي، وأن الأخرى، التي كان عمرها ثمان سنوات، كانت تعيش معه. أما الأبناء الأربعة، فقد غادروا البيت. التحق أكبرهم، الذي كان عمره 18 سنة، بالبرازيل، بينما التحق الثاني، ولم يتجاوز سنه الرابعة عشرة، بالبحرية البرتغالية. وأكد ذلك المغربي أنه لولا تلك الأسرة التي كونها لاستغل فرصة ذهابه مرة إلى العرائش لشراء الحبوب لفائدة مشغله البرتغالي، للالتحاق بمسقط رأسه(114). وأنجب مغربي آخر أربعة أبناء التحقوا إما بقشتالة أو بالمستعمرات البرتغالية(115).

غير أن المصادر التي اعتمدناها تؤكد أن الذين استطاعوا إنجاب أبناء كثيرين كانوا أقلية، وأن أفراد الجالية التي تهمنا لم يستطيعوا خلق جيل جديد يعوض الجيل السابق. لذا تراجعت أعداد المغاربة كثيرا مع الزمن حتى كادت الجالية أن تندثر في نهاية القرن السادس عشر.

ويمكن إرجاع تقلص أعداد المغاربة لظروف العيش القاسية ونسبة الوفيات المرتفعة التي تنتج عنها، ولدى الأطفال على وجه الخصوص. كما أسهم بيع المغاربة وأبنائهم في إسبانيا والبرازيل والهند والجزر الأطلسية في ذلك(116). لقد كانت اعترافات المغاربة المعتقلين تشير إلى أشخاص ماتوا أو بيعوا بإحدى المناطق المذكورة. فخلال اعتراف المسماة Catarina da Cunha، ورد ذكر ثمانية أشخاص توفوا(117). واعترفت أخرى أن الذين كانوا صحبتها خلال قيامها ببعض الطقوس الإسلامية «إما ماتوا أو بيعوا خارج البلاد»(118). وقد سبقت الإشارة إلى التحاق بعض أبناء المغاربة كرها أو من تلقاء أنفسهم من أجل الكسب بإسبانيا وبمختلف نقط الإمبراطورية. وأسهم فرار مئات المغاربة كما سنرى في ذلك التراجع العددي. ومن

---

(114) Inq. Lix. Proc. n° 8425, fol. 11-13.
(115) Inq. Evora, Proc. n° 5174, fol. 1 v°-2 r°; n° 3038, fol. 2 v°; n° 11313, fol. 25 r°.
(116) Inq. Lix. Proc. n° 12487, fol. 10 r°; n° 10247, fol. 4 v°; Evora, Proc. n° 8614, fol. 18 v°.
وعن التحاق بعض المغاربة بإسبانيا، راجع .Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 6 r°
وعن الهند: Inq. Lix. Proc. n° 3568, fol. 9 v°-10 r°; n° 12626, fol. 3
وعن البرازيل: Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 6 r°
وعن جزر الأنتي: .Inq. Evora, Proc. n° 9470, fol. 18 r°
وعن الجزر الخالدات: Inq. Evora, Proc. n° 5174, fol. 1
وعن الرأس الأخضر: .Inq. Lix, Proc. n° 10837, fol. 10 v°
(117) Inq. Lix. Proc. n° 9670, fol. 15 r°.
(118) Inq. Lix. Proc. n° 8614, fol. 18 v°; 5174, fol 1 v°, n° 8859, fol. 1 r°, Lix. Proc. n° 1104, fol. 10 v°; n° 9278, fol. 13 v°-14 r°.

جهة أخرى، لمسنا لدى بعض المغربيات رغبة في تفادي الإنجاب حماية للأبناء مما يعانيه الآباء. فقد اعترفت Maria Lopez أن إحدى مواطناتها التجأت إليها لإجهاضها و«لإسقاط صبية كانت حاملة بها، إلا أن الأم والصبية توفيتا معا» .واعترفت نفس المغربية أنها «سمعت أن موريسكية أخرى تسمى Britez Mendez أجهضت نفسها بدعوى أنها ليست ملزمة بإنجاب أبناء أسرى»(119). وبالفعل تؤكد عدة قرائن هذا الموقف من إنجاب الأبناء في بلد الغربة. فقد عاش عدد من المغاربة حياة زوجية طويلة نسبيا دون أن ينتج عنها إنجاب(120).

لكل هذه الأسباب كان العمر قد تقدم بالمغاربة حين شروع محاكم التفتيش في مطاردتهم، كما يتجلى ذلك من خلال الجدول التالي :

العدد	السن
3	أقل من عشرين سنة
15	20–25 سنة
20	26–30 سنة
2	31–35 سنة
18	36–40 سنة
18	41–45 سنة

(119) Inq. Lix. Proc. n° 6258, fol. 20 v°.
(120) Inq. Lix. Proc. n° 2467, fol. 14 r°; n° 7560, fol. 19 r°; n° 2467, fol. 14 r°; n° 7693, fol. 7 r°; n° 9956, fol. 3 v°; Evora, n° 6462, fol. 2 v°; n° 9417, fol. 35 r°; n° 7472, fol. 2 v°; n° 8859, fol. 4 r°; n° 8055, fol. 3 r°; n° 5002, fol. 2 r°, etc.

46-50 سنة	46
51-55 سنة	23
56-60 سنة	38
61 -65 سنة	5
أكثر من 65 سنة	8
سن غير محدد	47

لقد كان سن 28٪ من المغاربة يتجاوز خلال محاكمتهم الخمسين سنة. وكانت أعمار13 منهم تتراوح بين 65-80 سنة. ومما لا شك فيه أن عدد المسنين كان أكبر لأن مصادرنا لم تذكر سن 47 مغربيا كانوا ممن طال مقامهم بالبرتغال.

أما الشباب، فقد كانوا ممن أنجبهم مغاربة خلال مقامهم بالبرتغال، أو من اللاجئين للأسباب السياسية التي هزت المغرب فيما بين 1550-1554 و1576-1578. ولم تتمكن هذه الفئة من تشبيب الجالية المغربية لقلة أعدادها من جهة، ولعجزها بدورها عن الاندماج وتورطها في عدة محاولات فرار إلى المغرب.

لقد تعذر إذن على عدد كبير من المغاربة تكوين عائلات والاستفادة من الاستقرار الذي قد يوفره العيش ضمن أسرة متماسكة. ويحق لنا الآن التساؤل عما إذا وجد المغربي بالمهجر نوعا من التعويض عن ذلك في التعامل مع مواطنيه، وعما إذا كان قد استفاد من علاقات تآزر وتعاون تحل محل ما كان متعودا عليه بمسقط رأسه.

تخبرنا المصادر التي اعتمدناها عن وجود صداقات متينة بين بعض المغاربة. لقد كان المدعو João Fernandez على سبيل المثال يعتبر Cristovão Fernandez «صديقا حميما، ينتمي إلى نفس المنطقة التي ينتمي إليها، وكانا يأكلان ويشربان معا، كما كانا يعملان جنبا إلى جنب»(121). وتماسك المغاربة وتآزروا خلال الأوقات العصيبة. فقد كان

(121) Inq. Lix. Proc. n° 8425, fol. 45 v°.

بعضهم يتطوع لمد يد المساعدة للمحتاجين كما تبين لنا من قبل. وكان الغرباء منهم يأوون إلى بيوت مواطنيهم حيث يقيمون بالمجان خلال شهور. فحينما وصل المدعو Pero de Menezes إلى لشبونة، آوته Catarina da Silva مدة ثلاثة أشهر(122). واعتاد المغاربة الذين يرحلون «للغرب» البرتغالي قصد العمل، الإقامة عند أحد مواطنيهم، وكان المدعو António Vaz يؤوي المغاربة الذين يقبلون على جزيرة São Miguel بالأصور. وبعد أن انتقل هذا الأخير إلى لشبونة، أقام صحبة زوجته ببيت João Fernandez السابق الذكر(123). ولم تغب روح التعاون والتآزر في حالة المرض أوالحاجة إلى المال لافتداء النفس أو الزواج أو أداء ثمن الهروب إلى المغرب.

واعتاد المغاربة تبادل الزيارات في حالة الوفاة أو الاعتقال من لدن محكمة التفتيش. ودفع بعضهم الثمن غاليا برفضه خلال محاكمته التبليغ عن أصدقائه ومعارفه. فقد كان António de Faria الذي ساعد كثيرا الأسرى والمحتاجين، يردد بأنه «لن يستطيع أبدا التبليغ عن أصدقائه ورفاقه»(124). كما حكم على Duarte Fernandez بالإعدام حرقا بسبب امتناعه، رغم إلحاح المحققين، عن التبليغ عن أصدقائه(125). وكانوا كلما تعذر عليهم الصمود أمام إلحاح القضاة واضطروا بسبب إرهابهم إلى التبليغ، يبادرون إلى طلب المعذرة وينصحونهم بالإسراع بالاعتراف لدى المحكمة قبل أن تأمر باعتقالهم. فحينما التقت إحداهم بمواطنتها Maria Bernaldez جلست على ركبتيها وطلبت منها بإلحاح بمحضر عدد من المورسكيين أن تسامحها(126).

وللترفيه عن النفس، اعتاد المغاربة أيام الآحاد والأعياد تنظيم حفلات رقص وغناء. وحول بعضهم بيته إلى نقطة لقاء لجل المغاربة، كما كان الشأن بالنسبة للمراكشية Catarina de Eça(127). وسنعود للدلالة الثقافية لتلك اللقاءات والحفلات.

---

(122) Inq. Lix. Proc. n° 2970, fol. 11 r°; n° 9695, fol. 3 r°, n° 12626, fol. 31 r°; n° 5153, fol. 4 r°, etc.
(123) Inq. Lix. Proc. n° 708, fol. 3 v°; n° 9695, fo. 3 r°, 10 r°.
(124) Inq. Lix. Proc. n° 10831, fol. 4 v°.
(125) Inq. Lix. Proc. n° 6405, fol. 32 r°.
(126) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol. 14 v°-15 r°.
(127) Inq. Lix. Proc. n° 10817, fol. 2 v°; n° 4118, fol. 10 v°; n° 1588, fol. 8 v°; Evora Proc. n° 919, fol. 6 v°; n° 8582, fol. 6 v°.

وبالطبع، لم تخل علاقات المغاربة من تنافس وتحاسد وصل حد العداء أحيانا، وذلك لأسباب مختلفة كان التنافس من أجل العمل أهمها. لقد كان المدعو António Fernandez حين محاكمته على خلاف مع مواطنه المسمى Diogo Fernandez الذي كان ينعته بالسكير واللص. وكان تنافسهما بشأن شراء التبن سبب العداء المذكور(128). وأخبر عدة شهود المحققين أنهم شاهدوهما عدة مرات يتخاصمان بحدة. وأطلع مغربي آخر القضاة خلال محاكمته على علاقته السيئة بمواطنه Francisco Fernandez بقوله: «إنهما كانا يتشاجران ويتدافعان أحيانا حول التبن وعمن يدخل قبل غيره المراكب المحملة بتلك المادة، وحول أشياء أخرى كان الموريسكيون يختلفون يوميا بشأنها ليتصالحوا بعد ذلك بقليل ويعودوا كما كانوا من قبل أصدقاء يأكلون ويشربون مع بعضهم البعض»(129).

ويؤكد التصريح السابق أن التنافس حول العمل ووسائل الكسب، كان السبب الرئيسي في خلاف أفراد الجالية المغربية، الأمر الذي تؤكده عدة إشارات وقفنا عليها بمصادر محاكم التفتيش(130). لقد أخبر المحققون بأن Pero de Faria و António Fernandez كانا يتعاملان «معاملة القط للفأر، وذلك بسبب خلافهما حول التبن»(131). وتبادلا مرة الضرب والجرح إلى حد أن أحدهما فقد أصبعا ورفع دعوى لدى القضاء المدني(132). ووقفنا كذلك على ما يدل على وجود تنافس بين النساء المغربيات حول أسباب الرزق(133). كما أن تأخير دفع الدين كان يعكر صفو العلاقة بين المغاربة(134).

وكانت الشجارات الجماعية تندلع أحيانا بين المغاربة، خصوصا في حالة الإفراط في شرب الخمر. فقد استدعى اللاجئ João de Sousa مجموعة من مواطنيه لبيته، إلا أنهم سرعان ما شرعوا في العراك داخله، فاضطروا، نظرا لضيقه إلى الخروج إلى الشارع حيث صعب تفريقهم(135). وتشير محاضر محاكم التفتيش إلى وقوع حالات

---

(128) Inq. Lix. Proc. n° 12720, fol. 31-33.
(129) Inq. Lix. Proc. n° 2570, fol. 3 v°-4 r°.
(130) Inq. Lix. Proc. n° 708, fol. 16 r°, 20 v°-22; n° 1104, fol. 10 v°; 6471, fol. 6 r°.
(131) Inq. Lix. Proc. n° 10864, fol. 2 r°.
(132) *Ibid*, fol. 2 r°; n° 1636 fol. 33 r°.
(133) Inq. Lix. Proc. n° 6762, fol. 8 r°; Evora, Proc. n° 9470, fol. 8 r°.
(134) Inq. Lix. Proc. n° 5254, fol. 15 r°; n° 6424, fol. 7 r°; n° 13187, fol. 9 r°.
(135) Inq. Lix. Proc. n° 12626, fol. 30 v°.

مشابهة بيابرة وضواحيها(136). وكانت الغيرة والجنس سبب خلاف بعضهم كذلك(137).

وفضلا عن هذه الأسباب، تدخلت عوامل طبقية كذلك لتخلق نوعا من التنافر بين الأعيان السابقين وعامة الناس. فقد وقف حمالو ميناء لشبونة موقفا معاديا لبعض الأعيان الوطاسيين الذين وصلوا العاصمة البرتغالية سنة 1550. لقد عاملوهم معاملة قاسية وعابوا عليهم مغادرة وطنهم لأسباب أنانية للالتحاق ببلد يحاولون هم بجميع الوسائل الهروب منه بعد أن أكرهوا على دخوله. كما اعتبروا اللاجئين المذكورين خونة احتموا بالمسيحيين من سلطان البلاد ومحرر ثغورها. وحسب شكوى رفعها أحد اللاجئين لمحكمة التفتيش، كان أولئك الحمالون يخاطبونهم بقولهم: «لماذا أتيتم إلى هذه البلاد؟ لا يوجد مسلم حقيقي يقبل المجيء إلى هنا، وكل الذين يفعلون ذلك لصوص ونصابون فارون من وجه العدالة». والغريب أن الحمالين المذكورين الذين كانوا متنصرين، نعتوا اللاجئين بعد تنصرهم بـ :«الكلاب المرتدين»(138)، وهددوهم بالانتقام منهم على يد السلطان المغربي« الذي سيفتح هذه البلاد وسيشنقهم جميعا لدناءتهم». ولم يكتفوا بالسب والشتم، بل اعتدوا عليهم بالضرب، وأطلعوهم على المحن التي ستواجههم، وأكدوا لأحدهم أنه لم يبق له لتفاديها إلا حل واحد، هو الانتحار، « طالما أنه ترك بوطنه ممتلكاته وأتى إلى هذه البلاد»(139).

وأسهم إحداث محاكم التفتيش بالبرتغال في خلق حزازات وعداء بين المغاربة لاضطرار كل من سقط في شباكها إلى الاعتراف والتبليغ عمن هو على صلة به. فقد قوطع أحدهم لتبليغه عن أصدقائه قبل أن يقتل ويلقى به في نهر Tejo. ولم تفده كل المحاولات التي بذلها للحصول على عفو المبلغ بهم(140). كما عومل آخر أخبر المحققين بعزم مغاربة على الفرار في سفينة بحار برتغالي بقساوة من لدنهم،إذ هددوه بالموت حتى داخل السجن الذي كانوا فيه(141). وكان بعض المبلغ عنهم يبادرون فور اعتقالهم

(136) Inq. Lix. Proc. n° 6350, fol. 26 r°; n° 9823, fol. 10 v°.
(137) Inq. Lix. Proc. n° 11128, fol. 22-23; Evora, Proc. n° 11313, fol. 11 v°.
(138) Inq. Lix. Proc. n° 1636, fol. 4 r°-6 v°.
(139) *Ibid.* fol. 7 v°-8 r°.
(140) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 8 r°.
(141) Inq. Lix. Proc. n° 3590, fol. 33 r°; n° 10854, fol. 3-4 r°; n° 167, fol. 19 r°- 20 r°, 23 r°-24.r° 26 r°- 32.r°.

إلى توريط من كان السبب في محنتهم(142). لقد أصبحت محكمة التفتيش أحسن طريقة للتخلص من الزوج غير المرغوب فيه، أو من أي شخص آخر لأنه كان يكفي أن يتفق شخصان على محتوى تبليغ ويذهبا إلى مقر المحكمة للقيام به. وقد جعل تبليغ الأصدقاء عن بعضهم البعض، وأحيانا عن أقربائهم، ولو تحت الإكراه كما سنرى، المغاربة يعيشون بعد 1550 في جو من التشكك والحيطة من بعضهم البعض، وجعلهم حريصين على مراقبة أقوالهم وأفعالهم، وعلى تفادي كل ما يمكن أن يؤدي إلى التبليغ عنهم(143).

ومن الأكيد أن ظروف إقامة المغاربة بالبرتغال انعكست على موقفهم من ذلك البلد. وبالفعل، يرتبط اندماج الأجانب بأي بلد بعاملين: ظروف العيش التي يوفرها لهم من جهة، ونوعية علاقة مواطنيه بهم من جهة ثانية. لن نتعرض الآن لنوعية تلك العلاقات التي خصصنا لها الفصل اللاحق. ويمكننا الجزم، بناء على ما سبق، بأن ظروف العيش في البرتغال كانت تعاكس استقرار الأجانب واندماجهم بالمجتمع. لقد وصفت مغربية إقامتها بالبرتغال بقولها: «لقد كان عليها بهذه البلاد أن تكد وأن تعمل باستمرار، ثم إن العيش هنا صعب لكثرة الازدحام والضجيج؛ لذا فهي تفكر في بيع متاعها وترك البلد لأن العيش بلشبونة لا يطيقه أحد»(144).

فالبرتغال «الذي لم يكن الجوع يبارحه»، وحيث «تباع ورقتان من العشب بريالين»(145)، كان يفرض على الجميع، أسرى وأحرارا، ظروف عيش قاسية. وسجلت لنا مصادر محاكم التفتيش موقف المغاربة من البرتغال وحكمهم عليه. فقد نصح أحدهم بإلحاح قريبا له التجأ إلى البرتغال بعدم التنصر وبالإسراع بالعودة إلى بلده لتفادي مواجهة نفس مصير الذين سبقوه إلى هناك(146). وحينما لاحظ مغربيان، كان أحدهما مسلما متنصرا، والآخر كان يهوديا تنصر بدروه، أن مغربيا آخر أصبح يفكر في الردة، حاولا إقناعه بالتمسك بدينه بتقديم التبرير التالي:

(142) Inq. Lix. Proc. n° 6440, fol. 5 v°.
(143) Inq. Lix. Proc. n° 10817, fol. 47 r°, 55 r°; n° 3590, fol. 33 v°; Evora, Proc. n° 8055, fol. 12 v°.
(144) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol 17 v°-18 r°.
(145) Inq. Lix. Proc. n° 5086, fol. 21 r°, 22 r°.
(146) Inq. Lix. Proc. n° 10817, fol. 4 v°.

«لقد أتيتم إلى هنا لتتنصروا، وسمعتم أن هذه البلاد لا تختلف البتة عن بلاد المسلمين. فهناك، حينما يريد مسيحي اعتناق الإسلام يعطونه الخيل ويخصونه بالمعاش، كما أن البلاد شاسعة وكل شيء متوفر بها ورخيص، أما هنا، فستموتون جوعا وسيسيؤون معاملتكم وسيجلدونكم، لماذا تركتم بلادكم؟ إن بلادكم أفضل من بلاد النصارى، كما أن دينكم أسمى من دينهم»(147).

وكان António Fernandez، وهو شخص حر وحمال، لا يتوقع إلا نهاية واحدة لكل من يدخل البرتغال: الموت جوعا(148). وبما أن المغاربة عجزوا عن توفير شروط الإقامة المريحة في البرتغال، فإنهم خلصوا إلى «أن هذه البلاد فقيرة، وأن عليهم أن يكدوا باستمرار دون أن يضمنوا قوتهم، وأن عليهم تبعا لذلك أن يغادروها»(149).

وقد أصدر اللاجؤون السياسيون بدورهم نفس الحكم، إذ سرعان ما خابت آمالهم في البلد الذي التحقوا به. لقد اعتقل أحدهم بسبب محاولة فرار فاشلة على إثر إقامة لم تتجاوز ثلاثة أشهر. وقد أخبر القضاة أن الذين دخلوا البرتغال رفقته أكدوا له «أن هذه البلاد فقيرة، وأن بلادهم أحسن منها بكثير»(150). كما أن الذين رافقوا أبا حسون الوطاسي اتخذوا بدورهم موقفا مشابها: «إن بلاد المسلمين أفضل من بلاد النصارى لوفرة المواد الغذائية بها»(151). لذا كان البرتغال بالنسبة للأجانب، بلد الحرمان والجوع وسوء المعاملة. فخلال أول ليلة قضاها João Lourenço مع زوجته المغربية، اقترح عليها مرافقته إلى المغرب الذي يعتزم الفرار إليه، وبرر لها قراره هذا بظروف العيش الجيدة التي يوفرها الوطن حيث «سيعيشان عيشة رغيدة، لأن كل شيء متوفر بها ورخيص، ولأنه ليس ملزما بأن يقضي ما تبقى من عمره في حمل الأكياس»(152).

لذا استولى شعور من اليأس على المغاربة. فقد استنتجوا أن البرتغال بلد لا يشجع الأجانب على الاستقرار فيه. فحينما سمع مغربي أحد مواطنيه كان يقاسمه نفس

(147) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, III, fol. 16 v°.
(148) Inq. Lix. Proc. n° 1636, fol. 4 V°.
(149) Inq. Lix. Proc. n° 10854, fol. 10 r°.
(150) Inq. Lix. Proc. n° 12639, fol. 9 r°.
(151) Inq. Evora, Proc. n° 8614, fol. 1 v°.
(152) Inq. Evora, Proc. n° 1636, fol. 37 r°.

الزنزانة يتمنى أن يعجّل المحققون بإطلاق سراحه ليتزوج ويستقر بالبلاد، أجابه بأنه : «يتمنى أن لا يمكنه الله من الزواج والإنجاب في البرتغال»(153).

ووقفنا على خيبة أمل مماثلة لدى باقي الأجانب المقيمين في البرتغال، سواء كانوا هنودا أو أتراكا أو سودا أو إسبانا. فقد استعطف هندي هنديا آخر كان يعد محاولة فرار ليأخذه معه ويتصرف في مصيره كيفما يشاء(154). وأكد آخر أنه يفضل أكل العشب في أرض أخرى على البقاء في البرتغال(155). وكان موقف العلوج الذين أقاموا مدة بالمغرب قبل عودتهم إلى البرتغال معبرا في حد ذاته، ذلك أن خيبة أملهم لم تتأخر، وأن ندمهم على المغرب كان كبيرا. لقد ادعى أحدهم أمام المحققين أنه لما كان في المغرب، كان يعلم ما سيفقده بعودته إلى بلده «لأنه كان يتوفر هناك على كل حاجياته، وكان يعلم أنه سيعدم ذلك ببلده، ومع ذلك فضل العودة لاعتناق دينه من جديد»(156). ووقفنا على محاضر محاكمات عدد كبير من العلوج حاولوا، فور عودتهم إلى البرتغال، الفرار منه للالتحاق بالمغرب أو الجزائر حيث كانت تتوفر لهم ظروف عيش أحسن(157).

وانعكست ظروف العيش الصعبة في البرتغال على رؤية أولئك الأجانب لوطنهم. فقد كانوا يرون فيها البلاد الممتدة الأطراف والغنية التي كان كل شيء يعرض فيها بأبخس الأثمان. لقد كان المغرب يقدم لمن لا يعرفه ك« بلد الرخاء حيث يكثر اللحم، وبه كل متطلبات الحياة»(158). ووصفه موريسكي أندلسي الأصل لإبن أحد المسلمين المتنصرين ولد في البرتغال، ببلد الوفرة «الذي تعيش به الملائكة»(159). لذا حن المغاربة كثيرا لمسقط الرأس ولما تركوا به من أهل ومتاع.

ويلاحظ في هذا الشأن أن المغاربةكانوا في أحاديثهم الخاصة يشتكون على الخصوص من الجوع والعراء، الأمر الذي انعكس على رؤيتهم للبرتغال وموقفهم منه. إلا أن نوعية العلاقة القائمة بينهم وبين المجتمع البرتغالي تدخلت بدورها، كما سنرى في الفصل التالي، لتعزز أكثر الموقف المذكور.

---

(153) Inq. Lix. Proc. n° 1669, fol. 27 r°.
(154) Inq. Lix. Proc. n° 10921, fol. 4 v°.
(155) Inq. Lix. Proc. n° 5085, fol. 5 v°.
(156) Inq. Lix. Proc. n° 4396, fol. 21 v°.
(157) Inq. Lix. Proc. n° 3984, fol. 4 v°.
(158) Inq. Lix. Proc. n° 3304, fol. 11 r°; **Liv. denúncias**, III, fol. 17 r°.
(159) Inq. Lix. Proc. n° 9236, fol. 6 v°.

الفصل الخامس

التعايش المستحيل

وصف المؤرخ الكبير F. Braudel المشكل المورسكي بإسبانيا في عهد فليب الثاني بقوله : «كان المشكل المورسكي، كما يدل عليه إسمه، صراعا دينيا، وبعبارة أخرى، كان بكل معنى الكلمة صراعا حضاريا يصعب تجاوزه، وكان قابلا للاستمرار. وتدل لفظة «مورسكيين» على أولئك المنحدرين من مسلمي إسبانيا المتنصرين منذ 1501 بقشتالة، ومنذ 1526 بمملكة الأرغون. فبعد أن أسيئت معاملتهم، وبعد أن لقنوا المسيحية وتم الاعتناء بهم، طردوا في جماعات كبرى فيما بين 1509-1514 نظرا لكونهم كانوا يمثلون باستمرار مصدر خوف بالنسبة للمسيحيين.»(1) وعزا نفس الباحث فشل محاولات إدماج المورسكي برفض هذا الأخير لكل إدماج يجعل منه «مواطنا ثانويا، لا يرتقي بردته، بل تنحط مكانته بسببها»(2). ومما أعطى حدة لفشل محاولات إدماج المورسكيين في المجتمع الإسباني، أنهم كانوا أبناء الوطن، يتقنون لغته، وكانوا متعودين على نمط عيشه وعاداته وتقاليده. كما أن المظهر الخارجي والملامح لم تكن تميز بين المورسكي والمسيحي الأصيل. ومن جهة أخرى، تريثت السلطات الدينية والمدنية، ولم تسارع إلى إلغاء الهوية الثقافية للمورسكيين فور تنصرهم. فقد فصلت فترة طويلة بين تاريخ التنصر ومنع المورسكيين منذ 1567 من استعمال اللباس الإسلامي واللغة العربية والحمامات...

---

(1) F. Braudel, **La Méditerranée...**, *Op. cit.*, II, p. 118.

(2) *Idem*, "Espagnols et Morisques au XVIème siècle" **A.E.S.C**, 2ème année, octobre-décembre, 1947, n° 4, p. 397.

لقد كانت وضعية الجالية الموريسكية في البرتغال مختلفة كل الاختلاف بسبب الخصوصية التي سبق التلميح إليها. لقد كان كل شيء، من لباس ولغة ونمط عيش وديانة، غريبا عن الذين تسميهم مصادر محاكم التفتيش موريسكيين. فإذا كانت وضعية المغاربة أو الأتراك أو الهنود أو مسلمي حوض السنغال كمسلمين تجعل منهم أشخاصا مهمشين، فإنه كان من المتوقع أن تجعل ردتهم حدا لهذه الوضعية، وأن تضمن لهم نوعا من المساواة مع البرتغاليين(3). غير أن عاملين حالا دون ذلك : موقف المجتمع المضيف من الأقليات الدينية والعرقية التي كانت تعيش ضمنه من جهة، وموقف تلك الأقليات من البلاد وسكانها وقيمهم من جهة ثانية.

لم يكن المجتمع البرتغالي ومحكمة التفتيش التي أنشأها منذ 1536 للدفاع عن قيمه يؤمنان إلا بمجتمع واحد ومتناسق لا يعرف أي اختلاف. لم يعد المجتمع البرتغالي يكتفي بما اعتاد عليه خلال القرون الوسطى، أي تهميش كل من فضل نموذجا مخالفا لنموذجه، وذلك بإلزامه بالإقامة بأحياء خاصة ومعزولة، وبحمل شارات مميزة. لقد أضحى ذلك المجتمع منذ إنشاء محاكم التفتيش يعاقب بكل صرامة، ليس فقط من ارتد عن الكاثوليكية أو اتبع هرطقة معينة، بل كذلك من تبنى أي مظهر، مهما كان بسيطا، من مظاهر هوية ثقافية أخرى. غير أن البرتغال لم يعرف ما تم في إسبانيا من محاولات تلقين المرتدين عقيدتهم الجديدة، ولم يعرف كذلك تلك المحاولات المبذولة في البلد المجاور قصد تسهيل اندماج المسيحيين المحدثين(4). كما أنه لم يمهل المتنصرين، الذين كانوا غرباء عن البلد كما لاحظنا، حتى يتمكنوا من التعود على ظروف عيشهم كمسيحيين، ولم يستفيدوا به من أي قرار عفو جماعي(5).

لهذه الأسباب، وقف المجتمع المسيحي من أولئك الغرباء موقفا متناقضا. ففي الوقت الذي كان يحثهم بكل الوسائل على التنصر، كان خوفه على عقيدته من

---

(3) J. Le Goff, "Les marginaux dans l'Occident médiéval", in : **Les marginaux et les exclus dans l'histoire**, Paris, Cahiers Jussieu, n° 5, Université Paris VII, 1972, p. 20.

(4) L. Cardaillac, **Morisques et Chrétiens**, *Op. cit.*, pp. 34-40; **Les Morisques et leur temps**, *Op. cit.* pp. 111-123, 125-157; **Religion, identité et sources documentaires sur les Morisques andalous**, Tunis, publ. Institut Supérieur de Documentation, 1984, pp. 53-64,

(5)- لم يستفد الموريسكيون من العفو العام الذي استفاد منه اليهود المتنصرون سنتي 1539 و1546، راجع:
L. Cardaillac, pp. 40 - 44.

وعن فترات العفو بإسبانيا، راجع: Inq. lix. **denúncias**, I, fol. 1

«التلوث الإيديولوجي»(6) حسب تعبير Le Goff يدفعه إلى تهميشهم وعدم الثقة فيهم. وتعكس الأدوار الموكولة لمحكمة التفتيش التناقض المذكور. لقد كانت مهمتها تنحصر في الحفاظ على العقيدة الكاثوليكية وقمع كل خروج عن النهج المسطر من لدن الكنيسة، غير أنها شكلت في نفس الوقت وسيلة مثالية للتهميش. فالعقوبات التي كانت تفرضها على المتهمين، والإهانات التي كانت تنتج عن ارتداء اللباس المفروض على من قضوا مدة العقوبة، كانت تجعل من كل الذين سقطوا في شباك تلك المحكمة أشخاصا لا يجرؤ أحد على الاتصال بهم(7).

ومن جهة أخرى، يبدو أن المحكمة المذكورة كانت مسؤولة عن التحول الذي طرأ على موقف البرتغاليين من مظاهر الهوية الثقافية المغربية. فقبل التضييق على المغاربة من لدن المحكمة، أي قبل 1550، لم تكن الحفلات المنظمة من لدن المغاربة تزعج أحدا، لا بمدتها ولا بعدد الأشخاص الذين كانوا يحضرونها، ولا بالضجيج الذي كانت تحدثه. فخلال زواج ابن المدعو Duarte Fernandez ببنت مغربي آخريسمى António Alberto، سنة 1549 أو 1550، كان كل شيء منظما حسب العادات والتقاليد المغربية، دون أن ينتج عن ذلك تبليغ أو اعتقال، ولم تتم أولى التبليغات إلا سنة 1553 على يد مغاربة اعتقلوا، وكان عليهم أن يعترفوا بخطايا معينة أوحى لهم المحققون بها(8). كما أن المغاربة الذين اعتادوا الرقص والغناء ببيوتهم أو أمامها أيام العطل، لم يكونوا فيما يبدو يزعجون المسيحيين الذين لم يعتبروا ذلك تمسكا بالإسلام ولم يكونوا يبلغون عنه، بل على العكس من ذلك، كانوا يجدون في حضور تلك الحفلات الراقصة متعة حقيقية(9). غير أن التبليغات تقاطرت على المحكمة مباشرة بعد أن اعتبرت هذه الأخيرة الغناء والرقص على الطريقة المغربية تمسكا بالإسلام. كما يمكن اعتبار إحداث جماعة خاصة بالموركسيين ذات تنظيم خاص بها، وبرنامج حفلات خاص كذلك، بمثابة وسيلة لتمييز أولئك الموركسيين وتذكيرهم باختلافهم عن الأغلبية(10).

---

(6) J. Le Goff, *Op. cit.*, p. 26.

(7) أطلقت محكمة التفتيش سراح مغربية وألزمتها بارتداء ذلك اللباس. وبما أنها كانت شحاتة، فإن أحدا لم يكن يجرؤ على إعطائها أي شيء، الأمر الذي دفعها إلى التوسل إلى المحكمة لإعفائها من ارتدائه تفاديا لموتها جوعا، وأكدت طلبها بالحجج اللازمة، راجع: Inq.Evora, Proc. n° 8617, fol. 13 v°

انظر كذلك: Inq. Lix. Proc. n° 9520, fol. 27 v°.

(8) Inq. Lix. Proc. n° 6405, fol. 4 r°, 15 v°.

(9) Inq. Lix. Proc. n° 3194, fol. 2 r°; n° 2827, fol. 5 v°; n° 4026, fol. 9 r°.

(10) Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 13 v°; n° 10837, fol. 7 r°; n° 12720, fol. 30 r°; L.F. Barreto, **Descobrimentos**, *Op. cit.* p. 139.

كما أن البرتغاليين لم يسهلوا مهمة الأجانب المطالبين بالإسراع بالتجرد من كل خصوصياتهم الثقافية والدينية بشكل فوري ونهائي بعد التنصر، بل على العكس من ذلك، يبدو من مصادرنا أنهم لم يكونوا مطمئنين لذلك الاندماج، وحالوا دونه! فمصادر محاكم التفتيش تسمح باستنتاج شبيه بما كتبه H.Méchoulan عن إسبانيا : «لا حوار مع الآخر الذي، وإن رضخ لشروط المنتصر، يبقى مبغوضا ومعرضا للعنف ومنحى. لم يكن الآخر يُقبل إلا محروما من روحه»(11).

لقد حالت مجموعة من العوامل العنصرية والثقافية والدينية دون حدوث تعايش بين أقلية من المسيحيين المحدثين والأغلبية المكونة من المسيحيين الأقحاح.

وانطلاقا من المبررات الإيديولوجية للتهميش الاجتماعي التي حددها Le Goff، نلاحظ أن عاملين شكلا موقف البرتغاليين من الأقلية التي تهمنا: الدين من جهة، والهوية الثقافية من جهة ثانية(12). ويبقى «ملصق الإيمان» Edital da fé معبرا في حد ذاته في هذا الباب. فقد كانت محكمة التفتيش تخلط فيه بين اللغة واللباس والفولكلور... والإسلام. فمجرد التصرف على «طريقة بلاد المسلمين» أو «حسب تقاليد مسقط الرأس»، كان يعتبر من لدن المحققين هرطقة تهدد العقيدة المسيحية، وكان من اللازم على كل المؤمنين، وبدون استثناء، أن يبلغوا المحكمة بأي قول أو فعل يخالف النموذج السائد.

لم يكن المجتمع البرتغالي يعطي، حسبما ظهر لنا من خلال وثائقنا، لردة المسلمين دلالة دينية محضة. لقد كان ينتظر منها انفساخا فوريا وكليا للمرتد عن هويته الثقافية. لم يكن يكفي في نظر ذلك المجتمع أن يصدق المرتدون في ردتهم، وأن يعتنقوا المسيحية عن صدق، بل كان ينتظر منهم أن يتحولوا فورا إلى برتغاليين، وأن ينسوا كلية لغتهم، وأن يتخلوا نهائيا عن عادات وتقاليد بلدهم. لم يكن برتغاليو القرن السادس عشر يقبلون أن يتكلم مسيحي محدث العربية، أو أن يلبس لباسا إسلاميا، أو أن يعيش حسب نمط مخالف لنمط البلد. وكانت الدلالة الخاصة التي كان البرتغاليون يولونها للباس معبرة في حد ذاتها. لقد منع المسلمون من ارتداء اللباس

(11) H. Méchoulan, **Le sang de l'autre ou l'honneur de Dieu: Indiens, Juifs et Morisques au siècle d'Or**, Paris, Fayard, 1979, p. 10.
(12) J. Le Goff, *Op. cit.* p. 23.

المسيحي، ولم يكن يسمح لمن ارتد منهم بالعودة إلى لباس بلده(13). وتتجلى تلك الأهمية في رؤية الموركسي للباس المسيحي، تلك الرؤية التي كان يتوخى منها إثبات تمسكه بدينه الجديد. لم يجد مغربي حجة يثبت بها للمحققين صدق إيمانه غير هاته: فرغم أنه تمكن من العودة إلى مسقط رأسه، فإنه استمر هناك في ارتداء اللباس المسيحي مدة سنة كاملة، «دون أن يغيره»، إلى أن تمكن من العودة إلى البرتغال، مع العلم أنه أسر إثر هجوم فاشل ضد حامية آسفي(14).

وفي الوقت الذي كان فيه المجتمع المسيحي لا يقبل أي اختلاف لغوي أو ثقافي، كان المغربي بدوره غير مستعد للتخلي عن لغته وعاداته وتقاليده التي كان يجد فيها ذاته واستقراره. ومن الأكيد أن اضطهاده والتنكيل به لمجرد تمسكه بهويته تلك، أحدثا لديه أزمة ضمير وعمّقا شعوره بالغربة. لذا لن نستغرب إذا ما لاحظنا أن أهم «جريمة» نسبتها محكمة التفتيش للمغاربة كانت ذات طابع ثقافي لا ديني، وأنه رغم طول مدة الإقامة في البرتغال، ومختلف مظاهر الرقابة المفروضة عليهم وعلى وباقي الأجانب، ورغم بطش المحققين وعسفهم، بقوا متمسكين بهويتهم. وسنرى بعد قليل كيف أنهم كانوا يسارعون فور إطلاق سراحهم إلى السقوط في نفس الأعمال والتصرفات التي أدت إلى اعتقالهم، وأنهم كانوا يقومون بذلك أحيانا داخل سجن محكمة التفتيش.

لم يعط المجتمع المسيحي، الذي كان يولي تلك الأهمية للمظاهر الخارجية لهويته الثقافية، أية مهلة للأجانب لنسيان مظاهر هويتهم الثقافية وللتعود على مظاهر ثقافة البلد الذي سيعيشون فيه. لذا، سرعان ما اعتقل مغاربة مرتدون رغم تبنيهم لمظاهر الثقافة البرتغالية من لباس ونمط عيش وغيرهما، وحوكموا مع أنهم كانوا يأملون بتنصرهم تحسين علاقاتهم مع البرتغاليين، ومع أنهم كانوا سيتفادون ذلك لو تمسكوا بدينهم.

ونتيجة لخيبة أملهم هذه، حاولوا جاهدين منع تنصر من بقي منهم مسلما. وكانت الحجج كثيرة : فالردة لاتمنح أي حظوة للمرتد لدى المسيحيين، بل على العكس من

(13) Inq. Lix. Proc. n° 1852, fol. 11 v°; n° 13187, fol. 13 r°.
عن محاكمة المسلمين الذين يرتدون لباسا مسيحيا: Inq. Lix. proc. 1114, fol. 84 v°.

(14) Inq. Lix. Proc. n° 281, fol. 1 v°; n° 1852, fol. 11 v°; Liv. **denúncias**, II, fol. 128 v°, I, fol. 46 v°.

ذلك، تعطي محكمة التفتيش الفرصة التي كانت تنتظرها لاعتقالهم.فقد قالت مغربية لأحد مواطنيها كان قد وصل إلى لشبونة وبدأ يفكر في التنصر، «إن مسيحيي هذا البلد يعتقلون الموريسكيين فور تنصرهم»(15).

وبالطبع، خلق هذا الموقف العدائي الذي وقفه المسيحيون من المرتدين بلبلة لدى هؤلاء. لم يفهم سوداني سبب اعتقاله ومحاكمته مع أن التهمة الموجهة إليه هي مسح ذكره كلما تبول، وذلك لمجرد النظافة لا غير، حسبما ذكر وكرر عدة مرات، وليس لسبب ديني معين(16). كما أن المغاربة لم يكونوا يفهمون لماذا يعتقلون ويحاكمون من أجل أعمال لا علاقة لها بالإسلام، كالتعبير عن فرحهم أو حزنهم، أو كالأكل حسب طريقة مسقط رأسهم. فقد كانت هذه "الجريمة" سبب محن أغلبيتهم. لقد حوكم المدعو João Coelho بسبب تقديم الكسكس لمدعوين بمناسبة عقيقة ابنته، ولكونه وضع الطعام مباشرة على الأرض، لا على طاولة كما يفعل البرتغاليون(17)... الخ. وشملت مرافعة النيابة خلال محاكمة المغربي المذكورما يلي : «كان يتناول طعامه على الأرض، وكان يرفض الأكل على طاولة، بحيث كان يضع الطعام بين فخديه دون استعمال منديل أو طاولة لكون ذلك يمثل طقسا إسلاميا...». وعابت النيابة على المتهم النوم على الجانب الأيمن(18)!

ونجد من بين التهم المنسوبة إلى المغاربة «عدم اختلاط الرجال والنساء خلال الأكل»(19). وينطبق نفس الشيء على اللغة العربية التي بات محرما على المرتد استعمالها، حتى ولو كانت مدة إقامته في البرتغال قصيرة. فقد صعب على اللاجئ السياسي João de Sousa حفظ الصلوات المسيحية لجهله لغة البلاد. وبما أن المحكمة لامته على حمد الله بلغته الأصلية، فإنه أجاب بقوله: «إنه كان يقول ذلك بعبارات عربية لجهله اللغة البرتغالية، وكان يقول ذلك كمسيحي يتوسل إلى ربه». كما اعترف أنه يقسم بالعربية كذلك(20).

(15) Inq. Lix. Proc. n° 9280, fol. 4 r°.
(16) Inq. Lix. Proc. n° 12998, fol. 7 v° ; n° 5085, fol. 6 v°-7r°.
(17) Inq. Lix. Proc. n° 10769, fol. 12 v°.
(18) Inq. Evora, Proc. n° 8062, fol. 2 v° et 8 r°.
(19) Inq. Evora, Proc. n° 8859, fol. 7 r°; n° 10769, fol. 12 v°.
(20) Inq. Lix. Proc. n° 12626, fol. 12 r°.

وفي هذه الظروف كان المعتقلون المغاربة، وكذا بعض محاميهم، يعملون على دفع القضاة إلى اعتبار عاملين مهمين في نظرهم : النية واللغة التي تعبر عنها من جهة، وثقل العادات وصعوبة التخلص منها من جهة ثانية. فقد أكد برتغالي استدعي للشهادة لفائدة João de Sousa المذكور أن استعمال العربية لا يعني أن المتهم بقي متمسكا بدينه طالما أن «البسملة التي كان يرددها بالعربية يمكن لأي مسيحي لا يحسن اللغة البرتغالية أن يقولها»(21). كما أن Inês Machada اعترفت أنها رددت البسملة عدة مرات «ولكن بقلب مسيحي، وإن كانت اللغة لا تسعفها»(22).

وحاول آخر بدون جدوى إقناع المحققين بأن النية أهم من اللغة، وأن نيته كانت نية مسيحي صادق، ولو أنه عبر عنها بالعربية، ذلك أن «الكلمات كانت عربية، وأن النية كانت نية مسيحي»(23) واعترفت مغربية ببكاء الموتى على طريقة بلدها «لجهلها لطريقة أخرى للبكاء عليهم»(24)!

وبالطبع، كان إلزام أجانب دخلوا البلاد منذ مدة قصيرة باستعمال لغتها يمثل عسفا كبيرا زاد من شعورهم بالغربة وحد من إمكانية اندماجهم. وتؤكد مصادر محاكم التفتيش أن القليل من أولئك الأجانب كان يتقن تلك اللغة، وأن تلك المحاكم اضطرت عدة مرات إلى اللجوء إلى مترجمين حتى بالنسبة لأشخاص أقاموا بالبلاد عدة عقود(25). فقد كان Francisco Machado لا يتكلم البرتغالية رغم إقامة في البرتغال دامت أربعين سنة(26)! وقد عاين المحققون ذلك بأنفسهم خلال زيارتهم للجزيرة التي كان يقيم فيها بعد أن تم التبليغ عنه. وكان المدعو Fernando، الذي وصل إلى البرتغال سنة 1525 لا يتقن اللغة البرتغالية سنة 1550(27)، كما كان Bernaldo do Couto، الذي دخل البرتغال سنة 1521 يتكلم بصعوبة لغة البلد سنة 1557(28). ويفهم من هذه الحالات أن الأمر كان أصعب بكثير بالنسبة لمن وصلوا بعد 1550.

(21) *Ibid*, fol. 28 r°.
(22) Inq. Lix. Proc. n° 4116, fol. 8 r°.
(23) Inq. Lix. Proc. n° 12932, fol. 14 v°.
(24) Inq. Lix. Proc. n° 9285, fol. 3 v°.
(25) Inq. Lix. Proc. n° 2257, fol. 6 v°.
(26) *Ibid*. loc. cit.
(27) Inq. Lix. Proc. n° 1636, fol. 46 r°.
(28) Inq. Lix. Proc. n° 5153, fol. 4r°; n° 9681, fol. 4 v°; n° 13187, fol. 4 v°; n° 2467, fol. 31 v°; n° 3575, fol. 11 r°; n° 10826, fol. 7 v°.

ومما لاشك فيه أن موقف البرتغاليين ممن ارتدوا كان ثمرة عداء طويل للإسلام والمسلمين تشكل بسبب الحروب الطويلة التي دارت بالأندلس والمغرب برا وبحرا. وتعزز هذا العداء أكثر بتزايد الخوف من المد الإسلامي الممثل في العثمانيين وفي ضربات المجاهدين. وبالطبع كان نفس الشعور يخامر المغاربة كما لاحظنا من قبل. لذا، لابد من اعتبار رؤية كل طرف للآخر لفهم نوع العلاقة التي جمعت الأغلبية المسيحية بالأقلية المورسكية. فالدين والعداء المتبادل بين الطرفين بسبب حروب دامت عدة قرون بين الهلال والصليب لعبت الدور الأساس في تحديد نوعية تلك العلاقة. ولنمثل لذلك بموقف البرتغاليين من الوثنيين.

فمصادر محاكم التفتيش لا تشير قط إلى محاكمة مسيحيين محدثين كانوا وثنيين بتهمة التمسك بهويتهم الثقافية، في حين أنها سجلت لنا، فضلا عن آلاف محاكمات اليهود المتنصرين، محاكمات مئات المسلمين المنحدرين من مناطق تمتد من الخليج إلى المحيط، توبعوا بسبب التهمة المذكورة، كما أن أبناءهم الذين أنجبوهم هناك عرفوا نفس المعاناة. فقد سبقت الإشارة إلى محاكمة سوداني بلغ عنه بسبب عمل لا علاقة له بالإسلام، وذلك لكون الأصل الإسلامي للشخص المذكور كان يجعل منه متهما محتملا.

ومن السهل فهم السبب الذي جعل المجتمع يقف موقفين مختلفين من شخصين إفريقيين وأسودين. لم يكن للمجوس ثقافة أوعقيدة يمكنهما أن تصمدا في وجه ثقافة وعقيدة البلد المضيف، بل على العكس من ذلك، كانت سلبية أولئك المجوس مثالية إذا ما صدقنا الإخباري de Zurara الذي أكد أنهم قبلوا بتلقائية العقيدة الكاثوليكية، الأمر الذي جلب لهم عطف البرتغاليين. لقد ذكر نفس الإخباري عدة زيجات بين سود تنصروا وبرتغاليين، كما ذكر أن عددا من الأسر تبنت بعضهم وخصتهم أحيانا بنصيب من ممتلكاتها(29).

غير أن شهادة Zurara لا تنطبق في الحقيقة إلا على نهاية القرن الخامس عشر، وربما بداية القرن التالي. فمن الأكيد أن الأزمة الاقتصادية، وتزايد خوف البرتغاليين

---

(29) E. de Zurara, **Crónica de Guiné**, cité par H. Cidade, **A literatura**... *Op. cit.* I, pp. 34-35.

من المد العثماني ومن اكتساح الإصلاح الديني لبلادهم، ووصول آلاف العبيد كل سنة من مناطق مختلفة، وتنصرهم الذي فتح في وجههم إمكانية الاندماج والارتقاء الاجتماعي، فرضت على المجتمع البرتغالي، وطبقاته الدنيا على الخصوص، الدفاع بقوة عن مبدإ «نقاء الدم» (Limpeza de sangue) الذي جعلت منه شرفا (honor) لا يمكن للمسيحيين المحدثين أو للموروسكيين أو السود المجوس سابقا أن يصلوه بسبب أصلهم. فقد يصل هؤلاء بسبب ما يجمعونه من مال إلى ما عبر عنه H. Méchoulan بـ"honra" غير أنه يتعذر عليهم مهما فعلوا، أن يحصلوا على "الشرف" المرتبط بالروح التي لا يملكها غير الله(30).

واعتمادا على هذا المبدأ، حال المجتمع البرتغالي دون اندماج الأقليات العرقية والدينية، وذلك في وقت كان المغربي غير متحمس لذلك الاندماج.

إذن، من المتوقع في ضوء ما سبق، أن تكون العلاقة بين الطرفين سيئة. فخلال وصفه للعلاقة التي كانت قائمة في إسبانيا بين الأقلية الموركسية والأغلبية المسيحية، كتب L. Cardaillac: «لا تزال محاضر محاكم التفتيش تنبض بالحياة من خلال الشهادات ودفاع المتهمين ومرافعات النيابة، الأمر الذي يصور لنا علاقة المجتمع المسيحي بالأقلية الموركسية. لقد كانت الخلافات اليومية البسيطة، التي كانت تزعج هذا الطرف أو ذاك، والتي كانت تؤثر على شعور ديني رهيف، مسجلة بدقة بتلك المحاضر. وتمثل تلك الأحداث بالنسبة إلينا أحسن شهادة على تصادم المجموعتين»(31).

فمصادر محاكم التفتيش تؤكد أن الاتصال بين الطرفين كان قليلا لأن المحققين لم يكونوا ينظرون إليه بعين الرضى. وكان الخطاب موجها بالخصوص لمن تنصر من المسلمين لكي يتفادوا الاتصال بالمسلمين و«بالموركسيين غير الصادقين في ردتهم كما يتفادى الإنسان النار»(32). فقد نصح سوداني سودانيا آخر بالاختلاط «بالبيض» فقط، «وبتفادي الحديث مع الموركسيين»(33). وادعت مغربية أن ابنتها المولودة في

(30) H. Méchoulan, Le Sang de l'autre... *Op. cit.*, p. 133.
(31) L. Cardaillac, Morisques et Chrétiens, *Op. cit.* p. 13.
(32) Inq. Lix. Proc. n° 193, fol. 7 r°.
(33) Inq. Lix. Proc. n° 4031, fol. 7 v°, n°6466, fol . 40 r°.

البرتغال لامتها عدة مرات على علاقتها المضرة مع الموريسكيين الذين كانت تعتبرهم «كلابا وكلبات»(34). لذا كان مآل الزيجات المختلطة الفشل(35).

فبهذه «النصائح»، كانت المحكمة تهدف إلى الوصول إلى غايتين: تقسيم أفراد الجالية المغربية، وإحداث خلافات بين أفرادها قصد القضاء على تماسك عناصرها وتآزرهم من جهة، ونسف هويتها الثقافية التي يحافظ عليها العيش في مجموعة متماسكة، من جهة ثانية.

استمر البرتغاليون في اعتبار الموريسكيين مسلمين، وخصوهم لذلك بصفات "المسلم" بشكل عفوي أو مقصود. وقد عجز كتاب المحكمة أنفسهم عن ضبط مصطلحاتهم ونعتوا سهوا، عدة مرات، الموريسكيين بالمسلمين رغم الفرق البين بين اللفظين، خصوصا لدى المحكمة التي كانوا يعملون بها(36). فقد اشتكى شاب تطواني متنصر من استمرار البرتغاليين في مناداته بالمسلم، ومن كون ردته لم تنفعه في تحسين علاقته بمن كان على اتصال بهم إذ «أن بعضهم كان يناديه بالمسلم، والبعض الآخر بالمرتد، بينما كان آخرون ينعتونه بالموريسكي أو بالأسير»(37). وتشاجر المدعو João Rau عدة مرات مع خدام سيده لكونهم كانوا يستغلون كل خلاف معه «لنعته بالمسلم القح، ابن المسلم، وكذا بالكلب»(38). وعانى باقي المسلمين من نفس المواقف العدائية.

وقد تنبه المتنصرون إلى أن موقف المسيحيين منهم كان يصبح أكثر عدوانية بعد ردتهم. فقد اشتكت التونسية Maria Bernaldez من أنها لم تنعت قط بالمسلمة مثلما نعتت بذلك بعد ردتها(39). وهكذا لم تتحقق الغاية المتوخاة من التنصر، الأمر الذي أثر بالتأكيد على موقف المغاربة من البرتغال وسكانه(40).

---

(34) Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 18 r°.

(35) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, I, fol. 93 v°, 94 r°, Proc. n° 7560, fol. 17 r°; Inq. Lix. **Cadernos do Promotor**, II, fol. 376-377.

(36) Inq. Lix. Proc. n° 12684, fol. 6 r°; n° 6107, fol. 2 r°.

(37) Inq. Lix. Proc. n° 1114, fol. 81 v°.

(38) Inq. Lix. Proc. n° 9520, fol. 7 v°.

(39) Inq. Lix. Proc. n° 9310, fol. 19 v°.
هذا وقد عاب المحققون على علج أسر من لدن البرتغاليين سنة 1545 إخفاءه لأصله المسيحي، فعزا ذلك لكونه «لاحظ أن المسيحيين يعاملون المسلمين الذين يتنصرون معاملة أسوأ من معاملة المسلمين الجدافين بالسفن»:
Inq. Lix. Proc. n° 9235, fol. 11 v°, 14 v°.

(40) عن انعكاسات ذلك التصرف على الفئات المستضعفة، راجع:
R. Linton, **Le fondement culturel de la personnalité**, Paris, Bordas, 1977, p. 13.

ومما لا شك فيه أن اعتبار المتنصرين مسلمين يعكس عدم ثقة المسيحيين في صدق ردتهم، الأمر الذي تؤكده المصادر التي اعتمدناها. وتعكس الحجج التي كان المتنصرون الذين سقطوا في شباك محكمة التفتيش يقدمونها لإقناع المحققين بصدق ردتهم تصور المسيحيين لتلك الردة.فلكي تقنع مغربية المحققين بأنها عاشت هي وزوجها عيشة مسيحيين صادقين، ذكرت أن رجالا "بيضا" حملوا جثة زوجها ودفنوها يوم وفاته. وقد كان التبرير المذكور يتمشى وعقلية المحققين أنفسهم. فبما أنها اعترفت بتقديم الكسكس صدقة للترحم على زوجها، فإن القاضي سألها عما إذا حضر الأمسية «مسيحي أبيض، مسيحي قح»(41). واعتمدت متنصرة أخرى نفس الحجج لإقناع القضاة بصدق ردتها. فقد طلبت منهم أن يستفسروا جيرانها البرتغاليين «ليعلموا أنها كانت تعيش باستمرار داخل بيتها مع نساء بيضاوات (brancas)»، وبأنها لم تخالط قط موريسكيين أو موريسكيات»(42).

وهكذا نلاحظ أن المجتمع البرتغالي ومحكمة التفتيش التي أحدثها للدفاع عن قيمه، كانا يعتقدان أن الاختلاط بالمسيحيين الأقحاح، والابتعاد عن المسلمين والموريسكيين، يمثلان أحسن برهان على صدق الردة. فقد حاول برتغالي دعي للشهادة لصالح المغربي المدعو António Alberto التأكيد على هذا الجانب لإقناع القضاة بصدق ردة المتهم، وبتمسكه بعقيدته الجديدة. لقد أكد أنه شاهد المتهم يقبل بانتظام على الكنائس ويشارك في الصلوات، وأنه كان يراه دائما: «بعيدا عن باقي الموريسكيين، لا يخالط إلا الأشخاص البيض، والأفاضل منهم على وجه الخصوص»(43). واعتمد شاهد برتغالي آخر نفس الحجج خلال محاكمة أحد المغاربة. فقد ذكر أنه قدم له جميلا لا يقدر بثمن بدفعه إلى التنصر وبإبعاده عن موريسكية كان ينوي الزواج بها، وبتزويجه بـ «مسيحية أصيلة، امرأة فاضلة»(44).

لم يكن لفظ أبيض يحمل بمصادر محاكم التفتيش البرتغالية حمولة عرقية وحسب، بل كان يحمل كذلك دلالة دينية. فقد كان " الأبيض" ذلك المسيحي القح الذي

(41) Inq. Lix. Proc. n° 12690, fol. 2 v° - 3 r°.
(42) Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 10 v°.
(43) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 15 r°.
(44) Inq. Lix. Proc. n° 64662, fol. 38 v° - 39 r°.

لا يشك في عقيدته، والذي لم يكن مطالبا بإثبات ذلك، «طالما أنه ليس مسيحيا محدثا»(45).

وبما أن المجتمع البرتغالي لم يكن ينظر للمتنصر إلا كمسيحي غير صادق توخى من ردته خداع الآخرين لتحقيق غايات معينة، فإنه جعل من كل المسيحيين المحدثين أشخاصا متحالفين مع الشيطان، وقابلين لارتكاب الخطايا في كل لحظة. فرغم أن المحكمة لم تتوصل ضد مغربي إلا بتبليغ واحد، فإن القاضي أصدر أمرا باعتقاله مبررا إجراءه غير القانوني بأصل المتهم الذي يجعل منه شخصا من الممكن جدا أن يكون قد ارتكب فعلا المنسوب إليه(46).

وهكذا لم يعد البرتغاليون، وخصوصا البسطاء منهم، يكتفون بتهميش المرتدين والشك في حسن نواياهم، بل أضحوا يتحرشون بهم ويبحثون عن الأسباب لإذايتهم. فبما أن خادمة جار مغربي متنصر ألقت الماء في موقده من طابق علوي، فإنه ذهب للاحتجاج على ذلك التصرف لدى مشغلها. إلا أن الخادمة سبته ونعتته بالمرتد والمسلم، الأمر الذي جعله يصفعها ويصيح: «لعن الله كل من غيّر دينه وبدله بغيره، خصوصا وأن هؤلاء القوم لا يميزون بين من هو مسلم ومن هو متنصر». واعترف نفس المتهم أنه قال مرة: «سواء كنت مسيحيا أو مسلما أو يهوديا، فإنهم لن يخصوك بأي اعتبار»(47).

وكان بعض برتغاليي يابرة يقتربون من باب مغربية ويسبونّ الرسول عليه السلام، والدين الإسلامي، كما كان آخرون ينادونها بمحمد(48). وكانت فرص التحرش بالمغاربة أكثر بالشارع. فقد كان ثلاثة مغاربة يتجاذبون أطراف الحديث بأحد أزقة لشبونة، الأمر الذي أثار فضول بعض المارة الذين رغبوا في معرفة موضوع الحديث. وهكذا اقترب أحدهم من «المسلمين الذين يدعون أنهم مسيحيون» وخاطب أحدهم بقوله: «لماذا لا تؤمن بعذرية سيدتنا مريم بعد وضعها؟». وقد دفعه المغربي وسبه قبل أن ينصرف(49).

---

(45) Inq. Lix. Proc. n° 12720, fol. 6 r°.

(46) Inq. Lix. Proc. n° 1728, fol. 113 r°.

وقد كانت محكمة التفتيش تعتبر أن اللواط ظاهرة خاصة بالبلاد الإسلامية، راجع:

Inq. Evora. Proc. n° 186, fol. 16 r°.

(47) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, I, fol. 122 v°.

(48) Inq. Evora. Proc. n° 5336, fol. 3-4.

(49) Inq. Lix. **Liv denúncias**, III, fol. 113 r°.

واعتاد المسيحيون في حديثهم مع المغاربة تذكيرهم بمسقط الرأس وبدينهم الأصلي لدفعهم إلى قول ما يمكن تبليغه إلى المحققين. وكانوا يتوخون نفس الشيء من سب الرسول عليه السلام بمحضرهم(50). وأكد راهب دعي للشهادة لصالح المغربي المدعو Diogo Botelho أن المتهم مسيحي صادق، وأرجع القذف والسب اللذين كان يوجههما للمسيحيين ودينهم إلى التعسفات المستمرة التي كان عرضة لها من « أشخاص خبيثي الطوية كانوا ينعتونه بالكلب»(51).

وبالفعل كان الموريسكيون ينعتون بالكلاب، حتى إن من البرتغاليين من استاء لذلك وأخبر به محكمة التفتيش(52). وقد كان كل قول أو فعل يصدر عن المغاربة يعرضهم للوم عنيف وتهديد بالتبليغ. فبعد أن سمع أحد المارة المدعوة Anna Barbosa تقسم بأبي العباس السبتي، صرخ في وجهها بقوله:«أنظر هذه الكلبة تقسم بذلك الشخص!»(53). وتعرض مغربي آخر للوم مماثل بعد أن توسل لنفس الولي لكي يساعده في لعب الورق(54). ولما سمع موظف بمدينة Setúbal عن طريق الصدفة مغربيا متنصرا يوصي مواطنا له بالتمسك بالإسلام، شده بعنف وسبّه ونعته بالمسلم، ثم أمره بمصاحبته لدى راهب ليعيد ما قال بمحضره(55). وكان بعض البرتغاليين يستغلون كل ضعف أو علامة إنهاك وتعب لدى المتنصرين لاتهامهم بالصوم. فقد كلف أحدهم نفسه عناء الذهاب عند مغربي ليسأله عما إذا كان عياؤه بسبب صيامه لشهر رمضان(56). وتجرأ آخرون على التجسس على المغاربة حتى داخل بيوتهم. فقد بلغ عن مغربي وزوجته عاينهما جارهما من خلال ثقب بالجدار وهما يتناولان اللحم خلال الصوم المسيحي(57).

لذا لم يعد المتنصرون يشعرون بالاطمئنان، سواء داخل بيوتهم أو خارجها، وأضحوا يتفادون الخوض في المواضيع الدينية بمحضر الأجانب، وحتى بمحضر

(50) Inq. Lix. Proc. n° 11128, fol. 20 r°, **Liv. denúncias**, I, fol. 93 v°.
(51) Inq. Lix. Proc. n° 11977, fol. 10 v°.
أنظر حالة مماثلة : Inq. Lix. Proc. n° 8062, fol. 17 v°
(52) Inq. Lix. **denúncias**, III, fol. 32 v°-35 r°.
(53) Inq. Lix. Proc. n° 11129, fol. 8 r°.
(54) Inq. Lix. **denúncias**, III, fol. 128 v° - 129 r°.
(55) Inq. Lix. Proc. n° 9280, fol. 13 v°.
(56) Inq. Lix. Proc. n° 8617, fol. 2 r°.
(57) Inq. Lix. Proc. n° 10830, fol. 7 r°.

أبنائهم(58) تفاديا لكل تبليغ، كما امتنعوا عن الخوض في كل ما يتعلق بوطنهم أو دينهم الأصلي، وامتنعوا كذلك عن استعمال العربية بمحضر البرتغاليين؛ وكلما استعملوها فيما بينهم، بالأماكن المعزولة كالغابات والأودية، اضطروا إلى السكوت كلما اقترب "أبيض" منهم(59).

وقد أصبح المتنصرون يخافون كثيرا من التبليغ عنهم لقول أو فعل ما، وأضحوا يشكون حتى في أقرب الناس إليهم. فقد آوى Nicolão da Costa وزوجته المغربية المدعوة Catarina do Porto. وحينما أقسمت ضيفتهما بأبي العباس السبتي لاماها على ذلك ومنعاها من إعادة ذلك ببيتهما خوفا من أن تعلم محكمة التفتيش بذلك وتتهمهما بالتواطؤ(60). وحينما سمع مغربي متنصر نواقيس كنيسة تدق، قال لأحد مواطنيه بأن المؤذن يؤذن ببلده في ذلك الوقت، إلا أن المقارنة لم تعجب المخاطب الذي منعه من تكرار ما قاله مرة أخرى، ونصحه بالاحتياط تفاديا للتبليغ عنهما واعتقالهما(61).

لذا تيقن المتنصرون من أن اعتقالهم ومحاكمتهم واردان في كل لحظة وحين، وذلك لكونهم حديثي العهد بالمسيحية وأجانب عن البلد. فحينما سأل المحقق مغربية عما إذا كانت تعرف سبب اعتقالها، أجابته بأن ذلك يعود إلى كونها "موريسكية"، ولكون زوجها اعتاد استدعاء موريسكيين إلى بيته، «وأنها قد تكون اعتقلت لذلك»(62).

وهكذا شرع المغاربة، وكذا باقي الأجانب، في التنديد سرا، وفي تجمعاتهم الخاصة، بجبروت المسيحيين وتعسفهم على الأجانب، حتى ولو تنصروا. فقد كانت Antónia Vaz، التي أدخلت البرتغال وعمرها سنتان، وحوكمت بعد إقامة دامت ثمانية وأربعين سنة، حانقة على البرتغاليين الذين كانوا في نظرها لا يتوقفون عن الإساءة إلى «المسيحيين المحدثين»، مع أنهم «أكثر منهم تمسكا بالدين، وأكثر شفقة على بعضهم البعض»(63). ويتجلى هذا الحكم على المجتمع المسيحي بالمقارنة مع المجتمع

(58) Inq. Lix. Proc. n° 13187, fol. 3 r°.
(59) Inq. Evora, Proc. n° 6734, fol. 6 r°.
(60) Inq. *Lix. Proc.* n° *5254, fol.* 4 v°.
(61) Inq. Lix. Proc. n° 4026, fol. 11 v°.
(62) Inq. Lix. Proc. n° 1455, fol. 4 r°.
(63) Inq. Coimbra, Proc. n° 3864, fol. 5 v°.

الإسلامي الأكثر عدلا و«تساكنا بين مختلف مكوناته»(64)، من خلال ما قالته مغربية ألزمت بدفع غرامة باهظة لتشغيلها لعبدة لم تكن تملكها. فبعد أن ندبت قدرها الذي فرض عليها العيش بالغربة، عبرت عن رغبتها في العودة إلى مسقط رأسها فرارا من قساوة وعسف المسيحيين مع الأرامل اللواتي يكددن ويتعبن لضمان قوتهن. وقد دفعها اليأس والغضب إلى حث مواطنين لها على مرافقتها؛ وعرضت عليهم مدخراتها لأداء ثمن عبورهم إلى المغرب(65).

ولما تحولت محاكم التفتيش بعد سنة 1550 إلى مطاردة المورسكيين، فسر هؤلاء التحول المذكور برغبة المحققين في القضاء الكلي عليهم بعد أن نكلوا باليهود المتنصرين(66).

وبما أن التنصر لم يحقق الغاية المتوخاة منه، ووعيا من المغاربة باستحالة إرضاء المجتمع المسيحي والحصول على ثقته، مالوا إلى تهميش أنفسهم، وإلى التمسك بهويتهم الثقافية. لذا يقف القارئ لمحاضر المحاكمات على رغبة أكيدة لديهم في الدفاع عن هويتهم الثقافية وتمييز أنفسهم.فبعد اعتقال المدعو Alvaro Carvalho، ذهب João Nunez لمواساة زوجته، فوجد عندها عددا من مواطناتها أتين لنفس الغاية. ولما شرعت الزوجة في لوم زوجها على عناده ورفضه الذهاب إلى المحكمة للاعتراف وطلب العفو قبل اعتقاله، لامتها إحدى الحاضرات بقولها: «يكفينا أن المسيحيين أعداء لنا، وأعداء لرسولنا ونبينا (inibi)»(67). ولما عبّر مغربي بزنزانته عن أمله في أن يطلق المحققون سراحه في أقرب الآجال، أجابه أحد مواطنيه بأن «أولئك الكلاب لن يتسامحوا معك قط، وحتى وإن فعلوا، فلن يحميك من عذاب جهنم غير مشيئة الله وشفاعة رسوله»(68).

وتجرأ بعض المغاربة بالرد على التحرشات التي كانت تستهدفهم. لم تكن Maria da Silva، التي كانت متزوجة ببرتغالي، تتردد في شتم هذا الأخير وكل

(64) Inq. Lix. Proc. n° 12996, fol. 5 r°.
(65) Inq. Lix. Proc. n° 7695, fol. 7 v°-8 r°.
(66) Inq. Lix. Proc. n° 10864, fol. 11 r°.
(67) Inq. Lix. Proc. n° 6466, fol. 16 v°.
(68) Inq. Lix. Proc. n° 3590, fol. 36 r°.

مواطنيه الذيـن كـانـت تـنعـتـهـم بالـعـربـيـة بـ «الـكـلاب» و«الـنـصـارى» (naçares) والخبيثين(69).

كما رد آخرون بعنف على تلك التحرشات، أو على الأقل، شرعوا في البحث عن وسيلة للانتـقام لأنفسهم كما فعل شخـص من منطقة آسفي استطاع الـفرار إلى مسقط رأسه، وكـان أول ما قـام به هو المـشاركة فـي هجـوم على حـامية آسـفي، إلا أنـه أسر وأعيـد إلى الـبرتـغـال في حالـة عبـودية(70). كمـا انـتـظر الـبعـض الآخر الانـتـقـام من البرتغاليين على يد خير الدين برباروس أو الشريف السعدي(71).

وكان المغاربة يحتفلون بكل انتصار يحققه المسلمون على المسيحيين برا أو بحرا. فقد بلغ عن مغربية وزوجها نظما ببيتهما حفلة غنائية كبرى دعواَ إليها عددا كبيرا من الموريسكيين والمسلمين، وذلك على إثـر انتصار مجاهديـن مغاربة على قبطـان طنجة وتمكنهم من قتله صحبة عدد من جنوده. وورد بالتبليغ ما يلي:

«تمكن (كَتَرِينَا دُو إِسَّا) بأحد مستويات الدار التي تقطن بها [المبلغة]، وهي مورسكية متزوجة بـ(ألفارو كرفَاليو) المورسكي كذلك، ويصـنعان البسائـط ويقيمان بـتلك الدار منذ عـودة مولانا الملك إلـى هذه المدينة للـمرة الأخيرة. ولما وصل خـبر أسر المسيحـيين الذين رافقوا مـلك بادس، سمعتهما المبـلغة بنفسها يقيمان حفلـة كبيرة بدارهما استعملا فيها آلات الـطرب ورقصا وغنيا وأكلا وشـربا، وكان الضـجيج المحـدث قويا، إلـى حد أنه كان يـسمع بـالدور السـفلي. واستـمر الحفـل عدة أيام. وحـضر تـلك الحفـلة عدد كـبير مـن المورسكـيين المتزوجين والأسـرى، ومن المسلمين الذين بقوا هنا بعد ذهاب ملك بادس، والذيـن رأتهم بنفسها يدخلون ويخرجون حاملين براميل صغيرة من الخـمرلشربهـا، ولما سألت (كاتـرينا دو إسا) المذكـورة عن سبب إقامـة تلك الحفـلات أجابتهـا أنها بـسبب زواج (بْرَانْكـا) ابنة أحد المـورسكـيين، والتي زوجـوها فعلا بـعد بـضعـة أيام مـن نهـاية الحـفل. وبـعد ذلـك، لما وصـل خبـر قتـل المسلمـين لـ(لويش لوريـرو) ولمسيحيين آخرين، سمـعتهم يقيمون بدار نفس المورسكيين تلك الحفـلات والضجيج بالمزامير. ولما بلغ خبـر مقتل (بيدرو) مؤخرا، أقـاموا نفس الحفلات. وهي لا تعـرف سبب تنظيمهـم لتلك الحفلات، وإن كانت استغربتها ولم تعجبها. وذكر لها زوجها، الذي قضى بأفريقيا سبع سنوات فـي الأسر، أن المسلمين يـقيمـون هنـاك نفس الحـفلات كـلمـا أسروا مـسيحـيين أو نـظمـوا غارة»(72).

(69) Inq. Lix. **Cadernos do Promotor fiscal,** II, fol. 376 v°.

(70) Inq. Evora, Proc. n° 9193, fol. 4 v° - 5 r°; Lix. Proc. n° 10854, fol. 4 r°.

(71) Inq. Lix. Proc. n° 708, fol. 14 r°; n° 1636, fo. 6 v°; 10953, fol. 2 v°; **Liv. denúncias**, I fol. 86 r°; 89 v°.

(72) Inq. Lix. Proc. n° 167, fol. 39 v°.

وأخبر مغربي المحققين بأن نفس المغربية المبلغ عنها أعلاه اعتادت تنظيم حفلات مماثلة ببيتها لعدة أيام كلما وصلها خبر انتصار المغاربة على البرتغاليين ببلدها. وأضاف أن مغربية أخرى كانت لا تخفي سعادتها بسبب كل انتصار إسلامي، وكانت تعلن حزنها لكل هزيمة تلحق بالمسلمين(73). وكان نفس الإحساس يخامر مغربية أخرى تدعى Isabela(74).

وهكذا، يتأكد لنا عجز المجتمع البرتغالي عن استيعاب الأجانب وتوفير شروط اندماجهم. لذا كانت المغربية المتنصرة Antónia Vaz، التي أدخلت البرتغال وعمرها لا يتجاوز السنتين تبحث، بعد إقامة دامت ثمانا وأربعين سنة، عن وسيلة للفرار إلى المغرب(75). ووقفنا في محاضر محاكم التفتيش على عدة حالات مشابهة(76).

لقد كان المغاربة المتنصرون، كباقي الموريسكيين، حريصين على التمسك بهويتهم الثقافية، وعلى البحث عن وسيلة للعودة إلى وطنهم. ويمكن تعميم ما ذكره هندي لتركي على باقي المسلمين المتنصرين. فقد أكد له أنه بالرغم من تنصره، فإنه لا يزال يعتبر نفسه مسلما، وأنه لا يخامره أدنى شك بشأن سمو الإسلام، وأنه لا يستطيع الاستمرار في العيش في البرتغال، لأنه لا يمكنه أبدا أن ينسى بلده ودينه حتى ولو كان عليه أن يقيم في البرتغال مدة قرن(77)! كما أن ما ردت به مغربية متنصرة على تهديد بعض مواطنيها الخائفين من الاعتقال بالتبليغ عنها إذا ما استمرت في السخرية من القربان المقدس، يعكس ذلك الاعتزاز بالاختلاف عن الآخر. فقد أجابت مخاطبيها بقولها: «لن يمنعني ذلك من اعتبار نفسي مسلمة، ومن الإيمان برسالة محمد. لقد ولدت مسلمة، وسأموت كذلك»(78). والجدير بالذكر أنها قالت هذا الكلام وهي في حالة فرار، بعد أن أصدرت محكمة لشبونة أمرا باعتقالها(79).

وهكذا حاول المغاربة المتنصرون صبغ كل طقوسهم بصبغة إسلامية ومغربية. فقد نصح أحدهم مواطنة له توفي زوجها بتنظيم حفل ديني إسلامي بعد أن كانت كل

(73) Inq. Lix. **Liv.. denúncias**, III, fol. 55 v°.
(74) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, IV, fol. 230 r°.
(75) Inq. Coimbra, Proc. n° 3864, fol. 28 r° et 4 v°-5 v°.
(76) Inq. Lix. Proc. n° 7246, fol. 4 r°.
(77) Inq. Lix. Proc. n° 10712, fol. 32 v°.
(78) Inq. Lix. Proc. n° 9280, fol. 16 r°.
(79) *Ibid. loc.cit.*

الطقوس التي قامت بها مسيحية(80). ويتجلى كذلك هذا الشعور بالانتماء إلى مجتمع مخالف في رد مغربية أخرى على لوم برتغالي لها بسبب نصحها لأحد مواطنيها بعدم التنصر: «ألا يؤلم أمك اعتناقك للإسلام؟»(81)؛ كما يتجلى فيما كان يردده مغربي مقيم بجزر الآصور: «لعن الله المسلم الذي يعيش بين المسيحيين»(82). كما أن أسيرة مغربية لم تكن تتوقف عن القول بأنها مسلمة وابنة مسلمة، وأنها تتمنى أن تموت مسلمة، وأن الله لم يعد يرعاها منذ تنصرها(83).

وتتجلى كذلك هذه الرغبة في تمييز النفس عن الآخر فيما قاله Pero da Silva بكل اعتزاز لبرتغالي وهو يرد إليه ما أقرضه: «أنظر، هذا مالك، ولاحظ كيف يفي المسلم الصادق بوعده»(84)! كما أن المغربية Maria da Silva حذرت زوجها البرتغالي من الاستمرار في سب الرسول عليه السلام بمحضرها والإساءة إلى الإسلام، «لأنه يعلم أنها من أصل إسلامي»(85). كما تتجلى تلك الرغبة في الأهمية التي كانوا يولونها لبعض الرموز والأفعال. فقد استدعت Luisa Fernandez مغربيات متنصرات إلى بيتها وقدمت لهن كسكسا. ولما أرادت إحدى المدعوات استعمال الملعقة وبختها وفرضت عليها استعمال اليد كبقية المدعوات. كما أنها تعمدت تقديم الطعام على الأرض، لا على طاولة، وذلك « حسب طريقة المسلمين»(86).

ولم يتأخر هذا الموقف في إعطاء ثماره. فقد حوكم المغاربة الذين دخلوا البرتغال راشدين أو صبيانا على السواء بتهمة التمسك بالإسلام وبهويتهم الثقافية. كما أن أبناءهم الذين أنجبوهم هناك عرفوا نفس المعاناة، كما توضح ذلك الحالات التالية. فقد اعترف Jerónimo البالغ من العمر عشرين سنة خلال محاكمته أن أمه كانت تحثه على التمسك بالإسلام(87). واعترفت Joana Caldeira، التي أقامت مدة أربعين سنة في البرتغال، بأنها علمت أبناءها العربية ولقنتهم العقيدة الإسلامية، لرغبتها في أخذهم

---

(80) Inq. Lix Proc. n° 12720, fol. 16 v°.
(81) Inq. Lix **Liv. denúncias**, fol. 86 r°.
(82) Inq. Lix **Liv. denúncias**, I, fol. 86 r°.
(83) Inq. Lix **Liv. denúncias**, IV, fol. 230 r°.
(84) Inq. Lix **Liv. denúncias**, VII, fol. 27 r°; Proc. n° 12459, fol. 14 r°.
(85) Inq. Lix. **Cadernos do Promotor fiscal**, II, fol. 377 v°.
(86) Inq. Evora, Proc. n° 9385, fol. 4 v° - 6 r°.
(87) Inq. Evora, Proc. n° 185, fol. 1 v°.

معها إلى المغرب(88). وبالطبع لم تكن هذه المغربية الوحيدة التي اعترفت بمثل هذا العمل(89). وقد حوكمت المدعوة Anna Barbosa، المزدادة في البرتغال، من لدن محكمة التفتيش لنفس السبب الذي حوكمت من أجله أمها التي دخلت البلاد وعمرها سبع أو ثمان سنوات(90).

ولعب المغاربة الذين تمسكوا بإسلامهم ورفضوا التنصر، وكذا بعض من عجزوا عن ذلك وارتدوا لأسباب سنعود إليها، دورا أساسيا في تمسك الجالية المغربية بهويتها وعقيدتها. وقد تميز من بين المسلمين عبد يسمى عيسى اضطرت المحكمة إلى اعتقاله يوم 9 أكتوبر 1553 لجعل حد لنشاطه. وتوصلت المحكمة بعدة تبليغات تؤكد الدور الذي لعبه ذلك «الفقيه» في إطلاع المغاربة على العقيدة الإسلامية، وحثهم على الصلاة والصيام(91). وكان بعض الفقهاء يحظون بتقدير كبير، وكانوا يرشدون مواطنيهم ويخبرونهم بدخول شهر رمضان وحلول الأعياد الإسلامية، كما كانوا يشرفون على زواجهم وعقيقة أبنائهم وحلقات الذكر والدعاء التي كانوا يقيمونها بمناسبة وفاة أحدهم(92). وقد تميزت في هذا الباب دكالية تسمى مسعودة كانت تحفظ بعض الآيات والدعوات، وكانت تسدعى لجل الحفلات الدينية المنظمة بلشبونة(93). وقد كان أولئك المسلمون صارمين مع من رضخ للأمر الواقع وقبل التنصر(94).

وفشلت المحكمة في عزل أولئك المسلمين عن المتنصرين منهم(95). فقد كانت بيوتهم تخضع لمراقبة صارمة، وكان الذين يتصلون بهم معرضين للاعتقال(96) بتهمة التواطؤ معهم. وكان الذين استعصوا على المحكمة ولم ينل التهديد منهم يجلدون في

(88) Inq. Evora, Proc. n° 3038, fol. 5 r°.
(89) Inq. Lix. Proc. n° 9280, fol. 12 v°.
(90) Inq. Lix. Proc. n° 11129, fol. 5 v°.
(91) Inq. Lix. Proc. n° 6440, fol. 3-10.
(92) Inq. Lix. Proc. n° 6787, fol. 3 v°; n° 12689, fol. 8 r°; n° 6405, fol. 4 r°; n° 12720, fol. 8 r°; n° 7560, fol. 16 v°; n° 9670, fol. 12 r°; n° 6787, fol. 8 r°; n° 3184, fol. 4 r°; n°6466, fol. 7 v°; n° 7457, fol. 7 r°.
(93) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol. 4 r° et s.s.
(94) Inq. Lix. Proc. n° 12061, fol. 8 v°; n° 10933, fol. 4-5.
(95) Inq. Lix. Proc. n° 5511, fol. 6 r°.
(96) Inq. Lix. Proc. n° 11127, fol. 5-6.

الساحات العمومية قبل أن يطلب من أسيادهم، إذا كانوا في حالة عبودية، بيعهم خارج البلاد، وإلا صادرتهم الدولة(97).

ونتجت ظاهرة غريبة عن عدم اندماج الجالية التي تهمنا : فبالرغم من التنصر، ومدة الإقامة الطويلة، وتبني رموز الثقافة البرتغالية من لغة ولباس ودين ... استمر المغاربة في العيش حسب نمط عيشهم إلى حين تدخل محكمة التفتيش في الظروف وللأسباب التي سنعود إليها. وتؤكد وقائع المحاكمات بالفعل استمرار المغاربة، رغم تنصرهم، في العيش كما لو كانوا مسلمين.

فقبل بداية الأكل أو الشرب أو القيام بعمل ما، استمر المتنصرون منهم في قول البسملة، وكانوا يحمدون الله كلما أنهوا وجباتهم(98). كما استمر المغاربة في تنظيم أفراحهم وأتراحهم حسب تقاليد بلادهم، وكانوا يلجأون في ذلك للمسنين منهم(99).

فقد كانوا، كلما رزقوا مولودا، يسارعون فور عودتهم من الكنيسة إلى إلغاء حفل التسمية المسيحية بتنظيم آخر يعطى فيه للصبي إسم إسلامي. وكان الأبوان والأقارب يقترحون مجموعة من الأسماء يختار واحد منها بالقرعة، حسب طريقة وضحتها بعض محاضر المحاكمات. وهكذا سمت دكالية بنتها زهراء(100)، بينما سمي ابن دكالي عليا(101). واختارت أسرة أخرى لمولودتها إسم فاطمة(102)... وكان المغاربة يتبادلون الزيارة بهذه المناسبة، ويقدمون هدايا إلى الأم، كانت قيمتها تختلف حسب جنس المولود، إذ كان ما يقدم أهم إذا كان المولود ذكرا. وبعد مرور سبعة أيام، كان الأبوان ينظمان حفلات تدوم أحيانا عدة أيام، يقدم فيها الكسكس ولحم الغنم(103).

---

(97) أنظر على سبيل المثل: Inq. Lix. Proc. n° 1208, fol. 6 v° :

(98) تكثر الإشارات بالمحاضر إلى قول البسملة وحمد الله في كل لحظة وحين، راجع مثلا: أحمد بوشرب، "محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1554)، **المناهل**، عدد 21، 1981، كذا:
Inq. Lix. Proc. n°5254, fol. 2v°; n° 12383, fol. 5r°; n°6754,fol. 9r°; n°260, fol. 14 r°, n° 12319, fol. 13 r°, etc...

(99) Inq. Lix. Proc. n° 12689, fol. 8 r°, 9 r°; n° 6440, fol. 310; n° 9670, fol. 12 r°; n° 6787, fol. 3 v°; n° 7457, fol. 7 r° etc.

(100) Inq. Evora, Proc. n° 7917, fol. 3 v°.

(101) Inq. Evora, Proc. n° 8652, fol. 7 v°.

(102) Inq. Evora, Proc. n° 2827, fol. 19 v°.

(103) Inq. Evora, Proc. n° 11323, fol. 6 r°.; n° 10769, fol. 9 et 13 r°; n° 11323, fol. 9 v° - 10 r°.

وكانت حفلات الزواج تنظم بالكنيسة. إلا أن بعض المغاربة كان يحرص بعد ذلك على إعطاء قرانهم طابعا إسلاميا بالالتجاء إلى بعض الفقهاء. فقد التجأ كل من المدعو João Fernandez و Apolyna إلى المسمى Diogo Rodriguez الذي «أمسك بأيديهما وضمها وقال: باسم الله»(104).

وكانت الحفلات المنظمة بهذه المناسبة تدوم أحيانا أسبوعا كاملا. وكانت الموسيقى وآلاتها، وطريقة الرقص والوجبات المقدمة للمدعوين، والطقوس والعادات المصاحبة لها، مغربية. فقد زوج الدكالي الذي كان يسمى قبل تنصره «السي عبد الله» إبنه ببنت دكالي آخر حوالي 1549–1550. ونظم الصهران المذكوران «حفلات كبرى على طريقة المسلمين». فبعد أن ذبح «السي عبد الله»، الكبش بنفسه، جمع صهره بعض دمه بكل عناية في إناء قبل دفنه. وقُدم للمدعوين المغاربة الكسكس و«الفتات». ولكي تحضر البركة، قرأ الدكالي الأول، الذي كان فقيها، بعض الآيات القرآنية. وانتقل المدعوون بعد الأكل إلى الغناء والرقص بمحضر العروسين. وكان الراقصون يلقون بين الفينة والأخرى بقطع نقدية هدية للزوجين. وأخبر بعض المبلغين المحققين بأن والد العروس كان سعيدا بتنظيمه تلك الحفلة تماما «كما فعل أبوه من قبل، بمسقط رأسه، بمناسبة زواج آخر»(105). وتجدر الإشارة إلى أن منظمي الحفل أقاما في البرتغال مدة خمس وعشرين سنة، لم تكن كافية لجعل المغاربة ينسون عادات وتقاليد بلدهم.

ووصلتنا أصداء حفلات زفاف مشابهة أقيمت في مدن أخرى. فقد كانت تنظم في يابرة «حسب طريقة المسلمين، وكما يفعل المسلمون ببلادهم»(106).

ونستشف من محاضر محاكمات المغاربة الشبه الكبير بين الأعراس التي كان أفراد الجالية المغربية ينظمونها هناك، وتلك التي لا نزال نشاهدها بالبوادي المغربية.

وكان المغاربة يستغلون مناسبات العطل وأيام الأحد للتجمع أمام مساكنهم قصد الرقص والغناء. وكانت الآلات الموسيقية والأغاني مغربية. وكان بعض تلك الأغاني

(104) Inq. Liv. Proc. n° 12720, fol. 8 r°.
(105) Inq. Lix. Proc. n° 5254, fol. 3 r°.
(106) Inq. Evora, Proc. n° 8055, fol. 19 v° - 20 r°; n°9823, fol. 4 r°; Lix. Proc. n° 167, fol. 39 v°, etc.

ذا طابع ديني(107). واستغل بعضهم مناسبات مسيحية لترديد أغاني مغربية جلها حنين إلى مسقط الرأس(108).

وعاش المغاربة المغربون أوقات أحزانهم حسب عادات وتقاليد وطنهم. فقد اعترفت الدكالية Anna de Melo خلال محاكمتها سنة 1559 أنه «توفي زوجها فبكته وناحت عليه كمسلمة، وعلى طريقة المسلمين، مبعثرة شعرها وخادشة خديها، ومتوسلة في شأن روح وجسد زوجها المذكور إلى محمد وإلى مولاي علي، اللذين يعتبرهما المسلمون وليين، لكي يكونا مع روحه وجسده، وأن ذلك فعلته كمسلمة، معتقدة أنه سيفيده». واعترفت كذلك أن أخا زوجها اشترى بعد ثلاثة أسابيع من تلك الوفاة كبشا أعدت بلحمه كسكسا لعشاء تصدقت به طلبا لرحمة المتوفى. وقد تخللت الأمسية تلاوة القرآن ودعوات إسلامية(109). وكان بعض المغاربة يحرصون على توفير ذلك الكسكس قبل وفاتهم(110).

وكانت بعض المغربيات، تعبيرا منهن عن مواساتهن لمواطنيهن، وكذا للتخفيف عما بداخلهن من أسى وألم بسبب الغربة وظروف العيش القاسية، يخرجن، كلما توفى مغربي، في بكاء جماعي، وضمنهن أحيانا من كانت تردد وهي تبكي، عبارات تحث بها الأخريات على البكاء أكثر(111).

وارتبط المغاربة ارتباطا كبيرا باللغة العربية وبأسمائهم الإسلامية، حتى إن بعضهم كان يستاء إذا ما نودي باسمه المسيحي(112). كما عجز بعض الماثلين أمام المحققين عن إعطاء الاسم المسيحي للأشخاص الذين كانوا يتحدثون عنهم(113).

---

(107) Inq. Evora, Proc. n° 13187, fol. 5 v°; n° 3568, fol. 7 v°; n° 10831, fol. 15 r°; Evora, Proc. n° 8582, fol. 7 r°; n° 9823, fol. 4 r°, etc.

(108) Inq. Liv. Proc. n° 1587, fol. 7 r°; 6466, fol. 16 v°; n° 11128, fol. 15 r°; 8425, fol. 57 r° - 59 v°, etc.; Evora, Proc. n° 5174, fol. 3 r°.

(109) Inq. Evora, Proc. n° 6868, fol. 4 v°.

(110) Inq. Lix. Proc. n° 708, fol. 12 r°; n° 6449, fol. 12 v°; n°12690, fol. 2 v° - 3 r°; n° 3184, fol. 4-6; Evora, Proc. n° 6868, fol. 5 v°.

(111) Inq. Lix. Proc. n° 568, fol. 10 r°; n° 9280, fol. 7 r°, etc.

(112) Inq. Lix. Proc. n° 6405, fol. 5 v°; n° 5153, fol. 10 r°; n° 13187, fol. 3 v°; n° 6405, fol. 2 v° 3 r°; n° 4118, fol. 2 v°; n° 10817, fol. 17 r°; 13187, fol. 3 v°; **Liv. denúncias**, I, fol. 86 r°; III, fol. 148 r°, 153 r°.

(113) Inq. Lix. Proc. n°11128, fol. 5 r°.

ويتجلى تمسك المغاربة عموما بهويتهم الثقافية في ارتباطهم ببعض الطقوس والعادات، رغم إقامتهم الطويلة في البرتغال، كالتصدق بالخبز والتين المجفف، واقتسام الخبز لضمان الثقة والإخلاص(114)، وجمع دم الذبيحة، والإيمان بمفعول التمائم، التي عثر المحققون على عدد منها في أعناق المغاربة المعتقلين لاعتقادهم أنها تحمي الجسد من المرض، والشخص الحامل لها من الاعتقال(115).

واستمر المغاربة في التداوي حسب أعراف بلادهم. فقد بلغ عن دكالي كان يعالج الذين يشعرون بألم في ظهورهم بسبب حملهم للأثقال بسوق الحبوب بلشبونة. وكان هذا الشخص يملأ فمه ملحا ويعض الجهة الموجعة ويرشها ثم يقرأ البسملة. وقد اعترف أنه استمر في علاج المغاربة من يوم دخوله البرتغال سنة 1521 إلى حين اعتقاله من لدن محكمة التفتيش سنة 1554 بعد أن اعتبرت أن ذلك العمل يمثل مظهرا من مظاهر التمسك بالإسلام، وطقسا من طقوسه(116)!

واستمرت بعض المغربيات في احتراف السحر والشعوذة حسبما تعلمنه قبل تغريبهن. ووصلتنا محاضر محاكمة سبع منهن. واشتهر بعضهن بسرعة، ولم يكن زبناؤهن من الموركسيين أوالمسلمين فحسب، بل كان منهم من كان مسيحيا قحا(117) يقيم بمدينة بعيدة، وجاء برسائل توصية، أو كان من إسبانيا(118).

وكان من الساحرات من كن يحملن تلك الصفة بوطنهن(119)، بينما ادعت أخريات أنهن تعلمن السحر في البرتغال من مغربيات توفين(120). وعلى كل، فقد كان سنهن حين اعتقالهن يتجاوز الخامسة والأربعين، مما يعني أنهن أتين مشبعات بثقافة وطنهن.

وكان الزبناء يتوخون من اللجوء إلى تلك المغربيات غايات شتى: الحرية والانعتاق بالنسبة للأسرى، والإنجاب بالنسبة للعاقرات، وتليين طباع الأزواج العنيفين، أو ضمان وفائهم، وتسهيل الزواج... وكانت المواد المستعملة بسيطة، تشبه

(114) Inq. Lix. Proc. n° 10379, fol. 16 v°, n° 10860, fol. 2-3; 16 v°; n° 5254, fol. 3 r°; n° 9671, fol. 10 r°.

(115) Inq. Lix. Proc. n° 10991, fol. 3 r°; 2467, fol. 2-3; n° 3206, fol. 1 r°; n° 2467, fol. 2 r°.

(116) Inq. Lix. Proc. n° 5488, fol. 19 v°; n° 5488, fol. 13 v°.

(117) Inq. Evora, Proc. n° 11554, fol. 8 v° - 9 v°.

(118) Inq. Evora, Proc. n° 9417, fol. 13 r; 10769, fol. 13 r°.

(119) Inq. Evora, Proc. n° 9417, fol. 13 v°; 10769, fol. 13 r°.

(120) Inq. Evora, Proc. n° 11554, fol. 4 v°.

ما هو مستعمل بالمغرب. فقد كن يلجأن بالأساس إلى مشروب يحصلن عليه من مواد مختلفة كمخ الحمير وعظام الموتى، أو باستعمال حبات من الشعير أو التين أو الزبيب أو الملح أو نواة التمرأو المني أو الأظافر أو الشعر. واحتفظت لنا المحاضر بتفاصيل كثيرة عن طريقة استعمال هذه المواد لأغراض جنسية، وعن مدى إقبال الناس عليها(121).

كما استمر المغاربة في الارتباط بأولياء مناطقهم، وخصوصا بأبي العباس السبتي. وتؤكد محاضر محاكماتهم ذلك الإيمان بكرامات الأولياء وسموهم على الأولياء المسيحيين. ولتأكيد هذه الحقيقة، نشير إلى أن مغربية أدخلت البرتغال سنة 1521 وعمرها لا يتجاوز السنة الرابعة، حوكمت سنة 1553، لكونها توسلت لبرتغالي أراد أن ينتزع قفة من يدها، بأبي العباس السبتي(122). وكان مغربي آخر، وهو المدعو Duarte Fernandez، دخل البرتغال سنة 1512، يقسم بنفس الولي سنة 1555(123). وطلبت مغربية العفو والمغفرة من المحققين لكونها كانت «تقول إن الأولياء المسلمين أفضل من الأولياء المسيحيين(124).

واضطر المحققون، أمام عمق إيمان المغاربة بكرامات وولاية أوليائهم، إلى مساءلتهم، كلما مثلوا أمامهم، عما إذا سبق لهم أن أقسموا بأبي العباس السبتي أو بغيره، أو آمنوا بولايتهم. وأمام انتشار هذا الاعتقاد بين الموركسيين، أضحوا يسألون عن ذلك حتى من لم يكونوا مغاربة، كالأتراك أو الهنود أو السودانيين، الذين اقتدوا بالمغاربة وأصبحوا بدورهم يقسمون بالأولياء المغاربة أو يلجأون إليهم في حالة شدتهم(125).

وهكذا نلاحظ أن المغاربة بقوا متمسكين، رغم تنصرهم السطحي، بهويتهم الثقافية، وذلك رغم المضايقات اليومية، والمحاكمات، وطول مدة الإقامة في البرتغال. بل وأكثر من هذا، استطاعت الجالية المغربية التأثير فيمن أدخل صغير السن أو أنجب في البرتغال، إذ حوكموا بدورهم لنفس الأسباب التي حوكم من أجلها الجيل السابق.

(121) Inq. Lix, Proc. n° 12684, fol. 2 v°, 4 r°; Evora, Proc. n° 9417, fol. 11, 13 r°; 11554, fol. 6 v°.
(122) Inq. Lix. Proc. n° 12689, fol. 8 r°.
(123) Inq. Lix. Proc. n° 708, fol. 3 r°, 6 r°.
(124) Inq. Evora, Proc. n° 6736, fol. 4 r°.
(125) Inq. Lix. Proc. n° 260, fol. 14 v°.

ويبدو أن هذا الارتباط بالهوية الثقافية لم يكن يؤثر على علاقة المغاربة بالبرتغاليين، على الأقل بالنسبة للمظاهر ذات الطابع الثقافي المحض، وذلك إلى حين تحول محكمة التفتيش إلى التنكيل بأفراد تلك الأقلية في بداية الخمسينيات من القرن. وأمام بطش المحققين وكثرة التبليغات، لجأ عدد من المغاربة إلى التقية ومحاولة الظهور بمظهر المسيحي الصادق.

فلتفادي الشك والتبليغات، بات المغاربة يبالغون، بمحضر البرتغاليين، في إظهار تمسكهم بالمسيحية وانسلاخهم عن هويتهم. غير أنهم استمروا، داخل بيوتهم أو فيما بينهم، في التمسك بقيمهم ومعتقداتهم السابقة. لقد اعترفت المدعوة Breatiz Fernandez، المتنصرة منذ 1521، خلال محاكمتها سنة 1556، أنها بقيت إلى حين اعتقالها مسلمة، وإن كانت خلال كل هذه المدة الطويلة «قد قامت بكل عناية بكل ما يقوم به المسيحيون، لكي يعتبروها كذلك»(126). كما كان المغربي المسمى António de Faria ظاهريا مسيحيا صادقا، إذ كان يقوم بالصلوات ويتردد على الكنائس، إلا أنه اعتقل واعترف بتمسكه بالإسلام، وإظهار ارتباطه بالمسيحية خوفا على نفسه(127). وادعى آخر أنه لم يكن يتردد على الكنائس إلا لتضليل البرتغاليين، و«لكي يعتبروه مسيحيا»(128). وتفضح اعترافات المدعو Bartolameu هذا الموقف المزدوج. فحينما أراد أن يقول البسملة بالبرتغالية قبل الشروع في الأكل، نبهه موريسكي بأنه لا داعي لذلك طالما أنه لا ثالث معهما(129)! كما اعترف مغربي بأنه كلما دخل الكنيسة «ضرب صدره، وفعل كل ما يفعله المسيحيون، إلا أنه كان في قرارة نفسه يؤمن بالله الموجود في السموات العليا وليس بذلك القربان المقدس»(130).

ورغم أن البعض منهم حاول جاهدا تفادي التبليغ عنه، وقام بكل ما يمكن أن يرضي المجتمع المسيحي، فإن عيشهم باستمرار إلى جانب موريسكيين ومسلمين كان يحول دون انفساخ روابطهم بمعتقداتهم السابقة لردتهم. ويمكن في هذا الصدد تعميم ما حدث للمدعوة Maria Bernanldez على باقي المتنصرين. فقد اعترفت أنها كانت كلما

---

(126) Inq. Lix. Proc. n° 3182, fol. 6 r°, et s.s.
(127) Inq. Lix. Proc. n° 10831, fol. 8 r°, 35 r° - 37 v°..
(128) Inq. Lix. Proc. n° 8425, fol. 31 v°.
(129) Inq. Lix. Proc. n° 12319, fol. 13 r°.
(130) Inq. Lix. Proc. n° 6405, fol. 13 v° et s.s.

دخلت الكنيسة وسمعت ما يقال داخلها من وعظ ورأت المؤمنين يبكون، «شعرت بخشوع وآمنت بصدق بالدين المسيحي»، غير أنها ما إن تعود إلى بيتها وتتصل بالموريسكيين وتتحدث معهم عن الإسلام حتى «تعود إلى الإيمان بدين محمد». ولذلك اعترفت أنها قضت مدة تنصرها مسلمة(131).

لذا يسهل على المطلع على وثائق محاكم التفتيش الوقوف بكل سهولة لدى المغربي المتنصر على مظهرين مختلفين في شخصيته: مظهر خارجي، الغاية منه تضليل المسيحيين وتفادي الاعتقال، وآخر خفي، «لا يعلمه إلا الله» حسب تعبير أحدهم. ولفهم بعض الأسئلة الغريبة التي كان المحققون يطرحونها على المعتقلين المغاربة، يجب اعتبار هذا الجانب المزدوج من شخصيتهم. فلمعرفة نوايا المدعوة Lianor de Melo، سألها المحقق عما إذا أكلت الكسكس الذي أشارت إليه «كمسلمة أم كمسيحية»(132)! كما سأل محقق آخر مغربيا عما إذا «كان فعلا يرغب بصدق في الإيمان بدين السيد المسيح، أم أنه تنصر فقط لدفع المسيحيين إلى الاعتقاد بأنه مسيحي ومعاملته معاملة حسنة»(133).

وبالفعل، أفلح بعضهم في إقناع البرتغاليين بصدق إيمانه. فقد دافع عن المدعو Salvador Soares، المعتقل للمرة الثانية، راهب أكد للمحققين أنه رآه يتردد على الكنائس أيام الأحد والأعياد، وشاهده يستمع إلى ما كان يلقنه من العقيدة للصبيان؛ وأضاف أن المتهم عبر له عدة مرات عن أمله في أن يحيا وأن يموت مسيحيا(134). كما أن زوجة صاحب حانة كان المتهم يتناول فيها وجباته أكدت بدورها للمحققين صدق إيمانه وارتباطه بدينه الجديد.فقد شاهدته يحمد الله قبل الشروع في الأكل وبعده، وكلما أنهى طعامه نادى أطفالها وشرع في تعليمهم بعض الصلوات والدعوات(135). إلا أن محاكمة المغربي المذكور أكدت بما لا يترك مجالا للشك تمسكه بالإسلام رغم محاكمة سابقة، ورغبته في الفرار إلى المغرب. لذا قرر المحققون إعدامه(136).

---

(131) Inq. Lix. Proc. n° 3184, fol. 11 r°.
(132) Inq. Lix. Proc. n° 7692, fol. 7 v°.
(133) Inq. Lix. Proc. n° 6405, fol. 13 v°.
(134) Inq. Lix. Proc. n° 12932, fol. 24 v° - 25 r°.
(135) *Ibid.*, fol. 35 r°.
(136) *Ibid.* fol. 35 r°.

وأكدت شاهدة برتغالية للمحققين أن المغربية Anna de Milo مسيحية صادقة، وأنها لم تشاهدها قط تقول قولا أو تفعل فعلا يتنافى والعقيدة المسيحية، بل على العكس من ذلك، لم تكن تتوقف عن ذكر السيد المسيح والسيدة العذراء «كمسيحية صادقة»(137). وأكدت نفس الحقيقة برتغالية أخرى كانت تعيش مع المتهمة. غير أن استنطاق المغربية ومواجهتها مع الضالعين معها من مواطنيها، أكدا أنها، بالرغم من تلك الواجهة، بقيت مسلمة، وأنها كانت بصدد الإعداد للفرار(138). وقد نجح عدد كبير من المغاربة في إخفاء ارتباطهم بالإسلام عن جيرانهم وأصدقائهم البرتغاليين(139).

ومن الأكيد أن موقفا كهذا لم يكن سهلا، وأن ثقل العادات والتقاليد كان يجعل فلتات اللسان كثيرة، وكان يضع المغاربة في أوضاع حرجة.فقد اعترف المدعو António de Faria أنه قال مرة –فقط؟– باسم الله دون أن ينتبه، مع أنه كان ينوي قول ذلك بالبرتغالية، وأنه ذكر الله سنة 1556 حينما أراد حمل كيس. ومعلوم أن المغربي المذكور أدخل البرتغال سنة 1521. وقد برر هذه الفلتات التي حاول التقليل منها، بأصله وعدم نسيانه لأهله ووطنه(140).

وبالفعل، عجز بعض المغاربة عن التحكم في لسانهم حتى داخل سجون محكمة التفتيش.فبعد أن سمع مغربي مواطنا له يذكر الجن قال بكل عفوية: «باسم الله الرحمن الرحيم». كما بلغ عن نفس المتهم لكونه كان يتوسل إلى الرسول عليه السلام كلما أراد أن ينام(141). وبلغ عن المدعو Fernão Salgado لاستمراره في قول البسلمة بالعربية قبل الأكل بالكنيسة التي كان يتعلم فيها العقيدة بعد محاكمته. وأكد المبلغ أنه لم يشاهده قط يرشم الصليب حين قول ذلك. وبما أن المبلغ سأله عن سبب الاستمرار في قول ذلك بالعربية رغم إقامة دامت ثلاثين سنة، فإنه أجابه « بأنه اعتاد على ذلك، وأنه يتعذر عليه التخلي عنه»(142). ولما استدعاه المحققون برر أقواله بكونه وإن كان مسيحيا «فإن لسانه يسبقه إلى أمور المسلمين»(143). ولم يجد مغربي آخر وجد نفسه

(137) Inq. Lix. Proc. n° 11128, fol. 16 r°.
(138) *Ibid*. fol. 17 - 18 r°.
(139) Inq. Lix. Proc. n° 10837, fol. 7-8; n° 12626, fol. 25 v° - 26 r°; n° 10817, fol. 14 r° -15 r°.
(140) Inq. Lix. Proc. n° 11128, fol. 15 r°.
(141) Inq. Lix. Proc. n° 8425, fol. 57 r°, 59 r°.
(142) Inq. Lix. Proc. n° 2467, fol. 5 v° - 6 r°.
(143) *Ibid*. fol. 16 r°.

في نفس الوضعية، غير تقديم تبرير مماثل وادعاء أن «لسانه يسبقه إلى قول البسملة» لتعوده على ذلك(144).

وهكذا، انضافت نوعية العلاقات بين الجالية المغربية والمجتمع البرتغالي إلى ظروف العيش القاسية لتدفع الأغلبية الساحقة إلى البحث عن سبيل للفرار من البرتغال والعودة إلى المغرب. فما هي الوسائل المعتمدة في ذلك، وما هي فرص النجاح المتوفرة؟ هذا ما سيجيب عنه الفصل اللاحق.

(144) Inq. Lix. Proc. n° 5153, fol. 8 r°.

الفصل السادس

انعكاس الغربة والحنين إلى الوطن على موقف المغاربة من البرتغال

تبين لنا مما سبق أن البرتغال لم يكن بالنسبة للأجانب بلدا يوفركل شروط الإقامة والاستقرار.لقد كان هؤلاء يذكرون وصولهم إليه بحسرة ويتمثلون عودتهم إلى مسقط رأسهم كحلم كبير. لذا حدث نوع من تقديس الوطن ومسقط الرأس حسب تعبير E.Eliade(1).وهكذا لم تحدد القناعات الدينية وحدها موقف المغاربة من البرتغال وسكانه.ففضلا عن العوامل التي سبقت لنا دراستها، يجب اعتبار عامل الغربة والحنين إلى الوطن كذلك.

لقد كانت أغلبية المغاربة، وخصوصا منهم من شعر بدنو أجله لعامل السن أو المرض، يبحثون بكل الوسائل عن سبيل للعودة إلى الوطن لإشهاردينهم بكل حرية والموت وهم مسلمون. لقد اعترف المدعو António Vaz، الذي قضى بالغربة أربعين سنة، أنه منذ أن غادر جزير São Miguel، الموجودة بأرخبيل الأصور، واستقر بالعاصمة، لم يعد له ولزوجته إلا حلم واحد، الالتحاق بالمغرب للموت به. واعترف أنه غادر لشبونة في اتجاه الجنوب، إلا أن المرض أرغمه على العودة إليها، في حين تابعت زوجته ومرافق لها طريقهما في اتجاه منطقة Algarve حيث وافتها المنية(2).

ونعتقد أن العامل الذي نحن بصدده يستحق أن يؤخذ بعين الاعتبارحين دراسة موقف الجالية المغربية من البرتغال وسكانه. وتؤكد محاضر محاكم التفتيش أن جل المغاربة، إن لم نقل كلهم، مهما كانت أسباب ودوافع اغترابهم ومدته، لم يكونوا

---

(1) E. Eliade, **le sacré et le profane**, Paris, Gallimard, 1965, p.24

(2) Inq.Lix. Proc.n° 10860,fol.17v°

يفكرون إلا في الفرار والالتحاق بالوطن. فالمحاضر التي تسجل المحاكمات التي تمت بسبب محاولة فاشلة للفرار تمثل لوحدها قرابة نصف محاضر محاكمات من تسميهم محكمة التفتيش «مورسكيين». ويعكس الجدول التالي تلك الحقيقة :

عدد المحاضر	385
محاولة الفرار	166
طقوس إسلامية	173
النسبة المأوية	43 ٪

أما إذا اعتبرنا محكمة لشبونة وحدها، التي كان نفوذها يشمل مناطق ساحلية شاسعة، فإن النسبة ترتفع أكثر:

عدد المحاضر	292
محاولات الفرار	165
ارتباط بالإسلام	92
النسبة المأوية	٪56،5

ويتجلى حنين أولئك الأجانب إلى الوطن بكل وضوح من خلال محاضر محاكماتهم. فقد بلغ إلى علم محققي لشبونة أن «عددا كبيرا من مسلمي (كذا) هذه المدينة، وهذه المملكة، ذهبوا إلى هناك (أي المغرب) ليعودوا من جديد إلى اعتناق الإسلام»، وأن آخرين «عازمون جميعا على الذهاب إلى هناك»(3).

ونقف على كثرة من تمكنوا بالفعل من مغادرة البرتغال من خلال بعض التصريحات أو التبليغات للمحكمة. فجل الذين ورد ذكرهم خلال محاكمات المغاربة، إما قضوا نحبهم، أو التحقوا بإسبانيا، أو فروا إلى المغرب.فقد كان سبعة من

(3) Inq. Lix.proc.n°10836,fol.2r°;n°9235,fol.2v°;n°167,fol.36v°

المتورطين مع المدعو João da Silva يقيمون خلال محاكمته بإسبانيا(4). ووجد برتغالي أقام بالعرائش خلال شهر يوليوز من سنة 1539 بهذه المدينة ثمانية أشخاص على الأقل تمكنوا من الفرار(5). كما أن المدعو Pero Lourenço اعترف للمحققين أن الفرار لم يكن مستحيلا، وأنه لم يكن ليتردد في ذلك لو وجد إليه سبيلا(6). وتزخر المحاضر بالإشارات إلى الأشخاص الذين تمكنوا من الفرار، أو كانوا بصدد الإعداد له.

لقد كان الارتباط بمسقط الرأس، والشعور الحاد بالغربة الذي سنعود إليه بعد قليل، وكذا قرب المغرب وإسبانيا، وطول سواحل البرتغال، ووجود عدد من البحارة بين الموريسكيين، وكذا استعداد عدد من البحارة البرتغاليين لجعل مراكبهم رهن إشارة الفارين مقابل مبالغ مالية، كان كل هذا من العوامل المشجعة على المغامرة.

وبالطبع يصعب علينا تحديد عدد الذين نجحوا في محاولاتهم لأننا لم نتوصل إلا بأصداء المحاولات الفاشلة. إلا أن كثرة الإشارات إلى هذه الظاهرة، وكثرة من اعتقل في حالة تلبس، تمثلان مؤشرين على انتشار الظاهرة وفشل السلطات البرتغالية في جعل حد لها. وتؤكد مصادر محاكم التفتيش أن كل الأجانب، وحتى العلوج، كانوا يعملون على مغادرة البرتغال والالتحاق ببلد إسلامي، وخصوصا بالمغرب، الأقرب إلى البرتغال.

لقد بلغ عن المدعو João Noranha لكونه قال: «يامسقط رأسي، ويامحمد، من يمكنه أن يوصلني إلى بلاد البرابرة»(7). واعترفت المدعوة Maria Lopez من جهتها بأنها وعددا من مواطنيها كانوا يتوسلون في خلواتهم إلى الرسول عليه السلام وإلى أبي العباس السبتي لكي« ينقلاهم إلى بلاد المسلمين»(8).

قد نفهم بحث أسير عن كل الوسائل المكنة للفرار لاسترجاع حريته، إلا أن تورط أفراد دخلوا البرتغال من تلقاء أنفسهم، أو كانوا مسيحيين أصلا كما هو الشأن بالنسبة للعلوج، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أن ظاهرة فرار الأجانب كانت عامة، ومست كل الجنسيات، مهما كانت دوافع وأسباب دخولها البرتغال، ومدة إقامتها به.

(4) Inq. Evora, Proc. n° 9823 fol. 8 r°.
(5) Inq. Lix. Proc. n° 13206 fol. 3 r°
(6) Inq. Lix proc. n° 708 fol. 12 v° - 13 r°.
(7) Inq. Evora, Proc. n° 8056 fol. 7 v°
(8) Inq. Evora, Proc. n° 9092 fol. 5 r°.

وسنوضح ذلك من خلال مثال اللاجئين السياسيين. لقد التجأ المسمى João de Barros، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، إلى مازيغن في شهر ماي من سنة 1563. وبعد أن تنصر بها، أرسله القبطان إلى العاصمة للإسراع باستفادته من معاش ملكي. غير أنه كان في يوليوز من نفس السنة معتقلا بتهمة محاولة الفرار مع مجموعة من المغاربة والأتراك. وقد أخبرت المحكمة بأنه لم يكن متورطا في المحاولة المذكورة فحسب، بل كان من أهم المخططين لها. فلما سأله موريسكي عن وجهته أجابه بأنه «ذاهب إلى وطنه». كما أكد لمغربي أنه ندم على ردته، وأنه ينوي العودة إلى بلاده «حتى ولو قطعوا رأسه»(9).

كما حوكم Francisco Gusmão، الذي دخل من تلقاء نفسه البرتغال بتهمة محاولة الفرار إلى المغرب سنة 1554، مع أن إقامته لم تتعد سنة ونصفا(10). ويمكن ذكر حالات مشابهة. فالمدعوة Catarina d'Eça، التي غادرت مراكش والتجأت إلى مازيغن لسبب نجهله، استقبلت استقبالا خاصا من لدن الملك البرتغالي وزوجته بقصرهما بمدينة Almeirin حيث أشرفا على تعميدها. ورغم أنها كانت حرة ومتزوجة وتعيش من صناعة الزرابي، فإنها سرعان ما تأسفت لمجيئها للبرتغال وشرعت في اتصالات مع مواطنيها للبحث عن مركب للعودة إلى المغرب. وقد أصبح بيتها مقر تلك الاجتماعات والاتصالات بين الراغبين في الفرار والبحارة البرتغاليين(11).

وإذا كانت Antónia Lopez قد أدخلت البرتغال وعمرها لا يتجاوز السنتين، فإنها اعترفت برغبتها في الفرار بعد إقامة دامت ثمانية وأربعين عاما. وكانت مصممة على تحقيق تلك الرغبة حتى ولو كان عليها أن تواجه بمسقط رأسها أسوأ الظروف وأصعبها(12).

وكان جل المتحدثين عن البرتغال يعبرون عن خيبة أملهم وندمهم على المجيء إليه. فقد اعترف المدعو Francisco أنه كان «كثير الندم على المجيء من بلاد

(9) Inq. Lix. Proc. n° 10835 fol. 6-7.
(10) Inq. Lix. Proc. n° 9681 fol. 4 v°.
(11) *Cf.* son procès: Inq. Lix. Proc. n° 3568.
(12) Inq. Coimbra, Proc. n° 3864 fol.5 v°;
راجع كذلك حالة المدعوة (ماريا) التي كان عمرها حين وصولها ثلاث أو أربع سنوات
Inq. Lix. Proc. n° 3188 fol. 5 r°-v°, 8 r°.

المسلمين إلى هذه الأرض». وقد أرجع ندمه إلى كونه يعيش في الفاقة، بينما كان ميسورا ببلاده(13). وكان Pero de Menesez، الذي فر من بلاده خوفا من السلطان السعدي، «شديد الندم على مجيئه إلى هذا البلد»(14). وتكثر الحالات المشابهة، ليس فقط لدى المغاربة، ولكن كذلك لدى باقي الأجانب، من مسلمين وعلوج، وكذا لدى من أنجبوا في البرتغال. لذا كان المورسكيون «يفرون كل يوم» للالتحاق بمسقط رأسهم(15). فلما طلب المحقق من João de Medina، الذي كان يحاكم بتهمة محاولةالفرار إلى بلاد المسلمين، ذكر أسماء المتورطين معه، أجاب أنه يتعذر عليه ذكرهم لكثرتهم، و«لأن الذين يرغبون في الفرار من الكثرة بحيث يبدو له أن كل الذين يوجدون بهذه المدينة يرغبون في ذلك»(16).

وفي انتظار تحقيق ذلك الحلم، كان بعضهم يطلق العنان لمخيلته.

فقد كان بعضهم يتمنى لو كانت له أجنحة يطير بها إلى وطنه(17). بينما تمنى آخرون لو يتم الخلاص على يد قوات خير الدين بارباروس أو السلطان السعدي التي حدد بعضهم مكان إنزالها(18). وبما أن Lyanor Cabalyna كانت مشتاقة لرؤية ذويها بالمغرب، فإنها كانت تردد أن الله «القادر على كل شيء، يمكنه أن يعين الشريف على المجيء إلى هذه البلاد والسيطرة عليها، وآنذاك سيمكنها الالتحاق بمسقط رأسها»(19).

واعتاد المغاربة المقيمون بمدينة Elvas الحديث فيما بينهم عن الإسلام والرسول عليه السلام، وكانوا يعتقدون أن «محمد المذكور سيبعث من جديد، وسيمكنهم من العودة إلى بلادهم»(20).

---

(13) Inq. Lix. Proc n°4026 fol.3 r°.

(14) Inq. Lix. Proc. n° 2970 fol.11v°;

وعن خيبة أمل باقي المغاربة راجع كذلك :

Inq. Lix. Proc. n° 2255 fol.21 v° n° 7431 fol.10 r°; n° 1669 fol.14 r°; n° 6465 fol.25 v° etc.

Cf. aussi Inq. Lix. **Liv. denúncias**, V fol.97 v°.

(15) Inq. Lix. Proc. n° 10933 fol. II r°.

(16) Inq. Lix. Proc. n° 9512 fol.13 v° -14 r°.

(17) Inq. Lix. Proc. n° 1104 fol.15 r°.

(18) Inq. Lix. Proc. n° 7693 fol.2 v°; **Liv. denúncias,** I fol. 86 r°.

(19) *Ibid*, loc. cit.

(20) Inq. Evora, Proc. n° 3038 fol. 7 r°.

وبالطبع كان الشعور بالغربة يزيد من حدة الحنين والشوق إلى الوطن بمرور السنين. فقد كانت Catarina Fernandez ترغب في العودة بأي ثمن إلى بلادها لرؤية ابنيها اللذين تركتهما هناك، وكان حنينها يزداد مع الوقت، حتى «إنها مرضت لشدة حسرتها ولعجزها عن تحقيق رغبتها»(21). ولم تعد زوجة المغربي Pero de Carvalho تطيق الانتظار أكثر، لذا ألحت يوما على المغربي João Fernandez، الذي كان يتوسط بين الراغبين في الفرار والبحارة البرتغاليين، ليجعل حدا لمعاناتها ويقنع البرتغالي Francisco Bayão، الملقب بالألكن، بنقلها في مركبه. ولنستمع إلى رجائها: «سأعتبرك أبي إذا ما بحثت لي عمن يحملني إلى بلاد المسلمين، ابحث عن ذلك الشخص الذي تعرفه، والذي سبق له أن نقل دون بيدرو، ذلك أني أرغب في مرافقته».

وقد اقترحت على ذلك الوسيط دفع ثمن رحيله إذا ما رغب في ذلك، وحثته على الفرار طالما أن أبناءه الذين أنجبهم في البرتغال قد بلغوا سن الرشد(22).

وانعكس الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن على الحالة السيكولوجية للمغاربة وتصرفاتهم. وكانت الغاية من جل تلك التصرفات، نسيان الحاضر المر، أو محاولة جعل حد لوضعية لم تعد تطاق.

ومن تلك المواقف، نشيرإلى إفراط البعض في شرب الخمر. ويبدو أن تعاطي هذه المادة كان مهما لدى الجالية التي تهمنا(23). ولجأ الذين عجزوا عن التكيف مع ظروف العيش في البرتغال للخمر بشكل مرضي أحيانا. وكان بعض المدمنين مسنين كالمدعوة Antónia Fernandez التي كانت قد تجاوزت الستين سنة(24)، أو المدعو Salvador Soarez البالغ من العمر ستين سنة كذلك. وقد كان هذا الأخير يشرب إلى أن يصبح عاجزا عن الوقوف(25).

وكان السكر يسمح لهؤلاء بنسيان مآسيهم، وبقول ما يشاؤون، وبالانتقام لأنفسهم باللسان على الأقل. لذا لاحظنا لديهم موقفين متناقضين: فحينما لا يكونون تحت تأثيرالخمر، يكونون أشخاصا وديعين لطفاء، غير أنهم سرعان ما يصبحون عنيفين

(21) Inq. Lix. Proc. n° 3551 fol. 3 r°.
(22) Inq. Lix. Proc. n° 8425 fol. 34 v°.
(23) Inq. Lix. Proc. n° 10857 fol.2 r°; n° 12626 fol.24 v°, 36 v,° etc.
(24) *Inq. Lix. Proc. n° 6729 fol.16 v°.*
(25) Inq. Lix. Proc. n° 12932 fol.9 , 25 v°.

شرسين بمجرد شربهم. فقد كان المدمن Alfonso Fernandez يعتبر«رجلا طيبا، مهذبا ولطيفا وجوادا»، غير أنه كان عنيفا في حالة السكر(26).

وقد أكد الذين يعرفون اللاجئ السياسي João de Sousa أنه يفعل ويقول أي شيء حينما يكون تحت تأثير الخمر، إلا أنه يسارع فور استعادة وعيه إلى طلب العفو والمغفرة ممن أساء إليهم بالقول أو الفعل، وأنه كان «رجلا طيبا وصامتا وذا سمعة طيبة، ومن أحسن الذين جاءوا من بلاد المسلمين»(27). وقد أقلق إفراطه في شرب الخمر أصدقاءه المغاربة والبرتغاليين الذين لاموه عدة مرات على ذلك. ولتوضيح العلاقة بين الشعور بالغربة والإفراط في شرب الخمر، نورد محنة المدعو João Mourisco لقد أكره هذا الشاب على مغادرة المغرب بعد الحرب الأهلية التي دارت بين عبد الملك وابن أخيه المتوكل. وقد أرسله الملك البرتغالي إلى دير بيابرة ليتعلم هناك العقيدة والصلوات المسيحية. وقد كان الكل معجبا بلطفه وبما يبديه من اهتمام بدينه الجديد. إلا أنه، وبشكل فجائي، بدأ يغادر المؤسسة ليعود إليها في حالة سكر. وبما أن زميلا له قد ضايقه يوما، فإنه صاح بساحة الدير أنه مسلم، وأنه يرغب في الموت كذلك، وأن السيد المسيح مجرد شيطان. وبالرغم من كل المحاولات المبذولة لإسكاته، استمر في الصراخ بأنه يأسف لردته، وأنه لا يزال مسلما كما كان من قبل. وقد عبر لراهب يتكلم العربية أرسل لتهدئته عن رغبته في العودة إلى المغرب ليموت به مسلما كما مات والده، وذلك «حتى ولو أحرقوه حيا»(28).

وقد أفرط كل من António de Ferreira, Diogo de Torres, Francisco Machado, João Nunes, Francisco de Torres, João de Medina، وغيرهم كثير، في شرب الخمر والإدمان عليه لنسيان ما كانوا يعانون منه، إلى حد أن عددا كبيرا من معارفهم نصحوهم بالتوقف عن ذلك، أو الاعتدال فيه على الأقل، تفاديا للهلاك والتبذير(29).

كما حاول الانتحار بعض من عجز منهم عن تحمل الواقع المر، وظروف العيش القاسية. فهذا João de Sousa السابق الذكر يعترف أنه كلما عانى من الفاقة، وشاهد مارا

(26) Inq. Lix. Proc. n° 10864 fol.3-5.
(27) Inq. Lix. Proc. n° 12626 fol. 29-30.
(28) Inq. Evora, Proc. n° 7643 fol.4 r°, fol.10-11.
(29) Inq. Lix. Proc. n° 6466 fol.38-39 v°; 2257 fol. 5 r°; 5254 fol.11,19;9281 fol.2 r°, 9512 fol. 11 r°; 10864 fol. 3 r°, 4,5; 6729 fol.16 v° etc.

راكبا فرسه إلا وتذكر النعيم الذي كان يعيش فيه بالمغرب وقال: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».وبما أنه كان يعاني من اليأس، وكان مرة في حالة سكر، فإنه حاول الانتحار بسكين في إحدى الحانات(30). كما حاول غيره فعل نفس الشيء في محل آخر لولا تدخل الحاضرين(31). ودفع اليأس المدعوة Luzia إلى شنق نفسها بحقل زيتون، إلا أن تدخل أحد المارة أنقذ حياتها(32).

وكانت محاولة الفرار بمثابة عملية انتحارية بالنسبة للمغاربة، إذ كانوا يعتبرون أنفسهم مستفيدين مهما كان مآلها: فإما أنهم ينجحون ويتحقق أملهم في العودة إلى أهلهم وذويهم، وإما أنهم يموتون وهم يدافعون عن أنفسهم، لرفضهم لفكرة تسليم أنفسهم لمطارديهم في حالة اكتشاف أمرهم(33).

ويؤكد الإدمان على شرب الخمر ومحاولات الانتحار عجز المغاربة عن تحمل واقعهم ونسيان ماضيهم الذي خصوه بنوع من القدسية والمثالية.فقد كان كل ما يذكر بالوطن يدفع إلى البكاء. فلكي تسلي نفسها شرعت مغربية كانت تغسل الثياب بحي القنطرة بلشبونة في الغناء بالعربية، إلا أنها سرعان ما بدأت في الشهيق(34). أما المدعوSalvador Soares، المقيم في البرتغال منذ ثلاثين سنة، فقد شرع في البكاء لما سمع بالدير الذي كان يتعلم به العقيدة بعد محاكمته الأولى، مواطنا له يغني بالعربية(35). وأخبر مبلغ المحققين أن المغاربة الذين وصلوا لشبونة سنة 1572 رفقة قائد من قواد السلطان السعدي وتنصروا، كانوا يغنون أغاني مغربية «وكانوا يبكون لذلك لكونها كانت تذكرهم بوطنهم»(36).

وكان وصول قريب من المغرب، أو أسرى جدد إلى البرتغال، وكذا ما كانوا يحملونه من أخبار عن البلد والأهل، مناسبة للبكاء والتذكر، والارتباط أكثر بفكرة العودة. فلما أقام بعض القواد المغاربة الذين كانوا في طريقهم إلى

---

(30) Inq. Lix. Proc. n° 12626 fol. 17 v° et ss.
(31) Inq. Lix. Proc. n° 10817 fol.19 v°.
(32) Inq. Evora. Proc. n° 10769 fol.13 v°;
راجع كذلك حالة المدعوة Lianor Lopes
Proc n° 7695, fol.7 v°
(33) Inq. Lix. Proc. n° 10712 fol.17 v°- 18 r°; n° 12042 fol.4 r°.
(34) Inq. Lix. Proc. n° 9884 fol.16 v°; *cf.* aussi n° 9310 fol.11 v°.
(35) Inq. Lix. Proc. n° 13187 fol.19 r°.
(36) Inq. Lix. Proc. n° 4043 fol.50 v°.

العاصمة بمدينة Setúbal، التحقت بهم B. Fernandez ومغاربة آخرون، «ولما شاهدتهم تذكرت وطنها فشرعت في النحيب والبكاء ورغبت في العودة إليه والعيش مع ذويها»(37). وعاود الحنين إلى الوطن هؤلاء المغاربة لما مر قبطان مازيغن بنفس المدينة مصحوبا ببعض الأسرى المغاربة(38).
وكانت وفاة بعض المغاربة كما سبق لنا ذكر ذلك، مناسبة للبكاء الجماعي، الذي كانت بعض المغربيات تردد خلاله عبارات تحث الحضور على المزيد من البكاء(39).

كما أن السنين الطويلة في البرتغال لم تنس المغربين ذويهم وأهلهم الذين تركوهم ببلادهم. فقد أخبر اللاجئ السياسي João de Sousa السابق الذكر المحكمة خلال محاكمته أنه لما كان بمدينة شنترين رفقة صهره وأخي زوجته، بكوا عدة مرات بسبب حنينهم إلى وطنهم ورغبتهم في رؤية ذويهم الذين تركوهم بفاس(40). وكان الارتباط بالأهل، والرغبة في رؤيتهم قبل الوفاة من عوائق استقرار الجالية التي تهمنا.لقد اعترفت Maria Fernandez أنها لم تنس قط وطنها، وأنها كانت ترغب باستمرار في العودة إليه، وكانت مشتاقة لرؤية أخ لها تركته هناك(41).

وهكذا تتجلى لنا أهمية الوطن ومسقط الرأس بالنسبة للجالية المغربية. فبالنسبة لهؤلاء الغرباء، لم يكن الأمر مرتبطا بقناعات دينية، مهما كانت راسخة وصادقة، ولكن برغبة ملحة في مغادرة البرتغال بأي ثمن، ومهما كانت المغامرة، لرؤية الأهل والأقارب، والعيش بمسقط الرأس، وتفادي ظروف العيش الصعبة التي تفرضها الإقامة في البرتغال.
كما أن تلك العودة كانت تمثل الحرية والانعتاق بالنسبة لمن كانوا في حالة عبودية.وقد كان العبيد والأسرى أكثر تمسكا بفكرة الفرار وأكثر حرصا عليها. لذا فاق عدد الذين اعتقل منهم بعد فشل محاولاتهم عدد الأحرار. وبالطبع، كانت المحكمة تعطي مبررا آخر لمنعها لتلك المحاولات، ومحاكمتها لمرتكبيها ومساعديهم. فقد كانت

(37) Inq. Lix. Proc. n° 565 fol.15 r°
(38) Inq. Lix Proc. n° 565 fol. 15 r°; n° 3182 fol .9 v°-10 r°; n° 9754 fol. 3 r°; n° 9280 fol.6 v°.
(39) Inq. Lix. Proc. n° 565 fol.10 v°; v°; n° 9909 fol.8 r°.
(40) Inq. Lix. Proc. n° 12626 fol.11 v° -12 r°; n° 3565 fol.2 v°; n° 2551 fol.3 r°.
(41) Inq. Lix. Proc. n° 3182 fol.5 r°-v°; *cf.* aussi n° 9280 fol.6 v°.

ترى أن من واجبها إنقاذ هؤلاء من الضلال(42) بمنعهم من الفرار إلى بلاد الكفار« لكي لا يعيشوا هناك بكل حرية في كنف الدين المحمدي»(43). غير أن الفارين كانوا يتوخون من ذلك «تحرير أنفسهم بالأساس»، ولكي «يستعيدوا هناك حريتهم»(44)، ولكي «يعيشوا هناك كما يشاؤون»(45).

وكانت حالة الأسر تفرض على من أنجبوا في البرتغال الفرار بدورهم.فقد أجاب أحدهم موريسكيا سأله عن سبب بحثه عن وسيلة للفرار طالما أنه ولد في البرتغال، بأنه: «كان أسيرا، وأنه بصدد البحث عن وسيلة للفرار، وأنه سيلجأ لكل الوسائل الممكنة ليخلص نفسه مما يعانيه يوميا من أعمال شاقة ومن سوء معاملة»(46).

وانعكس الشعور بالغربة والحنين إلى مسقط الرأس كذلك على معتقدات المغرّبين الدينية.وبما أننا سنعود بتفصيل لهذا الموضوع، فإننا سنكتفي هنا بالإشارة إلى التصور الخاص للدين الذي تشكل لديهم بسبب ظروف العيش والمشاكل التي أوجدتها الإقامة في البرتغال.

لقد كان التبرير الذي قدمه المغاربة لرفض المسيحية والاندماج ضمن المجتمع البرتغالي مخالفا لما قدمه موريسكيو إسبانيا.لم يكن المغاربة يحيلون دائما على سمو الإسلام على المسيحية، ولكن على غنى الوطن وظروف العيش الجيدة التي يسمح بها. لقد مثلت الوفرة التي تضمنها «بلاد المسلمين» المرجعية الأساسية لرفض المسيحية. فقد عاب مغربيان متنصران على تونسية ترددها على الكنائس رغم أن «بلاد المسلمين أغنى من بلاد النصارى، كما أن دينهم أحسن»(47). ووقفنا بمحاضر المحاكمات على عدد كبير من مثل هذا الخطاب الذي تأتي الإحالة فيه على الوطن قبل الدين، وتمثل الحجة الأساسية لقياس هذا الأخير والحكم عليه(48).

---

(42) "salvaça da alma dos dictos Mouriscos"; *Cf.* Inq. Lix. Proc. n° 2240 fol.4 r°

المحضر التالي حيث يعتبر المحققون الفرار معصية وإثما كبيرا ، راجع كذلك:

Inq. Lix. Proc. n° 10712 fol.27 r°.

(43) Inq. Lix. Proc. n° 2939 fol. 3 v°.

(44) Inq. Lix. Proc. n° 12320 fol.5 v°.

(45) Inq. Lix. Proc. n° 5824 fol. 2 v°; *cf.* aussi n° 4169 fol.7 v°; 10835 fol.7 r°; 12319 fol.8 v°; 12865 fol.7 r,°etc.

(46) Inq. Lix. Proc. n° 9236 fol. 6 v°

(47) Inq. Lix. Proc. n° 3184 fol. 6 r°.

(48) *Cf.* par ex.: Inq. Lix. Proc. n° 12639 fol.9 r°

وقد اضطر المحققون إلى اعتبار عامل الارتباط بالوطن خلال الاستنطاق، ونادرا ما نجدهم لا يسألون المتهمين عما إذا «تذكروا مسقط رأسهم»(49). وبالطبع كانوا يدخلون العامل الديني انطلاقا من هذا الارتباط الذي يمثل في نظرهم دلالة على التمسك بالإسلام. وكانت الاعترافات، المحصل عليها في ظروف سنعود إليها، تذهب في نفس الاتجاه.لقد اعترفت متهمة بأنها لم تنس مسقط رأسها، وبأنها كانت ترغب في العودة إليه، وبأنها «في حالة ما إذا تم لها ذلك، فلن تكون إلا مسلمة»(50).

وهكذا، وبخلاف موركسيي إسبانيا، لم يكن لموركسيي البلد المجاور أي ارتباط بالأرض التي فرض عليهم التنصر بها، ولم يكونوا يتوخون من ذلك التنصر تفادي الطرد، بل كانوا يتوخون منه التخفيف من مضايقات الأغلبية المسيحية، وضمان حظوظ أوفر لمحاولات الفرار التي كانوا ينظمونها.وقد صرح مغاربة بهذه النوايا والغايات لبحار برتغالي نقلها للمحققين. فبما أن المحكمة سألته عما إذا كان يعلم أن الأشخاص الذين كان ينوي نقلهم إلى المغرب متنصرون، أجاب بأن «الموركسيين المذكورين قالوا له بأنهم تنصروا تحت الإكراه لا عن اقتناع، وأنهم لم يتنصروا هنا إلا من أجل الانعتاق من الأسر والتمكن من العيش بهذه المملكة»(51).

لم يكن الارتباط بالوطن ومسقط الرأس، الذي لم توله بعد الدراسات عن الموركسيين الأهمية التي يستحقها، أقل أهمية من العامل الديني. لقد كان ذلك الارتباط بالأرض سبب تنصر آلاف موركسيي إسبانيا ليتمكنوا من الاستمرار في العيش بها، وهو الذي يفسر كذلك الموقف المخالف لموركسيي البرتغال. ففي هذا البلد، رفض المغربون الاندماج والاستقرار النهائي لكونهم كانوا يعتبرون أنفسهم أجانب عن البلد من جهة، ولكونهم ظلوا مرتبطين قلبا وقالبا بوطنهم.وينطبق نفس الشيء على اليهود المغاربة المتنصرين المقيمين في البرتغال، والذين كانوا بدورهم يرغبون في العودة إلى وطنهم(52).

---

(49) Inq. Lix. Proc. n° 3552 fol.3 v°.
(50) *Ibid*., fol. 5 v°
(51) Inq. Lix. Proc. n° 6107 fol. 8 r°.

(52) Inq. Lix. Proc. n° 12055 fol.26 r°-27 et 46;

راجع كذلك :

Proc. n° 9565; **Liv. denúncias**, II fol.140 r°.

وهكذا تداخلت مجموعة من العوامل في نفس الوقت لتجعل من البرتغال بلدا لا يوفر شروط الاندماج والاستقرار النهائي به.وتؤكد المصادر التي اعتمدناها أن الأجانب، بغض النظر عن دوافع دخولهم البرتغال وتاريخه، كانوا يرغبون في مغادرته. لقد أكد المغربي Diogo Afonso للمحققين أنه لا يوجد ولو موريسكي واحد من منطقة Algarve لا يرغب في الفرار. وأضاف أنه «يعلم هذا من الموريسكيين أنفسهم، لأنه كان يراهم يعيشون بين المسيحيين بأسماء مسيحية، إلا أنهم كانوا لا يتوقفون عن قول السوء في المسيحيين وعن الحنين باستمرار إلى بلاد المسلمين»(53).

وإذا كان كل الأجانب يرغبون في الفرار، فإن ذلك لم يكن في متناولهم جميعا. وللوصول إلى تلك الغاية، كانوا يبحثون بكل جد عن مرافق طريق، وعمن يمكنهم من عبور الحدود إلى إسبانيا، أو يحملهم بحرا إلى المغرب.ولم يكونوا يعرفون بالضرورة من كانوا يتصلون بهم لهذه الغاية، إذ كان يكفي أن يكون المخاطب أسيرا أو موريسكيا لمفاتحته في الموضوع. وكانت الاتصالات تتم في كل مكان، أمام الكنائس، وبالأماكن الأكثر ازدحاما، كالميناء أو سوق الحبوب بلشبونة. فقد أخبر التركي Lourenço المحققين بأنه لما كان أمام الكنيسة يمسك بفرس سيده، اتصل به شخص «لا يعرف ما إذا كان مسلما أو متنصرا، عبدا أو حرا»، واقترح عليه الفرار صحبته، ومساعدته في البحث عن مركب، وفي جمع المؤونة اللازمة للسفر(54). واعترف الهندي المدعو António بدوره أن موريسكيا لم تسبق له معرفته، ولا يعرف ما إذا كان «موريسكيا» أو«تركيا» (أي مسلما)، اتصل به يوما وأوحى له بالفرار(55). كما أخبر المغربي Diogo de Abranches المحققين بأنه بدأ يفكر في الفرار إلى المغرب بعد أن فاتحه موريسكيون لم يكن يعرفهم في الموضوع(56).

(53) Inq. Evora, Proc. n° 9193 fol.5 r°-6 r°;
راجع كذلك : Inq.Lix. Proc. n° 10857 fol.10 r°.
(54) Inq. Lix. Proc. n° 10897 fol.6 v°, 7, 8, 9 et ss.
(55) Inq. Lix. Proc. n° 10846 fol.4 r°.
(56) Inq. Lix. Proc. n° 4098 fol.6 r°;
راجع كذلك : n° 9235 fol.2 v° et ss.

وتزخز المحاضر التي اعتمدناها بالتفاصيل عن تلك الاتصالات وتحضير عملية الفرار. ويبدو من قراءة تلك المحاضر أن ذلك الموضوع استأثر باهتمام أفراد الجالية التي تهمنا. فبعد أن جمع المدعو Cosme Gonçalvez عددا من المغاربة ببيته قال لهم: إن الله الذي جمعهم بداره قادر على جمعهم بوطنهم(57). وتكثر بمحضر المدعوDiogo Botelho، الذي حوكم سنة 1561، الاشارات إلى الاتصالات التي كانت تسبق كل محاولة فرار، تلك الاتصالات التي كانت تشمل كل من هو موريسكي أو مسلم وصودف بالطريق. لقد أخبر أسير المحققين أن المغربي المذكور اقترح عليه وعلى شخص آخر الفرار صحبته، لأنه «ومسلم آخر لا يعرف إسمه كانا يبحثان عن مركب للفرار، وأنهما يعرفان رجلا أسود يملك مركبا سينقلهما، وأنهما وافقا على ذلك، على أن يبحث هو على المركب، ليرافقاه»(58). وأخبر نفس الشخص المبلغ عنه المحققين بأسماء من سبق لهم الاتصال به في هذا الشأن.

ونقف بمحضر محاكمة التركي Thome على اتصالات تمت بين مغاربة وهنود وأتراك(59). وكان من النادر أن تجد في محاولة فرار«جنسية» واحدة(60). وكثر الاتصال بالهنود بسبب اشتغالهم في مراكب أسيادهم أو مشغليهم، كما أن حضور الأتراك كان ضروريا لمعرفتهم بشؤون البحر، وتجربتهم الطويلة في الجهاد البحري.

وكان المغاربة يفرون إما بحرا في اتجاه المغرب، أو برا في اتجاه اسبانيا للتمكن من عبور البحر من موانئ إشبيلية وقادس وبلنسية وغيرها(61). وكان المرور بإسبانيا يوفر فيما يبدو حظوظ نجاح أكبر اعتبارا لعدد من قام بتلك المحاولة. فقد كانت تلك المرحلة تسمح لمن لم يكونوا يتوفرون على ثمن العبور بالعمل هناك، كما أن كثرة الفواكه على الطريق، كانت تساعد من لم يكن يتوفر على زاد(62). وكانت زيارة Notre Dame de Guadaloupe تعطي الموريسكيين مبرر الانتقال إلى ذلك البلد دون إثارة أي شك(63). وسمح وجود أشخاص متخصصين في مساعدة الفارين على عبور

(57) Inq. Lix. Proc. n° 6466 fol.18 v°.
(58) Inq. Lix. Proc. n° 12320 fol.2 et ss.
(59) Inq. Lix. Proc. n° 10897 fol.6 v° et ss.
(60) Inq. Lix. Proc. n° 6797 fol.6 v°; n° 4118 fol.10 r°; n°3568 fol.4 r°.
(61) Inq. Lix. Proc. n° 9909 fol.7 v°; n° 10864 fol.6 r°.
(62) Inq. Lix. Proc. n° 9235 fol.2 v°.
(63) Inq. Lix. Proc. n° 10837 fol.47 r°.

الحدود بتفادي مراقبة السلطات. فقد كان شخص يعمل بإسطبل الملك بلشبونة «يأخذ معه من هنا (لشبونة) موريسكيين إلى قشتالة، وكان يعيش من هذا المورد»(64).

ولم يكن الوصول إلى جنوب إسبانيا كافيا في حد ذاته، إذ اضطر عدد من المغاربة إلى الرجوع إلى البرتغال لتعذر الإبحار(65)، ولو بعد إقامة دامت عدة سنوات(66).

وحاول جل المغاربة الفرار بحرا من لشبونة على الخصوص، ومن موانئ ستوبال ومنطقة Algarve(67). وكانت الوسائل المستعملة للحصول على المركب اللازم لذلك تميز بين المغاربة الأحرار والذين كانوا في حالة أسر.

كانت المراكب المستعملة من لدن الفئة الثانية إما مشتراة(68) أو مسروقة(69)، أو كان بعض الهنود يضعونها رهن إشارتهم(70). إلا أن الوسيلة الثانية كانت أكثر اعتمادا لظروف عيش الأسرى. وكان الراغبون في الفرار يكلفون، بمقابل مالي، واحدا منهم بالبحث عن المركب(71)، الذي كان يقتحم ليلا(72).

وقبل ركوب البحر، كان معدو المحاولة يجمعون الماء، والخبز والخل والبسكويت وما أمكن من السيوف وبوصلة(73)، وذلك اعتمادا على مال مدخر أو تم الحصول عليه من بيع متاع. وكانت الأشرعة والمجاديف تسرق أو تصنع مما توفر من قماش وخشب(74).

---

(64) Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.34 v°;
Inq.Evora,Proc. 5245 fol.10 r° etc. : راجع كذلك

(65) Inq. Lix. Proc. n° 1387 fol.8 v°; 4184 fol.7 r°; 5254 fol.5 r°.

(66) Inq. Evora Proc. n°8439 fol.5 r°; n° 8055 fol.10 v°; et Inq. Lix. Proc. n° 13187 fol.8 v°.

(67) Inq. Lix. Proc. n°6393 fol.2 r°; 4080 fol.2-4. *Cf.* par ex. Inq. Lix. Proc. n° 10836 fol.19 r°; 12692 fol.3 r°; Inq. Evora Proc. n° 9193 fol.4-5 v°.

(68) Inq. Lix. Proc. n° 2255 fol.12v°.Inq. Lix. Proc. n° 9236 fol.9 r°.

(69) Inq. Evora, Proc. n° 9193 fol.4 r°, 31; Inq. Lix. Proc. n° 2255 fol.9 r°; 9512 fol.12 v°: 5511 fol.1 v°; 6797 fol.6 v°; 12052 fol.5 r°; 7562 fol.7; 12321 fol.3 v°; 10827 fol.2 - 3 r°; 12865 fol.7 r°; 10851 fol.5 r°, 6 v° - 7 r°.

(70) *Cf.* entre autres Inq. Lix. Proc. n° 10824 fol.9 r°; 12042 fol.4 r°; 12318 fol.2 v°; 10824 fol.5 v°-6 r°; 2255 fol.9 r°; 9512 fol.16 r°; 10864 fol.9 v°.

(71) Inq. Lix. Proc. n° 12827 fol.4 v°.

(72) Inq. Lix. Proc. n° 10851 fol.5 r°, 6 v° - 7 r°; n° 6797 fol. 6 r°; n° 12321 fol.3 v°; n° 10851 fol.1 v°.

(73) *Cf.*Inq. Lix. Proc. n° 2240 fol.3 v°; 2042 fol.4 r°; 12321 fol.3 v°; 10827 fol.2 v° - 3 r°; 12061 fol.9 r°; 12321 fol.3 v°.

(74) Inq. Lix. Proc. n° 2255 fol.9 r° ; 5511 fol.1 v°; 7245 fol.14 v°; 9512 fol.12 v° ; 10857 fol.14 r°; Inq. Evora, Proc. n° 9193 fol. 31 r°.

ولم يكن العثور على مراكب لسرقتها سهلا لاحتياط ملاكيها وتعيين حراس عليها(75). لذا بقيت كثير من المحاولات في مستوى المشروع والنية. ودام البحث عن سفينة في بعض الحالات سنة كاملة(76).

ويتعذر علينا بالطبع معرفة عدد من نجحوا في محاولاتهم. إلا أن الأصداء التي وصلتنا عنها تؤكد أن الذين تمكنوا من العودة إلى بلادهم كانوا كثيرين.

لقد كان الفرار إلى إسبانيا أو إلى «بلاد المسلمين»، يمثل في الحقيقة استمرارا لظاهرة قديمة تعود إلى دخول المغاربة إلى البرتغال. فقد أشار مورسكي إلى فشل محاولة سنة 1516، وكانت محاضر محاكمة من فشلوا في محاولاتهم من أقدم محاضر محاكمات المورسكيين(77).

ويمكن إرجاع فشل محاولات المغربين الأسرى إلى أسباب كثيرة، كان أولها وأهمها عدم الحيطة والاتصالات المتنوعة والمتكررة في كل مكان، وبكل الغرباء كما سبقت الإشارة إلى ذلك، الأمر الذي كان يعجل بوصول خبر المحاولة إلى مسامع السلطات. وقد فشلت جل المحاولات بتبليغ من صديق أو قريب لم يكن أحد يتوقع منه ذلك(78). وسمحت تلك التبليغات للسلطات بالتدخل حين التأهب لمغادرة الميناء(79). وطارد المسؤولون بعض الفارين في البحر(80)، بينما اعترض صيادون برتغاليون(81) أو بعض القطع المخصصة لحماية السواحل البرتغالية(82) طريق آخرين. كما أفشلت العواصف عدة محاولات. فقد ألقي القبض على العلج António de Veneza بساحل لاغوش، بالجنوب البرتغالي، رفقة عدد من المغاربة والأتراك كانوا متوجهين إلى المغرب في مركب ألقت به العواصف بذلك الساحل. وبما أن الفارين لم يأكلوا شيئا مدة

(75) Inq. Lix. Proc. n° 2240 fol.3 v°; 10835 fol.6 v° - 7 r°; 10851 fol.1 v°.
(76) Inq. Lix. Proc. n° 12042 fol.4 r°; n° 5488 fol.7 v°.
(77) *Cf.* Inq. Evora Proc. n° 11323 fol.3 v°.
وعن محاكمات سنة 1541 : Inq. Lix. Proc. n° 263, 4169, 3555, 6393, 9281, 10866.
وعن محاكمات سنة 1543 : Inq.Lix. Proc. n° 9863, 4098, 9279 etc.
(78) Inq. Lix. Proc. n° 10712 fol.14 r° et ss.; 7431 fol.16 v° - 17 r°; 8344 fol.22 v°; 10843 fol.3 r°; 10712 fol.27 r°; 12084 fol.6 r°; 10827 fol.2 v°, etc.
(79) انظر على سبيل المثال: Inq. Lix. Proc. n° 5511 fol.1 v°; 6797 fol.6 v°; 8346 fol.22 v°; 10712 fol.27 r°; 10835 fol.6 v° - 7 r°; 1870 fol.2 r°; 1208 fol.10 v°, etc.
(80) Inq. Lix. Proc. n° 12572 fol.20 v°; 10855 fol.3 r°.
(81) Inq. Lix. Proc. n° 12827 fol.4 v°.
(82) Inq. Lix. Proc. n° 1626 fol.3 r°.

أسبوع كامل، فإنه لم يكن بمقدورهم مقاومة العاصفة(83). وتسبب الجوع في فشل محاولة فرار مغاربة في مركب سرق من مدينة Cascais قرب العاصمة(84).

وتفاديا للمشاكل السابقة الذكر، فضل المغاربة الأحرار، الذين كانوا يتوفرون على بعض المال، الاتصال ببحارة برتغاليين قصد نقلهم، سراء، إلى بلادهم.وكان من البرتغاليين من اختص في هذا العمل، وفي نقل السلع إلى موانئ المغرب، رغم منع الملك البرتغالي لذلك، واعتباره تهريبا تعاقب عليه محاكم التفتيش(85). وللعثور على الراغبين في الفرار كان أولئك البحارة يتصلون مباشرة بالمغاربة، أو كانوا يلجأون إلى بعض الوسطاء منهم ضمانا للحصول على ثقتهم.

وتخبرنا مصادر محاكم التفتيش بأسماء بعض أولئك الوسطاء.فقد كان المدعو António Gil أشهرهم وأكثرهم نشاطا بمنطقة Algarve. فقد أكدت موريسكية أن الشخص المذكور «كان المفاوض باسمهم لتحضير رحيلهم»(86). ولتحقيق ذلك كان كثير التنقل والاتصال ببعض البحارة قصد نقل ستة مغاربة وأزواجهم مقابل خمسين ألف ريال برتغالي(87).

إلا أن أشهر الوسطاء المغاربة كان هو المدعو João Fernandez، البالغ من العمر ستين سنة، الذي غادر مدينة Setúbal واستقر بالعاصمة.وقد كان حمالا بسوق الحبوب، وكان يحصل من وساطته تلك على مورد إضافي.ودامت تلك الوساطة بين البحارة البرتغاليين، وخصوصا اثنين منهم كانا يقيمان بالميناء المذكور، والراغبين في الفرار، مدة ثمان سنوات حسب بعض التبليغات، وخمس عشرة سنة حسب أخرى(88). وقد صرح البحار البرتغالي المكنى بالألكن مرة أنه لا يفعل إلا ما يأمره به ذلك الوسيط الذي كان يعتبر بمثابة أبيه(89). وصرح مغربي أنه سمعه فعلا

(83) Inq. Lix. Proc. n° 9281 fol.2 v°.
(84) Inq. Lix. Proc. n° 12827 fol.4 v°.
(85) عثرنا على المحاضر التالية
Inq.Lix.. Proc. n°6107 (1541); 7459 (1541); 4080(1541); 16627 (1542); 5088 (1543), 6078 (1554), 7558 (1554), 167 (1554).
(86) Inq. Lix. Proc. n° 2242 fol.3 v°.
(87) Inq. Lix. Proc. n° 4118 fol.2 r°; 10833 fol.3 r°; 10836 fol.2 r° - 3 v°.
(88) Inq. Lix. Proc. n° 3590 fol.10 r°; 6471 fol.4 r°.
(89) Inq. Lix. Proc. n° 3590 fol.13 v°.

يناديه بتلك الصفة(90). وكان تنقله المستمر بين البحارة والراغبين في الفرار يجعل منه «المتكلم باسم الجميع»(91). وقد حمله البحار السابق الذكر خلال محاكمته مسؤولية فرار المغاربة لأنه صاحب الفكرة ومنظمها ومؤطرها، لذا نصح المحققين باعتقاله «لأن ذلك سيجعل حدا لفرار المورسكيين من هذه البلاد في اتجاه بلاد المسلمين، لأنه كان سبب فرارهم»(92).

وكان البحارة يكسبون أموالا طائلة من نقل المغاربة إلى بلادهم.فرغم منع محكمة التفتيش لذلك ومعاقبتها لكل من يقوم به، كان عدد منهم يجرؤ على جعل مركبه رهن إشارة من يؤدي الثمن، وكان منهم من عاد إلى القيام بذلك فور إطلاق سراحه(93).

وكان البحارة يشترطون أن لا يقل عدد الراغبين في الفرار عن ثمانية أو تسعة، وأن يدفع كل واحد خمسة آلاف ريال(94). وكان من المغاربة من دفع مبالغ تراوحت بين عشرة آلاف وعشرين ألف ريال(95). ودفع مغربي وزوجته لبحار أربعين ألف ريال، وهو مبلغ كبير(96)، كما أن بحارا آخر توصل من ستة مغاربة بمبلغ خمسين ألف ريال(97). ويبدو من خلال محاضر المحاكمات التي تمت بعد 1550 أن الثمن استقر في خمسة آلاف ريال، فضلا عن ألف أخرى كمساهمة في المؤونة(98).

وكان الاتفاق حول الثمن يفرض عدة مساومات مع البحارة، الذين كانوا يستعملون كل الوسائل للحصول على أكبر مبلغ ممكن. فقد طلب بحار من مغربي في أول اتصال بينهما دفع عشرين ألف ريال عنه وعن أسيرة كان يرغب في

---

(90) *Ibid.*, loc. cit.
(91) Inq. Lix. Proc. n° 12639 fol.9 r°, et aussi: n°2263 fol.11 r°; 5488 fol.7 v°; 6471 fol.4 r°.
(92) Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.58 r°.
(93) Inq. Lix. Proc. n° 4080 (1541) Inq.Lix.proc.n°167,fol.48r°
(94) Inq. Lix. Proc. n° 7558 fol.7 r°; 10857 fol5 r°; 2263 fol.10 r°; etc.
Inq.Lix.proc. n° 15195 fol.3 r°. :وكان الثمن المطلوب خلال العقد السابق أربعة آلاف ريال
Proc. n° 8425 fol. 45 v°.
(95) كان الألكن يطلب ألف ريال
Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.30 r°, 32 v°, 48 r° etc.
Proc. n° 8425 fol.26 v°. راجع كذلك
(96) Inq. Lix. Proc. n° 4169 fol. 7 v°.
(97) Inq. Lix. Proc. n° 10836 fol.2-3.
(98) Inq. Lix. Proc. n° 3590 fol.5 v°; n° 2263 fol.10 r°.

اصطحابها معه(99). كما أن نفس البحار رفض نقل ابن مغربي أنجب في البرتغال بدعوى «أن نقل الموريسكيين الذين أنجبوا في البرتغال إلى بلاد المسلمين إثم كبير، بخلاف نقل من جاء من هناك راشدا». ولذلك طلب دفع عشرين ألف ريال عن الإبن المذكور(100)!

وبعد الاتفاق حول الثمن، كان البحارة يلزمون زبناءهم بدفع قسط من المبلغ. وهكذا كان عدد منهم يدين لمغاربة بمبالغ مالية حين محاكمة أحد الطرفين (101). ولم يستطع المغاربة استرجاع ما دفعوه(102).

وبالطبع، لم تكن المبالغ المطلوبة من لدن البحارة في متناول كل المغرّبين. وفشل بعضهم في اقناع البحار بقبول أثاث أو متاع معين، أو إعطاء مهلة للتمكن من البيع(103). وأمام عجز المغاربة عن الدفع الفوري، لجأ بحار إلى حل طريف: فقد اتفق بميناء سان لوكار الإسباني مع أربعة مغاربة على نقلهم إلى ميناء العرائش، وبما أنهم كانوا يدينون له بقسم من المبلغ المتفق عليه، فإنه وافق على مرافقتهم إلى قريتهم للتوصل بما تبقى. إلا أنه أسر معهم في الطريق بين طنجة وأصيلا على يد جنود المدينة الأولى(104).

وهكذا استطاع عدد من المغاربة العودة إلى وطنهم. فقد اعترف البحاران Gênes Gomes و Lopes Mendez بتنظيمهما لرحلتين حملا خلالهما ثلاثة عشر مغربيا. كما اعترف الأول برحلة أخرى حملت ثلاثة وعشرين شخصا، وبرحلة رابعة تمت خلال سنة 1541 لم يحدد عدد أفرادها(105). واعترف المدعو Afonso O Bique بإنزاله سبعة أشخاص فيما بين العرائش والمعمورة (المهدية الحالية). كما بلغ ببحار آخر قام بعشر أو بإثنتي عشرة رحلة إلى المغرب(106). وكان من الفارين يهود متنصرون(107).

---

(99) Inq. Lix. Proc. n° 2263 fol.12 v°.
(100) Inq. Lix. Proc. n° 8425 fol.34 v° - 35 v°.
(101) Inq. Lix. Proc. n° 10837 fol. 61 r° ; 1592 fol.8 r°; 8425 fol.34 r°, 49 v°.
(102) Inq. Lix. Proc. n° 3590 fol.13 v°, 30 v°.
(103) Inq. Lix. Proc. n° 8425 fol.35 v°;n° 7245 fol.11 r°, 8425 fol.33 r°.
(104) Inq. Lix. Proc. n° 5088 fol.17 r°.
(105) Inq. Lix. n° 6471 fol.5 v° - 7 r°.
(106) Inq. Lix. Proc. n° 4080 fol.2 v° - 3 r°.
(107) Inq. Lix. Proc. n° 6471 fol.4 v°, 7 r°; n° 3590 fol.13 v°.

ومن باب الحيطة، لم يكن البحارة ينقلون زبناءهم من العاصمة، بل كانوا يضربون معهم مواعد بموانئ برتغالية أخرى لم تكن المراقبة بها صارمة على ما يبدو، كـ :

Cascais (108)، Setúbal (109)، Alcácer do Sal (110)، Tavira (111)، أو بإسبانيا (112).

واعتقل عدد من الراغبين في الفرار صحبة البحارة . وكانت التبليغات أهم أسباب فشل تلك المحاولات لانعدام السرية وإجراء الاتصالات في كل مكان، في الشارع والبيوت والحانات، وبدون تمييز بين الأشخاص. فحينما حاول أغنى المغاربة، António Alberto مغادرة حانته بلشبونة وفتح أخرى بحي Belém ليتسنى له الفرار في ظروف أحسن مع البحار المكنى بالألكن، كان جل مواطنيه على علم بالسبب الحقيقي لانتقاله إلى الحي المذكور، وكان ذلك موضوع حديثهم بميناء العاصمة. ولما بلغ ذلك إلى علم المحققين، كلفوا موريسكيا بالتجسس عليه. وبذلك ألقي القبض على الجميع(113).

وفشلت عدة محاولات لنفس السبب، لأن المحكمة كانت تعرف تاريخ إقلاع السفن، وكانت تتدخل في الوقت المناسب. فقد اعتقل الألكن المذكور ليلة إبحاره في إتجاه المغرب، بعد أن أصبحت المحكمة على علم بكل الفارين وبمن سينقلهم(114).

وحرصا من محمكة التفتيش، التي أصبحت معاقبة المهربين للسلع إلى سواحل المغرب ونقل المغاربة إلى هناك من اختصاصاتها بعد 1550(115)، على إعطاء نفسها فعالية أكبر، زرعت جواسيس بين الموريسكيين ممن كانوا أكثر اتصالا بهم. وكان «السوداني» Cosme Gonçalvez أشهرهم، وأكثرهم حماسا في ذلك.

أصل هذا الشخص من حوض السنغال، وتربى بالمغرب، حيث كان في خدمة السلطان أحمد الوطاسي الذي بعثه إلى البرتغال حاملا رسالة إلى الملك البرتغالي

---

(108) Inq. Lix. Proc. n° 5488 fol. 5 v°.
(109) Inq. Lix. Proc. n° 6396 fol.2 r°; n° 4080 fol.2-4.
(110) Inq. Lix. Proc. n° 8425 fol.26 v°.
(111) Inq. Lix. Proc. n° 10836 fol.2-3; 5088 fol.3 r°.
(112) Inq. Lix. Proc. n° 10836 fol.3 v°; n° 5088 fol.3 r°; n°1662 fol. 7 r°.
(113) Inq. Lix. Proc. n° 10837 fol.19 r° - 20 r°.
(114) Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.52 v° - 53 r°.

أنظر الترجمة الكاملة لهذا المحضر المهم بـ : أحمد بوشرب، «محضر محاكمة بحار برتغالي من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية...» **مجلة كلية الآداب**، فاس، عدد خاص بالتاريخ، 1985.

(115) أحمد بوشرب، «محاضر محاكم التفتيش الدينية : مصدر من مصادر التجارة البرتغالية بالمغرب خلال القرن السادس عشر» ضمن أعمال ندوة: **التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء، ج 1، صص. 93-116.

يوحنا الثالث، يومين قبل انهزام جيوشه أمام قوات محمد الشيخ السعدي سنة 1545. وبما أنه علم بأسر السلطان، فإنه قرر الاستقرار بلشبونة حيث اضطر إلى التنصر. وحيث أنه كان كثير الاتصال بالموريسكيين الذين أشاروا إليه كثيرا في تبليغاتهم أو اعترافاتهم، فإنه كان ينوي في شتنبر 1554 الفرار مع مجموعة من المغاربة والأتراك(116). إلا أنه تقدم يوم 9 أبريل من نفس السنة للتبليغ بالبحار الألكن الذي حمل مغربيين إلى آسفي. وللتمكن من معرفة تاريخ رحلته المقبلة، قام ببعض الاتصالات، وتجسس على المغربي António Alberto السابق الذكر، الذي سمعه يقول لزوجته :

«لقد تحدثت إلى الألكن وإلى إبن Pedro Alvarez، واتفقت معهما على نقلنا إلى بلاد المسلمين، أنا وأنت وابنة أختك، إلا أن الألكن قال لي إنه يتعذر عليه نقلنا من هنا، وأنه لن يمكنه ذلك إلا من حي Belém، لذا أرغب في الانتقال إلى هناك وفتح حانة؛ وقد اكتريت محلا، ومن هناك سنرحل»(117).

وكلف المحققون المبلغ المذكور بالتجسس على الألكن ومساعديه «الذين ينقلون موريسكيين مسيحيين إلى بلاد المسلمين»(118). وبذلك تمكنت المحكمة من إلقاء القبض على كل الذين كانوا يرغبون في الفرار في مركب الألكن المذكور. وقد حمّل المغاربة المبلغ المذكور مسؤولية فشل محاولتهم تلك واعتقالهم، واتهموه بتفضيل المال الذي أعطاه المحققون إياه على صداقتهم. لذا عاملوه معاملة قاسية بسجن المحكمة الذي اعتقل فيه بدوره بنفس التهمة. وقد برر المغربي Alberto خيانته تلك بوضعيته السابقة بالمغرب، وبكونه «لم يأت إلى هذا البلد إلا لإشباع بطنه وتفادي العراء، ولأنه سعيد بالعيش هنا، لأنه كان ببلاد المسلمين يتضور جوعا ويرعى الماعز»(119).

وعلى عكس ما قال المغربي السابق الذكر، لا يعود تبليغ Gonçalvez بالراغبين في الفرار إلى اندماجه ورغبته في الاستقرار في البرتغال، لأنه كان يفكر بدوره في الفرار واعتقل لذلك السبب، ولكنه يعود إلى الخلاف الذي يحدث بين الفينة والأخرى بين الموريسكيين، للأسباب التي أوضحناها، والتي كانت محكمة التفتيش تستفيد منها.

---

(116) Inq. Lix. Proc. n° 4184.
(117) Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.19 r° - 20 r°, et 23 r° - 24 v°.
(118) *Ibid.* , fol.23 v°.
(119) *Ibid.* , fol.26 v°.

وإذا كـان عدد مـن الفـارين، لا يمـكن مـع الأسف حـصره بـدقة، قـد تمكـنوا مـن الـوصول بـسلام إلـى المـغـرب، فـــإن إشـارات كثـيـرة تؤكـد فشـل عـدد كبير مـن المحاولات.

لم يكن بعض البحارة يترددون في التبليغ بـالمغاربة الذين سلموهم قسما من المبلغ المتفق عليه(120). ولم يـتورع آخرون فـي سلبـهم متـاعهم وقـتلهـم قبل الإلـقاء بهـم في البـحر. فقـد اعترف المـدعو António Anes ومـساعـدوه بـفعـل ذلك مـرة واحـدة علـى الأقل(121). كما اعترف البحار الألكن أنه ومساعديه اتفقوا على قتل الموريسكيين الذين يرغبـون في الفرار في مـركبه: «فبعد صـعودهم إلى المركـب والابتعاد عن الـساحل، كان عليهم قتلهم ونهبهم»(122).

وقد يبدو لنا أن اعترافات كهذه، تهدف إلـى إرضاء المحققين الذين كانوا يفضلون، كما سنـرى، قتل الموريسكـيين على عودتهم إلـى بلادهم، إلا أن تخوفات الـراغبين في الفرار، وحـرصهم على الإبـحار في مجـموعات، يؤكد تـشككهم فـي البحارة وخـوفهم على حياتهم.لقد اتصل بحار بهندي وعرض عليه الفرار في مركبه مع آخرين، إلا أن الهندي المـذكور برر رفض ذلك العـرض بقوله: «قد يكـون ذلك الرجـل لصـا يرغـب في بيعهم أو قتلهم»(123).

واتصل الألكن المذكور بأسيرة مغربية مسلمة بإيعاز من أحد الأعيان المغاربة نقله البحار المذكور إلـى آسفي. ورغم كل التطمينات التـي قدمها لها ليثبت لهـا حسن نيته، استمرت فـي الشك في نواياه « والخوف مـن أن يلقي بها في البـحر، لكونها لم تـتمكن من العثور على من يرافقها»(124). وبعد أن أقلعت السفينة، تأكـدت لها تخوفاتها.فلما وصل ميناء Sesimbra ، انتـزع منهـا ما كـانت تحمـله من مـال وحلـي، ولما اقتـرب من Setúbal قتلـها وألقى بها فـي البحر. وقد أشـار خلال محاكمـته إلى أن قتل المورسـكيين

(120) Inq. Lix. Proc. n° 2867 fol. 1-5 v°.
(121) Inq. Lix. Proc. n° 15195 fol. 4 v°.
(122) Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.63 v°-64 r°.
(123) Inq. Lix. Proc. n° 2947 fol.7 v°.
(124) Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.30 v°

الفارين في سفن بحارة برتغاليين كان أمرا عاديا.ولما أمرت المحكمة بتفتيش سفينته، وجدت فيها الأشياء التي سرقها من ضحيته. إلا أن المحكمة لم تسجل ضده إلا تهمتين : التهريب بالمغرب، ونقل موركسيين إلى هناك.كما أن النطق بالحكم لم يشر قط إلى جريمة القتل التي اعترف بها(125).

ويبدو أن محاكمة أولئك البحارة قللت كثيرا من فرص العودة الى الوطن، ذلك أن آخر محضر من محاضر محاكماتهم يعود إلى سنة 1554. وبذلك لم يبق بيد المغاربة إلا العبور انطلاقا من الموانئ الأندلسية أو في مراكب مسروقة.

---

(125) *Ibid.* , fol. 68 r°.

الفصل السابع

موقف الجالية المغربية من المسيحية والإسلام

في إطار علاقاتهم غير الودية مع المجتمع البرتغالي، اعتمد أفراد الجالية المغربية القناعات الدينية كوسيلة لإثبات الهوية وللانتقام للنفس مما كانوا عرضة له من تعسفات وإهانات. لذا نعتقد أنه لابد من اعتبار عاملين أساسيين لفهم تلك القناعات لدى الأقلية التي تهمنا:

- أسباب الردة والظروف التي تمت فيها،

- مدى صدق المرتد لدور ذلك الصدق في تحديد موقف المرتد من الإسلام ومن المسيحية من جهة، ومن البرتغال وسكانه من جهة أخرى.

وبالنسبة للأقلية الدينية التي تهمنا، والتي دخل أفرادها البلاد في دفعات متباعدة زمنيا، لم يتم التنصر دفعة واحدة، إثر قرار سياسي كما تم بالنسبة لمسلمي البرتغال سنة 1496، أو بالأندلس. لقد دخل مغاربة البرتغال في نفس الظروف ولنفس الأسباب، وكانوا يواجهون نفس ظروف العيش، ومع ذلك لم يتنصروا في نفس الوقت، ولنفس الأسباب، وكان منهم من رفض ذلك رفضا قاطعا للأسباب التي سنعود إليها. لذا يتحتم علينا بادئ ذي بدء تحديد الظروف التي تمت فيها الردة ومدى صدقها.

تؤكد مصادر محاكم التفتيش بشكل غير بريء على عفوية ردة المتنصرين، وقيامهم بذلك بكل حرية. كما كان المعتقلون أنفسهم يجعلون من هذا الادعاء العنصر الأساس في دفاعهم عن أنفسهم. غير أن حرية الإختيار هذه، كما توحي بها محاضر المحاكمات، تفرض علينا توضيحا مهما. لقد ادعى بعض المغاربة أنهم هاجروا من

بلدهم بهدف التنصر واعتناق المسيحية. إلا أن الاطلاع على محاضر محاكماتهم يفند ذلك الادعاء، ويؤكد بما لا يدع أي مجال للشك أن تلك الردة فرضت عليهم في الظروف التي سنعود إليها.

لقد اضطر عدد من اللاجئين السياسيين أو الفارين من العدالة أو الراغبين في الالتحاق بقريب، إلى التنصربالثغور المحتلة، تفاديا للأسر، وللتمكن من عبور البحر إلى البرتغال. وكان ذلك التنصر الوسيلة الوحيدة للإفلات من الأسر الذي اعتاد عليه قباطنة تلك الثغور، والذي كانوا يجدون فيه موردا ماليا مهما(1). لذا لا عبرة بما ادعاه بعضهم، إذ أنهم سرعان ما اعتقلوا وحوكموا بتهمة التمسك بدينهم الأصلي. ومعلوم أن ادعاء التنصر بكل حرية ودون إكراه، يهدف، أولا وقبل كل شيء، إلى تفادي بطش المحققين خلال المحاكمة، وإلى تقليص مدة الاعتقال.

لقد ادعى António أنه ما هاجر إلا ليتنصر، غير أنه اعتقل وحوكم بعد خمسة أشهر فقط من دخوله البرتغال(2). كما أن اللاجئين السياسيين الذين سبقت لنا الإشارة إلى ظروف تغريبهم ادعوا خلال محاكماتهم أن الرغبة في الردة كانت الدافع الوحيد لتركهم لوطنهم(3)، في حين أن مراجعة محاضر تلك المحاكمات تؤكد أن ظروف الإقامة الصعبة فرضت عليهم التنصر. فبما أنهم كانوا أحرارا، فإن الإقامة النهائية بالبرتغال كانت تلزمهم بالتنصر. وهكذا تزامنت تلك الردة مع فقدانهم لأمل العودة إلى الوطن وتعذره. فبعد أن فشل ممثلو الدولة الوطاسية في إقناع الملك البرتغالي بالتدخل لصالحهم ضد محمد الشيخ السعدي وقرروا طرق أبواب الإسبان لطلب عونهم، اضطر مرافقوهم الكثيرون إلى التنصر للحصول على المعاش الملكي والترخيص لهم بالإقامة(4). وحدثت ردات كثيرة في ظروف مشابهة(5).

وكانت الردة تتم أساسا للحصول على الحماية الملكية والمعاش الذي كان يخص به أولئك الأعيان. وكانت العلاقة بين الردة والمعاش أكيدة، ذلك أنه لما اضطرت الدولة

(1) Inq. Lix. Proc. n° 12293 fol.3 r°, 60 v°, Proc. n° 1114 fol. 38 r°, 78 v°.

وعن الردة بالثغور المغربية، راجع من بين الإحالات الكثيرة:

Inq. Lix. Proc.n° 4043, fol.14 r°; n° 12572 fol.37 r°, 132v°; n° 2254 fol.4 r°.`

(2) Inq. Lix.Proc.n°, 10827, fol.2 r°

(3) Inq.Lix.Proc.n° 1636 fol. 4 v°

(4) Inq. Lix.Proc.n° 12293 fol;51 r°; n° 1636 fol. 6 r°; n° 12626, fol. 10 r° etc.

(5) Inq. Lix.Proc. n) 4043, fol. 30 r°; n° 12293, fol. 33, 35 r°, 37 r°, etc.

أمام كثرة طالبيها إلى التوقف عن تخويلها، تراجعت بالتالي أعداد من أشهر ردته. فقد غير الذين كانوا على وشك التنصر رأيهم بعد اتخاذ القرار المذكور «طالما أنه لم يبق لهم، وهم نصارى وبدون أي مورد، إلا العيش من السرقة»(6).

كما أن عمر المرتد يسمح لنا بدوره بالشك في عفوية الردة وحدوثها دون إكراه. فقد أكد عدد ممن تنصروا وهم أحداث أمام المحققين أنهم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم وبدون أي ضغط. لقد ذكرت المدعوة Francisca أنها تنصرت عن طيب خاطر بأزمور، بعد أسرها، وعمرها سبع أو ثمان سنوات(7)، في حين ادعت Ana de Valença أنها تنصرت «عن طيب خاطر» حين «بدلت أسنانها الأمامية»(8). كما أن عمر António Alberto حين تنصره لم يكن قد تجاوز سبع أو ثمان سنوات(9). وكان عدد من اللاجئين السياسيين قاصرين - حسب معيار محمكة التفتيش نفسها - حين تنصرهم(10).

كما أن عددا من الردات التي اعتبرت حرة وبدون إكراه تمت خلال اعتقال المسلم من لدن محكمة التفتيش بتهمة الفرار أو لجرائم أخلاقية، ذلك أن المحققين كانوا يستغلون الاعتقال المذكور لحث المسلمين على الردة، الأمر الذي كان يتحقق لهم في الغالب، إما ليلة النطق بالحكم، أو بعده بقليل، وذلك لغاية معلومة(11).

واعتاد البرتغاليون الضغط على المسلمين المقيمين بين ظهرانيهم ودفعهم إلى التنصر. فقد كان المغاربة عرضة لضغوط يومية لا تكل من أسياد العبيد وخدامهم وأصدقائهم أو حتى من الجيران. فالظروف التي تم فيها تنصر المغربي المدعو António معبرة في حد ذاتها. فبعد أن أسر بأصيلا، نقل إلى لشبونة حيث أصبح في خدمة برتغالي. وبما أنه اعتاد الجلوس أمام الباب، فقد كان الجيران يلحون عليه في كل وقت

(6) Inq. Lix. Proc. n° 12293 fol.50 v° - 51 r°
(7) Inq. Lix. Proc. n° 12690 fol. 3 r°
(8) Inq. Lix. Proc. n° 11127 fol. 10 v°.
(9) Inq. Lix.Proc. n° 1087 fol. 41 v°.
عن حالات مشابهة، راجع مثلا:
Inq. Lix. Proc. n° 1636 fol.32 r°; Inq. Evora, Proc. n°4497 fol.2 v°.
(10) Inq. Lix. Proc. n° 12087 fol.10 r°; n° 6636 fol. v°; n° 8501 fol.8 r°; n° 6440 fol.4 r°; n° 10872 fol. 9 r°.
(11) Inq.Lix.Proc. n° 1208, fol.10 r°; n° 6636, fol. 6v°; n° 8501, fol.8 r°; n° 6440, fol.4r°; n°10872, fol.9 r°.

وحين ليتنصر، الأمر الذي رضخ له بعد أربعة أشهر(12). وتكثر الحالات المشابهة(13).

وكان دور الأسياد في تنصر عبيدهم كبيرا لتوفرهم على كل عناصر الإكراه(14)، ومنها على الخصوص التلويح بإمكانية انعتاق من يرتد. وقد فعل الملك البرتغالي، الذي كان يملك أكبر عدد من الأسرى، ذلك عدة مرات(15). ولم تكن استشارة الأسرى لازمة في كل الحالات، إذ عمد بعضهم، دون أن يطلب رأيهم، خصوصا في حالة مرض خطير(16).

وتدخلت عوامل أخرى، ولو بشكل غير مباشر. فقد فرضت الإقامة الطويلة بالبرتغال على المغاربة الذين أنجبوا التنصر، أو هذا على الأقل ما ذكرته مغربية ادعت أنها تنصرت «نزولا عند رغبة ابنتها ومرضعتها»(17).

وحرصا من بعض المعتقلين على ضمان عطف المحققين وتفادي عقوبات صارمة، ادعوا أن ردتهم نتجت عن رؤية أو خارقة معينة(18). فقد ادعى Diogo Coutinho أنه تمسك بإسلامه مدة ست وعشرين سنة، وأنه تنصر، تنفيذا لعهد قطعه على نفسه، بعد أن استعاد قدرته على المشي، إثر شلل أصابه(19). وخصت Lianor de Melo ردتها بصفة الخارقة :لقد كانت تشترط تنصرها بتغيير لون بشرتها من الأسود إلى الأبيض. وبما أنها رأت في منامها السيدة العذراء، فإنها قررت التنصر. وبعد أربعة أيام، «تغير لون جسدها ووجهها، عدا بعض النقط السوداء التي بقيت بوجهها، والتي لا تزال به لحد الساعة، الأمر الذي تعجب له كثيرا من علم به»(20). وأشار مغربي آخر إلى هذا التحول بتقديم نفسه للمحكمة كزوج مورسكية تغير لون بشرتها من الأسود إلى الأبيض(21)!

---

(12) Inq. Lix.. **Livros Novos**, maços. 5-3, fol.1.
(13) Inq. Lix. Proc. n° 1626 fol.6 v°.
(14) Inq. Evora, Proc. n° 8203 fol.7 r°; Inq. Lix. Proc. n° 9239 fol.2 r°- 4 r°; n° 10831 fol.8 r°.
(15) Inq. Lix. Proc. n° 12932 fol.5 v°; n° 3932 fol.1 ; n° 1623 fol.8 v°; n° 13187 fol.6 r°...
(16) Inq. Lix. Proc. n° 2257 fol.8 v°; n° 12293 fol.3 v° et ss.; n° 9884 fol.10 v°; n° 12293 fol.61 v°.
(17) Inq. Evora, Proc. n° 936 fol.3 v°.
(18) Inq. Lix. Proc. n° 260 fol.7 r°; n° 1620 fol.7 r°.
(19) Inq. Lix. Proc. n° 260 fol.7 r°,.
راجع كذلك : Inq. Lix. Proc. n° 1620 fol.7 r°.
(20) Inq. Lix. Proc. n° 7696 fol.3. r°
(21) Inq. Lix. Proc. n° 10831 fol.7 v°.

لذا لا عبرة بما يدعيه أشخاص خلال استنطاقهم من لدن المحققين بشأن ردتهم التلقائية، والتي لم تخضع لأي ضغوط.

ومن جهة أخرى، أثرت الوضعية القانونية للأسرى، ووضعية المغاربة كأجانب يفتقرون إلى موارد قارة وكافية، على موقفهم من الردة التي أصبحوا يحكمون عليها من خلال ما يمكن أن توفره من امتيازات. لقد طلب من مغربي أسير أن يتنصر فرفض ذلك مؤكدا أنه إن كان عليه أن يعيش في الأسر فمن الأفضل أن يبقى مسلما(22). كما أن المدعوة Maria Lopes احتفظت بإسلامها مدة ثلاثين سنة التي قضتها في الأسر، ولم تتنصر إلا بعد يوم أو يومين من انعتاقها(23). لذا تحكمت الاعتبارات المادية (الانعتاق، المعاشات، تفادي عداء المجتمع المسيحي) بشكل واضح في ردة المغاربة المقيمين بالبرتغال، ولم تكن تلك الردة تمثل غاية في حد ذاتها.

وقد تسببت خيبة أمل المتنصرين في تلك الردة، التي كانوا يتوخون منها منافع مادية محددة، في اتخاذهم لموقف معبر: فبالرغم من تنصرهم، كانوا يجهدون أنفسهم في منع ردة من بقي منهم متمسكا بإسلامه، وفي الحيلولة دون ارتكابهم لنفس الخطأ الذي ارتكبوه. ولإقناع مخاطبيهم، كانت الاعتبارات الدينية شبه غائبة، وكان التأكيد على إيجابيات الردة وسلبياتها أهم. لقد كانوا ينبهونهم إلى أن الميسحيين يصبحون أكثر عداء للموريسكيين مما هم عليه مع المسلمين(24)، وأن المرتد لا يجني أي فائدة من ردته، وأنه لا يحصل بالمقابل على أي امتياز(25). ويتجلى التصور المذكور للردة من خلال هذه الخلاصة التي استنتجتها المدعوة Isabel de Crato التي كانت تلوم نفسها على تنصرها وتنصح مواطنيها بتفادي القيام بما قامت به «طالما أنهم سيعانون كل تلك المعاناة»(26). وتساءلت المدعوة Madanella Cellena، المزدادة بالبرتغال من أب مغربي اعتقلته محكمة تفتيش لشبونة، عما إذا كان من الأفضل أن يكون الإنسان مسلما ليتفادى الاعتقال ومواجهة المحققين. وتساءلت إبنة موريسكي آخر اعتقل مع

(22) Inq. Lix. Proc. n° 12572 fol.8 v°;
راجع كذلك : Proc. n° 5831 fol.9 v°.
(23) Inq. Evora, Proc. n° 8652 fol.5 r°
(24) Inq. Lix. Proc. n° 9235 fol.11v°, 14 v°, 9310 fol.19 v°
(25) Inq. Lix. Proc. n° 12626 fol.3 v°; n° 9520 fol.15 v°; n° 9310 fol. 1 r°; n° 10821 fol.10 r°.
(26) Inq. lix. Proc. n° 9280 fol.4 r°.

موريسكيي مدينة Setúbal بدورها عن سبب مطاردة الموريسكيين رغم تنصرهم، وخلصت إلى أنه «من الأفضل أن يكون المرء مسلما لكي لا يعتقلوه»(27).

وهكذا عرف البرتغال فيما بين 1550–1555 وضعية دينية غريبة. لقد ندم المتنصرون من المغاربة– ومن باقي المسلمين– ندما شديدا على تنصرهم، وكانوا يقومون بكل ما كان في وسعهم لمنع ردة من كان منهم مسلما. وقد أسهم هذا الموقف في بقاء جالية إسلامية مهمة بالبرتغال، مكونة ممن كانوا في الأسر، كانوا ملزمين بحمل شارة معينة (mouros de sinal). لقد كان هؤلاء قليلي الاكتراث بالردة، وكانوا واعين بما ينتج عنها من عواقب وخيمة. فهي في نظرهم لا تضمن أي امتياز مادي ولا تحسن العلاقة مع المجتمع المسيحي، وتحول دون الافتداء بالشراء، وهي أخيرا تعرض للمطاردات من لدن المحققين بدعوى التمسك بالإسلام(28).

لهذه الاعتبارات صمد عدد كبير منهم لمدة طويلة بلغت ثلاثين أو خمسا وثلاثين سنة من الإقامة بالبرتغال! وتجدر الإشارة إلى أن جل الذين صمدوا هذه المدة الطويلة كانوا من النساء. فقد تمسكت المدعوة Francisca Lopes بإسلامها مدة تسع وعشرين سنة(29)، بينما صمدت مغربية أخرى ثلاثين سنة(30)، وقاومت مغربية ثالثة مدة أربع وثلاثين سنة(31).

ومما لا شك فيه أن الظروف التي تمت فيها الردة ستنعكس حتما على موقف المرتد من دينه الجديد.

وكان على المرتدين أن يقنعوا المجتمع المراقب لتصرفاتهم وأفعالهم بصدق نيتهم. لذا ألحوا كثيرا خلال محاكماتهم على الالتزام الحرفي، منذ ردتهم، بكل تعاليم الكنيسة. لقد أجاب المدعو António Fernandez عن سؤال روتيني يطرحه المحققون بقوله: «كان يحضر الصلوات كل يوم أحد، وكل أعياد السنة(...) كما أنه كان يعترف

(27) Inq. Lix. Proc. n° 6747 fol.10 r°;
راجع كذلك: n° 3182 fol.9 v°.
(28) Inq. Lix. Proc. n° 3182 fol.9 v°; n° 9280 fol.4 r°. n° 12626 fol. 34 v° ; fol.8 v°, 9 v°; n° 10712 fol.5 r° et ss. ; n° 6466 fol.7 v° etc.
(29) Inq. Lix. Proc. n° 7246 fol.5 r°.
(30) Inq. Evora, Proc. n° 8652 fol.5 r°.
(31) Inq. Evora, Proc. n° 7246 fol.4 v° - 5 r°.

بـانتـظام بـخطـايـاه ويتـناول الـقربـان المقدس كـل سنـة، كلـما أمـرت أمـنا الـكنـيسـة بذلك...»(32).

وتزخر كل المحاضر الـتي اطلعنا عليها بـتأكيدات من هذا القبيل، ولـم يعترف ولو مغربي واحد بتقصير في هذا الباب.

إلا أن مصـادر محاكم الـتفتيـش تعكس واقـعا آخر قد يـخفيه حـضور المغاربـة كل الطقوس الدينية المسيحية: لقد كانوا يجهلون كل شيء تقريبا عن المسيحية، ولم يأخذوا ردتهم مأخذ الجد، واستمروا في اعتبار أنفسهم مسلمين. فأول ما يلاحظه المطلع على محاضر محاكمة المغاربة، هو جهل أغلبيتـهم المطلق للعقيدة المسيحية. وإذا كان الأمر عاديا بالنـسبة لأجانب تنصروا مـنذ مدة قصيرة، ولم تطل إقـامتهم بالبلد، فـإنه يصبح غريبا إذا تعلـق بأشخاص تنصروا منذ عقـود. فمن بين المغاربة الذين دخلـوا البرتغال خلال العشرينات من القرن السادس عشر، اسـتطاعت أقلية تلاوة الصلوات بمحضر المحققين. فالمدعوة Lianor de Melo، التي أقامت بالبرتغال مدة ست وأربعين سنة، والتي عمّدت وعمرهـا لا يتجاوز الـسنة الرابعـة، عجزت حتـى عن رشم الصـليب(33). أما المسمى Jorge Camelo، المتنـصر منذ خمسـين سنة، فقد عـجز عن رشم الصـليـب وعن تلاوة الصـلوات(34)! وسجلنا نفس الجهل لدى المدعوة Antónia Fernandez المتنصـرة سنة 1521، والتـي اعتـقلت وحـوكمـت بعـد ثمان وثـلاثين سـنة(35). ووقفـنا عـلى حـالات مشـابهة كـثيـرة. فمن بـين المغاربـة الكـثيريـن الذين مـثلوا أمـام المحـقـقين، اختـرنا 87 شخصـا أدخلوا البـرتغال فيـما بين 1500 و1521 لكونـهم عاشوا أطـول مدة بالمهـجر، وتوفرت لـهم بالتـالي فرصـة تـعلم اللـغة والعقـيدة(36). ويؤكـد الاطلاع علـى محـاضر

---

(32) Inq. Evora, Proc. n° 11323 fol.2 v° - 3 r°.

(33) Inq. Evora, Proc. n° 6462 fol.3 r°.

(34) Inq. Evora, Proc. n° 6350 fol. 5 r°.

(35) Inq. Evora, Proc. n° 2827 fol. 2 v° - 3 r°.

(36) أرقام تلك المحاضر هي :

Inq. Lix. Proc. n°: 708, 1104, 1592, 1636, 2257, 2263, 2467, 2963 2467, 3182, 3186, 3577, 4116, 5153, 5488, 6424, 6449, 6455, 6728, 6743, 6762, 6787, 7245, 7246, 7457, 7692, 7693, 7695, 7700, 9280, 9670, 9884, 9909, 9956, 10831, 10837, 10842, 10853, 10857, 10864, 10869, 11128, 11646, 12383, 12487,,12684, 12687, 12689.

وتجدر الإشارة إلى أن المحضر رقم 1636 يغطي محاكمة خمسة مغاربة، لذا أحصيناه خمس مرات

Inq. Evora, Proc. n°: 936, 1474, 2418, 2827, 3038, 4497, 5002, 5006, 5203, 5179, 5245, 5462, 6258, 6350, 6462, 7179, 7472, 7917, 7960, 8055, 8062, 8433, 8439, 8483, 8582, 8614, 8623, 8859, 9193, 9638, 9765, 9823, 10769, 11323, 11554.

محاكماتهم أنهم كانوا بدورهم يجهلون كل شيء تقريبا عن المسيحية، كما يجسد ذلك الجدول التالي المستخرج من أجوبة المتهمين على أسئلة القضاة المتعلقة بمعرفة العقيدة. وتتعلق الأسئلة المذكورة بصلوات:

الصلاة	جيـد	ضعيف	لا شيء	المجموع
Pater Noster	34	27	26	87
Ave Maria	41	20	26	87
Credo	18	24	45	87
Salve Regina	6	9	72	87
الوصايا العشر	5	4	78	87

لقد كانت الصلاة التي سهل حفظها على المغاربة هي الثانية بالجدول، ذلك أن 41 من العينة استطاعوا ترتيلها خلال محاكمتهم، بينما كان 26 آخرون يجهلونها. أما الصلاة الأولى، فقد كان 39 % من العينة يحسنون تلاوتها. وتعذر على المتهمين تلاوة باقي الصلوات، ومثل الذين استطاعوا تلاوتها كاملة أقلية. وكانت نسبة العارفين بالصلاتين الأخيرتين بالجدول أقل بكثير. فالذين كانوا يجهلون أولاهما كلية مثلوا 82 % من العينة، في حين أن الذين كانوا يتقنونها لم يمثلوا إلا 6،8 %. وكان جهل المغاربة بالوصايا العشر مماثلا: 89 % من العينية لم ينطقوا ولو بكلمة واحدة منها، في حين أن الذين استطاعوا ترتيلها بلغوا 5،7 %.

وتسمح المحاضر التي اطلعنا عليها بتعميم هذه النتيجة على كل أفراد الجالية المغربية، وعلى من دخلوا البرتغال قبل 1550 على وجه الخصوص. ولم يقتصر جهل المغاربة على الصلوات وحدها، بل كان جهل ما يرتبط بالمسيحية أحيانا مثيرا للدهشة اعتبارا لعدد سنوات الإقامة ومدة التنصر. فقد كان المدعو Diogo Fernandez، البالغ من العمر ستين سنة، عاجزا حتى عن تعريف السيد المسيح والسيدة مريم(37).

(37) Inq. Lix. Proc. n° 12194 fol.6 r°
عن حالات مشابهة : .Proc. 12487 fol.9 v°

وحينما سأل المحققون المسمى João Rau عن سبب الاحتفال بيوم 25 دجنبر، عجز عن تقديم جواب دقيق، واكتفى بالقول: «إنها حفلة طيبة، تقام بها صلوات كثيرة»(38). وكان جهل المسماة Maria Fernadez أكبر. فرغم إقامة دامت ستا وثلاثين سنة، منها عشر أو إثنتا عشرة سنة كمسيحية، عجزت بدورها عن ذكر سبب الاحتفال ببعض الأعياد المسيحية، الأمر الذي جعل كاتب الضبط بالمحكمة يسجل بأنه «يبدو أن هذه الموركسية تجهل الكثير من العقيدة، ولا تعرف إلا القليل جدا، أو بالأحرى تجهل كل شيء عن المسيحية»(39). كما كانت Britiz Vaz تجهل كل الصلوات، ولم تستطع أن تعرف بالسيد المسيح وبمريم العذراء، كما عجزت عن تحديد الشخص المصلوب بالكنيسة(40). وتكثر الحالات المشابهة بمحاضر محاكمات المغاربة(41).

ونظرا لجهل المغاربة للعقيدة الميسحية والصلوات، اضطر بعض الرهبان إلى رفض اعترافات بعضهم أو مناولتهم القربان المقدس(42).

ولتفادي هذه الوضعية، اضطرت السلطات الدينية والمدنية إلى اتخاذ بعض الإجراءات سنعود إليها.

وبما أن المحققين اعتبروا الجهل المذكوردليلا على عدم اكتراث المتنصرين بدينهم الجديد، فإن المتهمين المغاربة، حرصا منهم على تفادي عقاب صارم، حمّلوا أنفسهم مسؤولية ذلك، وأعطوا أحكام قيمة قاسية عن أنفسهم. فقد أرجعت Isabel Afonso جهلها لكل الصلوات إلى وضعية الأسر التي كانت تفرض عليها قضاء جل وقتها «في الجبل كالمعزة»(43). كما برّر آخر جهله بالحياة التي كان يحياها بإسطبل الملك البرتغالي، حيث كان يعيش بين الموركسيين والمسلمين «كالبهيمة»(44). واعتبرت أخرى نفسها بهيمة لجهلها لكل الصلوات(45).

---

(38) Inq. Lix. Proc. n° 9520 fol6 v°.
(39) Inq. Lix. Proc. n° 9956 fol.4 r°.
(40) Inq. Lix. Proc. n° 568 fol.7 v°.
(41) راجع مثلا :
Inq. Lix. Proc. n° 9909 fol.5 v° - 6 r° ; n° 10864 fol.8 r°; n° 1588 fol.13 r°; n° 2970 fol.7; n° 12061 fol.8 r° etc.
(42) Inq.Lix. Proc. n° 1592 fol.4 v° ; n° 3194 fol.2 r°; n° 3577 fol.6 r°; n° 1636 fol.39 r° 7245 fol.7 v°; n° 3184 fol.8 v° etc.
(43) Inq. Lix. Proc. n° 9278 fol.6 v°.
(44) Inq. Lix. Proc. n° 13187 fol.9 v°.
(45) Inq. Lix. Proc. n° 9909 fol.9 r°;
راجع كذلك : Proc. n° 9278 fol.6 v°.

وبالطبع، كانت محكمة التفتيش لا ترى في ذلك الجهل إلا دليلا على تمسك المرتدين بالإسلام. فحينما حاول Jorge Lopes تبرير جهله للصلوات والعقيدة، رفض القاضي ذلك التبرير، وأرجع الجهل المذكور إلى تقصيره وتمسكه «بطقوس دين محمد، طالما أنه أهمل الأمور التي كان عليه أن يعرفها بصفته مسيحيا»(46). وكان رد المحققين على التبرير الذي قدمه مغربي آخرمشابها(47). واضطرت أغلبية من مثلوا أمام المحققين إلى الاعتراف، للأسباب وفي الظروف التي سنعود إليها، بالعلاقة بين ذلك الجهل وقلة اكتراثهم بدينهم الجديد(48). غير أنهم حاولوا قبل ذلك دفع القضاة إلى اعتبار عوامل أخرى.

وكان أول تلك العوامل مرتبطا باللغة. فقد حاولوا تفسير قلة معرفتهم بالعقيدة بجهلهم لُغة البلاد، وصعوبة حفظ صلوات بلغة لم يكونوا يفهمونها. فقد حاولت Isabel Pegada أن تقنع القضاة بأن جهلها للصلوات يعود إلى جهلها لغة البلاد(49)، وهو نفس التبرير الذي قدمته Maria Henriques المتنصرة منذ عشر سنوات(50).

ومن الأكيد أن العامل اللغوي أثر بشكل من الأشكال، وعاكس تلقين العقيدة لأولئك الغرباء. فقد كان عدد من المغاربة ينسى بسرعة ما يلقن له، كما تؤكد ذلك عدة محاضر. واضطر الرهبان المكلفون بهذه المهمة إلى الاعتراف بذلك عدة مرات، رغم ما بذلوه من مجهود مع بعض من أحيل عليهم من المعتقلين. فالمدعو Fernando، الموجود في حالة أسر منذ 1521، والمحاكم سنة 1550، لم يحفظ خلال مقامه بسجن محكمة التفتيش إلا صلاتين، الأمر الذي دفع الراهب المشرف على تعليمه إلى مكاتبة المحكمة بأنه «يبدو من ذاكرته واستعداده، أنه لن يحفظ الصلوات المتبقية إلا بصعوبة كبرى»(51). كما اضطرت المحكمة إلى إطلاق سراح بعض المتهمين مع أنهم لم يحفظوا بسجنها ولو صلاة واحدة(52). كما كان المسمى António Fernandez ينسى

(46) Inq. Lix.Proc. n° 6471 fol. 7 r°.
(47) Inq. Lix.Proc. n° 8425 fol.12 r°.
(48) راجع مثلا :
Inq. Lix. Proc. n° 12487 fol.11 r°; n° 1024 fol.12 v°; n° 565 fol.7 r°; Inq. Evora, Proc. n° 4250 fol. 5 r°; n° 9177 fol. 5 r° etc.
(49) Inq. Evora, Proc. n° 5155 fol.4 r°.
(50) Inq. Lix. Proc. n° 3190 fol.4 r°.
(51) Inq. Lix. Proc. n° 1636 fol.47 r°.
(52) Inq. Lix. Proc. n° 6729 fol.14 r°.

بسرعة كل ما كان حراس السجن يعلمونه(53). وقد اضطر الملقنون أحيانا إلى إعطاء الترجمة العربية لتلك الصلوات لتسهيل حفظها(54).

كما أرجع المغاربة جهلهم للعقيدة المسيحية إلى ظروف عيشهم الصعبة التي لا تترك لهم الوقت الكافي للتفكير في الأمور الدينية. فقد برر Gonçalo جهله للعقيدة، رغم أنه متنصر منذ سبع وثلاثين سنة، لكونه كان يعيش باستمرار بالجبل حيث كان يرعى المواشي(55). كما حاول حمال إعطاء نفس التبرير مبينا أن تنقله المستمر بدوابه لم يكن يترك له ما يكفي من الوقت للعبادة(56). وأوضحت المدعوة Britiz Fernandez بأنها لم تكن تستطيع حفظ الصلوات «التي كانت تنساها بسرعة لشدة تعبها وكثرة عملها»(57).

كما حاول المتهمون إرجاع جهلهم إلى المجتمع المسيحي الذي لم يقم بما كان منتظرا منه، ولم يعر تعليم العقيدة للمسيحيين الجدد إلا اهتماما محدودا. فقد أشارت مغربية إلى أن سيدها لم يعلمها خلال أسرها أي شيء، وأنها بعد استرجاع حريتها لم تجد من يهتم بها(58). وقد أكد المغاربة وباقي الأجانب خلال محاكماتهم على تجاهل أسيادهم للأمور الدينية، واهتمامهم فقط بتشغيلهم(59). فقد حمّل المدعو Afonso Fernandez المجتمع البرتغالي كله مسؤولية جهل المتنصرين لدينهم الجديد لعدم الاهتمام بهم، ولتركهم إياهم يعيشون مسلمين كما كانوا من قبل(60).

ويتجلى عدم اهتمام البرتغاليين بحديثي العهد بالمسيحية في الجهل الذي كان عليه أسرى بعض الرهبان، والذين كان بعضهم جاهلا لكل ما يتعلق بالعقيدة، ولم يسبق له أن توصل بالقربان المقدس(61). فقد كان Francisco Faneira الذي دفعه سيده، وكان

(53) Inq. Lix. Proc. n° 10864 fol.8 r°;
راجع كذلك حالة المسماة: Lianor Cabalyna.
Inq. Lix.Proc. n° 7693, fol. 7 r°
(54) Inq. Lix. Proc. n° 13187 fol.21 r° - v°.
(55) Inq. Lix. Proc. n° 12487 fol.21 r° - v°.
(56) Inq. Lix. Proc. n° 6471 fol. 7 r° et 3 v°.
(57) Inq. Lix. Proc. n° 1104 fol. 7 r°.
(58) Inq. Lix. Proc. n° 12689 fol.6 r°.
(59) Inq. Lix. Proc. n° 11554 fol.4 v°; n° 9278 fol.4 v°; n° 12720 fol.29 r°; n° 12383 fol. 5 r°; n° 10824 fol.11 r°. Inq. Evora Proc.n° 9193 fol.3 etc.
(60) Inq. Lix. Proc. n° 7457 fol.7 v°.
وكذا: Proc. n° 4043 fol.50 r°.
(61) Inq. Evora, Proc. n° 9193 fol.3 r°;
وكذا: Proc. n° 1104 fol.7 r°.

راهبا، للتنصر، جاهلا لكل ما يتعلق بالمسيحية خلال محاكمته(62). وأشار اللاجئ Francisco de Barros خلال محاكمته أنه أحيل بعد دخوله البرتغال على بيت أسقف «الغرب»، وأنه خلال الثلاثة أشهر التي قضاها بالبرتغال، لم يسمح له أبدا بالذهاب إلى الكنيسة، وأنه كان كلما حاول ذلك يوبخ بعنف، لذا كان يوم محاكمته بتهمة محاولة الفرار إلى المغرب لا يحفظ أية صلاة(63). ونبه أسرى آخرون القضاة إلى أنهم لم يتوصلوا قط بالقربان المقدس لمعارضة أسيادهم لذلك(64).

والغريب أن بعض الأسياد الذين ضغطوا بكل قواهم على عبيدهم وأسراهم ليتنصروا، لم يعيروا ذلك أي اهتمام، ولم يخصوهم بعناية تذكر، وربما أضحوا - إن صحت أقوال أولئك الأسرى - يسيؤون معاملتهم أكثر مما كانوا عليه من قبل. فبعد أن تنصر التركي Lourenço طمعا في الحرية التي وعد بها، أرسل إلى أوراش البناء للعمل إلى جانب الأسرى المسلمين. وبالطبع لم يتأخر في نسيان ردته، وسرعان ما تورط في محاولة فرار مع مسلمين إلى المغرب(65). وحمل تركي آخر مسؤولية جهله للعقيدة لسيده الذي لم يعر أي اهتمام لردته، ولكونه بعثه للعمل بأوراش البناء إلى جانب أسرى الملك، حيث كان يعمل مثلهم مثقلا بالأصفاد، الأمر الذي جعله عرضة لسخرية الآخرين. وقد أشار إلى أنه تبعا لذلك، «عاد لدين المسلمين لشدة غيظه»(66). ويمكن ذكر حالة أكثر غرابة. فبما أن الملك البرتغالي وعد الأسرى المسلمين بالحرية في حالة تنصرهم، فإن الفاسي المدعو Perolonga عبر عن رغبته في ذلك، فتم إرساله إلى دير قصد تلقينه العقيدة المسيحية، إلا أن الرهبان باعوه بعد تعميده(67).

فالمجتمع المسيحي، الذي كان ينظر إلى الردة كغاية في حد ذاتها، والذي كانت شرائح عريضة منه تجهل العقيدة المسيحية، تحمل مسوولية كبرى فيما وجدت عليه محكمة التفتيش المتنصرين من المغاربة حوالي 1550، أي بعد التنصر بمدد تراوحت بين العقدين وخمسة عقود. ويمثل المدعو João Mourisco، الذي وصل سنة 1577،

(62) Inq. Evora. Proc. n° 1474 fol.2 r°-v°.
(63) Inq. Lix. Proc. n° 2240 fol.8 r° - v°;
راجع كذلك ما وقع للتركي: Bernaldo da Trindade الذي خدم رهبان دير الثالوث لمدة أربع سنوات: Proc. n° 5152 fol.8 v°.
(64) Inq. Lix. Proc. n° 6223 fol.18 v°.
(65) Inq. Lix. Proc. n° 10712 fol.3 v°- 4 v°, 5 r°, 6 r°, 7 r° - 8 v° etc;
(66) Inq. Lix. Proc. n°10712 fol. 3-7.
(67) Inq. Lix. Proc. n° 1623 fol.8 v°.

وحوكم خلال السنة التالية، أحسن نموذج عما يمكن الوصول إليه مع المتنصرين. فقد استطاع خلال محاكمته الجواب بسهولة عن كل الأسئلة المتعلقة بالعقيدة والصلوات(68).

وهكذا اضطرت السلطات الدينية والمدنية إلى اتخاذ ما يلزم من إجراءات. فقد أمرت محكمة التفتيش بتلقين العقيدة لكل المورسكيين الأحرار(69). وأصبح من اللازم على كل راغب في التنصر الإقامة في دير لتعلم الصلوات(70). كما أصبح الملك والملكة وكبار الدولة يولون أهمية خاصة لردة بعض الأشخاص ويشرفون عليها(71). وكلفت محكمة التفتيش حراس السجون بتلقين الصلوات لمن كانوا تحت مراقبتهم(72). وأصبح تسريح المسجونين مرتبطا بمدى حفظهم للصلوات، بحيث أصبح الرهبان المكلفون بتلك المهمة يرفعون، بعد 1550 على الأقل، تقريرا إلى القضاة عن كل واحد من السجناء الموكولين إليهم(73).

ويمكن تصنيف المغاربة الذين كانوا بعد 1550 على معرفة بالعقيدة الكاثوليكية إلى ثلاث مجموعات:

1 - كانت الأولى تضم الذين دخلوا البلاد قبل 1530، والذين استطاعوا بمجهودهم الشخصي أو بمساعدة برتغاليين حفظ الصلوات. وكان منهم من كانت معرفته تفوق معرفة بعض المسيحيين الأقحاح(74). إلا أنهم كانوا أقلية بالنسبة لمجموع أفراد الجالية.

---

(68) Inq. Evora, Proc. n° 7643 fol.16 r° - 17 r°.

(69) Inq. Lix. Proc. n° 1104 fol.7 r°; n° 10864 fol.8 r°.

(70) Inq. Lix. Proc. n° 1623 fol.8 r°; n° 12875 fol.7 r°. - v° n° 4026 fol.7 v°, n° 8346 fol.40 r°; n° 12626 fol.5 v° - 6 r°; Inq. Evora, Proc. n° 7643 fol.19.r°

(71) Inq. Lix. Proc. n° 167 fol.34 r°, 39 v°; n° 10379 fol.5 v°; n° 4118 fol.9 r°.

(72) Inq. Lix. roc n° 1084 fol.8 r°; n° 6787 fol.6 r° ; 3565 fol. 5 v°, 6 r°; Inq Evora, Proc. n° 7853 fol.31 r°.

(73) انظر على سبيل المثال : Inq. Lix. Proc. n° 4116 fol.20 r°; n° 7692 fol.21 r° etc.

(74) سبقت لنا في فصل سابق الإشارة إلى جهل المسيحيين الأقحاح لعقيدتهم وبالنسبة للمغاربة المرتدين الذين استطاعوا قراءة الصلوات الإجابة على أسئلة المحققين، راجع : Inq. Lix.Proc.n° 263, fol.2 v°; n° 7245, fol.7 v°; Evora, Proc.n° 5245, fol.8 r°; n° 11323, fol.2v°

2 – وكانت المجموعة الثانية تضم أبناء هؤلاء الذين ازدادوا بالبرتغال، والذين كانوا موضوع عناية خاصة. لذا كانوا يحفظون عن ظهر قلب تلك الصلوات، وكانوا يلقنونها أحيانا لآبائهم(75).

3– أما المجموعة الثالثة فتضم اللاجئين الذين سبقت الإشارة إليهم. وقد كان على هؤلاء تعلم العقيدة وحفظ الصلوات قبل التوصل بماء المعمودية. فقد أمضى المغربي المدعو João سنة بدير بيابرة، الأمر الذي جعل منه شخصا «متمكنا في أمور الدين»(76). وكانت النتائج المحصل عليها مع مغربي آخر مشابهة، خصوصا وأنه لم يتنصر إلا منذ سبعة أشهر(77). كما أن المسمى Bastião Coresma، المتنصر في عيد الفصح، كان في شهر شتنبر قد تمكن مما لقن له بأحد أديرة لشبونة.(78). ويمكن ذكر أمثلة أخرى عن أشخاص لقنوا الصلوات والعقيدة قبل توصلهم بماء المعمودية، الأمر الذي لم يكن معمولا به من قبل(79).

وهكذا كان الأشخاص الذين وصلوا خلال العقود الأولى من القرن أقل معرفة بالعقيدة المسيحية ممن وصلوا بعد 1550.

ومن الأكيد أن معرفة الصلوات لا تعكس القناعات الدينية للمتنصرين. وينطبق نفس الحكم على اعترافات المتهمين وتصريحاتهم أمام المحققين، لأن تلك الاعترافات لم تكن بدورها، وكما سنبين ذلك فيما بعد، تعكس قناعات المتهم. وهنا تكمن صعوبة اعتماد مصادر لا تورد إلا ما راج داخل المحكمة، أي ما يعكس تصور المحققين وما كانوا ينتظرونه من المتهمين، و«اعترافات» هؤلاء التي كان من المفروض عليهم، تفاديا لحكم قاس ومدة اعتقال طويلة، أن تنصب –كما سنبين– في نفس تصور القضاة. ومع ذلك، وعلى الرغم من عيوب تلك المصادر، يمكننا أن نؤكد على ضوء ما وصلنا عبرها من أحاديث دارت بين المغاربة، ومن فلتات اللسان التي بلّغ عنها، أنهم لم يأخذوا ردتهم مأخذ الجد، وأنهم كانوا يعتبرون أنها لا تلزمهم في شيء. فقد حثت

(75) راجع مثلا : Inq. Lix. Proc. n° 12067 fol.16 v° ; n° 9236 fol.9 v°; n° 9670 fol.6 r°. Inq. Evora, Proc. n° 7891 fol.16 v°.

(76) Inq. Evora, Proc. n° 7643 fol.5 r°, 19 r°.

(77) Inq. Lix. Proc. n° 4026 fol.7 v°.

(78) Inq. Lix. Proc. n° 8346 fol.40 r°.

(79) Inq. Lix. Proc. n° 12626 fol.5 v° - 6 r°; n° 12875 fol.7 r° - v°; n° 4184 fol.6 v°; n° 3932 fol.1 r°; Inq. Evora, Proc. n° 7643 fol. 5 r°; 19 r°.

مغربية هنديا على التنصر طالما أن الأمر شكلي ولا يترتب عليه أي شيء: «تنصر، فكل ما في الأمر أنهم سيضعون بعض الملح في فمك، وسيرُشّون رأسك بشيء من الماء، وسيعطونك الإسم الذي ستختاره»(80).

ويتعذر علينا حصر الإشارات الواردة بالمصادر، لكثرتها، عن تمسك المغاربة المتنصرين بدينهم الإسلامي. فحسب تبليغ توصلت به محكمة لشبونة، كان كل الموركسيين مسلمين(81). وأكد تبليغ آخر للمحققين أنه «يستحيل أن يصبح من كان مسلما مسيحيا صادقا»(82). وتجدر الإشارة إلى أن التبليغات السابقة وردت على لسان موركسيين، الأمر الذي يعطيها دلالة خاصة، ومصداقية أكبر.

لم تكن الردة تمثل بالنسبة للمغاربة غاية في حد ذاتها، وتجسيدا لقناعة دينية جعلتهم يفضلون المسيحية على دينهم الأصلي. لقد كانوا يتوخون منها غايات دنيوية معينة، سنعود إليها. وبما أن الرقابة كانت صارمة عليهم، فقد كان عليهم الظهور بمظهر المسيحيين الصادقين. فإذا كان Cristovão Fernandez يتردد على الكنائس، فذلك لـ: «القيام بالواجب» (por compryr)، ولكي يعتبره الآخرون مسيحيا(83). وقد اعترف آخرون بنفس العمل(84)، في حين طلب آخرون من المحققين إعادة تعميدهم(85)!

ففي ميدان القناعات الدينية، اضطر المغاربة، بسبب ضغوط سبقت الإشارة إليها، إلى التنصر أولا، ثم إلى تبني ازدواج الشخصية ثانيا: لقد كانوا ملزمين بإظهار مواقف وتصرفات دينية لم يكونوا يؤمنون بجدواها، وإلى إخفاء أخرى كانوا متمسكين بها. لذا كانوا يذكّرون بين الفينة والأخرى بإسلامهم وبتمسكهم اللامشروط به، ويبررون تصرفاتهم المسيحية بالخوف والإكراه. فبعد أن رأت مغربية راهبا عاد على الفور من المغرب - حيث كان أسيرا - صحبة لاجيء مغربي، واعتقدت أنه من مواطنيها لكونه كان يرتدي لباسا مغربيا، نصحته بالتمسك بإسلامه، والامتناع عن الردة، واعترفت له بأنها «مسيحية شكلا، ومسلمة قلبا»(86).

(80) Inq. Evora, Proc. n° 5203 fol.14 v°.
(81) Inq. Evora, Proc. n° 10769 fol.6 r°.
(82) Inq. Lix. Proc. n° 8062 fol.13 r°.
(83) Inq. Lix. Proc. n° 3990 fol.19 r°.
(84) Inq. Lix. Proc. n° 1588 fol.9 r°.
(85) Inq. Evora, Proc. n° 8062 fol.22 v°.
(86) Inq. Evora, Proc. n° 8383 fol.1 r°.
وكذا: Inq.Lix. Proc. n° 10860 fol.16 v°.

وبما أن المتنصرين كانوا مضطرين إلى إخفاء تمسكهم بالإسلام، فإنهم كانوا يُشهدون الله على ما بقلوبهم، وعلى إيمانهم الصادق بدينهم الأصلي. فحينما عجز مغربي عن إقناع مخاطبه بتمسكه بالإسلام، قال له: « حتى وإن كنت مسيحيا معمّدا، فإن الله يعلم ما في قلبي»(87).

وتتجلى هذه الازدواجية كذلك من خلال التصرفات الدينية للمتنصرين. فبما أنهم كانوا ملزمين بالتردد على الكنائس، فإن بعضهم كان يشعر بالتقزز من دخولها، في حين كان آخرون، لجهلهم الصلوات المسيحية أو لرفضهم تلاوتها، يرددون عوضا عنها أخرى إسلامية. فقد اعترفت المدعوة Felipa Lopes أنها اعتادت أن تقول كلما قُدم لها القربان المقدس: «باسم الله الرحمن الرحيم، وأن تتوسل إلى الله الكبير» (alla quebir)(88). ومن الأكيد أنها لم تكن الوحيدة التي قامت بمثل هذا العمل(89). كما حول غيرهم بعض الطقوس المسيحية إلى أخرى إسلامية. فحينما قرر متنصرو مدينة يابرة زيارة Notre Dame de Tourega، تصرفوا خلال الذهاب والإياب كما لو كانوا غير متنصرين(90).

وقد نتجت هذه المواقف المزدوجة عن قناعة راسخة لدى من أكرهتهم ظروف الغربة على التنصر. لم يكن يخامرهم أدنى شك في سمو الإسلام على المسيحية، وفي كونه الدين الصحيح، وأنه دين البشرية جمعاء منذ بعث الرسول عليه السلام(91).

إلا أنه لم يكن باستطاعة كل المغرّبين مقارنة الديانتين، ومجادلة المسيحيين نظرا لمستواهم الثقافي المنحط، ولكون أغلبهم من الرحل. وقد نتج عن الردة وإحداث محكمة التفتيش بالبرتغال، خلق نوع من البلبلة عند أغلبهم، وعجزهم عن التصرف بشكل يحفظ لهم ارتباطهم بعقيدتهم ويحول في نفس الوقت دون اعتقالهم(92). إلا أن كل من خامره شك ما، وتسرب إليه التردد، اعترف بأنه كان يشعر بميل أكثر نحو الإسلام(93).

---

(87) Inq. Lix. Proc. n° 10832 fol.2 v°.
(88) Inq. Lix. Proc. n° 7246 fol.9 v°.
(89) Inq. Lix. Proc. n° 6405 fol.14 r°.
(90) Inq. Evora, Proc. n° 5174, fol. 12 v° et s.s; n° 6462, fol. 16 r°, etc.
(91) Inq. Evora, Proc. n° 11468 fol.5 v° et n° 7917 fol.13 v°.
(92) Inq. Lix. Proc. n° 11645 fol.3 r°.
(93) Inq. Lix. Proc. n° 12108 fol.9 v°; n° 13187 fol.9 v°

وتأثر موقف المغاربة المتنصرين من المسيحية بثلاثة عوامل :

لقد فرضت ظروف العيش بالبرتغال على المغرّبين اتخاذ موقف نفعي من الردة، واعتبار الإيجابيات والسلبيات التي تنتج عنها. لم تكن مغربية تتوقف عن القول بأن الله لم يعد يرعاها منذ أن تنصرت(94). ويتجلى هذا التصور للردة كذلك في الحديث الذي دار بين مغربية وشابة ولدت بالبرتغال من أبوين مغربيين. فبما أن هذه الأخيرة اشتكت من كون أمها لم تزوجها بعد لكونها ما تزال صغيرة ولفقرها، فإن مخاطبتها أعطتها النصيحة التالية لتتمكن من الزواج بسرعة: «عليها أن تؤمن بالدين الإسلامي، وأن تصوم وترتدي قميصا نظيفا يوم الجمعة، وآنذاك ستتزوج بسرعة»(95).

وتؤكد مصادر محاكم التفتيش أن المغاربة ندموا ندما شديدا على ردتهم، وأنهم كانوا على يقين من عواقبها السيئة. فهي لن تنفعهم في الآخرة طالما أن الجحيم سيكون لليهود والمسيحيين وللمسلمين غير الصادقين في إسلامهم، هذا فضلا عن أن الردة المذكورة تفرض عليهم في الحياة الدنيا الأعمال الشاقة وظروف العيش الصعبة، وتحرمهم من إمكانية تحرير أنفسهم والعودة إلى وطنهم، وتعرضهم كذلك لمطاردة المحققين الذين يتهمونهم بالتمسك بدينهم الأصلي(96). لذا تشكل ذلك التصور للدين المرتبط بمسقط الرأس، وبظروف العيش التي يسمح بها، والذي سبق لنا التلميح إليه.

وانعكس الشعور بالغربة والحنين إلى مسقط الرأس على قناعة الغرباء الدينية، وأعطاها حمولة إقليمية وعنصرية أحيانا. لقد أصبح الله والدين والوطن يمثلون في خطاب المغربين وحدة لا تتجزأ. فسمو «إله بلاد المسلمين» كان يبرهن عليه بغنى تلك الأرض، وما توفره من رخاء. لذا كان ذكر الأرض يرد قبل الدين في خطاب المغربين(97).

أما العامل الثالث، فتمثل في نوعية العلاقة بين المغربين والمجتمع البرتغالي. لقد تولد عن تلك العلاقة، التي قلما كانت ودية، تصور عنصري للدين. لقد أضحت

(94) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, IV fol.230 r°.
(95) Inq. Lix. Proc. n° 11129 fol.19 r°.
(96) Inq. Lix. Proc. n° 6426 fol.4 v°.
(97) Inq. Lix. Proc.n° 12639, fol.9 r°; n°2970, fol.4 v°, **Liv. denúncias**, III, fol. 16 v°, n° 7457, fol.3 v°; etc.

المسيحية بالنسبة لتلك الأقلية المهمشة بسبب أصلها ولونها، دين «البيض» فقط. وسنرى كيف تمخض عن ذلك التصور خطاب ثنائي عن الله. وقد ذهب هندي مسلم أبعد من هذا، إذ رفض الإيمان بتضحية السيد المسيح لإنقاذ البشرية، كما يدعي المسيحيون، وأكد أنه ما فعل ذلك إلا من أجل «البيض» (Brancos)(98).

ويمكننا، من الآن، أن نتوقع على ضوء ما سبقت الإشارة إليه، قلة الاعتبار الذي خص بها المغاربة المتنصرون المسيحية. وبما أنهم كانوا متيقنين من سمو الإسلام، فإنهم لم يعودوا يخفون ندمهم لتنصرهم، وكانوا يفعلون ما كان في استطاعتهم لمنع من كان منهم مسلما من ارتكاب الخطأ الذي ارتكبوه. فقد وبخت المدعوة Catarina Afonso ، الموجودة بالبرتغال منذ 35 سنة، مغربيتين تنصرتا، وبكت لذلك، كما أنها اعترفت أنها ندمت كثيرا على تنصرها(99). ولم يكن بعضهم يتردد في استعمال العنف مع من رفض الاستماع إليهم، واتباع نصائحهم(100). وقد تجرأ أحدهم وهدد لاجئا سياسيا دخل البرتغال سنة 1550 بسيف، في أحد شوارع لشبونة، لكونه تنصر(101).

وبرر المغاربة موقفهم هذا من المسيحية بما اعتبروه نقط ضعف في ذلك الدين. ووجهت الانتقادات على الخصوص لمبدأ الثالوث المقدس، ولتصور المسيحيين لشخص السيد المسيح، وللقربان المقدس والكنائس، والصور والتماثيل...

غير أن الجالية المغربية، المكونة أساسا من رحل، كانت عاجزة عن الدخول، كما تم بإسبانيا، في جدل ديني مع الأغلبية المسيحية(102).

فبما أنهم كانوا يجهلون كل شيء تقريبا عن المسيحية، وبما أن معرفتهم بالإسلام لم تكن معمقة، فإن بعض أقوالهم تعارضت كما سنرى مع أمور تبناها الإسلام وآمن بها.

وبالطبع، لم يجرؤ المغاربة على انتقاد المسيحية بمحضر البرتغاليين، وعبروا عن الانتقادات التي وصلتنا أصداؤها بمحضر مواطنين لهم أو موريسكيين. إلا أن

(98) Inq. Lix. Proc. n° 6223 fol.7 v°.
(99) Inq. Lix. Proc. n° 9278 fol.13 v°.
(100) Inq. Evora, Proc. n° 11554 fol.5 r° - v°.
(101) Inq. Lix. Proc. n° 1636 fol.13 v°.
(102) L. Cardaillac, **Morisques**...*Op.cit.*

الظروف والأماكن التي تمت فيها تلك الانتقادات معبرة في حد ذاتها، ذلك أنها تمثلت أحيانا في سجن المحكمة، أو في الدير الذي أحيلوا عليه بعد النطق بالحكم ليلقنوا العقيدة المسيحية. وكان من المغربين من تجرأ على الجهر برأيه والإعلان عن انتقاداته. فقد دار بين المغربي المسمى Francisco Machado وبعض سكان جزيرة من أرخبيل الأصور جدل حاد. لقد بُلغ عنه لدى المحققين الذين زاروا تلك الجزيرة لكونه لم يكن يتوقف عن تشويه إله المسيحيين، مؤكدا أنه مجرد قطعة خبز، وأن الاله الحقيقي موجود بالسماء. وحينما حاولت برتغالية اطلاعه على سر تقديس الصليب والقربان المقدس، أجابها بأن ذلك تصرف وثني محض، وأن «الله في السماء». ولما تدخلت برتغالية أخرى وأشارت إلى أن الله يوجد كذلك بالكنائس، لم يقتنع صاحبنا واستمر في القول بأن ذلك مجرد كلام فارغ، وبأن المسيحيين يقدسون أولياء من الخشب(103). وواجه المدعو João de Verde سكان جزيرة Terceira بالأصور بنفس الجرأة(104). وعبر تونسي عن نفس الرأي بمحضر برتغالي، إذ تجرأ على اعتبار إله النصارى كذبا، ونفى أن يكون السيد المسيح إلها، ونص على أن إله المسلمين مخالف لإله النصارى(105).

غير أن مثل هذه التصرفات كانت قليلة ومعزولة، نظرا لما كان يتولد عنها من عواقب. لذا لم تكن تلك الانتقادات تتجاوز محيط المغاربة وباقي الموروسكيين، وإن كانت لا تتأخر في الوصول إلى مسامع المحققين. وكانت النقطة التي استأثرت باهتمامهم تخص صفات الله ومبدأ الثالوث.

لقد نتج عن تنصر المغربي السطحي، وعن ارتباطه بهويته الثقافية، وعن رغبته في الانتقام من المسيحيين، تصور ثنائي لصفات الله. لذا كانوا، كلما تحدثوا عن الله، يقارنون بين إلهين مختلفين في رأيهم:

الأول متعال، خالق الإنسان ولا يمكن أن يشبهه، لم يلد ولم يولد، ولم يعش قط بين البشر(106). وتتكرر كثيرا بمحاضر المحاكمات فكرة ذلك الإله الجبار القاهر فوق عباده. وكانت هذه الفكرة تمثل الحجة الرئسية لرفض مبدأ الثالوث وألوهيه السيد

(103) Inq. Lix. Proc. n° 2257 fol.4-5.
(104) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, I, fol.89 v°.
(105) Inq. Evora, Proc. n° 6085 fol.4 r°.
(106) Inq. Lix. Proc. n° 4031 fol.8 r° - v° ; n° 10832 fol.2 r°.

المسيح(107). لقد كان المغاربة يؤكدون على فرق مهم بين إلههم وإلـه النصارى، يتمثل في القوة والجبروت. فقد كانت دكالية ترفض بكل سذاجة الإيمان بإلـه المسيحيين لأنه في رأيها عاجـز عن معاقبة الذين يقسمون بالله وهم كاذبـون، الأمر الذي لا يمكن إلا أن ينتج عنه عقاب فوري من إلـه بلدها، يتجلى في كسر أحد الأطراف(108).

أما الإلـه الثاني، وهو إلـه النصارى، فكان بشرا لا يستحق أي تقدير.

والجدير بالذكر أن المغاربة، بتأكيدهم على وحدانية الله لدحض مبدأ الثالوث، انتهوا إلى حصر إلـه النصارى في شخص السيد المسيح، أو الأشياء التي ترمز إليه كالقربان أو الصليب. لذا رفضوا اعتبار السيد المسيح إلـها. فقد كان المدعو Diogo Fernandes متأكدا من وجود إلـه واحد، بالسموات، وأن السيد المسيح مجرد بشر(109). ولرفض ألوهية السيد المسيح، اعتمدوا حجتين: وحدانية الله التي لا تناقش وقدمه من جهة، واستحالة تمثيله من جهة ثانية. ونظرا لاقتناعهم بقدم الله ودوامه، فقد رفضوا ألوهية السيد المسيح، الذي لم يخلق – كما نبهوا على ذلك –، إلا منذ ستة عشر قرنا، وهي مدة قصيرة جدا بالنسبة لتاريخ الكون(110).

وبإلحاحهم على الصفات البشرية للسيد المسيح، سلم المغاربة بفكرةالحبل بلا دنس، إلا أنهم رفضوا فكرة «آلام السيد المسيح»، «الإلـه والإنسان». فبعد أن سمع مغربي كان بسجن المحكمة سجناء الجناح الآخر يرددون صلاة Salve Regina، ضحك استهزاء وقال لمغربي آخر: «لقد مات إلـههم، وهاهم يبكونه». واقترح عليه مخاطبه مقارنة بين إلـه النصارى، وإلـه المسلمين ليؤكد له بالطبع ضلال المسيحيين: إذا ما مات إله النصارى، «فإنهم يصنعون في اليوم الموالي غيره من الخشب أو الحديد أو الخبز»، وأضاف أنه في حالة ما إذا مات إلـه المسلمين (كذا)، فإنهم يكونون عاجزين عن تعويضه بآخر(111)! ويلاحظ أن المقارنة أوقعت المتحدث في خطإ فادح.

لم يحظ تمثيل السيد المسيح بتقدير واعتبار المغاربة، ولم يؤمنوا بجدوى القربان. ويبدو أن ذلك الطقس، وما كان يمثله بالنسبة للمسيحيين، جعل المسلمين يعتبرون

(107) Inq. Lix. Proc. n° 12383 fol.11 r°
(108) Inq. Lix. Proc. n° 4497 fol.7.
(109) Inq. Lix. Proc. n° 12383 fol. 11 r°; n° 1588 fol. 9 r°. Inq. Evora, Proc. n° 5178 fol. 6 r°.
(110) Inq. Evora, Proc. n° 7853 fol.6 r°.
(111) Inq. Lix. Proc. n° 3590 fol.35 r°.

الدين المسـيحي باطلا، ولا يخضــع لأي منـطق. لقد اعـترف المدعو Francisco Lopes أنـه لم يؤمــن قط بأن الله يوجد بـالقربان الذي كان الراهب يـقدمه له(112). كما أسر مغـربي لآخر، بـالدير الذي كـان يتعـلم به الـعقيـدة بعد مـحاكمتـه، بأنه لـم يكن يـؤمن بالدلالة التي كان الراهب المكلف بتلقينه العقـيدة يعطيها للقربان المقدس. فهو لا يعتبره إلا مجرد خـبز وخمر، وأنــه «كان يأكل الخبـز ويشرب الخمر، ولـم يكن يؤمـن قط بما كان يدعيه الراهب»(113). وبلغ إلى مسـامع المحققين أن ذلك المغربي قال مـرة، حيمنا شاهد الراهب يغطي الصليب: «لقد مات إلهكم، إنه يغطيه»(114).

وحسـب المحاضر التـي اعتمدنـاها، لم يكـن كل المغـاربة يؤمنـون بأن خمر وخـبز القربان يمثـلان «جسم السيد المسيـح الحقيقي»(115). لقد كـانوا متيـقنين بأن اللـه «في السماوات العليا لا بذلك القربان المقدس»(116).

ولم يخـص المغاربة كذلـك تماثيل ورموز السـيد المسيح بـأي اعتبار، إذ اعتـبروها مجرد أشياء من صنع البشر. لقد كان المدعو João Barreto يلح على أن إله النصارى لا يعدو كونه أشياء مصـنوعة من الخشب أو مرسومة على القماش. لـذا كان يقول، كلما شاهد جنازة، بأن الميت ذاهب توا نحو جهنم(117).

وكـان المغـاربة يـسخـرون من تـقديـس المسـيحـيين لـلصـليـب. فقـد اتهـم أحدهـم بالاستهزاء ممن ينزعون قبعاتهم أمام كل صليب يمرون أمامه، مدعيا أنه لا يحق لهم تقديس «قطعة من خشـب، وأن الأحق والأولى بذلك هو رب السماوات»(118). ونظم آخر قـصيـدة بالـعربـية كـان يردد فـيها بـأن النـصارى يـعبـدون قطـعة خـشب ملـوي ومسوّس(119). ويتـجلـى كذلـك هذا التـصور لإلـه النـصارى، الذي حـصر فـي قطـعة خشب لا تستحق أي اعتبار، في النقاش الذي دار بالأصور بين المغربي João de Verde

(112) Inq. Lix. Proc. n° 2263 fol.20 r°. n° 3564 fol.9 r°.
(113) Inq. Lix. Proc. n° 172 fol.11 v°.
(114) *Ibid.*, Loc cit., n°5831, fol.2r°.
(115) Inq. Evora, Proc. n° 6350 fol.26 v°; n°8055 fol.7 v°; n° 7917 fol. 3 v° ; n° 4497 fol.9 v°.; Inq. Lix. Proc. n° 3564 fol.9 r°; n° 172 fol.11 v°; n° 10831 fol.3 r° - v°; n° 2263 fol.20 r°; 6405 fol.14 r°; n° 2257 fol.3 v°; Inq. Evora, Proc. n°10824 fol. 5 r°; n° 4497 fol.9 v° ; n° 4250 fol.15 r° ; n° 1265 fol.3 r° etc.
(116) Inq.Lix.Proc.n°6405, fol.14r°; n°2257, fol.3 v°.
(117) Inq.Lix.Proc. n° 12639, fol.3 v°.
(118) Inq. Evora, Proc. n° 8859 fol.8 v°; وكذا: n° 5203 fol.13 v°
(119) Inq.Evora.Proc.n°5174, fol.14 v°.

السابق الذكر، وبرتغالية. فبما أنه هدد النصارى بالانتقام منهم بعد إنزال قوات خير الدين برباروس الذي كان يتوقعه، فإن مخاطبته ردت عليه بأن عناية الله كبيرة، وأنها لن تسمح بذلك. إلا أنه أضاف بأن الإله الذي تنتظر منه تلك العناية عاجز حتى عن القيام بما تفعله المعزة التي «تعطي الحليب والجبن والوبر الذي تنسج منه الأغطية، واللحم التي تؤكل، والجلد الذي تصنع منه الأحذية»(120)! وكان مغربي آخر يردد لسكان إحدى جزر الأصور بأن إلههم وهم، ومجرد قطعة خبز، وأن الله الحق في السماوات(121).

وهكذا أصبح المغاربة، وكل الموريسكيين، يميزون في كل مناسبة، بين إلههم وإله النصارى. ولتفادي كل خلط بين هذا وذاك، اعتادوا تمييز إلههم باستعمال لفظ «الله» حتى ولو كانوا يتحدثون بالبرتغالية، أو بالدلالة عليه بـ «إله بلاد المسلمين»(122). فبما أن المدعوة Maria Henriques وُبخت لتوسلها بالعربية إلى الله، فإنها ردت على ذلك بقولها: إن «الله (allee) هو إله بلادنا»(123).

ونقف على مواقف مشابهة لدى باقي الموريسكيين. فقد كان تونسي متنصر يردد بأنه لا يؤمن إلا «بالإله القديم، إله المسلمين»(124). وكان سوداني يعتبر المسيحيين وثنيين يصنعون آلهة من الخشب ليخلعوا بعد ذلك قبعاتهم أمامها تعبيرا منهم على تقديسهم لها. وقد ذكر لسوداني آخر أنه لا يوجد في الحقيقة إلا إله واحد، بالسماوات، وأن الديانة الوحيدة الحقيقية هي دين محمد(125). و اعترف هذا المتهم أنه تعلم ذلك من الحمالين المغاربة بسوق حبوب لشبونة. وللتقليل من قيمة السيد المسيح، روى القصة التالية التي يغلب عليها الخيال : فقد ذكر أن السيد المسيح كان مجرد خادم للرسول (صلعم)، وأن هذا الأخير طلب من الله وقت احتضاره أن يبعث المسيح إلى «البيض» ليضلهم(126).

وحوكم مغاربة آخرون لرفضهم تصديق عذرية السيدة مريم قبل وبعد وضعها. فقد كانت الدكالية Margarida ترفض تصديق ذلك وتبرره بفقدان الحيوانات والنساء

(120) Inq. Lix. **Liv.denúncias**, I, fol.89 v°.
(121) Inq. Lix. Proc. n° 2257 fol.2 r°.
(122) Inq. Lix. Proc. n° 3182 fol.6 r°; 708 fol.4 v°; **Liv. denúncias**, III fol.119 r°.
(123) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, III fol.119 r°.
(124) Inq. Evora, Proc. n° 6085 fol.6 v°.
(125) Inq. Lix. Proc. n° 4031 fol.6 r°.
(126) *Ibid.*, fol.9 v°.

للبكارة بعد الوضع(127). وكانت تخامر المدعو Cosme Gonçalves نفس الشكوك. فقد رفض الاقتناع بذلك رغم أن مخاطبه البرتغالي ألح على أنه يندرج ضمن الخوارق، وبرره بالقدرة الإلهية(128). ويلاحظ أن هذه المواقف مخالفة لما ورد بالقرآن الكريم، وأنها تعكس مستوى ثقافيا منحطا لدى جل أفراد الجالية المغربية. وبما أن المغاربة رفضوا مبدأ «العذرية» بعد الوضع، فإنهم جعلوا منه موضوع قذف وشتم استهدف السيدة مريم(129).

وكانت الكنائس وباقي وسائل العبادة موضوع سخرية الجالية التي تهمنا.

لقد كان المغاربة يلحون على أن «المسلمين، كلما دخلوا مساجدهم، خلعوا أحذيتهم، وتوضأوا»، في حين أن النصارى يدخلون كنائسهم منتعلين، دون أن يغتسلوا، وغالبا ما يكونون مصحوبين بكلابهم. بل أكثرمن هذا، أكد بعضهم أنهم شاهدوا مسيحيين يتبولون أو يزنون بها. كما أنهم لم يكونوا يستسيغون دخول النساء إلى أماكن العبادة والجلوس إلى جانب الرجال وهن في أبهى مظاهر الزينة(130). لذا كانوا على يقين من قدسية مساجدهم، وبالتالي من سمو الإسلام. وقد أعطى بعضهم الدليل على ذلك بقوله إن المساجد تشفي المرضى بخلاف الكنائس، ذلك أن كل من يدخلها وهو معتل أو مصاب بعاهة ما، يخرج منها معافى(131).

وكان المغاربة يعتبرون نواقيس الكنائس والتماثيل والصور التي كانت تزينها مجرد أشياء عادية لا تستحق أدنى تقديس، وكان منهم من أعتبرها دمى، و«لُعب صبيان»(132).

لم تكن المدعوة Catarina do Porto تنتظر أي منفعة من صلواتها بالكنيسة لاعتقادها بأن «كل ذلك لا يستحق أدنى اعتبار»(133). وكان المدعو João Drago، المتنصر منذ

---

(127) Inq. Coimbra, Proc. n° 10996 fol.25 v°.

(128) Inq. Lix. **Liv.denúncias**, IV fol.150 v°.

(129) Inq.Evora, Proc.n°6121, fol.4 v°; **Liv.denúncias**, IV, fol.15 r°

(130) أكد مغربي يدعى João Mourisco لأحد مواطنيه بأن الدين المسيحي «كلام فارغ، وأن الدين الصحيح هو الإسلام». وقد برهن على ذلك بقلة احترام المسيحيين لأماكن تعبدهم» إنك تجد داخل كنائس المسيحيين الرجال والنساء والكلاب مختلطين، كما تجد إلاهين مرسومين بالفحم، أما مساجد المسلمين فلا تدخلها النساء» (كذا) . راجع: Inq. Evora, Proc. n° 7643, fol. 31v°
راجع كذلك : Inq.Lix. Proc.n° 8346, fol.2 v°;Evora, Proc.n° 4497, fol.4 r°.

(131) Inq.Evora, Proc. n° 8062, fol. 2v°-3r°;n°861, fol.4v°.

(132) Inq. Lix. Proc. n° 172 fol.11 v°; n° 9520 fol.5 r°. "humas bonecas de meninos".

(133) Inq. Lix. Proc. n° 2967 fol.5 v°.

ثلاث وثلاثين سنة، يفوه، كلما دعاه سيده إلى الذهاب إلى الكنيسة، بعبارات نابية في حقه وفي حق الصلاة المسيحية(134). أما بالنسبة لـ António de Faria فإن الجنة التي ينتظرها النصارى تقتصر على الصور التي كانوا يقدسونها(135). وكان آخر يرفض الدخول إلى الكنائس للتبرك بولي من الخشب، وكان يضيف أنه ما كان ليتردد لو أنه كان سيتبرك بمحمد (صلعم)، أو أبي العباس السبتي(136). وكان آخر يردد أنه لن يؤمن أبدا بقدسية الصور والتماثيل، حتى ولو كانت من الذهب أو الفضة(137). ولم يقتصر هذا الموقف على المغاربة، بل شمل كل المسلمين المقيمين بالبرتغال. فقد كان هندي يقول بأن المسيحيين بلداء لاعتقادهم بأن صور السيدة مريم العذراء، «المصنوعة من لدن نجار، والتي صبغها صباغ»، يمكنها أن تحدث خوارق(138). لذا لم يكن المغاربة يترددون في تدنيس تلك الصور والتماثيل والصلبان كلما أمكنهم ذلك(139).

ومن جهة أخرى، لم يكن المغاربة يؤمنون بالاعتراف بخطاياهم بمحضر راهب، وكانوا يفعلون ذلك فقط لخوفهم من محكمة التفتيش(140).

وكان الصوم الإسلامي يفضل على المسيحي، لما يتطلبه من صبر ومعاناة، وامتحان للنفس. ووصلتنا مقارنة طريفة قام بها مغربي جوابا على سؤال راهب فرنسي كان يقاسمه زنزانة محكمة التفتيش : «إنكم تأكلون كلما رغبتم في ذلك، أما نحن، فإننا نمتنع عن ذلك طوال النهار بحيث لا نأكل إلا خلال الليل، ونعمل دون أن نأكل أو نشرب، وحتى لو عانينا من العطش، فإنا لا نشرب»(141). ويفهم من الكلام السابق أن هذا المغربي -الذي تنصر منذ سنة 1521 - لم يكن حين محاكمته سنة 1554 يعتبر نفسه مسيحيا.

(134) Inq. Lix. Proc. n° 9520 fol.4 v°.
(135) Inq. Lix. Proc. n° 10831 fol.36 v°.
(136) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, III fol.90 v°.
(137) Inq. Lix. Proc. n° 5085 fol.5 v°.
(138) Inq. Lix. Proc. n° 5085 fol.13 v°.
(139) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, III fol.90 v°; Inq.Evora, Proc.n° 8433, fol.7 v°;n° 8859, fol.8 v°.
(140) Inq. Lix. Proc. n°10864 fol.15 r° ; n° 708 fol.20 v°.
(141) Inq. Lix. Proc. n° 8425 fol.3 r°.
وقال مغربي آخر عدة مرات بأن الصوم الإسلامي أفضل من صوم النصارى :
Inq Evora, Proc. n° 8062, fol.2V°-3r°
لذا لم يكن المغاربة المتنصرون يصومون الأيام التي تفرضها الكنيسة كما تؤكد ذلك عدة تبليغات واعترافات :
Inq. Lix.Proc. n° 10831, fol.5 v°; n° 708, fol.17 v°;Inq.Evora, Proc.n° 9823, fol. 7 v°.

لذا لم يكن المغاربة المتنصرون يلتزمون بالصوم المسيحي، كما أن بعضهم جعل من موقفهم هذا مظهرا من مظاهر ارتباطهم بهويتهم: فإذا كانوا يمتنعون عن الصوم خلال الأيام المفروضة من لدن الكنيسة، فلأن آباءهم لم يفعلوا ذلك أبدا(142).

وتعكس المحاضر التي اعتمدناها موقفا موحدا لدى المغاربة الذين فرض عليهم التنصر: فكلما أجروا مقارنة بين الإسلام والمسيحية، خلصوا إلى أن الدين الأخير «لا يساوي شيئا، وأنه لا يوجد دين غير دين محمد، الذي هو الأفضل»، وكانوا ينهون تلك المقارنة بالتشهد لتأكيد تمسكهم بدينهم الأصلي(143). فكيف كانوا ينظرون لذلك الدين ويتدينون به؟

علينا بادئ ذي بدء أن نحدد مفهوم ذلك الدين في البرتغال خلال القرن السادس عشر، ذلك أن مصادر محكمة التفتيش تعكس جهل كل من المحكمة المذكورة وأغلب المغاربة المتنصرين للإسلام.

لقد تركت لنا مصادر محاكم التفتيش تلك الصورة الغامضة والمغلوطة في كثير من الأحيان عن الإسلام. ولأخذ فكرة عن ذلك، يمكن الرجوع إلى الأسئلة التي اعتاد القضاة طرحها على المتهمين «السلبيين» حسب تعبير كتاب الضبط، أي الذين يرفضون الاعتراف بعفوية، وذلك قصد الإيحاء لهم بنوع الاعتراف المنتظر منهم. فقد طلب من المغربي Diogo Afonso أن يعترف بكل ما قام به من أعمال، أو ما قاله من أقوال تتنافى والعقيدة المسيحية، والتبليغ بكل ما يعلمه عن الآخرين. ومزيدا في الإيضاح، حدد المحقق الإسلام في: «الصلاة والوضوء وصوم رمضان والاحتفال بعيد الأضحى، وغيرها من طقوس الدين المذكور التي قد يكون قام بها أو شاهد أحدا يقوم بها»(144). وكان الغموض يكتنف تصور المحققين للإسلام منذ إنشاء محاكم التفتيش. لم يذكر «منشور الإيمان» Edital da fé المعلن عنه بيابرة سنة 1536 من لدن المحقق العام للمملكة، من بين الفرائض إلا الصلاة والصوم، وكانت المحكمة تكتفي بالتعميم التالي: «باقي الطقوس»(145). وتبدو لائحة الطقوس الإسلامية قصيرة

(142) Inq. Lix. Proc. n° 1636 fol.37 v°.
(143) Inq. Evora, Proc. n° 5174 fol.5 r°; Inq. Lix. Proc. n° 708 fol. 23 r° etc.
(144) Inq. Evora, Proc. n° 9193 fol.3 r°-v°.
(145) "Monitório do Inquisidor Geral", Erora, 18 novembre 1536, publié in: **Collectório de diversas Letras apostólicas**, Lisboa: 1596, fol. 5 v°.

ومحدودة بالمقارنة مع التفصيل والتدقيق اللذين شملا الطقوس اليهودية(146). إلا أن صورة الإسلام تدققت شيئا ما مع مرور الوقت بسبب المحاكمات الكثيرة التي استهدفت الموركسيين. فقد ذكر منشور خاص بتلك المحكمة عمم سنة 1575 سبعة عشر قطسا من الطقوس الإسلامية من ضمنها الشهادة والصلوات الخمس والوضوء والتوجه خلال الصلاة صوب مكة، وصوم رمضان والختان وتعدد الزوجات والاحتفال بعيد الأضحى، وبيوم الجمعة...(147).

ويعود جهل محكمة التفتيش بالإسلام حين إحداثها إلى المستوى الفكرى المنحط الذي كان عليه مسلمو البرتغال حين فرض عليهم دون أمنويل التنصر سنة 1496. ولم تكلف المحكمة نفسها عناء الاطلاع على الإسلام والتعرف عليه لقلة عدد المسلمين والمورسكين بالبلد، ولكونهم لم يكونوا يحدثون لدى البرتغاليين ذلك الحسد، وذلك الخوف الذي أحدثتهما الجالية اليهودية –رغم إكراهها على التنصر– لتحكمها في عدة قطاعات اقتصادية من جهة، ولكثرة أعدادها.

لقد كانت اعترافات المتهمين المغاربة، الخاضعة بكل تأكيد لتأثير المحققين، تؤكد على الخصوص على أفعال لا علاقة لها بالإسلام، وكانت ذات طابع ثقافي محض (اللباس، التغذية)، أو بالذهنيات (تنظيم الأفراح والأتراح، السحر...). لقد اعترف المدعو António Fernandes بأن الكسكس المتصدق به بعد دفن مورسكي، طقس من الطقوس الإسلامية، وذلك لمجرد أن المسيحيين «لا يحضرون مثل تلك الوجبة حينما يتوفى أحدهم»(148). وجعل آخر منها فرضا من فرائض الإسلام(149). وكان الكسكس أحد أسباب اعتقال عدد من المغاربة، ذلك أن محكمة التفتيش كانت ترى في تناوله دليلا قاطعا على تمسك المغربي المرتد بدينه الإسلامي. ويعتبر استنطاق António Fernandes السابق الذكر، أحسن معبر عما نقول: فبما أن المحقق عاب عليه حضور أمسية قدم فيها الطبق المذكور، فقد أجاب بأنه حضر لمجرد إشباع رغبته في الأكل، وبأنه يجهل أسباب تحضير ذلك الكسكس. غير أنه سرعان ما سقط في الفخ الذي نصبه له المحقق، وخص الطبق المذكور بصبغة إسلامية. فحينما سأله

(146) *Ibid.*, fol.4 v° - 5 v°.
(147) A.N.T.T. **Manuscritos da Livraria**, n° 1402 fol.10, ss.
(148) Inq. Lix. Proc. n° 10842 fol.5 r°.
(149) Inq. Lix. Proc. n° 12720 fol.11 v°.

القاضي عما إذا كان الأشخاص الحاضرون قد تلوا صلوات وأدعية مسيحية، أجاب بالنفي، مضيفا أنه «ما كان لهم أن يصلوا صلوات مسيحية خلال تقديم وجبات إسلامية»(150)!، ويمكن الوقوف على نفس التصور الديني للوجبات الغذائية في محضر محاكمة المدعوة Margarita da Costa. فبما أنها نفت كل صبغة دينية لتحضير الكسكس الذي تصدقت به بعد وفاة أحد معارفها، طالما أنها فعلت ذلك في واضحة النهار وبحضور نساء برتغاليات (brancas)، فإن المحقق سألها عن المانع الذي منعها من تقديم قدر من الخمر أو القمح عوض الكسكس. ولم يبق لها إلا الاعتراف بكونها حضرت ذلك الطبق وتصدقت به «بنية من هو مسلم، وطلبت العفو والمغفرة من الإله والسيدة مريم العذراء»(151).

كما أن قلة معرفة جل المعتقلين بدينهم الأصلي أسهمت بدورها في ترك صورة مغلوطة عن الإسلام بوثائق محاكم التفتيش.

لقد سبق لنا أن حددنا أسباب تلك المعرفة السطحية للإسلام لدى جل أفراد الجالية التي تهمنا: دخول البرتغال في سن مبكرة، كون الأغلبية من الرحل، المستوى الثقافي المنحط الذي كان عليه المغرب خلال العقود الأولى من القرن، إلخ. وقد حاول عدد من المغاربة دفع المحققين إلى اعتبار أصلهم البدوي الذي لم يكن يسمح لهم باطلاع واسع على الإسلام، وبسلوك ديني مثالي. فقد ادعى أحدهم أنه يجهل كل شيء عن ذلك الدين، ونفى أن يكون قد قام بفريضة من فرائضه، وذلك «لكونه من الأعراب الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، والذين يرحلون باستمرار من مكان إلى آخر»، ولا يتوفرن بالتالي على مؤسسات دينية قارة(152).

وقد تعكس لنا بعض الأحاديث التي دارت بين بعض المغاربة، والتي بلغ عنها، تلك المعرفة السطحية التي كانت لهم عن الإسلام. فبعد أن استمع مغربي إلى ما كان موريسكي من أصل أندلسي مقيم بجنوب البرتغال يقوله عن الإسلام قال بإعجاب كبير بأنه لم يسبق له قط أن التقى بشخص من ذلك المستوى، واعترف بكونه لم يفهم كل ما سمعه لأنه من الأمور التي تهم العلماء(153). ويمكن الوقوف على نفس المعرفة

(150) Inq. Lix. Proc. n° 10842 fol.6 r°.
(151) Inq. Lix. Proc. n° 11646 fol.6 r°.
(152) Inq. Lix. Proc. n° 3590 fol.16 r°. n° 10857 fol. 6 r°; n° 1592 fol. 5 v° ; n° 2467 fol.16 r°, etc.
(153) Inq. Lix. Proc. n° 708 fol.23 v°.

السطحية من خلال بعض الأقوال التي تخص الفرائض الإسلامية، وموقف ذلك الدين من بعض الأطعمة. لقد نفت بعض المغربيات خلال محاكمتهن قيامهن بعد تنصرهن بفريضة إسلامية، كالصلاة «لأن ذلك من أمور الرجال فقط»(154). والغريب أن مغربيا اعتبر أن الإسلام يحرم أكل السمك ذي القشور(155)، مع أن محكمة التفتيش كانت تدرج تلك «الخطيئة» ضمن الطقوس اليهودية.

ومن جهة أخرى، وقفنا بأحاديث بعض المغاربة على عدة أخطاء قد تعود إلى مستواهم السابق الذكر، أو رغبتهم في إبعاد شبهة التمسك بالإسلام عنهم تفاديا لعقاب صارم. كما قد تعود إلى سهو كاتب الضبط أو خطئه في تدوين ما كان يروج خلال الجلسات. فقد كان الرسول عليه السلام يرد ضمن الأولياء المسلمين، وكان يذكر أحيانا بعد أبي العباس السبتي(156)! وكانت المدعوة Fragosa Rodrigues تعتبر ذلك الولي المغربي «رسولا بعثه ربنا»(157). وبلغت المدعوة Isabel Correa عن إحدى مواطناتها تسمى Isabel Fernandes لادعائها أنها بنت «ولي الرسول محمد»(158). وكانت أخرى تعتقد أن السيدة عائشة بنت الرسول(159). وورد مرة ذكر جبريل ضمن الأولياء المسلمين(160)... كما كان بعضهم يخلط بين العرف والشرع. فقد كان المسمى Fernão Salgado يعتقد أن المرأة لا ترث في الإسلام(161).

وتسمح مصادر محاكم التفتيش برصد موقف موحد لدى كل الذين مثلوا أمام المحققين: فقد كان المرتدون منهم متمسكين أيما تمسك بهويتهم ودينهم الأصلي، ولكنهم كانوا يعترفون خلال محاكماتهم بخطايا لا علاقة لأغلبها بالإسلام. فهل كان ذلك موقفا مقصودا لتفادي بطش المحققين؟

لقد كانوا لا يتأخرون – للأسباب التي سنعود إليها – في الاعتراف بتمسكهم بالإسلام منذ توصلهم بماء المعمودية إلى حين اعتقالهم. فقد اعترف المدعو João da Silva سنة 1560 بأنه يعتبر نفسه مسلما، وذلك بالرغم من تنصره منذ

(154) Inq. Evora, Proc. n° 5203 fol.4 r°.
(155) Inq. Evora, Proc. n° 158 fol.1 v°.
(156) Inq. Evora, Proc. n° 11313 fol.11 r°.
(157) Inq. Evora, Proc. n° 4497 fol.3 r°.
(158) Inq. Evora, Proc. n° 6736 fol.10 r°.
(159) Inq. Lix. Proc. n° 2967 fol.5 r°.
(160) Inq. Evora, Proc. n° 5203 fol.4 r°.
(161) Inq. Lix. Proc. n° 2467 fol.8 r°.

سنة 1540: «لقد كان دائما يعتبر نفسه مسلما من يوم تنصره إلى حين اعتقاله من لدن محكمة التفتيش المقدسة، وكان يؤمن بدين محمد حتى هذه اللحظة، ويقول إنه دين حقيقي، وأنه أفضل من دين النصارى»(162). ولا تخلو المحاضر التي اعتمدناها من اعتراف من هذا القبيل. وكان المعترفون على يقين من أن باقي المتنصرين مسلمون كذلك. لقد كان المدعو Pero Lourenço على يقين من أنه لا يوجد ولو موريسكي واحد صادق في تنصره، حتى ولو كانت تصرفاته توحي بذلك(163). وكان ذلك التمسك بالدين الإسلامي وليد اقتناع جميع المتنصرين بسمو الإسلام وأفضليته. وكانت مقارنة الديانتين لإثبات القناعة السابقة الذكر تمثل الموضوع الرئيسي في أحاديث المغاربة المتنصرين الذين كان بعض الجريئين منهم يعلنون إسلامهم كلما أتيحت لهم فرصة ذلك، كما فعل المدعو Cristovão Fernandes، الذي كان «يصرح علانية بأنه ارتد عن دين السيد المسيح لأن دين محمد أفضل منه». وقد استغل التحاقه بطليطلة ليعود إلى دينه الأصلي(164). وبالطبع أصبح من المتعذر بعد إنشاء محاكم التفتيش اتخاذ موقف مشابه.

ويتجلى ارتباط المتنصرين بدينهم الأصلي من خلال بعض الطقوس المسيحية، وأحيانا من خلال أفعال تتعارض كلية مع الشعائر الإسلامية، كما هو الأمر بالنسبة لبعض الأطعمة.

لقد كان الإسلام حاضرا في ذهن المتنصرين حتى حين تناول الخمر أو أكل لحم الخنزير، بحيث كانوا يبدأون دائما بقول البسملة(165). وكان استهلاك المادتين المذكورتين يخلق لدى بعضهم بين الفينة والأخرى نوعا من أزمة الضمير. فقد كان أحدهم يحذرهم من ذلك ويذكرهم بساعة الحساب في آخرتهم لتناولهم تلك المحرمات(166). وكان بعضهم، وإن كانوا أقلية، يمتنعون عن الاقتراب من المادتين المذكورتين، ومن لحم الخنزير على وجه الخصوص. واتخذ ذلك الموقف لدى بعضهم

(162) Inq. Evora, Proc. n° 4648 fol.3 r°.
راجع كذلك اعترافات مغاربة آخرين:
n° 8055 fol.7 r°; Inq. Lix. Proc. n° 2242 fol.3 r°; n° 3190 fol.11 r° etc.
(163) Inq. Lix. Proc. n° 10953 fol.6 r°.
(164) Inq. Evora, Proc. n° 8055 fol.13 v° ;
وكذا: n° 5002 fol.16 r°.
(165) Inq. Lix. Proc. n° 10857, fol.2r°
(166) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, III fol.90 v°.

دلالة ثقافية، أو وطنية. لقد كانوا يبررون امتناعهم عن تناولهما برغبتهم في عدم نسيان وطنهم(167). وكان أكل لحم الخنزير يحدث لدى بعضهم اشمئزازا قد يسبب التقيّؤ. فقد كانت المدعوة Maria Bernaldes لا تجرؤ حتى على لمس ذلك اللحم، وكانت سيدتها تجد متعة في إعطائها أمرا بقطعه، الأمر الذي كانت تنفذه وهي محمرة الوجنتين وترتعش(168). كما أن الإسلام لم يكن، كما لاحظنا من قبل، غائبا حتى خلال بعض الطقوس الجماعية المسيحية.

وبالطبع لم يكن بإمكان هؤلاء القيام بكل الفرائض الإسلامية. وتسمح لنا المصادر التي اعتمدناها بالجزم بأن أقلية صغيرة كانت تجرؤ على القيام بذلك. لذا كان ذلك الارتباط عاطفيا، وعلى مستوى النوايا فقط. وبالفعل، تنص المصادر على رغبة كل المتنصرين في العيش في كنف الإسلام، والموت وهم مسلمون. وبما أنه كان يتعذر عليهم القيام بالفرائض، فإنهم اقتصروا على الشهادة(169). فنادرا ما نجد ضمن ما وصلنا من اعترافات، أفعالا ذات طابع ديني محض، إذ كانت في الحقيقة مواقف مرتبطة بهوية ثقافية معينة، وبنمط عيش اكتسب في مسقط الرأس.

ويمكن حصر الأفعال التي اعترف المتنصرون بها في خمسة أنواع:

1 – أفعال دينية محضة، وإن كانت في أوقات متقطعة،

2 – تقاليد تصاحب الأكل أو تسبق النوم أو الشروع في العمل... والتي كان المتنصر يقوم بها بشكل آلي. فكل المغاربة، كيفما كان سنهم وتاريخ تغريبهم أو تنصرهم، كانوا يقولون البسملة قبل الشروع في الأكل أو النوم، أو قبل البداية في عمل ما... وكانوا يحمدون الله كلما أنهوا وجباتهم. لقد اعترفت المدعوة Maria Fernandez، كباقي المغاربة، بأنها فعلت ذلك خلال ثلاثين سنة(170). واعترفت أخرى بدورها بأن كل المغاربة المتنصرين المقيمين بمدينة Setúbal يقومون بنفس الأفعال(171). وتكاد المحاضر لا تخلو من اعتراف مشابه، ذلك أنه يبدو أن المغاربة كانوا يولون تلك

(167) Inq. Lix. Proc. n° 1636 fol.28 v°.
(168) Inq. Lix.Proc. n° 9310 fol.14 r°-v°.
وكذا : n° 6405 fol.4 r°, 13 r°.
(169) Inq. Lix. Proc. n° 3184 fol.6 v°; n° 9280 fol.13 r°; n° 7560 fol.10 r°; Inq. Evora, Proc. n° 11323 fol.4 r° - v°; n° 10769 fol.7 v°; n° 5174 fol.4 - 5 r° , 8 v°; n° 4432 fol.3 r° - v°; n° 5239 fol.6 v°; n° 11313 fol.2 v°, 11, 14, 16 v°; n° 6455 fol.5 r°.
(170) يتعذر حصر كل الإشارات الكثيرة، راجع على سبيل المثال :
Inq. Evora, Proc. n° 8582, fol. 27 v°.
(171) Inq. Lix. Proc. n° 9280 fol.13 r°. *Cf.* aussi: n° 260 fol.14 r°; n° 12319 fol.13 r°; n° 5153 fol.6 r°.

الأفعـال أهمية خـاصـة، كما يـتجلـى لنا ذلك مـن خلال هذه الحـادثة التي بـلغت عنـها المدعوة Lianor de Melo. لقـد كانت مـدعوة عند مـغربيـة أخرى، ولما أراد ت أن تـقول البسملـة كمسيحية، لامتها مـضيفتها بعنف وفـرضت عليها قول البسملـة الإسلامية. وادعت المبلغة أن ذلك تكرر في نهاية الأكل(172).

3 – كان المغـاربة المتنصـرون يقسمون بـالرسول أو بأولـياء مغاربة، وخـصوصا بأبـي العبـاس السبتـي. وكانوا يـتوسلـون إليهـم في حالة الـضرورة أو المرض، وكـانوا يطلبون الصدقة من مواطنيهم بإسمهم.

4 – وكان ضمن «الخطايا» المنسوبة للمغاربة أعمال ذات طابع ثقافي، كالوجبات الغذائية والموسيقى والرقص وطريقة البكاء... فقد كانت محكمة التفتيش الدينية تعتبر المدعوة Maria Madeira مسـلمـة لكونـها كـانت تتـناول أطـباقا مـغربـيـة، وكانـت تغـنـي وترقص وتبكي كما يفعل المسلمون(173). ويعكس محضر محاكمة António Fernandes تصور محكمـة التفتيش للإسلام: لقد اعتـرف بأنه وباقي المغاربة المقيمـين بيابرة كانوا «ينظمون لقاءات يغنون ويرقصون خـلالها على طريقة المسلمين»(174). كما اعترف بأنهم كانوا على إثـر تلك الحفلات يطلبون، وهم يذكرون أبا العـباس السبتي، صدقات قصـد تحرير بـعض الأسـرى. وكان الراقـصون يقبلون يـدي أو رجلـي من يتـصدق، الأمر الذي يمـثل، حسب المبـلغ، طقسا إسـلاميا. واعتـرف نفس المتهـم بالقيام بـطقس إسلامي آخـر تمثل في إعـطاء مغربـية وضعت طـفلا ريالا(175)! وفي نفـس المحضـر تبليغ من لدن Catarina Cardosa تخبـر فيه المحكمة بأن مغاربـة «رقصـوا وغنـوا أغاني يرددها المسلمون»(176).

وتزخـر محاضر المحـاكمات بإشـارات إلى مثل هـذه الأفعال التـي كانت المحكـمة تعتبرها إسلامية.

(172) Inq. Evora, Proc. n° 6462 fol.3 v° - 4 r°.
(173) Inq. Evora, Proc. 10769 fol.14 r°.
(174) Inq.Evora, Proc. n° 11323 fol.3 r° - v°.
(175) *Ibid.*, fol.3 v°.
(176) *Ibid.*, fol.11 r°.

5 – وكانت مجموعة أخرى من الأفعال تتمثل في حركات تختلف عما هو معهود لدى البرتغاليين، كوضع الخبز على طاولة الأكل في وضعية معينة(177)، أو وضع اليدين بشكل يوحي بالصلاة أو الدعاء(178)، أو تقسيم الخبز لضمان وفاء الشريك(179)، أو مسح العضو بعد التبول(180)...

وعموما، ورغم وجود محكمة التفتيش، كان المغاربة، وإن بشكل متقطع، يقومون بالفرائض، عدا الحج والزكاة اللتين لم تصلنا عنهما أية إشارة. غير أن التشهد كان أكثر ذكرا بالمحاضر لارتباطه بالنوايا، ولكونه لا يلزم بحركة تدفع إلى التبليغ. كما أنه يمثل الفرق الأساسي بين الإسلام والمسيحية بتأكيده على وحدانية الله وعلى رسالة محمد (صلع). لقد اعترفت Lianor de Melo بأنها كانت كلما التقت بمغربيتين أخريين، كن يقلن جميعا: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»(181). وكان للرسول عليه السلام مكانة خاصة في قلوب المتنصرين، الذين لم يكونوا يترددون في الرد على من يسبه(182)، وكانوا يلجأون إلى العنف أحيانا(183). فقد كان اللاجئ السياسي João de Sousa يردد أغنية يمدح فيها الرسول، ويقول فيها بأن كل الأسماك وكل الطيور تخاطبه وتؤمن برسالته(184). وكان آخر يردد أغنية يمدح فيها الرسول (صلع) وابنته فاطمة(185). وتتجلى تلك المكانة الخاصة التي كانت للرسول عليه السلام في قلوب المغاربة فيما وقع لـ Fernão Salgado بسجن محكمة التفتيش مع مورسكي كان يخدم السجناء ويتجسس عليهم. فحينما أراد أن يعبر عن شكره لذلك الشخص، قال له بالعربية: «يابني عسى أن يكون كل الجميل الذي قدمته لي من أجل محبتك لمحمد». وبما أن مخاطبه وبخه على ذلك، فإنه أجابه بما يؤكد اعتقادا راسخا لديه: «اذهب،

(177) Inq. Evora, Proc. n° 6462 fol.3 v°.
(178) Inq. Evora, Proc. 11237 fol.5 v°.
(179) Inq. Lix. Proc. n° 4118 fol.12 r° - v° ; n° 1606 fol.6 v° etc.
(180) Inq. Lix. Proc. n° 12995 fol.7 v°, 8 r° etc.
(181) Inq. Lix. Proc. n° 3184 fol.6 v°. *Cf.* aussi: Inq. Evora, Proc. n° 7696 fol.3 r° etc.
(182) Inq. Lix. Proc. n° 12995 fol.4 v°.
(183) Inq. Lix. Proc. n°2257 fol.5 v°;
لم يكن المدعو Rodrigo Alvares يتحمل سب المسيحيين للرسول، راجع:
Inq. Evora, Proc. n° 8062 fol.2 v°, 18 r°.
(184) Inq. Lix. Proc. n° 6405, fol.22v°.
(185) Inq. Lix. Proc. n° 12487 fol.11 r°;
راجع كذلك ما كان Rodrigo يقوله عن الرسول عليه السلام:
Inq. Evora, Proc. n° 11323 fol.9 r°.

اذهب، إني أكبر منك سنا، والله أكبر منا جميعا»(186). واعترف نفس المتهم لمورسكي بعثته المحكمة للتجسس عليه، أنه لم يستطع، رغم كل المحاولات التي بذلها، نسيان محمد(187). وحسب شهادة أدلى بها المدعو Francisco Lopes أمام المحكمة، كان كل المغاربة المتنصرين ينتقدون المسيحية ويمدحون محمد عليه السلام(188). لقد قال المدعو Luís Pereira في حالة غضب «إن أفضل ما عندنا هو محمد»(189). لذا اعتاد الموريسكيون الاستنجاد بالرسول والتوسل إليه في الظروف التي سبق التلميح إليها في فصل سابق.

وبالطبع، لم تصلنا إلا إشارات محدودة إلى قيام المغاربة المتنصرين بفريضة الصلاة. إلا أن تلك الإشارات تؤكد أن عددا من المغاربة استمروا في الصلاة حتى بعد تنصرهم. فقد كان Duarte Fernandes و António Correa يقومان بذلك خلال سنتي 1549-1550، أي بعد عقد من تنصرهما(190). ويبدو أن أولهما استمر في القيام بذلك حتى داخل سجن محكمة التفتيش، وبالضبط بالدير الذي كان يتعلم فيه العقيدة المسيحية(191). وكان المغاربة المقيمون بمدينة Elvas يصلون جماعة خلال الليل بدار كبيرة، وكان كل واحد يأتي بماء الوضوء من بيته(192). كما أخبر المحققون بأن المدعو Bastião Coresma وآخرين كانوا يصلون داخل بيوتهم خفية(193).

وتؤكد مصادر محاكم التفتيش أن المصلين كانوا يتوضأون قبل التوجه نحو القبلة. غير أننا لا نعلم إلا القليل عن ذلك الوضوء الذي كان مغربي يعتبره من عناصر أفضلية المسلمين على النصارى، الذين كانوا حسب قوله لا يغتسلون أبدا(194).

---

(186) Inq. Lix. Proc. n° 2467 fol.7 r°.
(187) *Ibid.*, fol.9 r°.
(188) Inq. Lix. Proc. n° 2263 fol.15 v°
(189) Inq. Lix. **Liv. denúncias**, III fol.90 v°.
(190) Inq. Lix. Proc. n° 6405 fol.5 r°, 9 r°
(191) *Ibid.*, fol.9 v°.
(192) Inq. Evora, Proc. n° 10769 fol.3 v°.
وكان المرتدون يعتبرون الصلوات الإسلامية أفضل من المسيحية:
Inq. Evora, Proc. n° 10769 fol.2 v°.
(193) Inq. Lix. Proc. n° 7431 fol.23 r°; n° 7560 fol.13 r°.
(194) «إنهم وسخون لا يغتسلون أبدا»، راجع:
Inq. Lix. Proc. n° 7431, fol.23 r°.
وعن الوضوء راجع كذلك: Inq. Evora, Proc. n° 10769 fol.11 v°.

وبما أن المتنصرين كانوا على يقين من سمو الإسلام وأحقيته، وبما أنهم كانوا بالتأكيد متأثرين بجو الإرهاب الذي أحدثه إنشاء محاكم التفتيش وما تولد عنه من حيطة، فإن منهم من اعتقد اعتقادات غريبة. فقد ذكر أحدهم أن بعض علماء المسيحية تأكدوا، من خلال ما اطلعوا عليه من كتب، من أحقية الدين الإسلامي، وأنهم كانوا تبعا لذلك يصلون خفية ببيوتهم(195). وقد ذهب هندي من أصل إسلامي أبعد من هذا: لقد ادعى أن المحققين كانوا يعلمون أن الإسلام هو الدين الحق، وأنهم كانوا لذلك يصلون خفية ببيوتهم. وبما أن معتقلا آخر رد عليه بأن ذلك يتنافى وما يقومون به من جهود لمحاربة الهرطقة، فإنه برر ذلك باضطرارهم إلى تنفيذ الأوامر الملكية. وكان نفس الهندي يجزم بأن عددا من كتبيي لشبونة يبيعون كتبا ممنوعة، ويقومون بالفرائض الإسلامية لكونهم «علماء ويعرفون النهج القويم»(196). وقد وعد مخاطبه في حالة إطلاق سراحهما بإرشاده إلى بعض دور «رجال بيض من أبناء هذا البلد، علماء، يصلون ببيوتهم»(197).

ويمكن من خلال هذه الأقوال الغريبة الوقوف على حقيقة مهمة تتمثل في كون أصحابها كانوا على يقين من أنهم ينتمون إلى الفريق الذي يمتلك الحقيقة.

وكان المغاربة المتنصرون يحاولون قدر المستطاع صيام شهر رمضان. وكان منهم من قام بذلك لمدة عقد على الأقل(198). وبما أنه تعذر على كثير منهم نفي قيامهم بتلك الفريضة لتوصل المحكمة بعدة تبليغات، فإن المتهمين كانوا يحاولون التقليل من مدة الصيام، وكانوا يدعون أنه لم يكن بإمكانهم صيام شهر كامل لعبوديتهم، أو لوضعيتهم الصحية، أو لصعوبة الأعمال التي كانوا يقومون بها(199). كما أن حلول ذلك الشهر خلال صيف 1550 جعل من الصعب إخفاء الصوم، خصوصا بالمناطق الداخلية والجنوبية المرتفعة الحرارة(200).

(195) Inq. Lix. Proc. n° 5085 fol.26 r°.
(196) Inq. Lix. Proc.n° 13187 fol.18; n° 5085 fol.26.
(197) *Ibid.*, fol.18 v°.
(198) Inq. Lix. Proc. n° 2263 fol.16 v°; n° 2242 fol.4 r°.
(199) Inq. Lix. Proc. n° 12061 fol.8 v°; n° 12383 fol.5 v°; n° 6747 fol.8 v° etc.; Inq. Evora, Proc. n° 6868 fol.8 r°; n° 10537 fol.5 r°; n° 8623 fol.12r°; n° 1265 fol.3 r° etc.
(200) Inq. Evora, Proc.n° 8433 fol.5 v°; n° 8623 fol.12 r°.

كان الفقهاء أو بعض المتنصرين، كالمسمى Duarte Fernandes، الذي كان موريسكيو لشبونة يعتبرونه «فقيها مطلعا»(201)، يخبرون باقي أفراد الجالية بتواريخ الأعياد وحلول شهر رمضان. وقد صام المدعو Francisco Lopes بإيعاز من الفقيه المذكور شهر رمضان قبيل اعتقاله من لدن محكمة التفتيش(202).

وكان المغاربة يحتفلون في فاتح شوال بعيد الفطر أو «العيد الصغير» كما تسميه المصادر البرتغالية، وكانوا يعدون بالمناسبة أطباقا مغربية(203).

وكلما أمكنهم ذلك، كان المغاربة يحتفلون بعيد الأضحى، وكانوا يذبحون بالمناسبة كبشا، وإذا تعذر عليهم ذلك، كانوا يكتفون بما يشترونه من لحم(204).

وكان المغاربة يحاولون قدر المستطاع تناول اللحم المذبوح بطريقة شرعية. وتفاديا لأكل اللحم المذبوح من لدن المسيحيين، كانوا يشترون جماعيا أكباشا يذبحونها بأنفسهم خلال أيام الأحد والعطل(205).

كانت محكمة التفتيش تمنع المغاربة المتنصرين من اعتبار الجمعة يوم عطلة وتعبد، وكانت تعاقب من ارتدى خلاله لباسا نظيفا. وعلى كل، لم تكن ظروف عيش المغاربة، وحالة الأسر التي كانت نسبة مهمة منهم تعاني منها، تسمح لهم بذلك(206). ولم تصلنا في هذا الشأن إلا إشارة واحدة وردت بتبليغ عن الفقيه المسمى Duarte Fernandes قامت به برتغالية كانت تخدمه(207).

ومن الأكيد أن القيام بالفرائض الإسلامية تراجع كثيرا بعد 1550، أي بعد أن شرعت محكمة التفتيش في اضطهاد الموريسكيين بشكل ممنهج شغلها كما سنرى في فصل لاحق عن غيرهم.

ومن الأكيد كذلك أن التمسك بالإسلام الذي تؤكده مصادر محاكم التفتيش، نتج عن الدور الذي قام به المغاربة الذين تمسكوا بدينهم رغم ما كانوا يعانونه من

---

(201) Inq. Lix. Proc. n° 6405 fol.5 r°.
(202) *Ibid.*, fol.8 v°.
راجع كذلك: Inq. Evora, Proc. n° 10769 fol.16 r°.
(203) Inq. Lix. Proc.n° 2263 fol.16 v°; n° 6471 fol.12 v°.
(204) Inq. Lix. Proc. n° 6471 fol.13 r°; n° 6405 fol.2 v°; n° 2263 fol.17 r°; Inq. Evora, Proc. n° 10769 fol.15 r°.
(205) Inq. Lix. Proc. n° 12383 fol.5 v°; Inq. Evora, Proc. n° 9823 fol.5 r°.
(206) Inq. Lix. Proc. n° 4128 fol.92 r°; Inq. Evora, Proc. n° 6868 fol.8 r°.
(207) Inq. Lix. Proc. n° 6405 fol.3 v°.
راجع كذلك: Inq. Evora, Proc. n° 6736 fol.11 r°.

اضطهاد ومضايقات. فقد كانت نسبة مهمة ممن حوكموا بتهمة القيام بفرائض أو طقوس إسلامية من الذين دخلوا البرتغال في سن مبكرة، وتعلموا ما كانوا يعرفونه عن الإسلام بالبرتغال، على يد أولئك المسلمين(208). وكان هؤلاء يتوخون من عملهم هذا ثلاث غايات:

1 – إقناع المتنصرين بكون الإسلام هو الدين الحق، وبتمسكهم به وعدم أخذ ردتهم مأخذ الجد،

2 – التعريف بالإسلام وفرائضه، الأمر الذي نجحوا فيه في حالات كثيرة،

3 – دفع من تنصر إلى الفرار والعودة إلى الوطن(209).

ولم يكن الدور الذي قام به بعض من دخلوا البرتغال في سن الرشد وأكرهوا على التنصر أقل مما قام به من بقي متمسكا بدينه(210). ويمكن أخذ فكرة عن هذا الدور بالاطلاع على محضر محاكمة السي عبد الله، الذي أصبح يسمى Duarte Fernandes (211).

واعتمادا على ما سبق، يمكن استنتاج النتائج التالية:

لم يكن التنصر سبب مجيء الجالية التي تهمنا إلى البرتغال أو نتيجة قناعة راسخة، كما قد يفهم من محاضر محاكماتهم. لقد تسببت فيه ظروف الإقامة الصعبة وما كانت تفرضه من إكراه وتعسف على أولئك الغرباء. وبالطبع، لم تتأخر ردة تمت في مثل تلك الظروف في الانعكاس على موقف المتنصرين من دينهم الجديد، إذ أن الأغلبية الساحقة، إن لم نقل الجميع، لم تأخذ تلك الردة مأخذ الجد واستمرت في اعتبار نفسها مسلمة. ولم يكن المغاربة يخفون ندمهم على تنصرهم، وكانوا تبعا لذلك، يعملون قدر المستطاع على تفادي ردة من بقي منهم مسلما.

---

(208) راجع على سبيل المثال
Inq.Lix. Proc.n°1104, fol.9r°;n°2242, fol.4r°;n°10831, fol.3r°; n° 10817, fol.4r°; n° 1104, fol.9r°-v°; n°10845, fol. 6v°; n° 10815, fol. 4 v° etc.

(209) راجع على سبيل المثال:
Inq. Lix. Proc. n°. 12319 fol.3 r°, 5 r° ; n° 1626 fol.5 ,v°; n° 10712 fol.8 r°; n° 1208 fol. 6 v°; n° n° 6440, fol.3 r° et ss.

(210) Inq. Lix. Proc. n° 3189 fol.3 r°, 6 v° ; n° 708, fol.23 v°.

(211) Inq.Lix.Proc.n° 6405.

ويعكس الجهل الشبه التام للعقيدة المسيحية وللصلوات عدم اكترات المتنصرين بدينهم الجديد، وذلك على الرغم من أن مدة التنصر تجاوزت في جل الحالات التي وقفنا عليها عدة عقود. كما يعكس النقد اللاذع الذي تعرضت له العقيدة المسيحية من لدن المتنصرين عدم صدق تلك الردة وكونها تمت بشكل من أشكال الإكراه التي سبقت الإشارة إليها.

لقد مثل ذلك التمسك بالإسلام في حقيقة الأمر مظهرا من مظاهر خيبة أمل المغاربة منذ ردتهم، ومظهرا من مظاهر تمسكهم بهويتهم الثقافية. كما مثل نوعا من الانتقام من المجتمع البرتغالي.

لم تعط الردة ما كان المغربون يتوخونه منها: فعوض تسهيل اندماجهم داخل المجتمع البرتغالي وتحسين نوع العلاقة معه، زادت من الهوة الفاصلة بين الطرفين ومن العداء القائم بينهما.

الجلسة الأولى (29 أبريل 1554) من محاكمة البحار
Francisco Bayão بتهمة نقل مغاربة إلى بلادهم

(Inquisição de Lisboa, Processo nº 167, fol. 45rº)

الباب الثالث

المغاربة ومحاكم التفتيش

الفصل الثامن

ظروف إحداث محاكم التفتيش بالبرتغال

استنتجنا مما سبق أن ردة المغاربة في الظروف التي سبقت الإشارة إليها لم تنسهم هويتهم الثقافية، ولم تبعدهم عن دينهم الأصلي، وأنها لم تؤثر على علاقتهم بالمجتمع البرتغالي. ومن جهة أخرى، بينت الفصول السابقة كيف أن البرتغاليين لم يبذلوا أي جهد لتسهيل عملية اندماج وتجذر الأقليات العرقية والدينية، ولم يعترفوا لهم بحق الاختلاف وتبني نمط عيش وقيم خاصة بهم. ويمثل إحداث محاكم التفتيش سنة 1536 أحسن مؤشر على ذلك.

ما إن أنشئت محاكم التفتيش في البرتغال حتى أصبح سوء التفاهم الحاصل بين المجتمع المسيحي والموريسكيين يكتسي طابعا قانونيا، ذلك أن الأغلبية أوكلت إلى تلك المؤسسة مهمة معاقبة كل مظاهر الثقافة الأصلية التي قد يتبناها أولئك المسيحيون الجدد. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك لم يكن لوحده كافيا لإحداث تلك المحاكم، ذلك أن المجتمع البرتغالي لم يكن في الحقيقة يتخوف من الموريسكيين عموما، والمغاربة على وجه الخصوص، نظرا لأعدادهم المحدودة، ولظروف عيشهم القاسية. لقد توخى من إحداث محاكم التفتيش كسر شوكة المسيحيين المحدثين الذين كانوا كثيرين، وكانوا أبناء البلد ويتحكمون في نسبة كبيرة من الثروة الوطنية.

ويعكس إحداث تلك المحاكم في حد ذاته خوف الأغلبية على عقيدتها وعرقها، ذلك الخوف الذي تزايد بفعل الأزمة العامة التي سبق لنا أن بينا أسبابها ومظاهرها وانعكاساتها على موقف المجتمع من الآخر، وخصوصا من الأقليات التي كانت تعيش بداخله. وقد كان اليهود المتنصرون أهم مصدر للخوف المذكور الذي استحوذ على الألباب خلال القرن السادس عشر.

لقد كانت شرائح عريضة من الطبقات الشعبية وجيش الرهبان الذين كانوا يؤطرونها يعتبرون محاكم التفتيش أنجع وسيلة لتبرير اضطهاد المنحدرين من اليهود والتنكيل بهم، وجعلهم، بما تتخذه من إجراءات، يعيشون مهمشين في المجتمع. لقد كان المجتمع البرتغالي يتوخى من إحداث تلك المحاكم تحقيق هدفين: القضاء على الوزن الاقتصادي للمسيحيين المحدثين، والحفاظ على «نقاء الدم» وتفادي اختلاطه بدم غير المسيحيين الأقحاح.

لذا ارتبط تاريخ المحاكم التي تهمنا بوجود اليهود في البرتغال. فخلال السبع عشرة سنة التي تطلبتها المفاوضات الشاقة بين لشبونة والبابوية للحصول على ترخيص بإحداث محاكم تفتيش دائمة وحرة، كان الحديث عن المسيحيين المحدثين دون غيرهم. كما مثل هؤلاء، بفضل غناهم ونفوذهم وحنكة ممثليهم بالفاتكان، أكبر عقبة تعترض مشاريع العاهل البرتغالي. وحينما رضخ البابا لضغوط يوحنا الثالث، ووافق سنة 1536 على إنشاء تلك المحاكم بالشكل المطلوب، جعلت براءة الإحداث من قمع كل مظاهر ردة المسيحيين المحدثين إلى دينهم الأصلي، المهمة الرئيسية لتلك المحاكم. ويفهم من هذا أن الموريسكيين لم يكونوا يشغلون لا بال الرأي العام، ولا بال الحكام كما كان الشأن بالنسبة للمسيحيين المحدثين.

ولفهم موقف المسيحيين الأقحاح من اليهود المتنصرين، لا بد من العودة شيئا ما إلى الوراء، والتذكير بنوعية العلاقة التي كانت تربط الطرفين قبل التنصر الإلزامي.

لقد حددت ثلاثة عوامل العلاقة بين الأغلبية المسيحية والأقلية اليهودية.

كان العامل العنصري أساسيا، ذلك أن اليهودي كان يمثل بحكم أصله وعقيدته ونمط عيشه عنصرا أجنبيا ودخيلا على المجتمع المسيحي. وقد جعل منه ارتباطه بهويته واعتزازه بها عنصرا غير قابل للاندماج، وغير مرغوب فيه(1). لذا كان المجتمع المسيحي يخص اليهود بعدد من الأوصاف القبيحة ومن الرذائل، ويتهمهم بالمس بكرامة المسيحيين وصفاء عرقهم(2). وهكذا اتخذ عددا من الإجراءات لعزلهم

(1) M. J. Pimenta Tavares, **Os Judeus**...., *Op. cit.*, p. 22; M. V.Guerreiro, "Os Judeus", in : **Dic. Hist. Port**, *Op. cit.*, III, p.412; A. Herculano, **História da orígem**..., *Op. cit.*, I, p.90.

(2) Cité par M.J. Tavares, *Op. cit.*, p. 24.

وإبعادهم عنـه، بإكراههم على الإقامـة في أحياء خاصة، وعلى حـمل شارات مميزة. كما عمل على الحد أكثر ما يمكن من الاتصال بين اليهود والمسيحيات(3).

وكان العامل الثاني إقتصاديا. فقد كان اليهود، الذين كانوا ممثلين في كل الأنشطة الاقتصادية وقطاعات الإنتاج، يسيطرون علـى نسبة مهمة من الثروة الوطنية. إلا أن التعامل بالـربا وإدخال الضرائب الذي كان أغنى الـيهود مكلفين به، جعلا المسيحيين ينظرون إليهم كأشخـاص يستغلونهم ويسيؤون معاملتهم. لذا اشـتكى الشعب وممثلوه للملك من تلك التعسفات طيلة النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وطالبوا بجعل حد لها(4). كما اشتكى المسيحيون من حياة البذخ والترف التي كان اليهود يستفزون بها الأغلبية المسيحية(5). فمما له دلالة أن يكون أول مطلب للكورتيس المجتمع سنة 1490 هو إبعـاد اليهود عن إدخال الـضرائب لكي لا تـكون لهم سلـطة على المسيـحيين، وأن تحصـر أنشطـتهم فـي الزراعة والحـرف والتجـارة. كمـا لم يتـردد ممثلـو الشعـب في المطالبة بمـصادرة أملاك اليهود ليعيـشوا بذلك في بؤس وحالة أسـر بين النصارى(6). وتؤكد الـرسالة الجوابيـة للعاهل الـبرتغالـي استحواذ اليـهود آنذاك على المـال والخبرة المهـنية، وخصوصـا بقطاعـات حيوية كـالطب والصـيدلة(7). وازداد كره المسيـحيـين لليـهود بنزوح آلاف مـنهم من إسـبانيا بـعد أن فرض علـيهم هنـاك التنصـر أو مغادرة البلاد. ولم يتردد الرهبـان وممثلو الشعب في انتقاد الحماية التـي وفرتها الدولة لأولئك الغربـاء(8). ففـي عهد يـوحنـا الثانـي، بلغ الـعداء لـليهـود ذروته نظـرا لتـزايد ثرواتـهم وارتفاع أعدادهم، ولنزوح يهود إسبانيا(9).

وتمثـل العامـل الثالـث في الجانـب الدينـي. لقـد كان المسـيحيـون يحمـلون اليـهود مسؤولـية قتل الـسيد المسـيح، وكانوا يـعتبرونـهم لذلك أعـداء، ويجعلـون منهم حـلفاء

---

(3) *Ibid*., pp.390-410; M. Guerreiro, *Op. cit*. pp.409 - 410.

(4) M. J. Tavares, **Os Judeus** ..., *Op. cit*., p. 273 et ss; A. J. Saraiva, **Inquisicão e Cristãos Novos**, 4e édit., Porto : Editorial Nova Limitada, 1969,pp. 28-33; M. Guerreiro, *op.cit*, pp. 410-411. L. de Azevedo, **História dos Cristãos Novos portugueses**, Lisboa: Livraria Clássica Editora, 1975, p. 35;J. Saraiva, *Op. cit*., pp. 31- 32; M. Guerreiro. *Op. cit*., p. 411. A. Herculano, *Op. cit*., I, p. 99.

(5) A. Herculano, *Op. cit*., I, p. 101.; L.Azevedo, *Op. cit*., pp. 39 - 40; M.J. Tavares , *Op. cit*., pp. 31-32.

(6) A. Herculano, *Op. cit*., I, pp. 102 - 103; L. Azevedo, *Op. cit*., p. 19.

(7) *Ibid*. I, p. 104.

(8) *Ibid*., I, pp. 98-99; A. Herculano, *Op. cit*., I, p. 101.

(9) L. Azevedo , *Op. cit*., p. 50; A. Herculano, *Op. cit*., I, p. 105.

للشيطان، يهددون العقيدة المسيحية(10). وبذلك أصبح اليهودي بمثابة عدو داخلي يهدد أمن وقيم المجتمع. ومما له دلالة، إطلاق لفظ «الكافر» لأول مرة على اليهودي في هذه الفترة(11).

وعلى الرغم من هذه الكراهية، كان اليهود ينعمون قبل القرن الخامس عشر بأمن حقيقي، وإن تعرضوا بين الفينة والأخرى لحملات اضطهاد وتنكيل لم تبلغ ما بلغته بإسبانيا المجاورة(12). إلا أن وصول أسرة «أفيش» (Avis) إلى الحكم بعد ثورة 1383سرعان ما غير الأوضاع، ذلك أن أولى القوانين المعادية لليهود أعلنت في عهد يوحنا الأول، مؤسس تلك الدولة، وابنه دون دوارت(13). ومعلوم أن تلك الدولة كانت حليفة التجار والحرفيين والطبقات الوسطى التي كانت تضايقها أنشطة اليهود وتجربتهم الراسخة(14). كما أن الاضطهاد الذي كان يهود إسبانيا يعانون منه سرعان ما انعكس على البرتغال الذي أصبح سكانه يتحينون الفرص للاعتداء على اليهود، كما حدث بلشبونة سنوات 1449 و 1482 و 1490(15). وزاد وصول النازحين من إسبانيا من خوف البرتغاليين. فبعد أن فرض الملكان الكاثوليكيان على اليهود التنصر أو الهجرة، التحق في البرتغال حوالي ستين ألف شخص، الأمر الذي ضاعف عدد يهود البلاد(16).

ويبدو أن العاهل البرتغالي فكر سنة 1494 في جعل حد لمشكل اليهود في بلاده على غرار ما فعلته إسبانيا. إلا أن موته حال دون ذلك(17). وقد سارع خلفه أمنويل، لاعتبارات سياسية وشخصية إلى إكراه اليهود في دجنبر 1496 على

(10) J. Delumeau , **La Peur**..., *Op. cit*., pp. 273 et ss.; M.Tavares , *Op. cit.* , p.25

(11) *Ibid* ., pp. 25-26, 30 - 33, 398 , L. Azevedo, *Op. cit*., p. 47.

(12) L. Suarez Fernandez, **Les Juifs espagnols au Moyen-âge** , Paris: Gallimard, pp. 228 et ss.; H. Kamen, **L'Inquisition espagnole** , Paris:Albin Michel ,pp. 26 et ss. ; M. Tavares, *Op. cit.* p. 418; A. Herculano, *Op. cit.* I, p. 60; L. Azevedo, *Op. cit.* pp. 10-14.

(13) M. Tavares, *Op. cit*., p. 399. Sur cette révolution, *cf*. J. Cortesão, **Os factores** ,*Op. cit*., pp. 101 et ss. ; *Ibid*., pp. 400 - 404.

(14) M. Guerreiro, *op.. cit*., p. 412.

(15) R. de Pina, **Chrónica do Senhor Rey Dom Afonso**, édition citée, ch.130, p. 758. Sur cet incident, *Cf.* aussi: I.S. Révah, "Les Marranes portugais", in: **Etudes Portugaises** , *Op. cit.* ,p 187; A. Herculano. *Op. cit*., I,pp 97,106-112; L. Azevedo , *Op. cit*., pp. 19-21 et ss. R. de Pina, **Chrónica del Rey Dom João II**, éd. cit., ch. LX, pp. 1013 - 1015; M.Tavares, *Op. cit*., pp. 423 - 427;G.de Resende, **Crónica** ...,*Op. cit*., pp.238-240.

(16) A. Herculano, *Op. cit.* I, pp. 107-109; I.S. Révah, *op., cit*., pp. 188-189;L. Azevedo, *Op. cit.* pp. 20-24; M. Tavares, *Op. cit*., pp. 252-257, etc.

(17) J. S. da Silva Dias, **A política cultural da época de D. João III**, Coimbra: 1969, II, p. 767; L. Azevedo, *Op. cit*., pp. 47-48, 54-55.

التنصر أو مغادرة البلاد. وكان هدف العاهل البرتغالي الأساسي هو تنصير اليهود ومنعهم من الهجرة. وبذلك حل المسيحيون المحدثون محل اليهود. إلا أن ذلك لم يجعل حدا للعداء الذي كان المجتمع يخص به تلك الأقلية. فإذا أضحى اليهودي يعتبر ردته لاغية لكونها فرضت عليه، فإن الردة المذكورة لم تكن كافية لجعل حد لحالة العداء بين الجانبين، ذلك أن العلاقة بينهما لم تكن تتحكم فيها العوامل الدينية وحسب، بل كانت العوامل الاقتصادية أهم، كما أكد على ذلك الإخباري João de Barros (قرن 16)(18).

وبالفعل زادت ردة اليهود من حقد المسيحيين عليهم وحسدهم لهم، خصوصا وأنها فتحت في وجههم فرص الترقية الاجتماعية، ونزعت كل الحواجز التي كانت تحول دون ولوجهم بعض الوظائف كالقضاء والإدارة، وأعفتهم من كل مظاهر التهميش. كما أنهم احتفظوا بكل أملاكهم وأعفوا بعد تنصرهم من كثير من الجبايات(19). كما حاول الملك البرتغالي بعدد من القرارات والقوانين منع هجرة اليهود والإسراع بإدماجهم بالتعهد بعدم التفتيش في تصرفاتهم الدينية، وإعلان المساواة بين المسيحيين الأقحاح والمحدثين منهم(20). وبالطبع، لم يستسغ المسيحيون الأقحاح تلك الإجراءات، خصوصا وأن اليهود المتنصرين استمروا حسب مؤلف معاصر في احتكار نسبة هامة من الثروة الوطنية، وكان أغنياء البلاد من بينهم(21). كما اعترف العاهل البرتغالي نفسه في رسالة مؤرخة في 10 دجنبر 1539 بمدى استفادة خزينة الدولة من خدمات تلك الأقلية التي تدر عليها أكثر مما يدره عليها غيرها، وذلك بفضل أنشطتها التجارية وتجاربها وخبراتها التي جعلت أفرادها أغنى من غيرهم. واعترف كذلك باستفادته الشخصية واستفادة نبلاء بلاده من خبرة تلك الأقلية التي مكنتهم من الرفع من مداخيلهم(22).

---

(18) A. Herculano, *Op. cit.* , I, p. 113, 122 -126; L. Azevedo, *Op. cit.*, p. 25; I.S. Révah, *Op. cit.*, p. 189-191, 200. etc., Seraiva, *Op. cit.*, p. 39 M. Tavares, *Op. cit.*, pp. 483-491.

(19) A. Seraiva, *Op. cit.*, pp. 51 et ss; M.Tavares. *Op. cit.*, pp. 493-495

(20) وذلك برفضه تسليم اليهود المتنصرين المطلوبين من قبل محكمة التفتيش الإسبانية، راجع رسالة الملكين الكاثوليكيين بتاريخ 13 يونيو 1504.

As Gavetas da Torre do Tombo, *Op. cit.*, I, pp. 94-95

وكذا رفضه الاستجابة لطلبهما:

Ibid., I, pp. 11-12, *Cf.* aussi: A. Herculano,*Op. cit.*, I,pp.149-150; I.S.Révah, *Op..cit*,p.192; L. Azevedo, *Op. cit.*, p. 58; A. Saraiva, *Op. cit.*, p. 40; **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, IV, pp. 172-173;. M. Tavares, *Op. cit*.pp. 494-495.

(21) Cité par I.S. Révah, *Op. cit.* pp. 197.

(22) Cité par A. Baião , in: **A Inquisição em Portugal e no Brasil** ...,*Op. cit.*,p.. 22.

وكانت ثروات اليهود المتنصرين وغناهم، وحياة البذخ التي كانوا يحيونها تزعج المسيحيين وتزيد من كرههم لهم، حسبما أكد ذلك إخباري معاصر:

«رغم أنهم عرضة لسخرية الجميع، فإنهم يملكون جل خيرات البلاد التي يعيشون فيها، وذلك رغم أنهم لا يحرثون ولا يغرسون ولا يبنون ولا يحاربون، ورغم أنهم يرفضون كل عمل لا يمكنهم بواسطته غش غيرهم. وبالرغم من خمولهم، كانوا يحتكرون السلطة والشرف والحظوة والمال، وذلك دون أن يخاطروا بأنفسهم، ودون أن يذلوها، أو أن يشتغلوا، بل يكتفون بطريقة دقيقة وسريعة من جني ثمرات جهود الآخرين. يسميهم الناس «ورثة الشعب»، رغم أنه لا يستفيد أحد من مالهم بدون دفع فائدة بنسبة ثمانين في المائة. لم يسبق لهم قط أن قدموا جميلا دون أن يضلوا من يقبله، أو أن يمسوا بشرفه أو ثروته»(23).

وذهب بعضهم إلى حد إرجاع فقر الملك والبلاد إلى «الغنى الفاحش لليهود»(24). ومثل الرهبان وصغار النبلاء، الذين كانوا يجدون صعوبة في ضمان مستوى عيش محترم، أكثر الفئات حقدا وكراهية لليهود(25).

ومن جهة أخرى، كان المسيحيون يتهمون اليهود المتنصرين بالتمسك خفية بدينهم الأصلي، وبكره العقيدة المسيحية والاستهزاء بها، وبإلحاق الأذى والإهانة عن قصد بالمسيحيين الأقحاح وقتلهم. وكان الرهبان يجعلون من النفاق الديني لتلك الأقلية موضوع خطبهم. وحملت العامة تلك الأقلية مسؤولية ما كانت البلاد تعانيه من مشاكل، وأضحت تتحين الفرص للانتقام لنفسها، وقد تم لها ذلك يوم 19 أبريل 1506 بلشبونة حيث أدى الهجوم على «الملاح» ونهبه إلى قتل ما بين ألفين وأربعة آلاف شخص(26).

وجعلت هذه المأساة الملك البرتغالي يقتنع بفشل محاولات إدماج تلك الأقلية، الأمر الذي حدا به في غشت من سنة 1515 إلى طلب إحداث محاكم تفتيش ببلاده شبيهة بالتي كانت موجودة بإسبانيا. وبرر طلبه هذا بنزوح عدد كبير من المسيحيين

---

23) Cité par I.S. Révah , *Op. cit.* , p. 200.
(24) Cité par M. Guerreiro, *Op. cit* . , p. 233.
(25) L. Azevedo, *Op. cit.*, p. 71.
(26) A. Saraiva, *Op. cit.*, p. 49; M. Tavares, *Op. cit.*, p. 497. L. Azevedo, *Op. cit.*, pp. 39,59. A. Herculano, *Op. cit.*,I,pp.139-144;I.S.Révah,*Op. cit.*, p. 193.

المحدثين الإسبان الذين أصدرت تلك المحاكم أوامر باعتقالهم، وبكون جل المسيحيين المحدثين غير صادقين في ردتهم، مما يفرض الضرب على أيديهم. إلا أن الفاتيكان استقبل الطلب البرتغالي ببرودة كبيرة نظرا لوحشية محققي إسبانيا وسمعة تلك المؤسسة السيئة. ومن جهته، لم يجدد العاهل البرتغالي طلبه(27).

لم تتحسن العلاقة بين الطرفين في عهد الملك يوحنا الثالث. بل على العكس من ذلك، تزايد العداء للمسيحيين المحدثين وأصبح رسميا لكون العاهل لم يكن يخفي كرهه للمنحدرين من اليهود(28). وأسهمت الأزمة العامة التي كانت البلاد تتخبط فيها بعد1521، في تعميق العداء بين الطرفين. فكما حدث خلال القرن الخامس عشر، استمر الكورتيس في اتهام المسيحيين المحدثين واعتبارهم أخطر على البلاد من اليهود. فقد تضمنت توصيات الكورتيس المجتمع بمدينة Torres Novas سنة 1525 عددا من الانتقادات الموجهة لتصرفات تلك الأقلية وتجاوزاتها ونفاقها الديني وسخريتها من المسيحية(29). كما كان البعض يقوم بأفعال تستهدف رموز المسيحية لتنسب لتلك الأقلية قصد تحريض العامة ضدها، كما حدث سنة 1528 بمدينة Gouveia التي كان المسيحيون المحدثون يمثلون بها أغلبية السكان(30). وتعددت الاعتداءات والاستفزازات ضد تلك الأقلية خلال سنة 1530. ولم تجد احتجاجات الضحايا آذانا صاغية لدى العاهل البرتغالي(31). واستمرت تلك التصرفات حتى بعد إحداث محاكم التفتيش، كما يشهد على ذلك ممثل البابا في البرتغال سنة 1545(32).

وللاطلاع على نوايا تلك الأقلية ومعتقداتها، استدعى الملك البرتغالي مسيحيا محدثا من الجزر الخالدات سبق له أن قدم خدمات جليلة لمحاكم التفتيش الإسبانية، وكلفه بالتجسس على المسيحيين المحدثين. وقد بادر هذا الشخص إلى التبليغ عن أخيه

---

(27) رسالة الملك أمنويل إلى Miguel da Silva بتاريخ 1515/8/28

As Gavetas ..., *Op. cit.* I, pp. 60- 64.A. Herculano, *Op. cit.*, I, pp. 156-157.F. de Almeida, **História da Igreja** ..., *Op. cit.*, II, p. 382; A. Saraiva, *Op. cit.*, p. 42; L. Azevedo, *Op. cit.*, p. 62, etc.

(28) A. Herculano, *Op. cit.*, I, p. 171.

(29) *Ibid.*, I, pp. 176-177; F. Almeida, *Op. cit.*, p. 383; L. Azevedo, *Op. cit.*, pp. 456-468 .

(30) *Ibid.*, I, pp. 198-199; L. Azevedo, *Op. cit.*, p. 71; F. Almeida, *Op. cit.*, p. 38; A . Herculano, *Op. cit.*, I , pp.198-207.

(31) *Ibid.*, I, pp. 205-207.

(32) **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, p. 296; L. Azevedo, *Op. cit.*, pp.460-461 (annexe n°8),pp. 469-470 (annexe n° 13).

A. Herculano, *Op. cit.*, I, p.216; I.S.Révah , *Op. cit.*, p. 197.

وعدد من أصدقائه، ورفع ثلاثة تقارير إلى العاهل البرتغالي فيما بين 1523 و1524، فضح فيها كل الطقوس اليهودية التي عاين تمسك المسيحيين المحدثين بها(33).

وتضافرت عدة عوامل لتدفع بالعاهل البرتغالي ابتداء من سنة 1525 إلى تقديم طلب إلى البابا قصد الحصول منه على ترخيص بإنشاء محاكم تفتيش ببلاده. فخلال هذه السنة، عقد قران يوحنا الثالث مع حفيدة الملكين الكاثوليكيين التي كانت تعتقد أن خلاص البرتغال يكمن في إنشاء تلك المحاكم(34). كما صادف وصول تلك الأميرة إلى البلاد استقرار جماعة الدومينيك بها. ومعلوم أن تلك الجماعة أسهمت في ترسيخ التعصب الديني بالبلاد(35). وأدى وصول مغامر يهودي إلى البلاط البرتغالي إلى إعلان بعض أعيان المسيحيين المحدثين عودتهم إلى دينهم الأصلي(36).

وهكذا شرع يوحنا الثالث في إعداد الملف اللازم لتعزيز طلبه، كما طلب من محكمة إشبيلية تزويده بنسخة من التهم الموجهة للمسيحيين المحدثين الذين التجأوا إلى البرتغال(37). وخلال شهر أبريل من سنة 1531، أي بعد عشر سنوات من مبايعته، كلف يوحنا الثالث سفيره بروما بأن يطلب من البابا بأكثر ما يمكن من السرعة والسرية الترخيص له بإنشاء محاكم تفتيش تتوفر على الأقل على السلط المخولة لمحاكم إسبانيا، على أن تكون دائمة وتابعة له وحده، يعين قضاتها ويعزلهم. وطالب بأن تكون تلك المحاكم مستقلة عن السلطات الدينية التي لن يكون من حق ممثليها التدخل في المحاكمات، بل على العكس من ذلك، يجب عليهم أن يكونوا في خدمة المحققين وأن ينفذوا تعليماتهم وأوامرهم. والتمس كذلك أن تكون سلط المحققين، الذين سيختارون من بين رجال الدين، شاملة وبدون حدود. ولمساعدتهم في مهامهم، طلب تعيين رجال قانون تكون لهم نفس سلط رجال الدين(38). كما طالب بأن تكون محكمة

---

(33) نشرت تلك التقارير بـ
As Gavetas..., *Op. cit.*, I, pp. 103- 118 .
وتوجد الإشارة إلى تمسك المسيحيين المحدثين سريا بدينهم الأصلي بالصفحات: 107 - 108.
وعن شخصية المسيحي المحدث الذي كلفه الملك بالتجسس على إخوانه، راجع:
A. Herculano, *Op. cit.*, I, pp. 184-189.

(34) I.S. Révah, *Op. cit.*, p. 198.

(35) *Ibid.*, loc. cit. **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, p. 296.

(36) I.S. Révah, *Op. cit.*, p. 198; L. Azevedo, *Op. cit.*, pp. 68-71.

(37) *Ibid.*, loc. cit.

(38) A. Herculano, *Op. cit.*, I, p. 212; F. Almeida , *Op. cit.*, p. 384. **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, p. 271.

التفتيش تحت إشراف مفتش عام يفوض سلطته للقضاة ويعين موظفي المحاكم ويعزلهم. وسيكون بإمكان المحققين البحث في تصرفات أي شخص ومحاكمته دون عوائق. كما يمكنهم تجريد كل شخص متهم بالهرطقة من كل ألقابه وامتيازاته، سواء كان من رجال الدين أو غيرهم. وطلب كذلك أن يكلف القضاة بمحاربة كل مظاهر الهرطقة والردة، وما يعتبر مسا بالمقدسات أوقذفا في حق الدين، أو تعاطيا للسحر والتنجيم... وأن تكون العقوبات مناسبة لخطورة الإثم، تتراوح بين التكفير والطرد من الجماعة، والعفو المتبوع بالتوبة والتكفير عن الخطايا...(39).

وهكذا تكون المحاكم المطلوبة مخالفة لما عرفته بعض أطراف أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى، وشبيهة بما كان معمولا به في إسبانيا(40). ولعل أهم ما كان الملك البرتغالي يهدف إليه، هو وضع تلك المحاكم تحت إشرافه المباشر ليجعل منها سلاحا سياسيا فعالا، ووسيلة من وسائل الحكم.

وقد اختلف المؤرخون بشأن الدوافع التي حدت بالعاهل البرتغالي إلى طلب إحداث تلك المحاكم التي كان لها انعكاس سلبي على البلاد. فحسب A.Herculano، كانت الدوافع شخصية نظرا لتعصب العاهل البرتغالي وكرهه لليهود والمسيحيين المحدثين. إلا أن أحدث الدراسات أعطت الأسبقية للعوامل الاقتصادية والاجتماعية(41).

وقبل عرض المقترح الملكي على البابا، حاول السفير البرتغالي كسب مساندة بعض الكردينالات النافذين بالفاتيكان، كـ : Santiquatro، إلا أنه فوجئ بمعارضة عنيفة لمقترحه. كما أن إقامة ممثل المسيحيين المحدثين بروما، الذي أخبر الفاتيكان بردة اليهود تحت الإكراه، وبانعكاس ذلك على حياتهم الدينية، جعلت مهمة السفير البرتغالي شبه مستحيلة(42). وفرضت تلك العوائق على يوحنا الثالث إيفاد سفير جديد (Luís Afonso) إلى روما في شتنبر 1531، ومكاتبة الكاردينالين Osma و Santiquatro

(39) Lettre de Jean III à Brás Neto, in: **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, pp. 271-273.
(40) B.Bennassar et all. **L'Inquisition Espagnole, XV-XIX ème siècles**, Paris, Hachette, 1979.
(41) J. S. da Silva Dias, *Op. cit.*, II, pp. 750, 764.
(42) A. Herculano, *Op. cit.*, I, p. 217; F. de Almeida, *Op. cit.*, p. 385;L. Azevedo, *Op. cit.*, pp. 69-70.

وحثهما على مساندة طلبه(43). ولإقناع مخاطبيه، جعل يوحنا الثالث بلده مستهدفا للردة والهرطقة، وأشار إلى حالات اليهود المتنصرين الذين عادوا إلى دينهم الأصلي، وإلى المسيحيين الذين اعتنقوا اليهودية، وذكر بالخطر الذي يمثله الإصلاح الديني على العقيدة الكاثوليكية، ونبه إلى تكاثر السحرة بالبلاد(44).

ورضخ البابا لضغوط العاهل البرتغالي وأعلن يوم 17 دجنبر 1531 البراءة "Cum ad nihil magis" التي سمحت ليوحنا الثالث بفتح محكمة تفتيش في البرتغال والمناطق التابعة له، وجعلها تحت إشراف أسقف سبتة Fr.Diogo da Silva(45). وخول البابا للمحكمة سلطا استثنائية للبحث في تصرفات المسيحيين واعتقال ومحاكمة من توفرت لها قرائن ضده، وذلك دون إذن مسبق من الأساقفة. كما جعلت البراءة المذكورة سلط المحكمة تطال كل الأشخاص بدون استثناء. وسمح البابا للمفتش بتعيين موظفي المحكمة(46).

إلا أن المحقق المعين فاجأ الجميع برفضه للمنصب المقترح. وفي الوقت الذي بدأ فيه يوحنا الثالث يفكر في اقتراح محقق جديد على البابا، وصلت إلى الفاتكان شكاوي المسيحيين المحدثين الذين أقفلت في وجههم أبواب الهجرة ولم يبق لهم إلا البابا للاحتماء به. وكللت تدخلات ممثلهم بالنجاح، إذ أعلن هذا الأخير يوم 17 أكتوبر 1532 منشوره الذي ألغى العمل بمحاكم التفتيش في البرتغال، وجعل حدا لاضطهاد المسيحيين المحدثين(47). وقد برر البابا موقفه هذا بكون براءته التي أحدثت محكمة التفتيش تتناقض وتعهدات العاهل البرتغالي وسلفه التي سبق لهما تقديمها لتلك الأقلية(48). وشمل منشور بابوي جديد حرر يوم 7 أبريل 1533 اليهود المتنصرين بعفو عام. وبررت تلك الوثيقة الموقف الجديد للفاتيكان. فقد تضمنت أولا أسفا لتضليل

(43) *Ibid.*, I, pp. 221-222.
(44) F. Almeida, *Op. cit.*, p. 386.
(45) A. Herculano, *Op. cit.*, I, p. 222.
(46) Texte latin in : **As Gavetas** ...., *Op. cit.*, I, pp. 97-103; *cf.* aussi:A. Herculano, *Op. cit.*, I, 223-224.
(47) **As Gavetas** ..., *Op. cit.* I, pp. 280-284, 285-295; IV, pp. 99-108; A; Herculano, *Op. cit.*, I, pp. 231-232. Bref: " Nuper Fidei Catholica" , A. Herculano, *Op. cit.*, I, pp. 252- 253; F. Almeida, *Op. cit.* , p. 387.
(48) F. Almeida, *Op. cit.*, p. 388 et note 1.

البابا بالمبالغة في ذكر خطورة الهرطقة في البرتغال، وبالسكوت عن قصد عن ذكر إكراه اليهود على التنصر. لقد اعتبر البابا أنه بتعميد كهذا، لا يمكن لليهود إلا أن يكونوا منافقين في عقيدتهم، وأن ذلك سينعكس على عقيدة أبنائهم. ولتفادي تلك الوضعية، اعتبرت البراءة تنصر اليهود لاغيا، وخولت لمن توبع منهم بتهم دينية إمكانية رفع شكوى إلى البابوية. كما أوصى البابا بالتسامح والرأفة تجاه كل من تنصر عن طيب خاطر. وخول البابا لنفسه حق النظر في كل حالات الردة والهرطقة، وأمر بإلغاء كل المحاكمات الجارية، باستثناء تلك التي تخص من اعتقل للمرة الثانية لنفس الخطيئة(49).

ولمتابعة تنفيذ تعليماته ونشر براءته بالبرتغال ومستعمراته، عين البابا ممثلا عنه في لشبونة، (Marco de la Ruvere) وصلها في شتنبر 1532. وأعلن ممثل البابا البراءة المذكورة التي ضمنت العفو لكل من سيقبل خلال ثلاثة أشهر إذا كان مقيما في البلاد، وأربعة إذا كان غائبا، سواء كان برتغاليا أو أجنبيا، ذكرا أو أنثى، معتقلا أو طليقا، للاعتراف بخطاياه لممثل البابا ونوابه. وطالبت البراءة بإطلاق سراح المعتقلين وبالسماح لمن غادر البلاد بالعودة. وحددت البراءة بداية مدة العفو بتاريخ التسريح أو الإذن بدخول البلاد. كما منعت مصادرة أملاك المتهمين وإلزامهم بما يؤدي إلى تهميشهم والمس بكرامتهم. كما شمل العفو العام من حوكم قبل صدور تلك البراءة، حتى ولو لم يسبق له الاعتراف بخطاياه. وحتى الذين عادوا إلى اقتراف نفس الخطايا التي سبق لهم أن حوكموا بسببها، منحت لهم فرصة أخيرة تمثلت في مراجعة محاكمتهم من لدن ممثل البابا. وهددت البراءة كل من عاكس تطبيق ما ورد بها بالتكفيروالطرد من الجماعة المسيحية. كما أمر ممثل البابوية باللجوء إلى السلطات المدنية لجعل حد لكل مقاومة. وناشد البابا الملك مساعدة ممثله في تنفيذ تعليماته. وتفاديا لأي تناقض بين البراءتين، اعتبر البابا براءة سنة 1531 لاغية(50).

(49) Texte latin in: **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, pp. 202-210, analysé par A. Herculano, *Op. cit.*, II, pp. 12-18;F. Almeida, *Op. cit.*, pp.388-389.

(50) A. Herculano, *Op. cit.*, I, pp. 245-247,II, pp. 12-20; F. Almeida *Op. cit.*, p. 387-389.

وأزعجت هذه البراءة يوحنا الثالث، الذي عبر لممثل الفاتكان عن غضبه وطالب بإلغائها(51). وفي نفس الوقت، سارع إلى إرسال مذكرة إلى البابا تنتقد بتفصيل محتوى تلك البراءة، وتحاول أن تقنعه بضرورة إحداث تلك المحاكم، وأن تطمئنه على المعاملة التي سيخص بها المتهمين(52).

إلا أن كل الاقتراحات التي قدمها يوحنا الثالث لم تجد آذانا صاغية بروما، بل على العكس من ذلك، أرسل البابا في نهاية يوليوز رسالة إلى ممثله أمره فيها بتطبيق ما ورد ببراءة العفو العام، وبالتدخل لدى السلطات البرتغالية قصد إلغاء قانون يونيو 1532 الذي يمنع المسيحيين المحدثين من مغادرة البلاد خلال ثلاث سنوات(53). وسرعان ما دخل ممثل البابا مع يوحنا الثالث في صراع بلغت أصداؤه إلى علم البابا الذي أكد مرة أخرى ما ورد في براءته السابقة، وحث الملك البرتغالي على الامتثال(54). وعرض البابا براءته على رجلي قانون من جامعة بولون اعتبراها شرعية ومبررة(55). وبذلك صعب على السفير البرتغالي الجديد بروما، (Dom Henrique de Meneses) الدفاع عن أطروحة وموقف ملكه.

وكان من أهم التعليمات التي أعطيت للسفير الجديد التأكيد على دوافع طلب إحداث تلك المحاكم، وعلى امتعاض عاهله من إلغاء العمل بمحكمة التفتيش بدون مبرر، ومن كون البابوية لا تأخذ إلا برأي المسيحيين المحدثين. كما كان على السفير دحض أطروحات المسيحيين المحدثين والتأكيد على الحقوق والامتيازات التي يستفيدون منها في البرتغال، وانتقاد البراءة نفسها والتأكيد على كونها غير ضرورية نظرا للضمانات العديدة المخولة لهم. وأوصى الملك سفيره بتنبيه البابا إلى أن الرأي العام يعتبر أن المسيحيين المحدثين حصلوا على تلك البراءة بفضل ما وزعوه من رشاوي بالفاتيكان، وأن عدم إلغائها سيزكي تلك الإشاعات(56). كما اقترح العاهل البرتغالي مسطرة جديدة للمحكمة في حالة ما إذا رفض البابا إلغاء العمل ببراءته،

(51) F. Almeida, *Op. cit.*, p. 389.
(52) **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, pp. 235-241. *Cf.* aussi: A.Herculano, *Op. cit.*, II, pp. 21-31. F. Almeida, *Op. cit.*, pp. 389-392.
(53) A. Herculano, *Op. cit.*, II, p. 23; F; Almeida , *Op. cit.*, p. 390.
(54) F. Almeida, *loc. cit.*
(55) A.Herculano,*Op. cit.*, II, p. 26.
(56) **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, p. 265. Pour l'ensemble de ces instructions, *Ibid.* , II, pp. 263-266.

وألح إلى أنه سيرفض تطبيق البراءة في حالة ما إذا لم تستجب البابوية لمقترحاته. وأوصى في الأخير سفيره بالإلحاح على ضرورة العمل من جديد بمحكمة التفتيش التي قننتها براءة سنة 1531، واقترح اسم خلف المفتش العام المستقيل(57).

إلا أن تلك الاقتراحات لم تحظ باستحسان مستشاري البابا الذين لم تقنعهم حجج العاهل البرتغالي ورفضوها لثلاثة أسباب. فقد اعتبروا أولا أن تعميد اليهود لاغ لكونه تم تحت الإكراه، واعتبروا ثانيا أن رجال الدين البرتغاليين قصروا كثيرا ولم يقوموا بواجبهم في جعل أولئك المرتدين يتمسكون بدينهم الجديد، وعوض أن يفعلوا ذلك، أضحوا يعملون على اضطهادهم ومصادرة أملاكهم. أما السبب الثالث، فتمثل في إحداث محاكم التفتيش بناء على تبليغات كاذبة، تخفي عن قصد ما يعاني منه اليهود المتنصرون. وأوضح أولئك الحقوقيون أن البابا، بإلغاء العمل بمحكمة التفتيش، لم يقم إلا بما يمليه عليه واجبه، واقتصر في الحقيقة على تنفيذ الامتيازات التي خولها الملك أمنويل لتلك الأقلية، والتي أكدها يوحنا الثالث بدوره(58).

وعبر السفيران البرتغاليان عن يأسهما في رسالة إلى يوحنا الثالث(59). وكان ما حصلا عليه منشور بابوي أقل صرامة مما كان ينوي اتخاذه. ففي رسالة مؤرخة في 2 أبريل 1534، أطلع البابا الملك البرتغالي على الدوافع التي حالت دون قبول اقتراحاته، وعبر عن أمله في أن يطيع مخاطبه أوامره(60).

وفي رسالة بتاريخ 8 أبريل، أخبر البابا ممثله بلشبونة بفحوى الرسالة الموجهة ليوحنا الثالث، وأمره بتنفيذ ما تضمنته البراءة طالما أن العاهل البرتغالي لم يعد يعارضها. وهدد البابا ممثله ومساعديه بعقاب صارم في حالة توصلهم بمقابل أو هدية عن تحرير أية وثيقة(61).

---

(57) **As Gavetas** ..., *Op. cit.* I , pp. 57-60; A. Herculano, *Op. cit.*, II. pp. 27-31; F. Almeida, *Op. cit.*, pp. 391- 392.

(58) **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, p. 169. A. Herculano, *Op. cit.*, II, pp. 41-42; *Cf.* aussi F. Almeida, *Op. cit.*, p.393.

(59) Lettre de H. de Meneses à Jean III datée du 10 avril 1534, in : **As Gavetas** ..., *Op. cit.*, I, pp. 670-674

(60) A. Herculano , *Op. cit.*, II, pp. 44-45.

(61) Publié en Portugais in: **As Gavetas** ..., *Op. cit.*,I, pp. 181-182.A. Herculano, *Op. cit.*, II, pp. 60-61,

وعن الترجمة البرتغالية لذلك المنشور، تراجع:

As Gavetas ..., *Op. cit.*, I,pp.131-133

وعن التعليمات الجديدة:

As Gavetas, III, pp.114-118; A. Herculano, II, p.65 F. Almeida,*Op. cit.*, p. 394.

وفي 25 شتنبر 1534 توفي البابا (كْلِيمَانْتِ السابع) (Clément VII)، وانتخب خلفه بول الثالث يوم 13 أكتوبر. وبعد يومين استقبل السفيرين البرتغاليين وسفير الإمبراطور الإسباني والكاردينال Santiquatro الذي كان يدافع عن أطروحة يوحنا الثالث. وسلم له السفراء رسالتين من ملكيهم، وأطلعوه على شكاوي العاهل البرتغالي. وطلب البابا الجديد مهلة للاطلاع على الموضوع(62).

وخلال اجتماع ثان، طالب السفيران البرتغاليان بإلغاء براءة 26 يوليوز إلى حين الاستماع إلى رأي الملك البرتغالي. وفي اليوم التالي كان السفيران والكردينال السابق الذكر وقحين مع البابا وبعض مساعديه الذين تعرض بعضهم للعنف في حضور البابا، واتهموا بالتوصل برشاوي من المسيحيين المحدثين(63). وقد كلف البابا أسقفين بدراسة حجج الطرفين وإطلاعه على استنتاجاتهما(64). وعلى إثر ذلك قرر في نونبر 1534 إلغاء العمل بالقرارات التي اتخذها سلفه، كما أمر بجعل حد لمحاكمات اليهود المتنصرين وتسريح المعتقلين، باستثناء من اعتقل للمرة الثانية. وكلف البابا كاردينالا لم يكن متحمسا لإحداث محاكم تفتيش بدراسة ملفي اليهود المتنصرين وتلك المحاكم. وأدى وصول الوثائق الأصلية للتعهدات التي سبق لملكي البرتغال تقديمها لتلك الأقلية إلى وضع السفيرين ومساندهما في حرج كبير، مما لم يسمح لهم بتحقيق أي مكسب(65).

وفي 17 مارس 1535 أخبر البابا الملك البرتغالي باستحالة الاستجابة لمطالبه، ونصحه باحترام تعهداته وتعهدات أبيه لرعاياه المنحدرين من أصل يهودي، وطلب منه تطبيق القرارات التي اتخذها البابا السابق(66). وفي نفس الوقت، كاتب ممثله بلشبونه وأمره بتطبيق مقتضيات العفو الذي سبق للبابوية إصداره(67).

إلا أن العاهل البرتغالي تمادى في عناده. فعوض إطلاق المحققين سراح اليهود المتنصرين، أمروا باعتقالات جديدة(68). ولما علم البابا بذلك أعطى لممثله تعليمات

(62) A. Herculano , *loc . cit.*
(63) *Ibid.*, pp. 25-26; F; Almeida, *Op. cit.* p. 394.
(64) *Ibid.*, p . 69.
(65) **As Gavetas**. ..I, pp. 95-97, 197-199 ; F. Almeida, *Op. cit.*, p. 395.
(66) *Ibid*, I, p.221.
(67) *Ibid*, I, pp 210-211
(68) *Ibid*, p.98

جديدة، و أمره أن يطلب من الملك البرتغالي أن يفصح عن موقفه من القرارت البابوية، وأن يحقق في التجاوزات التي تنتج عن تطبيق قانون يونيو 1532 الذي يمنع المسيحيين المحدثين من مغادرة البلاد، والعمل على إلغائه أو على الأقل عدم تجديد العمل به(69). وفي نفس الوقت، كاتب الملك البرتغالي وأخاه (دون أفونصو)، أسقف لشبونة، وعبر لهما عن غضبه لعدم احترام يوحنا لقرارات البابوية(70).

وبذلك يكون المسيحيون المحدثون قد انتصروا على ملكهم في هذه المعركة التي استعمل فيها كل طرف ما توفر له من وسائل الإقناع والإغراء ومن كذب ومال(71).

لم يكن يوحنا الثالث ممن يتراجعون بسهولة. فقد اعتبر أن تغير موقف البابوية يعود إلى المعلومات التي ينقلها ممثل البابوية إلى روما. ولكي يظهر بأنه لم ينهزم ولم يرضح، أعاد العمل بقانون يونيو 1532(72). ورد البابا على ذلك القرار بقرار أصدره يوم20 يوليوز 1535 بهدف حماية المسيحيين المحدثين من عسف مسطرة محكمة التفتيش، وذلك بالسماح لهم باختيار محامين للدفاع عنهم، دون أن يتعرض هؤلاء لتهمة التواطؤ(73).

لم يتمكن ممثل البابا من تنفيذ التعليمات البابوية، ومن التوصل برد الملك على اقتراحات الفاتكان الأخيرة. وطالب يوحنا الثالث، الذي ساءت علاقته بممثل البابا، بعزل هذا الأخير لكونه كان حسب ادعاء الملك عنصرا مشاغبا. كما بعث لسفيريه ملفا يتضمن اتهامات بإرشاء المسيحيين المحدثين له(74). وفي نفس الرسالة، أمر الملك سفيريه بالتدخل لدى البابا لدفعه إلى مراجعة بعض النقط الواردة في براءات العفو وبمسطرة محكمة التفتيش التي اقترحتها البابوية(75).

وحرصا من البابا على توحيد الدول المسيحية ضد الأتراك، ووعيا منه بوزن العاهل البرتغالي، حاول جعل حد للخلاف معه. وبذلك أضحى يوافق على إحداث

(69) *Ibid*, loc. cit;
(70) F. Almeida, *Op. cit.*, p. 397.
(71) A.Herculano, *Op. cit.*, II, I, p 248; II, pp 24, 50, 140, 142-145.
(72) *Ibid*, II, p 102.
(73) A. Herculano, *Op. cit.*, II, p 103, ; F.Almeida, *Op. cit.*, p. 398 et note 1.
(74) A. Herculano, *Op. cit.*, I, p.105; **As Gavetas**, *Op. cit.*, I, pp. 220-221; L.Azevedo, *Op. cit*.pp 86-89.
(75) **As Gavetas**, I, pp 235-241.

محاكم التفتيش في البرتغال، شريطة الحد من نشاطها. لذلك خير الملك بين محكمة تفتيش تتبع المسطرة المدنية وتمتنع عن مصادرة الممتلكات، ومحكمة تفتيش حرة تخول مع ذلك للمتهمين فرصة الاستئناف لدى ممثل البابوية، أو أخيرا محكمة تفتيش تصبح حرة بعد إعلان عفو عام لمدة سنة يسمح خلالها بالهجرة لمن يرغب في ذلك(76). إلا أن كل هذه الاقتراحات لم ترض الملك البرتغالي الذي كان يرغب في الأمرين معا : إحداث محاكم تفتيش حرة، والاحتفاظ بالمسيحيين المحدثين بالبلاد. ورد البابا على موقف الملك وعلى التحرشات والتهديدات التي كان المسيحيون المحدثون عرضة لها من قبل الرهبان والأمراء أحيانا، بتجديد العمل بالعفو العام لسنة أخرى، من خلال منشور مؤرخ في 12 أكتوبر(77).

ولإكراه البابا على الرضوخ لرغباته، قرر الملك البرتغالي اللجوء إلى شارل الخامس الذي كان يقيم بإيطاليا. واستجاب الإمبراطور لرغبة العاهل البرتغالي وأمر سفيره لدى البابا بالتدخل(78). وبالفعل، تراجع هذا الأخير بعد مقاومة قصيرة قبل وصول الإمبراطور إلى روما، وأعلن يوم 23 أبريل 1536 براءة " Cum ad nihil magis" التي أنشئت بمقتضاها أول محكمة تفتيش في البرتغال.

عين البابا ثلاثة محققين، وهم أساقفة لميكو(Lamego) وكوينبرة (Coimbra) وسبتة، وترك للملك حق اختيار محقق رابع. كان العاهل البرتغالي يرغب في تعيين الأسقف الأول مفتشا عاما، إلا أن البابا فضل عليه أسقف سبتة، Diogo da Silva، نظرا لطبعه الهادئ وميله إلى الاعتدال. وكلفت البراءة المحققين بالبحث في التصرفات الدينية للمسيحيين المحدثين بعد انتهاء مدة العفو، وباعتقال ومحاكمة من تمسك سريا بدينه الأصلي، أو اعتنق مبادئ الإصلاح الديني أو أي نوع من أنواع الهرطقة. كان على المحققين التنسيق مع رجال الدين، وكان من حق هؤلاء التدخل لصالح الحاكمين في أية لحظة. وألزم المحققون بالعمل لمدة ثلاث سنوات ابتداء من تاريخ إعلان البراءة بالمسطرة المدنية، على أن يعتمدوا بعد ذلك على مسطرة محكمة التفتيش. ومنع البابا مصادرة ممتلكات المتهمين خلال السنوات العشر الأولى من عمر المحكمة.

---

(76) A.Herculano, *Op. cit.*,II, pp 108-109.
(77) *Ibid*, II, p 142, *cf.* aussi: **As Gavetas**, X,p 626.
(78) *Ibid*, II, pp 133-138.

واعترفت البراءة للمحققين باستقلالهم عن السلطات الدينية، وخولت للملك حق تعيين المفتش العام وباقي موظفي المحكمة، ومنعت كل مقاومة أو معارضة لقرارات المحققين، وألغت الامتيازات والقرارت البابوية السابقة. إلا أنها حرصت على ضمان بعض شروط الدفاع للمتهمين، وذلك بإلزام المحققين بإعلان أسماء المبلغين بدون استثناء(79).

قبل Diogo da Silva منصب المفتش العام يوم 5 أكتوبر 1536 بمحضر الملك والأعيان. وتم الإعلان بيابرة يوم 22 من نفس الشهر عن البراءة بحضور الملك. وبالمناسبة صدر «منشور العقيدة» (Edital da fé) الذي أعلن المفتش العام بواسطته عن عفو عام لمدة ثلاثين يوما(80)، وأمر فيه كل من سبق له اقتراف إثم أو خطيئة ما، أن يتقدم لمحكمة التفتيش للاعتراف وطلب العفو. وضمن البلاغ المذكور العفو والمغفرة لكل من يمتثل لذلك من تلقاء نفسه خلال تلك المدة، وأعفاه من الاعتقال أو المحاكمة، وألزمه فقط بالتكفيرعن خطاياه بأمر من المحققين. وتوعد المفتش العام من امتنع عن ذلك خلال الفترة المذكورة بالعقاب المخصص لمن سولت له نفسه الخروج عن تعاليم الكنيسة.

ومن جهة أخرى، دعا المفتش العام كل المسيحيين بدون استثناء إلى التبليغ بكل الأشخاص، أحياء كانوا أو أمواتا، الذين قد يكونون شاهدوهم يقومون بما يتنافي ومبادئ المسيحية. وعلى المبلغين أن لا يسكتوا عن قريب أو إبن أو صديق، وأن يخبروا المحكمة بكل ما قد يسمعونه عن هرطقة الأشخاص الآخرين(81).

وفي يوم 18 نونبر، نشر المحقق العام بيانا جديدا تضمن بتفصيل كل الطقوس التي تعتبرها محكمة التفتيش هرطقة وكفرا يعاقب عليهما. وقد تضمنت تلك الوثيقة لائحة مفصلة للطقوس اليهودية والإسلامية والبروتيستانتية، والتي تتعلق بالسحر ...إلخ.(82). وبعد يومين كاتب المفتش العام السلطات المدنية بالأقاليم، وطلب منها مد يد المساعدة للمحققين وتنفيذ تعليماتهم(83).

---

(79) **As Gavetas**, I, pp. 192-197 (texte latin), *cf.* aussi: A.Herculano, *Op. cit.*, II, pp 146-149; F.Almeida, pp.401-402.

(80) A.Herculano, *Op. cit.*, II, pp. 151_152; F.Almeida, pp.402-403; I.Révah, pp 204-205.

(81) F. Almeida, *Loc.cit.*

(82) **Monitório do Inquisidor Geral**, *doc.cit.*, fol; 4r°-6v°.

(83) F.Almeida, p. 404.

وكون المفتش العام المجلس العام لمحاكم التفتيش الذي ضم أربع شخصيات أدت اليمين على أن تكون عادلة، وأن تحتفظ بالسر، وأن تمتنع عن التوصل بهدايا من المعتقلين أو أن تتوسط لهم. وقد شرعوا في بداية 1537 في التوصل بأولى التبليغات(84).

ويبدو أن المحكمة مالت خلال الثلاث سنوات الأولى التي ترأسها أسقف سبتة إلى الاعتدال. ويعود ذلك فيما يبدو لطبع المفتش العام، وإلى توصيات البابا وبعض مساعديه(85). كما أن اتباع المسطرة المدنية والإفصاح عن أسماء المبلغين وفر للمحاكمين فرصة دفاع حقيقي عن النفس. لذا كانت المحاضر التي تعود إلى هذه الفترة قليلة جدا(86).

ولم يطمئن المسيحيون المحدثون، رغم هذا الطابع الذي اتخذته المحكمة، خصوصا وأن لائحة الخطايا تضم أفعالا ترتبط بالعادات والثقافة الشعبية أكثر مما ترتبط باليهودية. لذا تدخل أعيانهم لدى الملك واشتكوا من كثرة الخطايا التي يتضمنها «منشور العقيدة»، مما يعرضهم جميعا للاعتقال والمحاكمة حتى ولو كانوا صادقين في ردتهم، وطالبوا بتمديد فترة العفو لمدة سنة أخرى لكي يتمكنوا من نسيان عاداتهم وتقاليدهم التي تعتبر هرطقة، ونبهوا إلى أنه بدون ذلك العفو، فسيضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة بالرغم من كل الاحتياطات التي قد تتخذها الدولة(87).

وبما أن يوحنا الثالث لم يول أي اهتمام لتلك الشكاوي، فإنهم التجأوا إلى البابوية بواسطة ممثليهم بروما ورفعوا إليها انتقاداتهم لقائمة الخطايا التي اعتبروها غير شرعية وغريبة. كما اشتكوا من براءة 1536 التي ألغت العفو العام، واحتجوا على تعيين الكردينال Santiquatro في موقع يجعل منه الخصم والحكم، مع أنه لا يخفي مساندته لأطروحات الملك البرتغالي. كما ذكروا البابا بأن منع اليهود المتنصرين من الهجرة ومغادرة البلاد يتنافي والشرائع الدينية والدنيوية. وانتقدوا أيضا السلطات المخولة للملك البرتغالي والمحقق العام بتعيين المحققين وموظفي المحاكم، وطالبوا

---

(84) *Ibid*, loc. cit.
(85) A.Herculano, II, pp. 156-157, As Gavetas, I, p.763.
(86) Révah, p.207
وانظر كذلك جدول تطور عمل المحققين في الفصل اللاحق.
(87) **As Gavetas**, I, pp 261-263, A.Herculano, II, pp. 158-159.

بأن تخول تلك السلطة للأساقفة. كما انتقد ممثلو المسيحيين المحدثين اتباع محاكم التفتيش للمسطرة المدنية لثلاث سنوا ت فقط، والتخلي عن مصادرة الممتلكات لمدة عشر سنوات لا غير، كما انتقدوا انتزاع سلطة مراقبة عمل المحققين من لدن الأساقفة، وإمكانية تعيين المحققين ابتداء من سن الثلاثين، مع أن القانون الكنسي ينص على الأربعين.

ومن جهة أخرى، طالب ممثلو اليهود المتنصرين بأن تصبح سجون محاكم التفتيش محلا للحراسة النظرية لا محل عقاب، وأن يسمح بالزيارة فيها. كما احتجوا ضد الاعتقالات التعسفية وضد التعذيب المبالغ فيه، وضد مسطرة الاستئناف المحدودة والغامضة في رأيهم(88).

وأمام تلك الشكاوي والاحتجاجات، كلف البابا أسقفين بدراسة براءة 1536 من جديد. وكان ذلك دليلا على تحول في موقف البابا الذي سرعان ما عبر عنه لـ : Santiquatro(89). وهكذا بعث لممثله الجديد بلشبونة، الذي كان يستعد للالتحاق في البرتغال، بمنشور بابوي مؤرخ في 9 يناير 1537 حدد فيه الإجراءات الواجب اتخاذها للحد من تجاوزات المحققين، كان أهمها بدون شك تخويله حق التدخل في المحاكمات لمراقبة المحققين، وإلغاء العمل بمحاكم التفتيش في حالة ما إذا تعرض لأية مضايقة. كما تضمن المنشور المذكور انتقادا لاذعا للمنع الذي يحرم المسيحيين المحدثين من مغادرة البلاد، مما يعرضهم لوضعية أسوأ من وضعية العبيد(90).

وخلال نفس السنة، صدر منشوران بابويان آخران جعلا حدا لمنع اليهود المتنصرين من الهجرة، وخولا ضمانات لحاميهم(91)، إلا أنهما بقيا حبرا على ورق لرفض يوحنا الثالث تطبيقهما. بل على العكس من ذلك، استمر في المطالبة بمحكمة تفتيش حرة، وبإعفاء ممثل البابا من مهامه بدعوى مضايقته لعمل المحققين من خلال تدخلاته في المحاكمات وقرارات العفو التي يصدرها لفائدة كل من يطلبها(92). وفي هذه الظروف، أضحى الفاتكان يفكر خلال سنة 1538 بجدية في إلغاء العمل بمحكمة التفتيش في البرتغال(93).

(88) A. Herculano, II, pp.160-162; F.Almeida, pp. 407-408.
(89) *Ibid,* 164.
(90) *Ibid,* 167; F.Almeida, pp 408-409.
(91) F.Almeida, 409.
(92) A.Herculano, II, 177-178; F.Almeida, 409; L.Azevedo, 87.
(93) A.Herculano II, 177 .

وعين الملك سفيرا جديدا بالفاتيكان، (Pedro de Meneses)، الذي التحق به سنة 1538. وكان من التعليمات الموجهة إليه، العمل على إقناع البابا بإبعاد المعادين لمحكمة التفتيش من بين مستشاريه، وتعويضهم بمدافعين عن وجهة نظر الملك البرتغالي، الأمر الذي تمكن منه بسهولة(94).

وخلال السنة التالية، وقع بالبرتغال حدث أجج العداء للمسيحيين المحدثين. ففي صباح أحد الأيام، عثر على ملصقات بأماكن عامة من العاصمة وبباب كتدرائيتها تتضمن قذفا وشتما في حق المسيحية، وتعلن عن قرب ظهور المسيح. وفي الوقت الذي كان فيه القضاء المدني ومحكمة التفتيش بصدد البحث عن الفاعلين، وعد الملك من يبلغ عن الفاعلين بمكافأة بلغت عشرة آلاف كروزادو، وهو مبلغ خيالي آنذاك. واعتقل مسيحي محدث كان يدعي أنه مسيحي قح وأحرق، دون أن تتمكن السلطات من العثور على ما يؤكد أن الأمر يتعلق بمؤامرة تستهدف العقيدة المسيحية(95). إلا أن الملك البرتغالي عمل كل ما أمكنه لاستغلال الحدث وانتزاع محكمة تفتيش حرة من البابا. لذا أوعز للمفتش العام بتقديم استقالته وعوضه بأخيه الذي لم تكن سنه تتجاوز السابعة والعشرين(96). ونتج عن هذا التعيين خلاف مفتوح مع ممثل البابوية(97). ومن جهته، رفض الفاتكان الاعتراف بذلك التعيين لكون المستفيد منه أخا الملك، وكذا لكون سنه دون السن القانونية(98). وفي هذه الظروف التي لم تكن لصالح العاهل البرتغالي، حاول ممثلاه رشوة أكثرما يمكن من المقربين للبابا، وخصوصا من أفراد عائلته، ومن له تأثير معين عليه(99). ورغم وقاحة ممثلي الملك والكردينال Santiquatro، ورغم لجوئهم للعنف حتى مع البابا(100)، لم يغير هذا الأخير رأيه، وأصدر يوم 12 أكتوبر 1539 براءة كررت ما ورد ببراءة سنة 1536 وأضافت إليها، نزولا عند رغبة المسيحيين المحدثين، ضمانات جديدة لفائدة المتهمين(101). إلا أن تلك البراءة لم تنشر في البرتغال لرفض الملك لمقتضياتها(102).

(94) *Ibid*, II, pp. 119-123, 132-133, 180-181; L.Azevedo, 93.
(95) *Ibid*, II, 181-185; Almeida, 410.
(96) *Ibid*, II, 186-187.
(97) *Ibid*, II, 195-198.
(98) *Ibid*, II, 203; Almeida, 410; **As Gavetas**, I, 617-618.
(99) **As Gavetas**, I, 174, 622, 667, A.Herculano, II, 200-201; L.Azevedo,94-95, 106-107.
(100) Almeida, 411; Herculano, II, 203-209.
(101) Herculano, II, 222-225, Almeida, *loc.cit*.
(102) *Ibid*, II, 237-238.

ولم تجد نداءات البابوية من أجل سياسة أكثر تسامحا آذانا صاغية لدى حكام لشبونة، بل على العكس من ذلك، يبدو أن الملك اتخذ مواقف أكثر صرامة من رعاياه المتنصرين، كما يتجلى ذلك من خلال إصراره على الاحتفاظ بأخيه على رأس المحكمة، ومن خلال ميل هذه الأخيرة نحو الصرامة والقسوة، كما عكس ذلك تزايد أعداد المحاكم التي أصبحت سنة 1541 ستا، وكذا تزايد عدد المحاكمين ابتداء من نفس السنة، وبروز نوع من المهدوية لدى اليهود المتنصرين الذين أضحوا بسبب يأسهم ينتظرون ظهور المنقذ والمخلص(103). ورغم ذلك، استمر غضب وانزعاج يوحنا الثالث من العفو المعلن عنه من لدن البابا وممثله(104). ولإبعاد هذا الأخير عن البلاد، ولاقناع البابا بعدم تعيين خلف له، لم يتردد في اتهامه بالارتشاء، بناء على وثائق أرسلت إلى الفاتيكان. وطالت تلك التهمة أيضا بعض الكردينالات والبابا نفسه(105). وبما أن هذا الأخير كان قد عين خلفا لممثله بلشبونة، وأنه كان على مقربة من الحدود مع إسبانيا، فإن الملك البرتغالي لم يسمح له بدخول البلاد إلا بعد أن تعهد بعدم التدخل في المحاكمات، الأمر الذي قام به والتزم به. ولم يكن هذا الموقف الذي وقفه ممثل البابوية يتجاوب وأوضاع البلاد، خصوصا وأن المحكمة مالت خلال سنتي 1542-1543 نحو القسوة. وقد أدت تدخلات المسيحيين المحدثين لدى الفاتيكان إلى تغير موقف البابا لصالحهم. لذا سارع البابا إلى تعيين ممثل جديد له في البرتغال. إلا أن الملك البرتغالي لم يتأخر في إعلان تحديه للفاتكان وأرسل مبعوثا أوقف الممثل الجديد ببلد الوليد بإسبانيا، وأمره بانتظار تعليمات البابا هناك. كما بعث لهذا الأخير يطلب منه الامتناع عن تعيين ممثل جديد له في لشبونة(106). وللوصول إلى هذه الغاية الضرورية لضمان استقلال حقيقي لمحكمة التفتيش، طلب من الإمبراطور التدخل لدى البابا(107). وكان هذا الأخير، الذي كان معرضا لضغوط كل من المسيحيين المحدثين وممثل الملك البرتغالي، مترددا سنة 1544، كما يتجلى ذلك من خلال

---

(103) Almeida, 405-406, J. L. Mendonça et A.J. Moreira, **História dos principais actos e procedimentos da inquisição em Portugal,** Lisboa, Imprensa Nacional, Col. Biblioteca de autores portugueses, 1980, pp 122-123; Herculano, III,98-117, 133-142; Révah, 121-153, 210- 211; **As Gavetas**, III,156-161; 178-186, etc.

(104) **As Gavetas**, I, 299, 622, 703-704.

(105) *Ibid*, III, 178-186.*Cf.* aussi, I, 176-177.

(106) *Ibid*, I, 44, 176; Herculano, III, 173.

(107) *Ibid*, 154-155; L.Azevedo, 100.

القرارات التي أصدرها، والتي سرعان ما ألغى بعضها بقرارات أخرى(108). إلا أنه استمر رغم ضغوط الملك وأنصاره في الاستماع لشكاوي المسيحيين المحدثين. فقبل دخول ممثله إلى البرتغال كتب إلى سلفه يوم 22 شتنبر وأمره بالتحقيق في صحة شكاوي اليهود المتنصرين من تعسفات محققي محاكم التفتيش. وفي نفس الوقت، أمر بالامتناع عن النطق بأي حكم جديد، وبعدم تنفيذ ما سبق النطق به، وهدد البابا من عاكس بشكل أو بآخر تنفيذ تعليماته بالكفر(109). وبإعلان هذا المنشور البابوي، تغير موقف ممثل البابا الذي كان يمتنع إلى ذلك الحين عن كل تدخل في سير محاكم التفتيش. فقد أخبر المفتش العام بالقرارات الأخيرة للبابا وأمر بإعلان محتوى المنشور بأبواب كتدرائيات لشبونة ويابرة وكوينبرة(110). وطبعا، لم تعجب هذه التصرفات يوحنا الذي أمره بمغادرة البرتغال ومنع الممثل الجديد من دخولها رغم أنه سبق له أن سمح له بذلك(111).

وأوفد يوحنا مبعوثا جديدا إلى روما حمله رسالة إلى البابا ذات لهجة حادة ضد ما تضمنه المنشور البابوي، وضد تصرفات ممثل البابوية. ولم يتردد يوحنا الثالث في تهديد البابا في حالة ما إذا لم يستجب لمطالبه، وحمله ما قد ينتج عن رد فعله من عواقب(112). وقد رد البابا على تلك الرسالة بمنشور يوم 16 يونيو 1545 برر فيه دواعي ودوافع منشوراته السابقة، وهدد بدوره العاهل البرتغالي(113).

وبعد تدخل كل من Santifiore، حفيد البابا، و Baltesar de Faria، مبعوث الملك البرتغالي، ومؤسس جماعة الجيزويت Inacio de Loiola، اتفق الطرفان على حل وسط بخصوص ممثل البابا الذي كان ما يزال ينتظر ببلد الوليد(114). وبما أن يوحنا الثالث توصل بتعهد بشأن الاستجابة قريبا لطلبه، أرسل من رافق ممثل البابا وأدخله البرتغال خلال شتنبر 1545، وذلك بعد أن تعهد بعدم التدخل في شؤون محكمة التفتيش(115).

(108) **As Gavetas**, III, 159-163.
(109) A.Herculano, III, 175.
(110) *Ibid*, III, 175-176.
(111) *Ibid*, 176-180; **As Gavetas**, I, 220-221.
(112) *Ibid*, 178-181; Azevedo, 105,
(113) *Ibid*, 184-186.
(114) **As Gavetas**, I, 269; L.Azevedo, 107-108.
(115) *Ibid*, I, 269-270; Azevedo, 108.

لقد أصبح كل تفاهم بين المفتشين وضحاياهم مستحيلا. فحينما عرض المسيحيون المحدثون في نهاية 1545 على يوحنا الثالث مذكرة من ثلاثين فصلا تتضمن انتقاداتهم وشكاويهم ضد محاكم التفتيش، عرضها هذا الأخير على المحققين الذين رفضوها جملة وتفصيلا(116).

وبعد أن احتفظ البابا بنوع من الحياد في الخلاف الذي دام طويلا بين الملك البرتغالي ورعاياه المنحدرين من اليهود، مال ابتداء من سنة 1546لصالح يوحنا الثالث. لقد فرضت عليه الظرفية السياسية التي كانت تعرفها أوروبا، وتزايد نجاحات الإصلاح الديني، الحفاظ على حليف في وزن وقوة ملك البرتغال. كما لعبت الرشاوي التي توصل بها الكردينالات وأقارب البابا دورها في هذا التحول. إلا أن التحول المذكورلم يكن فجائيا.

لقد أصبح نشر براءة جديدة سنة 1546 ضروريا لانتهاء مدة صلاحية براءة 1536. وحسبما روجه ممثل البابا بلشبونة، كان هذا الأخير مستعدا سنة 1545 لتخويل البرتغال محكمة تفتيش شبيهة بما كان موجودا بإسبانيا شريطة قبول الملك البرتغالي إعلان عفو عام(117). وبما أن المفاوضات طالت بروما، فإن ممثلي المسيحيين المحدثين والملك البرتغالي تنافسوا في توزيع الرشاوي على الكردينالات(118). وفي يوم 22 غشت 1546، نشر البابا براءته المسماة "Dedum Cum Nobilis" التي حاولت إرضاء الطرفين. فهي تمنح لملك البرتغال محكمة التفتيش التي يرغب فيها، وفي نفس الوقت، تخول للمسيحيين المحدثين عفوا عاما لمدة سنة وتمنع مصادرة ممتلكات المتابعين خلال نفس المدة. إلا أن عدم رضا الملك البرتغالي بتلك الصيغة فاجأ البابا وعددا من الكردينالات الذين تساءلوا حسب ما كتبه السفير البرتغالي «عما يتوخاه المحققون، وعما إذا كانوا لا يقنعون إلا بأكل [لحم] البشر؟» (119).

---

(116) *Ibid*, I, 229-232;241-258.
(117) *Ibid*, I, 299.
(118) A.Herculano, III, 189-191, 203-205,211; **As Gavetas**, I, 622, 677.
(119) **As Gavetas**, I, 340.

ولطمأنة المسيحيين المحدثين الذين تزايدت أعداد الفارين منهم(120)، وطمأنة الفاتيكان الذي كان يشك في أن إحداث محاكم التفتيش كان لأسباب دينية محضة، استشار العاهل البرتغالي أربعة من أعيان المسيحيين المحدثين الذين نصحوه بقبول العفو العام المقترح من لدن البابا، وبإلزام المفتشين بالاعتدال، وإطلاع المتهمين على أسماء المبلغين عنهم، والتخلي نهائيا عن مصادرة الممتلكات وتحسين ظروف الاعتقال، وأخيرا اتباع نفس مقاييس المحاكم المدنية فيما يخص صفة شهود الاتهام، الخ(121). وعرض الملك تلك الاقتراحات على المحققين الذين رفضوها(122).

وخلال شهر ماي 1547 أصدر البابا المنشور "Illius qui misericors" الذي شمل كل المسيحيين المحدثين بعفو عام، لم يستثن منه إلا من عاد لاقتراف نفس الخطايا التي سبق له أن حوكم بسببها. وفي 15 يوليوز من نفس السنة، ألغى البابا الامتيازات التي كان الفاتكان قد خولها للمسيحيين المحدثين من خلال المنشور البابوي "Romanus Pontifex". وفي اليوم التالي، أصدر البراءة "Meditatio Cordis' التي رسخت تعيين الأمير دون هنريك (Dom Henrique) في منصب المفتش العام، وسمحت للمحكمة باتباع مسطرة محاكم التفتيش بدون أن تخضع لأية مراقبة. وتفاديا لما قد يلحق المسيحيين المحدثين من تعسف من جراء تلك البراءة، اتخذ بعض الاجراءات لحمايتهم. فقد أرسل رسالتين إلى كل من دون هنريك والملك وطلب منهما تبني الاعتدال وتفادي البطش والقسوة مع المتهمين. وللتقليل مما قد يلحق تلك الأقلية من أضرار، منع مصادرة الممتلكات لمدة عشر سنوات، والحكم بالإعدام خلال سنة. إلا أنه عجز عن إقناع الملك بإلغاء القانون الذي يمنع المسيحيين المحدثين من مغادرة البلاد بدون ترخيص مسبق(123).

وأغضبت تلك الإجراءات المفتش العام الذي هدد بالاستقالة في حالة ما إذا لم تسحب البابوية التنازلات التي قدمتها للمسيحيين المحدثين(124).

---

(120) A.Herculano, III, 246; Azevedo, 109.
(121) **As Gavetas**, I, 35-40; A.Herculano, III, 217-223.
(122) *Ibid*, I, 45-57.
(123) A.Baião, **A Inquisição** ..., *Op. cit.* pp.22-24; Almeida, 414, Herculano, III, 268-269.
(124) A. Baião, 24-26.

لم تنشر براءة "Meditatio Cordis" في البرتغال إلا يوم 10 يوليوز1548. وسمح ذلك بإطلاق سراح 1800 معتقل، وبإحداث محكمة تفتيش حرة في البرتغال(125). ولم تعط تدخلات المسيحيين المحدثين لدى الفاتكان ثمارها(126).

لم تحتفظ محكمة التفتيش بعد فترة العفو العام إلا بمحكمتين: محكمة لشبونة ومحكمة يابرة، بينما لم تفتح محكمة كوينبرة من جديد إلا سنة 1565(127).

وتعاقب على تسيير محكمة التفتيش البرتغالية فيما بين 1536 و1600 ستة مفتشين عامين، كان أشهرهم الأمير دون هنريك، الذي أعطى للمحكمة بنيتها وقوانينها(128).

وسيرت محكمة التفتيش حسب قانون 1552 الذي استمر العمل به حتى سنة 1613، والذي سبق للباحث António de Baião نشره ودراسته بتفصيل(129). ولا تهمنا الآن دراسة ذلك القانون والتعريف به، لأننا سنعود إليه من خلال مراحل محاكمة أفراد الجالية المغربية في الفصل اللاحق.

وبذلك يكون يوحنا الثالث قد توفق بعد مفاوضات شاقة ومكلفة مع الفاتكان، في الحصول على محكمة تفتيش دائمة وحرة لا تخضع لأية مراقبة. كما يكون البابا بول الثالث قد تخلى عن المسيحيين المحدثين المكرهين على التنصر، وتركهم عرضة للتنكيل والاضطهاد. لقد استأثر إحداث تلك المحاكم بكل اهتمام العاهل البرتغالي، وأسهم انتصاره في هذا الباب في طغيان التطرف وعدم التسامح بالبلاد، الأمر الذي انعكس بكل تأكيد على تطورها اللاحق. ويبدو أن عناد الملك البرتغالي وإصراره على إحداث محاكم تفتيش حرة ودائمة لا تخضع إلا لسلطته الشخصية، وأن السنوات التي قضاها في ذلك، والأموال التي أنفقها، والوسائل والسبل التي اعتمدها لا تفسر فقط بطبع الملك وقناعاته الشخصية. فمن الأكيد أن الملك البرتغالي، بدفاعه المستميت عن مشروعه، كان يهدف إلى تحقيق ما كان رعاياه يتوقون إليه للأسباب التي

(125) L.Azevedo, 114.
(126) *Ibid*, 124.
(127) F.Almeida, 414.
(128) A.Baião, 26-29.
(129) *Ibid*, 5-101; Almeida, 415-420.

سبق ذكرها. لقد لاحظنا أن المجتمع البرتغالي، الذي كان يكره اليهود، لم يطمئن لردتهم، بل أكثر من ذلك، تضايق منها لفرص الترقي الاجتماعي والاغتناء التي وفرتها لهم.

لم تتأخر محكمة التفتيش، المستحدثة لجعل حد لغنى المسيحيين المحدثين الفاحش وتمسكهم السري بدينهم الأصلي، في مطاردة المغاربة. كيف تم ذلك، وما هي المراحل التي مر منها اضطهاد الجالية التي تهمنا من تاريخ إحداث تلك المحاكم إلى سنة 1600؟

الفصل التاسع

المغاربة ومحاكم التفتيش: الخطايا والأحكام

ما أن أنشئت محاكم التفتيش حتى سارعت إلى قمع كل مظاهر ما كانت تعتبره هرطقة وكفرا، وذلك دون أن تأخذ بعين الاعتبار لا سن ولا جنس ولا وضعية المعتقل القانونية، أو وضعه الاجتماعي ودينه الأصلي. لقد كان عمل المحققين صارما وبدون شفقة، كما تؤكد ذلك حصيلة نشاط المحاكم الثلاث من تاريخ إحداثها سنة 1536 إلى تاريخ إنهاء العمل بها سنة 1821 . لقد ترك لنا أولئك المحققون ما يناهز أربعين ألف محضر محاكمة. ومعلوم أن هذا العدد الكبير لا يمثل الحصيلة الحقيقية لعمل تلك المحاكم، ذلك أن محاضر أخرى لا نعرف مع الأسف عددها، ضاعت. وتتوزع المحاضر التي وصلتنا بين المحاكم الثلاث على الشكل التالي(1):

المحكمة	أعداد المحاضر
لشبونة	17977
يابرة	11743
كوينبرة:	10258
المجموع	39978

لا يطمح هذا الفصل إلى تقديم دراسة مفصلة لتطور عمل المحاكم التي تهمنا اليوم خلال تاريخ نشاطها، إذ يتعذر علينا القيام بذلك لسببين إثنين:

(1) C. Amiel, **Les archives de l'Inquisition portugaise** ..*Op. cit.* p.19

1 – ارتباط بحثنا بإطار زمني محدد يقتصر على القرن السادس عشر،
2 – صعوبة توظيف محاضر تلك المحاكم لانعدام فهارس دقيقة.

ويبدو أن إنجاز تلك الفهارس بشكل علمي ودقيق لن يتم خلال العقود المقبلة لصعوبة العملية التي تتطلب الاطلاع على كل المحاضر.

لقد تم إنجاز فهارس خاصة بمحاضر محكمة يابرة تضمنت معلومات تسهل استغلالها والاستفادة منها (إسم المتهم وسنه وجنسه وعقيدته الأصلية ومقر سكناه والتهمة الموجهة إليه)، غير أن أخطاء كثيرة تسربت إليها، وخصوصا بشأن التهمة المنسوبة للمتهم(2)، مما يعرض الدراسة الإحصائية التي تعتمد عليها لكثير من الخطأ. كما أن المشرفين على تلك الفهارس اكتفوا في حالات كثيرة بعبارة "هرطقة" و "ردة"، مما لا يسمح بإنجاز دراسة كمية دقيقة تخص تطور عمل المحققين وموقفهم من كل ديانة سماوية.

أما بالنسبة لمحاضر المحكمتين الأخريين، والتي تبلغ 28235، فإن الباحث لا يتوفر إلا على جذاذات صغيرة مرتبة حسب الحروف الأبجدية، وموضوعة على شكل سبحة. ولا تذكر تلك الجذاذات إلا أسماء المتهمين وتاريخ اعتقالهم ورقم كل محضر. وبالطبع، لا تسمح هذه الطريقة في الترتيب إلا بدراسة تطور عمل المحققين انطلاقا من معيارين: الزمن، وجنس المتهمين، طالما أن تلك الجذاذات لا تشير إلى نوعية التهمة الموجهة للمعتقل ووضعيته الاجتماعية وسنه، الأمر الذي يحرم الباحث من معلومات أساسية. كما أن تلك الجذاذات الصغيرة وغير المتينة لا تسمح بدراسات إحصائية دقيقة.

ويحتوي "فهرس محاضر محكمة لشبونة"، (Indice Topográfico) المنجز على ما يبدو مباشرة بعد إنهاء العمل بمحاكم التفتيش، على نفس معلومات الجذاذات السابقة الذكر، مع بعض الأخطاء في تأريخ المحاضر، إذ أن بعض التواريخ المقترحة تعود إلى ما قبل إحداث محاكم التفتيش(3).

وبذلك يصبح الرجوع للأربعين ألف محضر ضروريا لكل بحث يهدف إلى الشمولية والدقة. غير أن عملا كهذا يتطلب ثمانين سنة على الأقل حسب تقدير أكثر

---

(2) *Cf.* par exemple: procès n° 11237, 5336, 9823, 4648, 5256,5178, 1474,8055, etc.

(3) Inq.Lix.**Indice Topográfico**, (sans cote), Proc. n° 3134 (1535),3229 (1532), 3915 (1528), 4405 (1527), 10985 (1533), 15732 (1500), 15945 (1500) .

الباحثين البرتغاليين المعاصرين معرفة بمصادر محاكم التفتيش(4)، طالما أن ذلك الاستغلال لا يزال يعتمد «منهج الصيد بالقصبة»(5). ومن جهة أخرى، يبدو أن محاكم التفتيش البرتغالية لم تكن تنجز ملخصات للمحاضر (relations de causes) بالشكل الذي كان معتمدا بإسبانيا. ومعلوم أن تلك الملخصات تسمح بربح كبير للوقت (تعفي من الرجوع للمحضر)، وتمكن من إحصاء المحاضر الضائعة.

ويتوفر الباحث كذلك على قوائم المتهمين الذين حضروا الحفلات الدينية (autodafés) التي اعتادت محاكم التفتيش تنظيمها للنطق بالحكم وإلزام المتهمين بالتكفير خلالها علانية عن خطاياهم، والتي تورد إسم المتهم وجنسه والخطيئة المنسوبة إليه. إلا أن تلك القوائم لا تتوفر إلا ابتداء من سنة 1563(6).

وقد اعتمدنا في محاولة تحقيب عمل المحققين التي سنقدمها بعد قليل على نوعين من المصادر: لوائح الاحتفالات الدينية المنظمة خلال القرن السادس عشر، التي نشرها J.Lourenço de Mendonça و A.J.Moreira من جهة(7)، وفهارس محكمتي لشبونة ويابرة من جهة ثانية. ولم نهتم بمحكمة كوينبرة لكونها لم تحاكم إلا مغربية واحدة.

لقد كان عدد الحفلات الدينية (autodafés) التي عرفها القرن السادس عشر، وعدد الذين اعترفوا خلالها بخطاياهم حسبما أورد ذلك المؤلفان السابقا الذكر، على الشكل التالي:

المحكمة	عدد الاحتفالات	التائبون		المحكومون بالإعدام حضوريا		المحكومون بالإعدام غيابيا	
		ذ.	إ.	ذ.	إ.	ذ.	إ
لشبونة	26	381	484	39	31	2	6
يابرة	38	–	–	86	80	24	3
كوينبرة	35	790	1012	32	52	43	53

(4) Isaias da Rosa Pereira, "Notas sobre a Inquisição em Portugal no século XVI. "**Lusitania Sacra**. Lisboa, 1978, T.X, p. 261.
(5) A.J. Saraiva, **Inquisição e Cristãos Novos**. *Op. cit.* p.11.
(6) Inq. Lix. **Notícias dos Autos de Fé**, n° 6 (1563-1628) Inq. Coimbra, **Notícias dos Autos de Fé**, n°4 (1567- 1627) I. Révah, **Etudes portugaises**, *Op. cit.* pp. 219- 220 .
(7) J.L.D. de Mendonça et A.J. Moreira, **História dos principais actos**... *Op. cit.* pp. 145-279.

مجموع من حضر تلك الاحتفالات الدينية :

لشبونة	:	943
بابرة	:	2411
كوينبرة	:	1981

لا تسمح الأعداد المقترحة من لدن المؤلفين المذكورين بتتبع عمل المحققين بدقة بين 1536 و1600 لعدة أسباب. فهذه اللائحة لا تضم كل الحفلات التي نظمتها محاكم التفتيش، خصوصا خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر(8)، و لا تضم المتهمين الذين اعترفوا بخطاياهم خارج تلك الحفلات. كما أن كتاب المحاكم لم يوردوا عدة مرات عدد المتهمين المشاركين في تلك الحفلات، أو أن العدد المذكور يخص فئة من المتهمين، كالمحكوم عليهم بالإعدام حرقا.

إلا أن الأعداد المقترحة لا تخلو مع ذلك من فائدة. فهي تسمح بمقارنتها مع أعداد تقدمها مصادر أخرى سنعود إليها، وتعكس رغم عيوبها مراحل متباينة لنشاط المحققين، وخصوصا بمحكمتي يابرة وكوينبرة.

تؤكد الجداول المقترحة من لدن المؤلفين السابقي الذكر تحول محاكم التفتيش البرتغالية تدريجيا نحو الصرامة والقسوة ابتداء من سنة 1541. وبالفعل، بلغت أعداد الذين كفروا عن ذنوبهم خلال الحفل الذي نظم سنة1541، وخصوصا سنة 1543، مستوى يعتبر من أعلى ما عرفه القرن: 85 متهما بكوينبرة، و66 بيابرة. كما تؤكد نفس القوائم تراجعا في عدد المحاكمات بعد التاريخ الثاني، ذلك التراجع الذي استمر حتى سنة 1548، التي تناسب الشروع في العمل بمحاكم حرة ودائمة لا تخضع لمراقبة

---

(8) من الحفلات التي لم يرد بشأنها ذكر بتلك اللوائح:

1 ـ محكمة لشبونة:

يوم 26 ماي 1556، راجع محضر رقم 7695 ورقة 21 وجه

يوم 15 ماي 1558، راجع : محكمة كوينبرة، محضر 3864 و رقة 2 وجه

يوم 24 شتنبر 1559، محضر 6223، ورقة 47 وجه

يوم 8 فبراير 1562، محضر 3186، ورقة 10 وجه

يوم 11 يونيو 1564، محضر 4098، ورقة 11 وجه

2 ـ محكمة يابرة:

يوم 3 مارس 1558، محضر 8062، ورقة 29 وجه

يوم 12 ماي 1560، محضر 8582، ورقة 53 وجه

الفاتكان أو ممثله بلشبونة. وتزايد نشاط المحاكم مع تتالي العقود، ليبلغ أوجه خلال العقود الأخيرة من القرن. فقد بلغ عدد الذين كفروا عن ذنوبهم خلال الاحتفالات الدينية التي نظمت بيابرة فيما بين 16 دجنبر 1584 و 27 غشت 1600: 1407 متهما، مما يعطي معدلا سنويا يبلغ 88 شخصا. وتزايدت الأعداد أكثر خلال العقد الأخير من القرن السادس عشر، إذ بلغ مجموع من حضر الحفل المذكور 1010 فيما بين 31 مارس 1591 و 27 غشت 1600، أي ما يمثل 101 محاكمة في السنة.

وتعكس القوائم المذكورة ثلاث مراحل في نشاط محكمة كوينبرة خلال الفترة التي تهمنا. فقد نظمت المحكمة المذكورة قبل إعلان العفو العام سنة 1548 حفلين دينيين: واحدا سنة 1541 نجهل عدد المشاركين فيه، وآخر سنة 1543 اعترف خلاله 85 شخصا بالتهم المنسوبة إليهم. وما أن أعيد فتح المحكمة سنة 1565حتى دشن المحققون مرحلة قمع وصرامة. فقد اعترف 727 متهما بخطاياهم خلال الحفلات الدينية المنظمة فيما بين 5 أكتوبر 1567 و7 يونيو 1573. ويتجلى من خلال قوائم تلك الحفلات بروز مرحلة قمع معتدل بعد التاريخ الأخير، وذلك لمدة عقد من الزمان. وبعد سنة 1583، التي نظمت خلالها أربع حفلات دينية، عاد المحققون إلى صرامتهم السابقة. وكما حدث بمحكمة يابرة، عرف العقد الأخير من القرن عددا كبيرا من المحاكمات، إذ أن قوائم الاحتفالات المنظمة بين 27 يونيو و19 دجنبر 1593 تحتوي على 742 إسما. فخلال الحفل المنظم خلال شهر أكتوبر 1595 وحده، كفّر 194 شخصا عن خطاياهم. ويتجلى بطش المحققين في عدد الحفلات الدينية المنظمة خلال السنة الواحدة.فقد عرفت سنة 1583 تنظيم أربع حفلات، في حين نظمت في سنة 1589 ثلاث حفلات، وخمس خلال سنة 1599(9) .

ولنقارن الآن الأعداد التي احتفظت لنا بها تلك اللوائح بما تحويه الفهارس.

فحسب **«فهرس محاضر محكمة لشبونة»** السابق الذكر، تابع المحققون من سنة 1536 إلى سنة 1600: 4457 متهما، وهو رقم أعلى مما تقدمه لوائح الحفلات الدينية السابقة الذكر، ويتجاوز كذلك التقديرات التي أنجزها المحققون أنفسهم سنتي 1594 و 1603 بشأن عدد المحاكمات التي تمت خلال الفترتين: 1548–1563

(9) J.L.D. de Mendonça et A.J.Moreira, **História** ... *Op. cit.*

و 1548–1594. فحسب تلك التقديرات، بلغ عدد المحاكمات خلال الفترة الأولى 1396، وخلال الفترة الثانية 1987، وذلك حسب التوزيع الزمني التالي(10):

الحكم	1548 –1563	1548–1594
المصالحة (مع الكنيسة)	1282	1544
الإحراق	58	110
التكفير عن الخطايا (بنوعيه)	56	221
البراءة أو الموت بالسجن	–	112
المجمـــــوع	1396	1987

وبذلك تكون محمكة لشبونة قد تابعت خلال أربع وستين سنة 4457 متهما، أي ما معدله 69 محاكمة في السنة، وهو ما يمثل أقل من ست محاكمات في الشهر. ولا شك أن المعدل المذكور ضعيف ولا يعكس الصورة التي رسمت في أذهاننا عن تلك المحاكم.

وتتوزع تلك المحاكمات خلال الفترات الخماسية أدناه على الشكل التالي:

الفترة	عدد المحاضر
1540–1536	70
1545–1541	440
1550–1546	196
1555–1551	258
1560–1556	666
1565-1561	843

(10) I. Révah, **Etudes** ... *Op. cit.* p. 220.

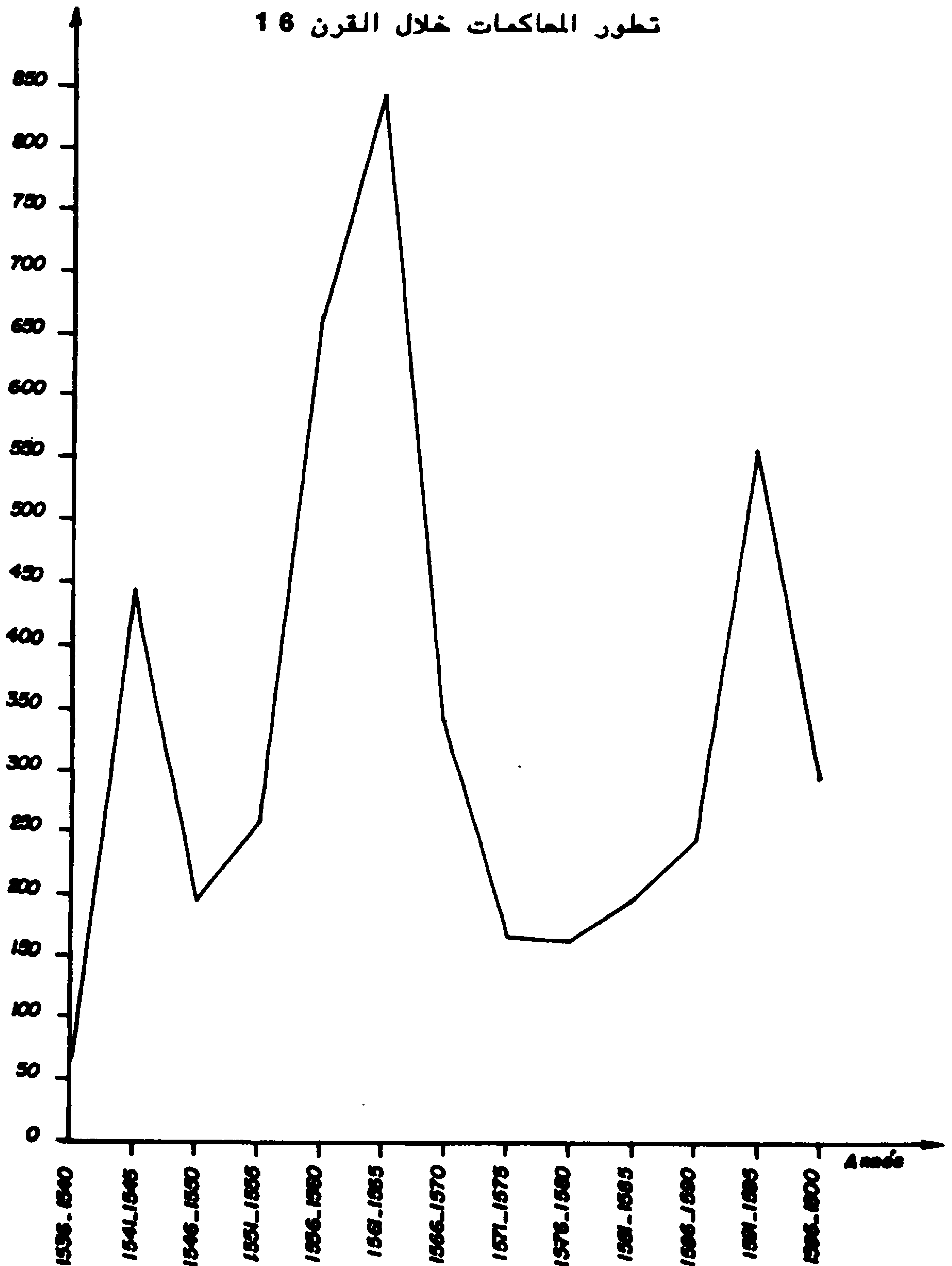
1570–1566	337
1575–1571	164
1580–1576	161
1585–1581	221
1590–1586	237
1595–1591	556
1600–1596	290
محاضر تحمل تواريخ مغلوطة	18

فمن الناحية الزمنية، عرف نشاط المحكمة مرحلتين متميزتين:

عرفت الخمس سنوات الأولى من حياة المحكمة عملا بطيئا، إذ لم يمثل أمام المحققين إلا سبعون معتقلا. ويعود ذلك البطء إلى شخصية المحقق العام Fr. Diogo da Silva التي لم تكن ميالة إلى الشدة والقسوة. وعرف عدد المحاكمين خلال الخمس سنوات التالية ارتفاعا مهما: 440، مما يمثل معدلا سنويا يبلغ 88 محاكمة. وتدل هذه الأرقام على تحول المحكمة نحو الشدة والصرامة، نظرا لتعيين الأمير دون هنري، أخي الملك يوحنا الثالث، محققا عاما للمملكة، ونظرا لكره بعض المحققين لليهود المتنصرين(11). وفيما بين 1546–1550، انخفضت وتيرة المحاكمات بشكل واضح، وذلك بسبب ما كانت تتعرض له محاكم التفتيش من معارضة ومضايقات من لدن ممثل البابوية بالبرتغال، الذي كان له آنذاك حق المراقبة، وبسبب العفو العام الذي استفاد منه اليهود المتنصرون سنة 1548، هذا العفو الذي حتم على المحققين إطلاق سراح كل المعتقلين بسجون محاكم التفتيش. إلا أن آلة المحكمة سرعان ما عادت بعد 1550 إلى العمل دون هوادة.

وتسمح الأرقام التي نتوفر عليها بتحديد مرحلتي قمع فيما بين 1550–1600، تفصل بينهما مرحلة قلل خلالها المحققون من نشاطهم.

(11) A. Herculano, **História da orígem** ... *Op. cit.* III. pp. 11 et ss . A. Baião, **A Inquisição**... *Op. cit.* p. 46.



محـكمة تفتيش لشبونة
تطور المحاكمات خلال القرن 16
850
800
750
700
650
600
550
500
450
400
350
300
250
200
150
100
50
0
Année
1536_1540
1541_1545
1546_1550
1551_1555
1556_1560
1561_1565
1566_1570
1571_1575
1576_1580
1581_1585
1586_1590
1591_1595
1596_1600

فالفترة الممتدة بين 1551–1570 عرفت أوج نشاط المحكمة خلال الأربع والستين سنة التي تهمنا، ذلك أن 2104 شخصا تعاقبوا أمام المحققين، مما يمثل معدلا سنويا يصل إلى 105 محاكمة. وضمن هذه المرحلة نفسها، مثل العقد 1565 –1565 أكثر الفترات وحشية وبطشا، إذ حوكم خلالها 1509 متهما، مما يعطي معدلا سنويا يصل إلى 150 محاكمة.

وخلال العقد التالي، تراجع عدد المحاكمات ليصل إلى 325 فقط، أي مايمثل نصف معدل المحاكمات خلال القرن الذي يهمنا.

وعرف العقدان الأخيران من القرن نشاطا مكثفا للمحققين، وإن لم يصل مستوى ما عرفه العقد 1561–1570. فخلال تلك العشرين سنة، اعتقلت المحكمة 1304 شخصا، أي ما يمثل 65 محاكمة في السنة. ويخفي هذاالمعدل مرحلتين مختلفتين، ذلك أن العقد الأخير عرف لوحده 846 محاكمة. (انظر الرسم البياني).

ومن ضمن هؤلاء المتهمين الذين بلغ عددهم 4457، كان الرجال يمثلون 2636، أي59٪ من المجموع، بينما بلغ عدد النساء 1803، أي 40٪.

ولم يتجاوز عدد المعتقلات من النساء الرجال إلا خلال سنوات 1541–1545. ويجسد الجدول التالي تطور محاكمات الجنسين فيما بين 1536–1600.

الفتـــرة	الرجال	النســـاء
1540–1536	43	27
1545 - 1541	196	244
1550-1546	113	83
1555-1551	189	69
1560-1556	384	282
1565-1561	480	363
1570-1566	202	135
1575-1571	122	42

1580 -1576	108	53
1585-1581	126	95
1590-1586	141	96
1595-1591	382	174
1600-1596	150	140
المجمـــــوع	2636	1803

الحالات غير المحددة : 18

غير أن الفهرس الذي استقينا منه هذه الأعداد لا يذكر الدين الأصلي للمتهمين، الأمر الذي يمنعنا من تتبع تطور عمل المحققين انطلاقا من هذا المعيار الأساسي بالنسبة لكل دراسة تهم محاكم التفتيش.

وحاكمت محكمة يابرة من جهتها 2456 شخصا من سنة 1536 إلى سنة 1600، أي ما يمثل معدلا سنويا يبلغ 38 محاكمة. ويعكس الجدول التالي ذلك النشاط:

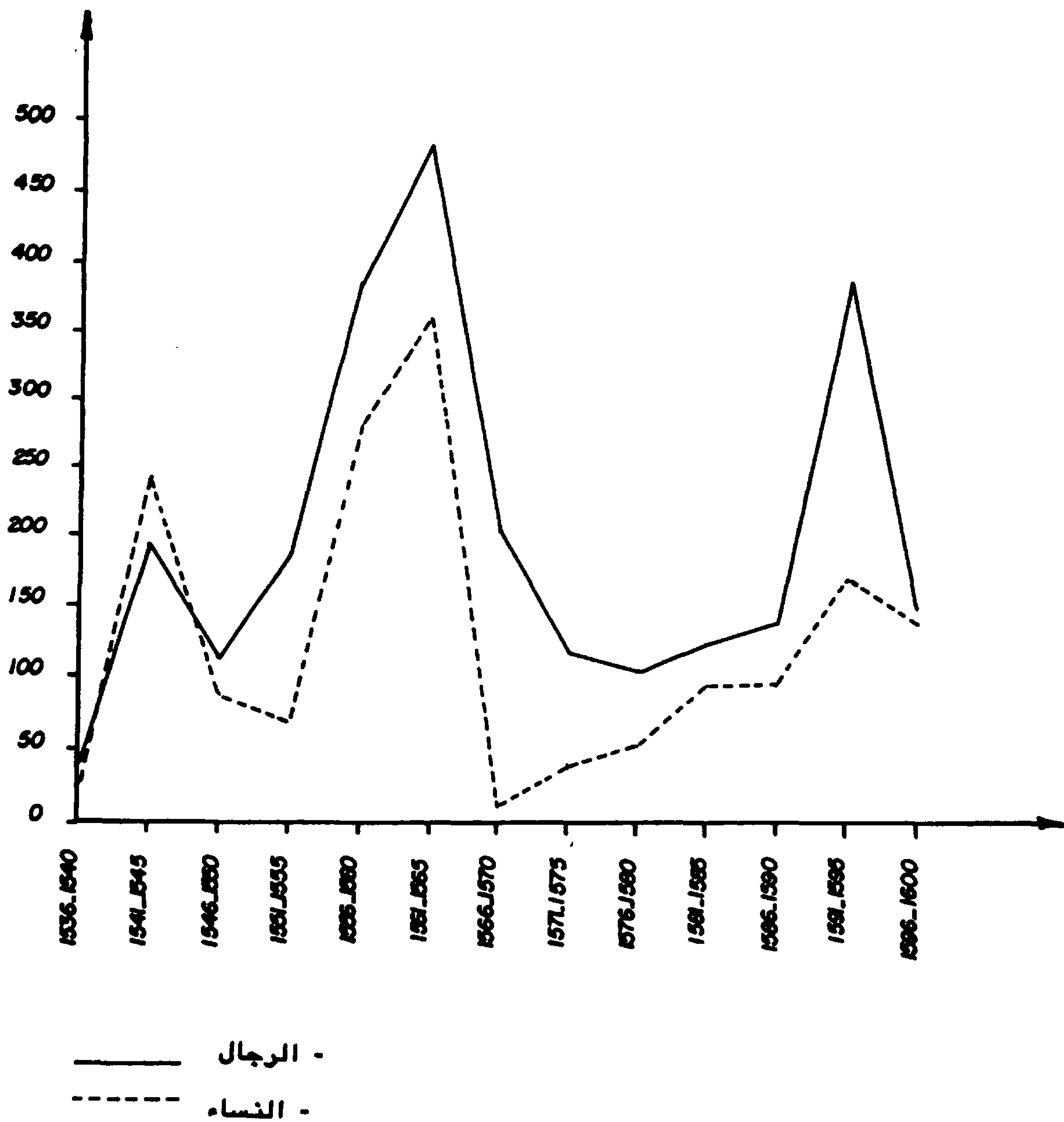
الفترة الزمنية	عدد المتهمين
1540-1536	4
1545-1541	183
1550-1546	95
1555-1551	112
1560-1556	143
1565-1561	185
1570-1566	176
1575-1571	145

1580-1576	72
1585-1581	132
1590-1586	387
1595-1591	467
1600-1596	344
محاضر بدون تاريخ	11
المجموع	2456

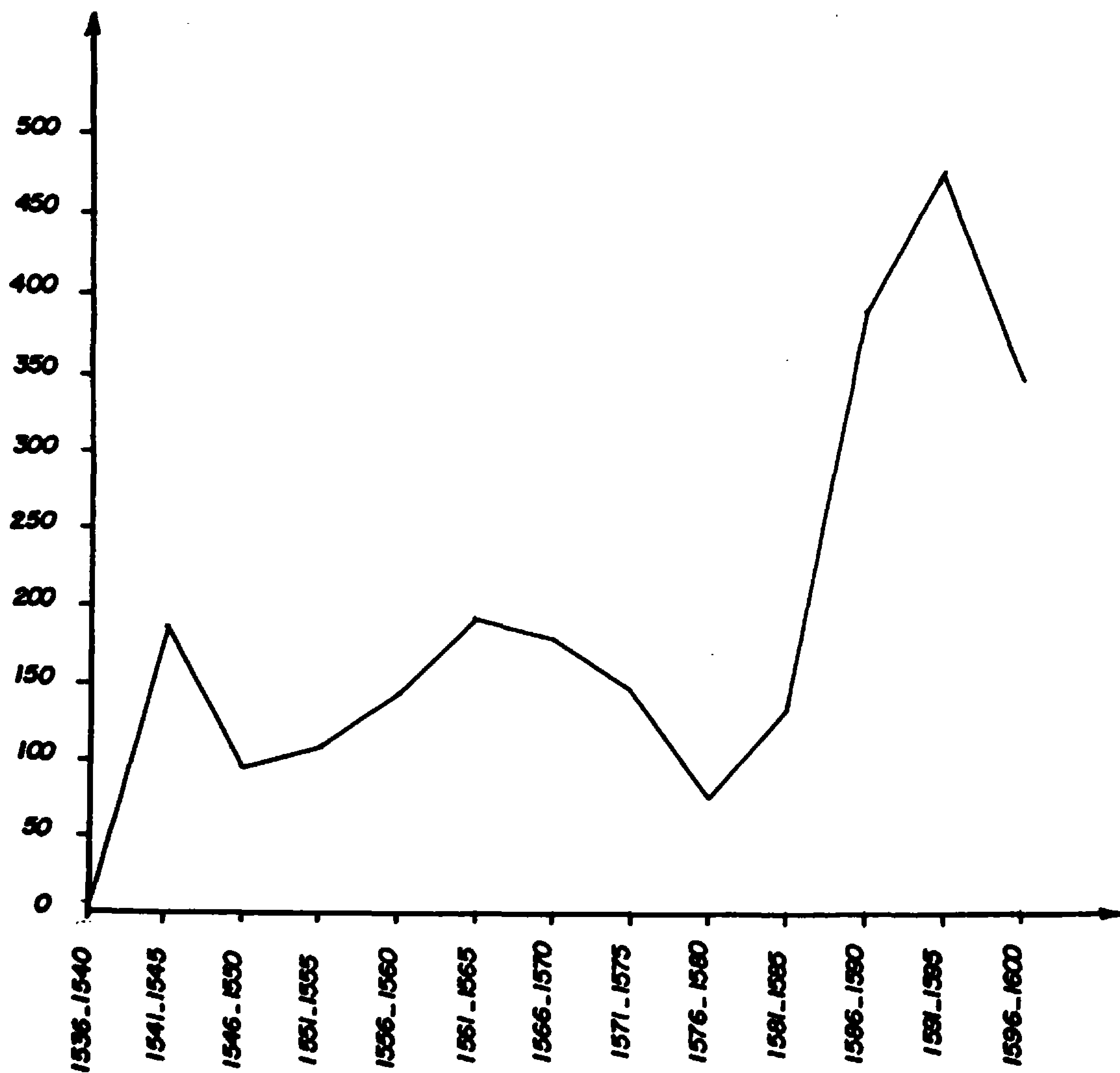
فمن الناحية الزمنية، تتشابه حصيلة عمل المحققين بمحكمتي لشبونة ويابرة. فقد كان نشاط هذه الأخيرة شبه منعدم خلال الخمس سنوات الأولى من عمرها، إذ لم تتابع إلا ثلاثة رجال وامرأة. وتلت تلك الفترة مرحلة قسوة واضحة، إذ تتالى أمام المحققين 183 شخصا. وتتجلى هنا أيضا بوضوح فترة لين وتسامح فيما بين 1546-1550، تلتها فترة قمع خلال العقدين التاليين. ولا تمثل هذه المرحلة الأخيرة أوج نشاط المحققين، وإن عرفت السنوات 1561-1570 اعتقالات عديدة. لقد مرت محكمة يابرة بدورها من فترة هدوء فيما بين 1571 و1580، إذ عرفت المحاكمات أقل عدد من المتهمين منذ 1541. وبلغت المحكمة المذكورة أوج نشاطها خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن، إذ بلغ عدد المحاكمات 1194، وهو ما يمثل ضعف معدل نشاطها. وخلال العقد الأخير من القرن، حاكم محققو محكمة يابرة عددا قريبا من عدد المحاكمات التي عرفتها لشبونة، مع العلم أن نفوذ المحكمة الأخيرة يشمل منطقة أوسع، تضم منطقة ساحلية مهمة، تسمح باعتقالات أكثر نظرا لعدد الوافدين عليها من بلاد الإسلام والمناطق التي شملها الإصلاح الديني.

ويتجلى تزايد نشاط محققي يابرة في نهاية القرن كذلك من خلال الاكتظاظ الذي أصبحت تعرفه سجون المحكمة.فمن خلال رسالة بعث بها المحققون إلى المفتش العام، نعلم أن أن عدد الذين تنكروا لخاطاياهم خلال الحفل المنظم سنة 1594 بلغ 186،

محكمة تفتيش لشبونة :
تطور المحاكمات حسب الجنس



محكمة تفتيش يابرة :
تطور المحاكمات خلال القرن السادس عشر



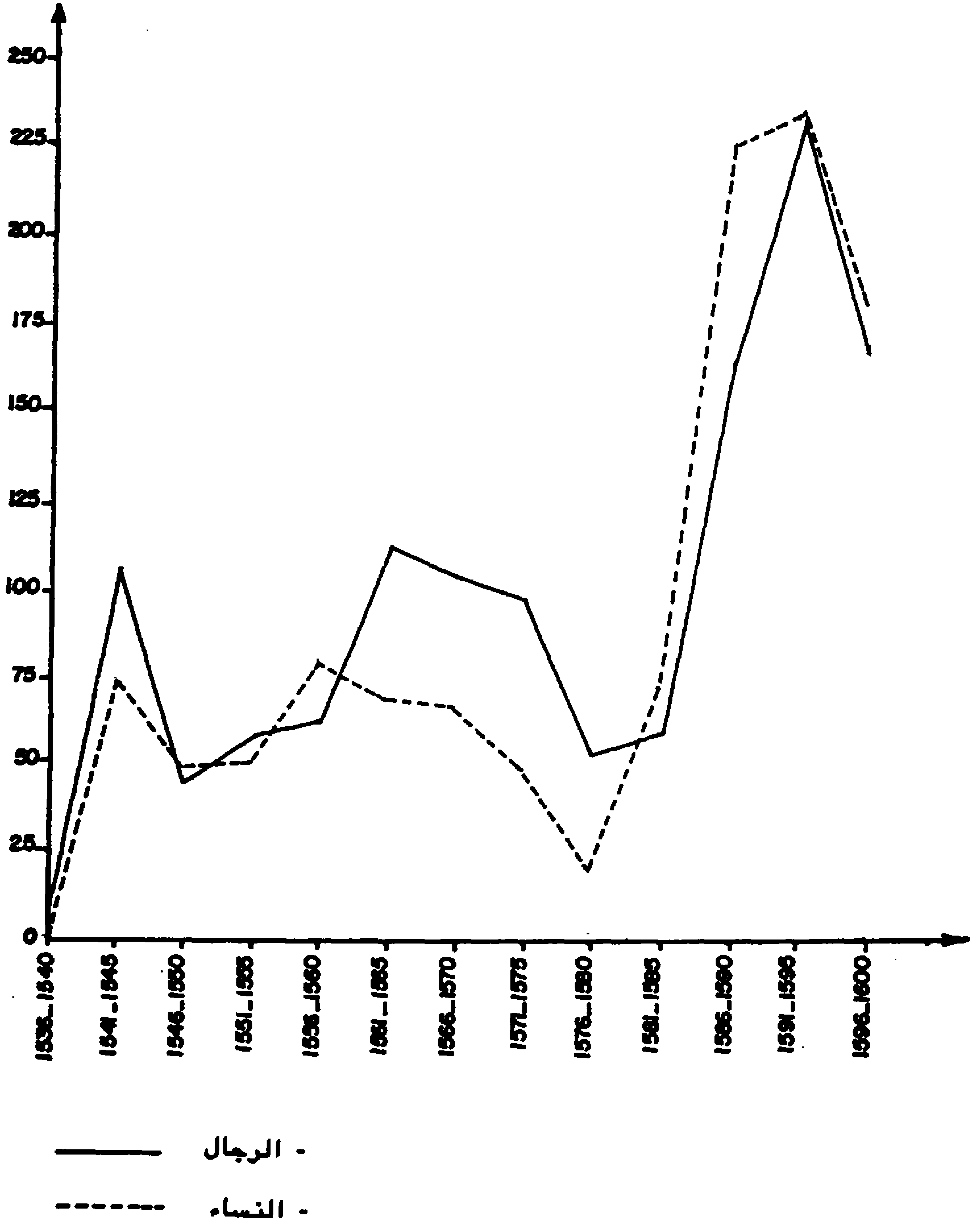
وأن عدد الذين لم تنته محاكماتهم بعد يصل إلى 67، و عدد الذين اعتقلوا مؤخرا بلغ 170 (12).

ومن ضمن 2456 متهما، بلغ عدد الرجال 1278، أي 52 ٪ من المجموع، بينما بلغ عدد النساء 1167، وهو ما يمثل نسبة 47,5٪. وتجاوز عدد المعتقلات من النساء عدد الرجال خلال ست فترات، يعكسها الجدول التالي:

الفترات	الرجال	النساء
1540-1536	3	1
1545-1541	109	74
1550-1546	46	49
1555-1551	61	51
1560-1556	63	80
1565-1561	116	69
1570-1566	108	68
1575-1571	98	47
1580-1576	52	20
1585-1581	61	71
1590-1586	162	225
1595-1591	233	234
1600-1596	166	178

(12) L. de Azevedo, **História dos Cristãos Novos portugueses**. *Op. cit*.p. 148

محكمة تفتيش يابرة :
تطور المحاكمات حسب الجنس



ومثلت محاكمات اليهود المتنصرين بيابرة غالبية القضايا المعروضة على أنظار المحققين، إذ بلغ عددهم الاجمالي : 1917 أي 78٪. وأثرت محاكمات تلك الأقلية بشكل واضح على التطور العام لنشاط المحققين، كما يوضح ذلك الجدول التالي:

الفتـــرة	العدد	النسبـــة
1540-1536	3	% 75
1545-1541	142	% 77,5
1550-1546	62	% 65
1555-1551	13	% 11,6
1560-1556	69	% 48,2
1565-1561	142	% 76,7
1570-1566	129	% 73,2
1575-1571	108	% 74,4
1580-1576	46	% 63,8
1585-1581	108	% 81,8
1590-1586	354	% 91,4
1595-1591	421	% 90,1
1600-1596	320	% 93
المجمــــــــوع	1917	% 78

وبذلك نلاحظ أن عمل محققي محكمة يابرة كاد يقتصر- كما هو الشأن بالمحكمتين الأخريين – على مطاردة المسيحيين المحدثين والتنكيل بهم. ويتجلى ذلك

بوضوح أكثر خلال العقود الأخيرة من القرن، بحيث أصبحت محاكماتهم تمثل أكثر من 90٪ من المتهمين. إلا أن الأعداد التي وصلتنا تظهر تخلي المحققين مدة خمس سنوات عن الاهتمام بتلك الأقلية، ذلك أن عدد أفرادها الذين حوكموا من 1551 إلى 1555 بلغ 13 فقط، من مجموع 108 محاكمة (12٪). لقد أصبح المستهدفون إذ ذاك من المسيحيين الأقحاح، الذين اعتقلوا بتهمة السب والقذف في حق القيم والعقيدة المسيحية، وبتهمة تعدد الزوجات والزنا، أو التعاطي للسحر. وخلال الخمس سنوات التالية، كان المسيحيون المحدثون لا يمثلون إلا 50٪ من المحاكمين. ويعود هذا التخلي المؤقت عن اضطهاد اليهود المتنصرين عقب السماح للعاهل البرتغالي بإنشاء محاكم تفتيش دائمة وحرة لا تخضع لأية مراقبة، إلى رغبة المسؤولين على تلك المؤسسة في إعطائها صورة إنسانية تطمئن عناصر تلك الأقلية، وتحد من محاولاتهم الفرار خارج البلاد. ولكي لا يبقى المحققون مكتوفي الأيدي، اهتموا بالمسيحيين الأقحاح وبالموريسكيين. لذا حاكمت محكمة يابرة فيما بين 1551–1555: 26 شخصا بتهمة القذف وقول الفواحش، و16 آخرين لجرائم جنسية وأخلاقية، و37 من أجل التعاطي للسحر والتحالف مع الشيطان، و17 بتهمة تبني أفكار الإصلاح الديني، إلخ. وسنرى كيف أن محاكمة الموريسكيين بلغت أوجها خلال هذه الفترة.

وبذلك يتبين لنا كيف أن نشاط المحققيين كان يخضع لظرفيات معينة ولسياسة الدولة في هذا الشأن. فقد كانت السلطة السياسية تحدد توجه المحكمة وضحاياها كما يتجلى ذلك من خلال توقف اضطهاد المسيحيين المحدثين بين 1551-1555، وبين 1576-1580.

وتحتل القضايا المتعلقة بالقذف وقول الفواحش المرتبة الثانية من ناحية الأعداد بمجموع 241 محضرا، أي ما يمثل ثلاث مرات عدد محاضر الموريسكيين أو الذين حوكموا بتهمة الزنا أو تعدد الأزواج. وهو عدد يفوق كذلك عدد القضايا الخاصة بالسحر والشعوذة أربع مرات.

وقد اهتم المحققون بالقضايا الخاصة بالقذف مبكرا، ذلك أن هذا المشكل شغل بال السلطات كثيرا خلال القرن الخامس عشر والقرن التالي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك

في فصل سابق. وتسبب اهتمام السلطات السياسية بهذا الموضوع في محاكمات خلال السنوات الأولى من عمر محكمة يابرة (26 محضرا من 1541 إلى 1545). وكان مرتكبو تلك الخطيئة من الجنسين، وكانوا ينتمون لكل الأعمار والشرائح الاجتماعية. ويتجلى من خلال الجدول التالي عجز المحققين عن القضاء على هذه الخطيئة أو التقليل من حدتها.

الفترة	عدد المتهمين
1540-1536	0
1545-1541	26
1550-1546	16
1555-1551	26
1560-1556	11
1565-1561	30
1570-1566	24
1575-1571	16
1580-1576	12
1585-1581	16
1590-1586	20
1595-1591	30
1600-1596	13

وتابعت محكمة يابرة فيما بين 1536 و1600 واحدا وستين مسيحيا قحا بتهمة الزنا أو تعدد الأزواج. والملاحظ أن قمع هذه الخطيئة، التي كانت منتشرة آنذاك، كان محدودا وتراوح بين ثلاث وست محاكمات كل خمس سنوات. وسجل أكبر عدد فيما بين 1551 ـ 1555(14 محاكمة).

واعتقل ستون شخصا من الجنسين بتهمة الشعوذة والسحر والتحالف مع الشيطان، حوكم 37 منهم فيما بين 1551 - 1555(61٪).

واتهم عشرون شخصا باللواط. وبخلاف لشبونة، لم تعرف يابرة محاكمات كثيرة لمعتنقي مذهب (لوتر)، لبعد منطقة نفوذها عن الساحل. وتمت أول محاكمة لمتبعي تلك العقيدة، والذين بلغ عددهم 13، بعد 1550. وكان أولئك المتابعون فرنسيين أو هولنديين أو إنجليزا . كما تابع المحققون كذلك 23 شخصا بتهمة ارتكاب جريمة في حق محكمة التفتيش، وستة عشرآخرين بتهمة شهادة الزور. ولم يحاكم إلا راهب واحد بتهمة التغرير بالنساء، ودفعهن إلى الزنا خلال اعترافهن بخطاياهن.

نستنتج من الأرقام السابقة الذكر، أن محاكم التفتيش بالبرتغال لم تعرف وحشية محاكم التفتيش بإسبانيا خلال العقود الأولى من عمرها، وقسوة محققيها الذين حكموا على المئات بالإحراق(13). لقد كان قمع ما كان يعتبر هرطقة بالبرتغال، واضطهاد اليهود المتنصرين في بداية الأمر معتدلا، ولم يسمح للقضاة بالبطش إلا في نهاية القرن، دون أن تصل حصيلة نشاطهم إلى ما وصله بطش محققي إسبانيا. وإذا كانت نسبة المحكوم عليهم بالإعدام حرقا بإسبانيا قد وصلت أحيانا إلى 40٪ من مجموع المحاكمين(14)، فإنها لم تتجاوز بالبرتغال 5 أو 6٪ حسب بعض التقديرات(15)، و6,5 ٪ حسب إحصائنا لنشاط محمكة يابرة خلال القرن السادس عشر (162 شخصا من مجموع 2456).

وهذا الاختلاف البين بين محاكم التفتيش الدينية البرتغالية والإسبانية يعود الى الظروف الصعبة إلتى أنشئت فيها بالبلد الأول، وإلى اضطرار العاهل البرتغالي إلى طمأنة الفاتكان ومواطنيه المسيحيين المحدثين الذين شرعوا في الهجرة بشكل مكثف. كما يفسر كذلك بالقوانين التي سنها المفتش العام، والتي كانت تحد كثيرا من سلط المحققين، وتلزمهم باحترام مسطرة دقيقة. فإذا كانت محكمة التفتيش الإسبانية لم تشرع في تخصيص جلسة للتعرف على المتهم ووزن مدى معرفته للعقيدة المسيحية،

(13) B. Bennassar, **l'Inquisition espagnole, XVe-XIXe siècle**. Paris :Hachette, 1979, pp. 17-40 .
(14) *Ibid*, p. 35 .
(15) I. Révah, **Etudes** ... *Op. cit.* p. 220.

وتحديد مجموعة من الظروف المخففة أو التي تورط المتهم أكثر إلا سنة 1560(16)، فقد اتبع المحققون البرتغاليون هذه المسطرة منذ سنة 1541، وخصوصا بعد نشر قانون 1552. لقد كان المحققون حريصين على معرفة المتهمين لتحديد نسبة مسؤوليتهم، وكانوا يحرصون على الحصول على توبتهم أكثر من حرصهم على الحكم عليهم بالإعدام. وتؤكد مراجعة محاضر سنوات 1541-1545 أن المحققين لم يكونوا صارمين، وأنهم عفوا عن أشخاص لم تكن اعترافاتهم كاملة، ولم يبلغوا بأحد(17). ومن جهة أخرى، اعتاد المحققون البرتغاليون إيقاف متابعة من توفي خلال محاكمته، وامتنعوا عن الحكم عليه بالإعدام، وإحراق تمثال له كما كان معمولا به بإسبانيا. وتم ذلك بالنسبة لمتهمين نسبت إليهم تهم خطيرة، كما هو الشأن بالنسبة للمغربي João Fernandez(18). وتسامح المحققون حتى مع متهمين اقترفوا ثانية خطيئة حوكموا من أجلها من قبل، مع أن القانون كان يعرضهم للإعدام(19).

وكان عدد المورسكيين الذين تابعتهم المحاكم الثلاث قليلا ولم يتجاوز 385 شخصا خلال الأربع والستين سنة التي تهمنا. ولم تعتقل محكمة كوينبرا إلا مغربية واحدة سنة 1571(20).

ويبدو أن لشبونة ضمت أكبر تجمع مورسكي بالبرتغال، لذا تابعت محكمتها أكبر عدد منهم: 292، وزعت محاكماتهم حسب الفترات الخماسية التالية :

الفترة	الذكور	الإناث
1540-1536	0	0
1545-1541	18	16
1550-1546	7	3
1555-1551	61	14

(16) B. Bennassar, **l'Inquisition** ... *Op. cit.* p. 38.
(17) Inq. Lix. proc. n° 6728, 7560.
(18) Inq. Lix. proc. n° 8425, fol. 74 v° - 75 v°,; Inq. Evora. n° 936. fol. 9 r° .
(19) انظر حالة مغربية حوكمت بلشبونة سنة 1557 (محضر رقم 6732) وبكوينبرة سنة 1571 (محضر رقم 3864)، وفي كلتا الحالتين، حوكمت بالسجن المؤبد راجع: محضر لشبونة رقم 172، ورقة 11.
(20) Inq. Coimbra, proc. n° 3864

1560-1556	49	40
1565-1561	54	4
1570-1566	6	1
1575-1571	1	1
1580-1576	5	0
1585-1581	3	2
1590-1586	2	0
1595-1591	1	0
1600-1596	3	1
المجمـــــوع	210	82

وتابعت محكمة يابرة بدورها خلال نفس المدة 92 موريسكيا حوكموا خلال المراحل التالية:

الفتـــرات	الرجـــال	النســـاء
1540-1536	0	0
1545-1541	3	2
1550-1546	2	0
1555-1551	2	8
1560-1556	21	33
1565-1561	5	7
1570-1566	1	3
1575-1571	1	0

1580-1576	3	0
1585-1581	0	0
1590-1586	1	0
1595-1591	0	0
1600-1596	0	0
المجمـــــوع	39	53

ومثل المغاربة، الذين كونوا الجالية الموريسكية الأكثر تماسكا والأكثر عددا، أغلب المتهمين : 261 مقابل 124 تركيا و«سودانيا» (من غرب أفريقيا) وهنديا وأندلسيا وجزائريا وتونسيا، أي ما يمثل نسبة 67٪ من الحاكمين الموريسكيين. وتتجلى هذه الغلبة العددية للجالية المغربية من خلال محاكمة النساء. فقد كانت 115 من اللواتي مثلن أمام المحققين، واللـواتي بلغ عددهن 135، مغربيات، أي ما يمثل نسبة 85 ٪ .

وتابعت محكمة لشبونة 183 من المغاربة، في حين حوكم 78 منهم بيابرة. أما محكمة كونبرة، فلم تحاكم إلا مغربية واحدة خلال القرن الذي يهمنا. وتعطي هذه الأعداد معدلات سنوية ضعيفة بالمقارنة مع عدد محاكمات المسيحيين المحدثين. ففي لشبونة، لم يبلغ ذلك المعدل ثلاث محاكمات في السنة، أي أربعا وعشرين مرة أقل من معدل نشاط المحققين فيما بين 1536–1600 . وبالطبع، كانت المعدلات بالمحكمتين الأخريين أدنى. وتدل تلك الأعداد على أن عناصر تلك الجالية، المكونين أساسا من أسرى وعبيد، ومن أشخاص بسطاء، لم يكونوا يخيفون المجتمع المسيحي والمحكمة التي أحدثها للدفاع عن قيمه.

وتتوزع محاكمات المغاربة بمحكمة لشبونة على الشكل التالي:

الفترات	الرجـال	النســاء
1540-1536	0	0
1545-1541	15	15
1550-1546	6	3
1555-1551	34	13
1560-1556	31	31
1565-1561	22	3
1570-1566	2	0
1575-1571	1	0
1580-1576	1	1
1585-1581	1	0
1590-1586	2	0
1595-1591	1	0
1600-1596	1	0
المجمـــوع	117	66

وبذلك يكون 95٪ من المغاربة قد مثلوا أمام المحققين فيما بين 1541 و1565. إلا أن جل المحاكمات تم بين 1551-1565، لتصبح محاكماتهم بعـد التاريخ الأخير قليلة جدا، الأمر الذي يؤكد تراجع أعدادهم للأسباب التي سبقت الإشارة إليها.لقد كان المغاربة العشرة الذين حوكموا بعد 1565 من الذين التحقوا مؤخرا بالبلاد، وتوبعوا بتهمة محاولة الفرار.

ومثل أمام محققي محكمة يابرة 78 من المغاربة كان جلهم من النساء: 49 امرأة مقابل 29 رجلا.

الفتـــرات	الرجال	النساء
1540-1536	0	0
1545-1541	2	2
1550-1546	0	0
1555-1551	1	7
1560-1556	19	31
1565-1561	4	6
1570-1566	1	3
1575-1571	0	0
1580-1576	2	0
1585-1581	0	0
1590-1586	0	0
1595-1591	0	0
1600-1596	0	0
المجمـــوع	29	49

وهكذا يتجلى بوضوح عدم اهتمام المحققين بالمغاربة المقيمين بالبرتغال خلال العقدين الأولين من حياة المحكمة، وأن جل المتابعين منهم اعتقلوا فيما بين 1555 و1565. وبعد التاريخ الأخير، تراجع عدد الحاكمين كثيرا، إذ تعددت الفترات الخماسية التي لم يعتقل فيها ولو مغربي واحد.

وبمقارنة أعداد المحاكمين من الموريسكيين والمسيحيين المحدثين، يتبين أنه في الوقت الذي اختفت فيه محاكمات المغاربة في نهاية القرن، بلغ اضطهاد اليهود المتنصرين أوجه، كما أن تتبع تطور محاكمات الأقليتين فيما بين 1551 و 1560 يسمح

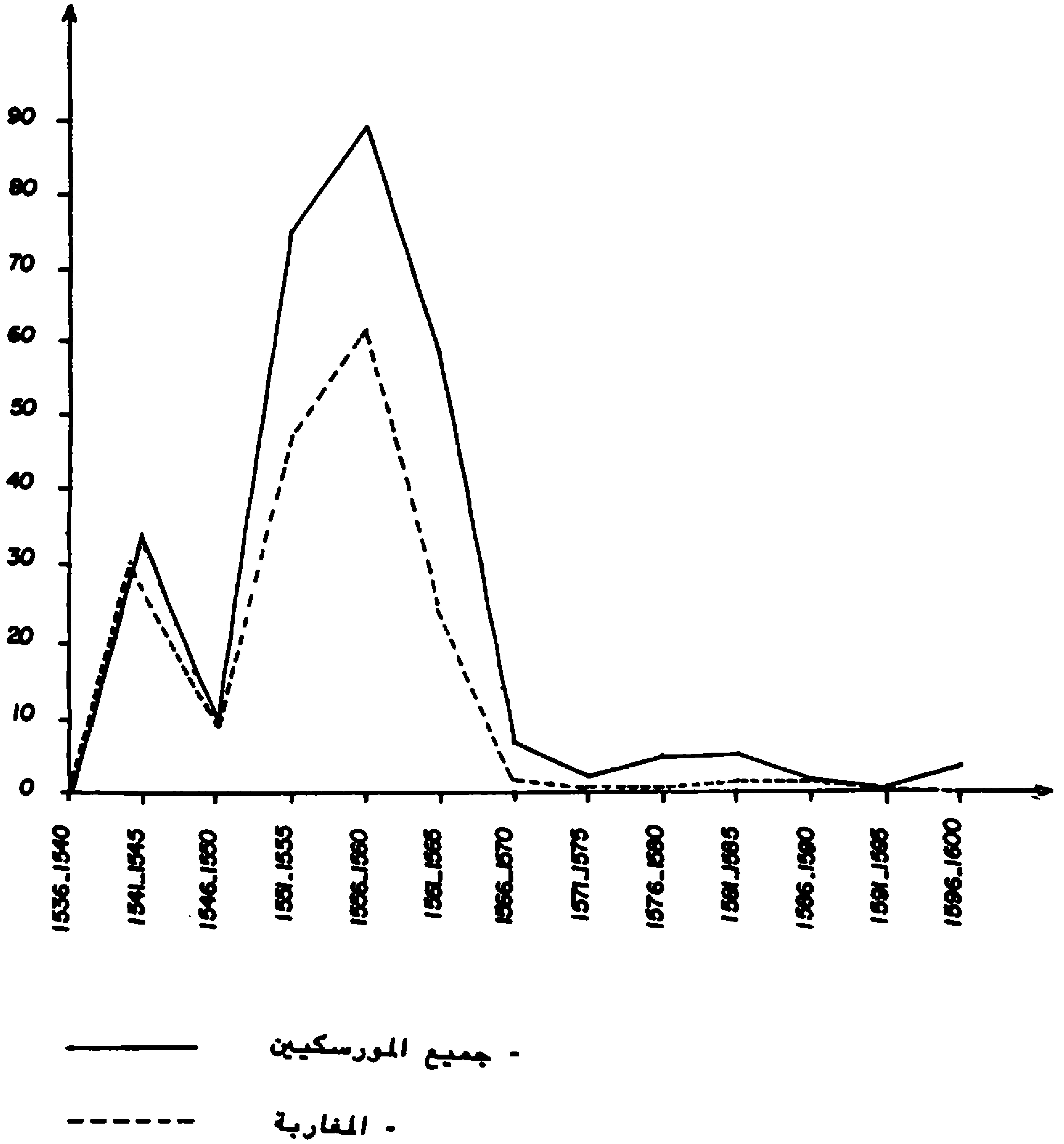
برصد موقف واضح اتخذه المحققون منهما: ففي الوقت الذي توقفت محاكم التفتيش عن اضطهاد اليهود المتنصرين بعد 1550، بلغت محاكمات الموريسكيين أوجها خلال العقد المذكور. وقد تنبه المغاربة آنذاك إلى الموقف السابق الذكر. فلما علم الحمالون العاملون بميناء لشبونة سنة 1554 باعتقال عدد مهم من مواطنيهم، برروا ذلك بقرار المحققين التخلي عن اضطهاد المسيحيين المحدثين ليتفرغوا للموريسكيين(21). وقد شعر رجل الشارع كذلك بذلك التحول الذي اعتبر حدثا يمكن التأريخ به. فقد أكد موظف بالمحكمة استدعاه للشهادة دفاع مغربي كان يحاكم سنة 1554 ما كان يردده المغاربة، إذ ذكر أنه يعرف المتهم منذ مدة، «قبل الشروع هنا في اعتقال الموريسكيين»(22).

ويؤكد الرجوع إلى تواريخ اعتقال المغاربة ما ذهبنا إليه. لقد كان اعتقال الموريسكيين يتم بشكل جماعي في مناطق تجمعهم. فقد اعتقل المغاربة المقيمون بستوبال و Alcácer do Sal خلال سنتي 1556–1557، أي بعد سنة أو سنتين من الاعتقالات الجماعية التي طالت المقيمين منهم بلشبونة. واعتقلت غالبية المغاربة المقيمين بيابرة سنة 1559. وخلال السنة التالية، جاء دور مغاربة مدينة Elvas الذين لحق بهم بالسجن خلال سنة 1561 المقيمون بمدينة Olivença. وبذلك يكون عمل محكمة التفتيش البرتغالية قد خضع لاستراتيجية واضحة. فحينما قررت القضاء على كل مظاهر التمسك بالإسلام والهوية الثقافية المغربية، قامت بذلك على مراحل، لتكون الضربات أكثر فائدة. فقد تعرضت أولا لأهم تجمع كانت تعرفه البلاد، والمتمثل في العاصمة. وبعد القضاء عليه، انتقلت من خلال تنظيم «زيارات» إلى باقي التجمعات حيث كانت مهمة المحققين سهلة. فقد كانت تكفيها بعض الاعتقالات لتصل من خلال التبليغات إلى جل عناصر الجالية لتماسك عناصرها. لذا كان المغاربة الذين بلغت بهم المسماة Ana de Melo سنة 1557 معتقلين أو تم النطق بالحكم عليهم(23).

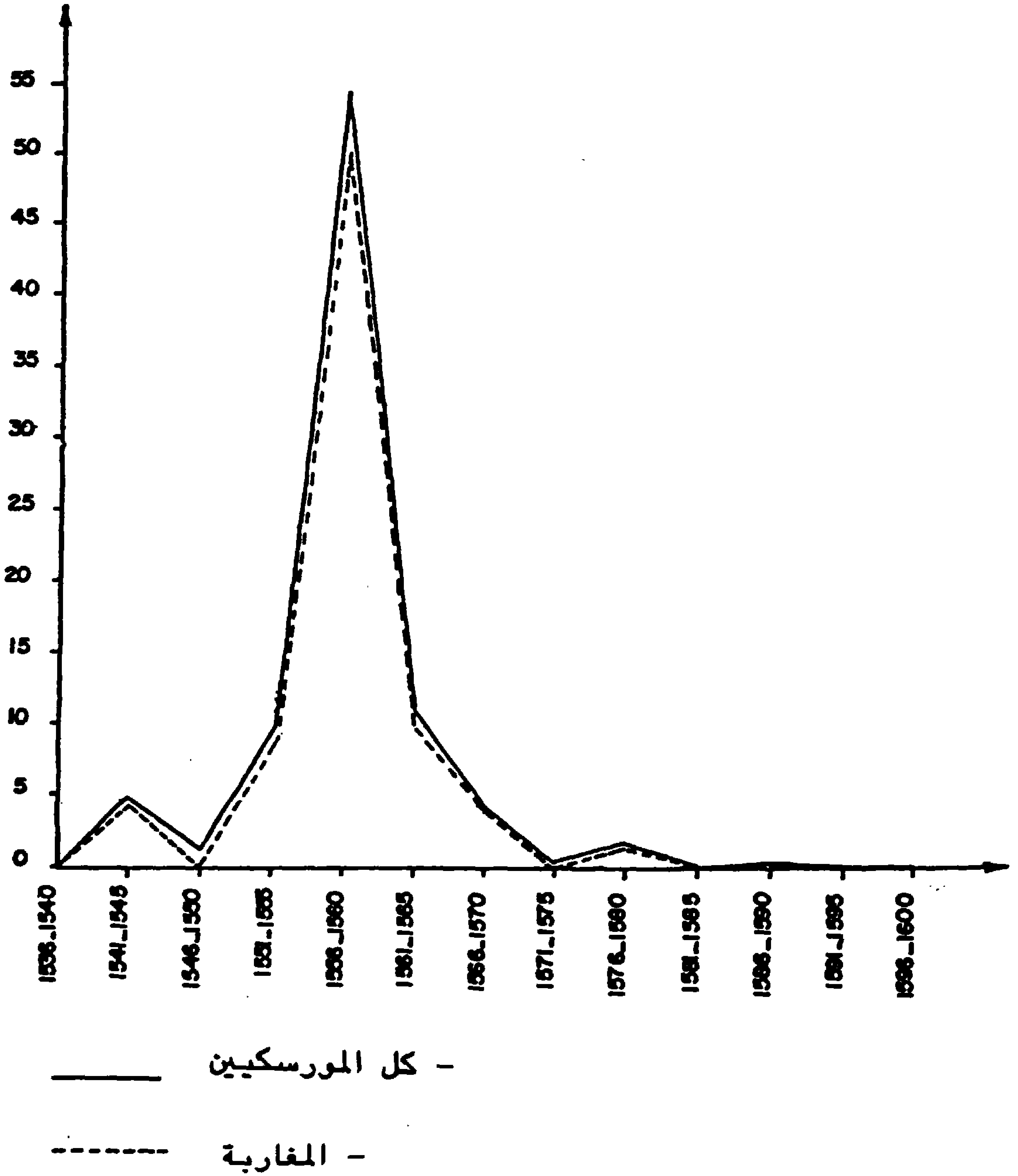
واستطاع الموريسكيون الذين كانوا يعيشون منعزلين الإفلات من قبضة المحققين، ولم تصل أصداء تصرفاتهم إليهم إلا خلال الزيارات التي كانوا ينظمونها بين الفينة والأخرى، كما هو الشأن بالنسبة لمغربي كان يعيش في حالة أسر بمدينة

(21) Inq. Lix. proc. n° 10864, fol. 11 r°
(22) Inq. Lix. proc. n° 6466, fol. 46 r° .
(23) Inq. Evora, proc. n° 6868, fol. 7 r° .

محكمة تفتيش لشبونة :
تطور محاكمة الموريسكيين



محكمة تفتيش يابرة :
تطور محاكمات الموريسكيين .



Portalegre(24). وكان المغربيان João Verde و Francisco Machado جريئين في انتقاد الدين المسيحي والسخرية منه، نظرا لإقامتهما بجزر الأصور، ولم يعتقلا إلا خلال إحدى «زيارات» المحققين(25). وأكدت أسيرة للمحققين خلال إحدى تلك «الزيارات» أن التونسية Isabel de Mendonça كانت ستعتقل منذ مدة لو أنها كانت تقيم بلشبونة(26). وكان لهندي كان يعيش معهما نفس الرأي: «لو كانت إيزبيلا دو ماندونسا المذكورة تقيم بهذه المدينة، لتم إحراقها منذ مدة»(27).

ما هي الخطايا التي كانت المحكمة تنسبها للموريسكيين عموما، وللمغاربة على وجه الخصوص؟

لقد تضمنت الفصول السابقة عناصر الجواب عن هذا السؤال. وسنعتمد في هذا الفصل على الإحصائيات لتأكيد استنتاجاتنا .

تتوزع الخطايا المنسوبة للموريسكيين على الشكل التالي:

الخطايا	عدد الموريسكيين	عدد المغاربة	النسبة المأوية
طقوس إسلامية	171	138	٪80
محاولة الفرار	166	94	٪56
اللواط	16	11	٪68
السحر	8	7	٪87
خطايا أخرى	24	11	٪45
المجموع	385	261	٪67

وتسبب التمسك بالإسلام والقيام ببعض شعائره، وكذا محاولات الفرار الفاشلة في جل اعتقالات المغاربة. إلا أن نسبة كل من الجريمتين المذكورتين اختلفت من محكمة إلى أخرى، ذلك أن جنس المتهم وموقع المناطق التابعة لكل محكمة كانا

(24) Inq. Evora, proc. n° 8056 fol. 3 r° - 7 v°. Inq. Evora, proc. n° 8363, fol. 21 r° .
(25) Inq. Lix. proc. n° 2257, fol. 2 r° .
(26) Inq. Lix. proc. n° 9310, fol. 5 r° .
(27) *Ibid* - loc. cit.

يؤثران بشكل فعال على مكانة كل نوع من أنواع الخطايا التي كان المغاربة يعتقلون بسببها. لقد كان الرجال يتابعون على الخصوص من أجل محاولات الفرار، إذ أن 93 منهم اعتقلوا بعد محاولاتهم الفرار إلى بلادهم، بينما اعتقل 70 منهم بتهمة القيام بشعائر إسلامية. ولدى النساء، كانت التهمة الأخيرة مسيطرة: 40 متهمة، مقابل 21 امرأة حاولت الفرار.

ومن جهة أخرى، نتج عن وجود منطقة ساحلية كبيرة ضمن نفوذ محكمة لشبونة، سيطرة المحاضر المرتبطة بمحاولات الفرار الفاشلة. فإذا كانت محمكة يابرة لم تتابع إلا مغربيا واحدا بتلك التهمة(28)، فإن محكمة العاصمة حاكمت 93 منهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وبلغ عدد المحاكمات بتهمة اللواط إحدى عشرة محاكمة(29)، تمت خمس منها خلال سنة 1557 وحدها(30)، وثلاث بعد سنة 1575(31). وكان ثلاثة من أولئك المغاربة لا يزالون مسلمين(32)، واثنان منهم ارتدوا منذ مدة قصيرة(33).

واعتقلت محكمة يابرة سبع ساحرات مغربيات(34)، بينما لم تعتقل محكمة لشبونة إلا واحدة(35).

وتابعت محكمة لشبونة سنة 1550 خمسة مغاربة أساءوا التصرف مع مواطنين لهم وصلوا مؤخرا إلى البرتغال وارتدوا به(36). وتوبع مغربي آخر سنة 1586 بتهمة ارتداء لباس مسيحي دون أن يكون قد ارتد بعد(37). واعتقلت محكمة لشبونة سبع

---

(28) Inq. Evora, proc. n° 9193 (1545) .
(29) Inq. Lix. proc. n° 10362, 1617, 10372, 6636, 2033, 12108, 4043,10872, 1728, 6018, Inq. Evora, proc. n° 186, 8056.
(30) Inq. Lix. proc. n° 1617, 10362, 10372, 12108, 10872.
(31) Inq. Evora, proc. n° 186 (1576), 8056 (1579), Lix. proc. n° 4043 (1575).
(32) Inq. Lix. proc. n° 10362, 10372, 6636 .
(33) Inq. Lix. proc. n° 1617, 12108 .
(34) Inq. Evora, proc. n° 9470 (1554), 9417 (1553), 11554 (1555), 5044 (1559), 11252 (1555), 10769 (1556) .
(35) Inq. Lix. proc. n° 12684 (1562).
(36) Inq. Lix. proc. n° 1636.
(37) Inq. Lix. proc. n° 1114 .

مرات مغاربة امتنعوا عن حمل الشارة التي كان المسلمون ملزمين بوضعها فوق لباسهم(38)، أو لحثهم مرتدين على التمسك بدينهم الأصلي، أو على الفرار إلى مسقط رأسهم(39).

وهكذا تكون المحكمة قد اهتمت مبكرا بالموريسكيين، ذلك أن أقدم المحاضر تعود إلى سنة 1542. وكانت متابعة أولئك الأجانب، كما هو الشأن بالنسبة لباقي المعتقلين، تخضع لأمرين يجب توضيحهما: تصور المحققين لمهمتهم وللدور الموكول إليهم من جهة، ورؤية المتابعين لتلك المحكمة، ولعمل قضاتها من جهة ثانية.

كانت محاكم التفتيش تبرر نشاطها بحماية العقيدة وقيم المجتمع، كما كانت تجعل من مهامها مصالحة المؤمنين مع الكنيسة بحثهم على الاعتراف بخطاياهم وهرطقتهم والتكفير عنها والتنديد بها. وانطلاقا من ذلك، بررت قسوتها وصرامتها مع كل من سولت له نفسه الاستمرار في طيشه، أو مع من لم يكن صادقا في توبته. لقد كان المحققون ينتظرون أساسا من محاكمة المتهمين التمييز بين من زاغ مؤقتا عن الطريق القويم، وبين من فعل ذلك عن إصرار. لقد كانوا يعدون الفئة الأولى بالعفو والمغفرة، والثانية بعقاب صارم. وكان التمييز بين الفئتين يتم انطلاقا من الاعترافات المدلى بها خلال *المحاكمة*. وخولت للمحققين سلط تقديرية واسعة لقبول تلك الاعترافات أو رفضها، علما بأن قراراتهم نهائية وغير قابلة للاستئناف أو المراجعة. وكانت السلطة التقديرية تأخذ بعين الاعتبار عنصرين أساسيين في نظر المحققين: عفوية الاعترافات وتطابقها مع التبليغات التي أدت إلى الاعتقال من جهة، ومدى تعاون المتهم مع القضاة من جهة ثانية، وذلك بالتبليغ عن أكبر عدد ممكن من أقرب الناس إليه.

وبذلك كانت محكمة التفتيش تبرر وجودها وعملها بمهمة تعتبرها نبيلة تتوخى منها حماية العقيدة وإنقاذ أرواح المسيحيين.لذا كانت تعتبر أن على الذين سقطوا في حبالها أن يحمدوا الله على فرصة التوبة والتكفير عن الخطايا التي أتاحها لهم باقتيادهم «إلى هذه المؤسسة لإنقاذ أرواحهم»، وبذلك -يضيف المحققون - وجب «عليهم أن يحمدوا الله، وأن يكفروا عن خطاياهم»(40).

---

(38) Inq. Evora, proc. n° 5272 (1544) .
(39) Inq. Lix. proc. n° 12085, 6440, 10863, 13206, 10872, 6636.
(40) Inq. Lix. proc. n° 12720, fol. 7 v° .

ومن جهة أخرى، كان المحققون على يقين بأنهم لا يأمرون بالاعتقال «دون مبرر كاف»(41). لذا لم يكونوا يتوقفون عن تذكير المتهمين بذلك.فحينما ألحت المغربية Antónia Rodriguês على براءتها، رد عليها المحقق بـ: «أننا لا نعتقل هنا إلا من تأكدت لنا ضرورة إنقاذ روحه، وبأنه زاغ عن الطريق القويم»(42). ولما امتنع مغربي آخر عن التبليغ عن زوجته وأصدقائه مبررا ذلك بأنه «ليس ملزما بالكذب لكي ينجي نفسه من القتل»، رد عليه المحقق : «هنا، بهذه المحكمة، لا نبحث عن قتل أحد، بل بالعكس، نطمح إلى تفادي ردتهم»، وذكره بأن خلاصه الوحيد يتمثل في التوسل «إلى سيدنا المسيح كي ينقذ روحه»(43).

لم تكن محكمة التفتيش ترى في التبليغات عملا قبيحا وغير أخلاقي، بل على العكس، كانت تعتبر أنها تساهم في «إرجاع المرتدين إلى سواء السبيل»(44). وبذلك كان القضاة يأمرون المتهمين «بالاعتراف التام بكل خطاياهم، وكذا بخطايا الآخرين دون اعتبار علاقة الزوجية أو الأبوة أو أية علاقة أخرى، أو صداقة»(45). ولتحقيق هذه الغاية، كانوا يبررون استعمال كل الوسائل التي قد يلجأون إليها كما سنرى. لقد كانوا يبررون تعذيب بعض المتهمين بـ: «ضرورة أن تخرج الحقيقة من أفواههم لكي ينجوا أنفسهم»(46). ومن جهة أخرى، كان المحققون يحصرون عملهم في هدف واحد : «أن يقول المتهم الحقيقة لكي يصدق إيمانه، لا غير»(47). *لذلك كانوا يلحون على المتهمين بأن الاعترافات الكاذبة أو الحاقدة لا تهمهم، ولن يولوها أي اعتبار.* فحينما أوقع المحقق المغربي António Alberto في حباله بعد مقاومة طويلة، لاحظ أنه شرع في الاعتراف بغضب وانفعال، فهدأه وأمره بأن لا يقول إلا الحق «وأن لا يذكر أي شيء كاذب عن الآخرين، وأنه إذا كان يرغب في الحصول على العفو، فما عليه إلا أن يعترف بكل شيء، وأن يحدد خطاياه ويسارع إلى التكفير عنها»(48).

(41) Inq. Evora, proc. n° 10439, fol. 2 v° .
(42) Inq. Lix. proc. n° 6728, fol. 14 v° .
(43) Inq. Lix. proc. n° 6405, fol. 23 r° .
(44) *Ibid*, 16 r° .
(45) Inq. Evora, proc. n° 6736, fol. 11 v° ;
(46) Inq. Evora, proc. n° 10439, fol. 45 r° - v° .
(47) Inq. Lix. proc. n° 10837, fol. 60 r° .
(48) *Ibid*, fol. 60 v° - 61 r° .

وهكذا نلاحظ انعكاس الأدوار: فمن خلال المحاضر، يبدو المحقق أكثر حرصا على سلامة المتهمين الماثلين أمامه. وللوصول إلى هذه الغاية، لم يكن يأخذ معاناة المتهم الجسمية والنفسية بعين الاعتبار.وانطلاقا من هذه القناعة، لم يكن المحققون يقبلون أن ينفي المتهمون الخطايا التي أدت إلى اعتقالهم، سواء كانت حقيقية أو ناتجة عن تبليغ كاذب.لقد كانوا ينتظرون ممن يمثل أمامهم اعترافا شاملا، ولم يكونوا يولون اعتبارا يذكر لكل المبررات والعوامل المخففة التي كان المتهمون يلحون عليها. لقد حاول المغربي João Mourisco تبرير الشتم والسب الذي خص به العقيدة المسيحية في الدير الذي كان يتعلم فيه العقيدة بالخمر الذي أفرط في شربه، وبالمعاملة السيئة التي خصه بها بعض البرتغاليين، إلا أن المحقق استعمل ذلك التبرير نفسه لتوريطه أكثر، معتبرا أن «ذلك المبرر الواهي» لم يكن كافيا «ليبعده عن عقيدتنا المقدسة».لم يكن المحققون ينتظرون من هذا المتهم تقديم تبرير لتصرف مؤقت تسبب فيه الخمر وسوء المعاملة، ولكنهم كانوا ينتظرون منه أن يفصح عن النوايا التي دفعته إلى اعتناق المسيحية.لم يكن القضاة يفسرون تصرف المغربي إلا بسببين: إما أنه لم يكن أبدا مسيحيا، وإما أنه لم يكن صادقا في ذلك طالما أنه «ولد ونشأ مسلما، وأنه لم يتنصر إلا لكي يتمكن من العيش بحرية في انتظار أن تتوفر له فرصة العودة إلى بلاد البرابرة». لذا طالبوه «بالتخفيف عن ضميره [والاعتراف] بكل شيء»(49).

ما هي الصورة التي كونها الموريسكيون عموما، والمغاربة على وجه الخصوص عن محاكم التفتيش؟

لقد مثل إحداث تلك المحاكم منعرجا في حياة تلك الأقلية المقيمة بالبرتغال.ففضلا عن الغربة والأسر والفاقة وعداء المجتمع المسيحي، فرضت تلك المحاكم على المغاربة تحمل محن السجن والخوف من الإعدام حرقا ومهانة لباس التوبة.

لقد كان للمغاربة تصور عرقي وعنصري لتلك المحاكم التي كانت بالنسبة إليهم وسيلة أحدثها البرتغاليون للقضاء على الأقليات الدينية.لقد كانوا مقتنعين بأن المحكمة التي لم تكن تتوقف في نظرهم عن اعتقال الموريسكيين، كانت تنتظر بفارغ الصبر ردة من بقي متمسكا منهم بدينه لاعتقاله بدوره(50). لم يكن المعتقلون يؤمنون بما يدعيه

(49) Inq. Evora, proc. n° 7643, fol. 21 r° - v° .
(50) Inq. Lix. proc. n° 9290, fol. 4 r° ; 8425 fol. 57 r° ; 3590, fol. 35 v°.

المحققون من عدل وبحث عن الحقيقة(51)، كما لم يكونوا يصدقون «أن محاكم التفتيش لا تعتقل أحدا بدون مبرر كاف وثابت»(52). لقد كانوا مقتنعين بأنها تعتقل بناء على تبليغات كاذبة تنتزع في الغالب بالعنف من المعتقلين الذين يسارعون إلى التبليغ عن غيرهم تفاديا للتعذيب أو قصد تقليص مدة حبسهم(53)، وأن تلك المحاكم لا تهدف إلى البحث عن الحقيقة وإلى إخلاء سبيل من تأكدت براءته، بل على العكس من ذلك، كانت تُكره بكل الوسائل المتوفرة لديها المعتقلين على الاعتراف بخطايا لم يقترفوها(54). لقد كان المورسكي الغرناطي المقيم بمدينة Olivença يعتبر أن تلك المحاكم «غير مشروعة، ولا يستند إحداثها على نص»(55).

ومن جهة أخرى، لم يكن المورسكيون يعترفون للمحققين بسلطة العفو عن الخطايا وبقبول توبة المذنبين، لأنهم كانوا يعتبرون أن ذلك بيد الله وحده.لقد كان المغربي João de Sousa يسخر من المحققين بقوله : «يقول هؤلاء البلداء : اعترف وسنغفر لك»(56). كما رد مغربي آخر على رغبة مواطن له كان يقاسمه زنزانته في أن يتقبل المحققون توبته بقوله: «لن يغفر لك هؤلاء البلداء، ولن يخرجك من نار [جهنم] غير الله ومحمد»(57).

وكان أولئك الأجانب يعتبرون المحققين أشخاصا لا يعرفون الشفقة والرحمة.فقد قارنهم João de Cano السابق الذكر بالفراعنة، وتنبأ لهم بنفس المصير المأساوي، «عقابا لهم على ما أهلكوا من النسل، وما أتلفوا من الممتلكات»(58).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المواقف الجريئة كانت محدودة نظرا للفزع الذي كانت تلك المحاكم تحدثه في نفوس الجميع، برتغاليين وأجانب.لقد ألفى مغربي مواطنة له في حالة رعب كبير بعد أن علمت باعتقال البحار البرتغالي الذي كانت تنوي الفرار في مركبه إلى المغرب. وقد أسرّت له بتفكيرها في الانتحار «بواسطة حبل لشدة

(51) Inq. Lix. proc. n° 1864, fol. 2 r° .
(52) Inq. Lix. proc. n° 9290, fol. 4 r° ; 6747, fol. 10 r° ...
(53) Inq. Evora, **Liv. das denúncias**, III, fol. 168 r° .
(54) Inq. Lix. proc. n° 10837, fol. 34 r° ; 6405, fol. 8 r° .
(55) Inq. Lix. proc. n° 10831, fol. 27 v°- 28 r° .Evora. proc. n° 3038 fol. 9 v° .
(56) Inq. Lix. proc. n° 13187, fol. 9 r° .
(57) Inq. Lix. proc. n° 8425, fol. 57 r° .
(58) Inq. Evora. proc. n° 7853, fol. 30 r° .

خوفها من المحققين»(59). وبرر بعض المغاربة اعترافهم المتأخر بخوفهم من الإعدام حرقا. فبعد أن نفى Pedro Alvarez خلال عدة جلسات التهم المنسوبة إليه، عاد للاعتراف بها وبرر تأخره في ذلك بوضعه كشخص «شديد الخوف، يخاف أن يأمر المحققون بإحراقه»(60).

لقد كانت محكمة التفتيش حاضرة باستمرار في أذهان المغاربة.فحينما شرع أحدهم في مقارنة الإسلام بالمسيحية، أسكته مرافقه وطلب منه أن لا يعود إلى قول ذلك بمحضره لكي لا يتسبب في اعتقاله(61). وكان ذلك الخوف أكبر خلال فترة الاعتقال، إذ كانوا يعملون على إسكات مواطنيهم ومرافقيهم تفاديا لمحاكمتهم بتهمة التواطؤ أو عدم التبليغ(62). ولم يكن خوف المورسكيين المدعوين للشهادة لصالح إخوانهم في الدين أقل، إذ كانوا يخشون أن توجه إليهم التهمتان السابقتا الذكر. لذا كانوا يعملون على إقناع المحققين بصدق إيمانهم بالتأكيد على صرامتهم مع كل من سولت له نفسه الابتعاد عن تعاليم الكنيسة، وعلى الجهود التي بذلوها لتثبيت إيمان المترددين.فمن خلال تصريح بعضهم، نقف على خطاب موجه في الحقيقة للقضاة من خلال النصائح التي ادعوا أنهم قدموها للمتهم. فقد ألح المدعو Salvador Soares، الذي دعاه دفاع مواطنه João de Sousa للشهادة، على صدق ردة المتهم وتمسكه بتعاليم الكنيسة «لأنه ما كان ليدخل بيته لو شاهده يقوم بعمل يتنافى ومبادئ المسيحية»(63). واهتم آخر حين تقديمه نفس التبرير بدفاعه عن نفسه أكثر من الدفاع عن مواطنه المحاكم.فقد ادعى أن «كل المورسكيين يحتاطون من الشاهد، وكانوا يحرصون على التصرف بمحضره كمسيحيين صادقين لعلمهم أنه لن يقبل منهم غير ذلك»(64).

لقد كان خطاب المغاربة عن محكمة التفتيش يتغير فور مثولهم أمام المحققين.لم يكن البعض منهم يكتفي بالاعتراف بخطاياه وبالتبليغ عن أسرته وأصدقائه للأسباب التي سنعود إليها، بل كانوا يعملون على إقناع المحققين بسعادتهم باعتقالهم.لقد أرخ بعضهم بداية حياته بيوم ذلك الاعتقال الذي طوى عهد الكفر والضلال. لقد ادعت

---

(59) Inq. Lix. proc. n° 10857, fol. 6 v° .
(60) Inq. Evora, proc.n° 8582, fol.47v°, *Cf.* aussi: Inq. Lix. proc. n° 12459, fol. 29 v° .
(61) Inq. Lix. proc. n° 4026, fol. 11 v° .
(62) Inq. Lix. proc. n° 8425, fol. 57 r°; n° 3590, fol. 35 v°, etc .
(63) Inq. Lix. proc. n° 12626, fol. 23 v° .
(64) *Ibid.* fol. 25 r° .

Francisca Lopes أنها كانت عمياء قبل اعتقالـها، وأن في ذلك الاعتقال «فائدة ومصلحة لها». لذلك ألـتمست بإلحاح من المحقـقين إعادة تعميدها لكـونها تعتبر نفـسها قد ولدت من جديد(65). ولتقـنع مخاطبـيها أكـثر، كانـت تتكلـم وهـي جائمـة. والتـجأ المدعو Duarte Fernandes بـدوره لنفـس الأسلـوب، وأرجـع بـدوره تـاريـخ ولادتـه إلـى يـوم اعتقاله(66). كما ادعى João de Sousa أنه لولا اعتقاله لبقي متمسكا بدينه الأصلي(67). وشكـرت Francisca Fernandez الذيـن بلغـوا عنها، والذيـن مكـنوها بذلـك مـن العـودة إلى الطـريـق الـقـويـم، ومن «أن تـعيش وتمـوت مسيـحية صـادقة»(68). واعتـمدت Leonor Cabalyna بدورها نفس الأسلوب لـتفادي عقاب صـارم(69). ولتكون هذه الأقوال ذات تأثير على المحققين، كانت تصحب بحركات سنعود إليها.

وهكذا لم يكن أمام المغاربة، كباقي المتهمين، إلا حل واحد : الاعتراف والتبليغ في أقرب وقت ممكن لـلحصول على عفو المحـققين، ذلك أنه كان من الصـعب، إن لم نقل من المتعذر عليهم إثبات براءتهم.لقد كان المتهم الذي يحاول بعناد إقناع القضاة ببراءته يخاطر أكثر ممن يـسارع إلى الاعتراف والتبليغ بالآخريـن خلال الجلسات الأولى.لم تكن المسطرة المعتمـدة من لدن المحكمة تسمح للمتهمين بإثـبات براءتهم بسرعة، ذلك أنهم كانوا يعتـبرون «سلبيين» (negativos)، ولم يكن يسـمح لهم بتقديم دفاعـهم وتعيين شهودهم إلا بـعد عدة جلسات، وإثـر الإعـلان عن مرافـعـة ما يناسـب الـيوم النـيابة العامـة (Promotor fiscal)، وهو أمـر لم يكن فـي صالح المتـهم. وبعـد ذلك كان المحـقـقون يشـرعون في اسـتنطـاق شهود الـدفاع سريـا، وبدون حضـور المتهـم. وكان استـدعاء أولئك الشهود يتطـلب وقتا طويلا، خصوصا إذا كانوا يقيمون بعـيدا عن مقر المحكمة، أو كانوا في سفر. لم تبـرأ ساحة المغربية Catarina Taborda، التي اعتقلت على إثر تبليغ واحد، إلا بـعد محاكـمة دامت سـتة أشهر.ورغـم براءتهـا التي أكـدتها عدة شـهادات بمديـنة إقـامتهـا، قضت بـالسـجن نفس المدة التـي قضـاها متـهمون آخـرون اعتـرفوا بخطاياهم(70).

(65) Inq. Lix. proc. n° 7246, fol. 6 v° - 10 r° .
(66) Inq. Lix. proc. n° 6405, fol. 21 v° .
(67) Inq. Lix. proc. n° 12626, fol. 38 v° .
(68) Inq. Lix. proc. n° 3182, fol. 11. r ° .
(69) Inq. Lix. proc. n° 7693, fol. 13 r° .
(70) راجع حالة أخرى: Inq. Evora, proc. n° 8368; n° 9288 .

لذا كان استيعاب المسطرة المتبعة من لدن المحكمة ضروريا لتفادي مدة حبس طويلة.لقد حدد قانون 1552 بدقة مختلف المراحل التي تمر منها المحاكمات داخل محاكم التفتيش. إلا أن سرعة أو بطء المحاكمة، وكذا تسامح أو قساوة القضاة يرتبط بعدة عوامل منها على الخصوص الموقف الذي تقفه المحكمة من كل خطيئة، وموقف المتهم خلال الجلسات، وكذا عدد السجناء الذين كانوا ينتظرون دورهم.وفي هذا الإطار، يمكننا أن نتساءل عما إذا كان المغاربة، الذين كان عدد كبير منهم لا يحسن الحديث بلغة البلاد، ولم يقيموا بها إلا مدة قصيرة، قد استطاعوا استيعاب تلك المسطرة، وفهم بنيات وهياكل المحكمة التي كانت تتابعهم. سنحاول الإجابة على هذا السؤال من خلال تتبع مختلف مراحل محاكماتهم.

كانت المحكمة تولي أهمية قصوى للاعترافات العفوية، سواء خلال مراحل العفو التي كانت تعلن عنها، أو خلال "زياراتها" للأقاليم، أو داخل بنايتها حيث كانت تضع سجلا خاصا للتوصل بتلك الاعترافات.إلا أن عددا قليلا من المغاربة غامر بالاعتراف من تلقاء نفسه نظرا لما كان يمثله ذلك من مخاطرة، إذ أن المحققين كانوا يعتبرون أن أحسن معيار على حسن نية المعترف هو التبليغ عن الأقارب والأصحاب.لذلك لم يتقدم أمام المحققين إلا أحد عشر مغربيا لطلب عفو المحققين، ولم يفعلوا ذلك إلا بعد اعتقال الزوج(71)، أو الصديق(72)، أو بإلحاح من السيد إذا كان المعني بالأمر أسيرا(73). واعتبر المحققون اعترافات ستة منهم ناقصة، وأمروا باعتقالهم.

كانت الجلسة الأولى تتم في الغالب في اليوم الموالي للاعتقال، أو بعد أيام قليلة، كما ينص على ذلك القانون. وفي عدة حالات، استدعي المتهم لحضور تلك الجلسة بناء على طلبه.وتهدف هذه الجلسة إلى التعرف على المتهم الذي كان يطلب منه أن يؤدي القسم بالأناجيل، وأن يذكر اسمه وسنه، ومسقط رأسه، وتاريخ دخوله البرتغال، وتاريخ تعميده.وكان المحققون يزنون بعد ذلك مستوى معرفة المتهم بتعاليم الكنيسة وبالصلوات التي يطلبون منه ذكرها.وبعد ذلك يسأل عما إذا سبق له أو لأحد

(71) Inq. Evora, proc. n° 7696, fol. 2 r°, 5239, fol. 6 v° .
(72) Inq. Lix. proc. n° 10863, fol. 2 r° - v°, 6533, fol. 4 v°, 9 v° .
(73) Inq. Lix. proc. n° 3565, fol. 19 r°, 6533, fol. 4 r°, 7 v°; n° 6754, fol.5 r° .

أقاربه أن اعتقل من لدن محكمة التفتيش، وعما إذا كان يعرف سبب اعتقاله ومحاكمته.وبما أن جل المتهمين يدعون خلال هذه الجلسة صدق ردتهم وتمسكهم بدينهم الجديد، فإن المحققين يسألونهم عما إذا سبق لهم القيام بطقس من الطقوس الإسلامية الواردة بلائحة الخطايا التي حصرتها المحكمة. وفي حالة ما إذا كان الجواب سلبيا، ينبه المتهم ويحذر ويذكر بأنه إذا كان يرغب في عفو الكنيسة، فإن عليه أن يعترف وأن يطلب منها المغفرة. ولاعطائه فرصة للتفكير والتذكر، يرجع إلى زنزانته.

وقد سارع بعض المغاربة، الذين اعتقلوا في حالة تلبس، أو الذين توقعوا أسباب اعتقالهم إلى الاعتراف خلال هذه الجلسة للحصول على عفو القضاة الذين كانوا يستحسنون مثل هذا التصرف.لقد اعترف المدعو João da Silva بكل سهولة بأنه كان دوما «مسلما منذ أن عمدوه إلى أن اعتقلوه بهذه المحكمة المقدسة، وأنه آمن بدين محمد حتى هذه اللحظة، بحيث كان يقول بأنه الدين الحق، وكان يعتقد بأنه أفضل من الدين المسيحي، وأنه كان يتوسل إلى محمد وإلى سيدي أبي العباس السبتي، اللذين كان يعتبرهما وليين»(74).

وسارع هؤلاء المغاربة الذين اعترفوا خلال الجلسة الأولى إلى التبليغ عن أزواجهم وجيرانهم وأصدقائهم(75).

ولم تكن الجلسة الثانية، التي كانت تعقد عموما بناء على طلب السجين، تتأخر كثيرا. واعترف عدد كبير ممن ادعوا أن ردتهم كانت صادقة خلال الجلسة السابقة، بأنهم ظلوا متمسكين بدينهم الأصلي من يوم تعميدهم إلى حين اعتقالهم. واعترفوا بقيامهم ببعض الطقوس الإسلامية وبلغوا عن بعض معارفهم. غير أن جلهم امتنع عن توريط أزواجهم وذويهم(76). لم يكن المحقق يلح كثيرا في هذا المستوى من المحاكمة. فبعد تحذير جديد، كان يأمر بإرجاع المتهم إلى زنزانته. ولم تكن هذه الجلسة

(74) Inq. Evora, proc. n° 4648, fol. 3 r° - v° .

(75) راجع على سبيل المثال: Inq. Evora, proc. n° 2827, fol. 3 v°, 4174 fol. 3 r°, 10769, fol. 7 r°;8055, fol. 4 r°; 9823 fol. 5 v°; 79957, fol. 3 r°, 6462, fol. 3 v°-4 r°.;Inq. Lix. proc. n° 6787, fol. 6 r°-7 r°, 3191, fol. 4 r°- 5 v°,1592, fol.4 v°- 5 r°, 7246, fol. 4 r°- 5 v°...

(76) من بين الاعترافات التي تمت خلال الجلسة الثانية راجع:
Inq. Lix. proc. n° 7560, fol. 14 v°- 15 v°; 708, fol. 13 v°- 16 r° .

تطول كثيرا بالنسبة لمن تمسك ببراءته، إذ كانوا يرجعون إلى السجن بعد أن يؤمروا بالتخلي عن موقفهم(77).

كان «الاستنطاق المفصل» الذي تعرفه هذه الجلسة، وخصوصا الجلسة اللاحقة، يتعلق – حسبما هو مسطر في القانون – بالأفعال التي أدت إلى الاعتقال، والتي لم يتم الاعتراف بها، أو اعترف ببعضها فقط. إلا أن المحققين كانوا يتفادون ذكر الأسماء والتواريخ والأمكنة وكل ما قد يمكن المتهم من التعرف على من بلغ عنه. فبما أن Pedro Alvarez ادعى أنه «لم يقم بأي طقس إسلامي منذ تعميده»، فإن المحقق سأله «عما إذا سبق له في وقت ما، خلال حفل أو عشاء أو زفاف أو وجبة تناولها خلال نزهة، بهذه المدينة أو خارجها، برفقة آخرين، أن قام بالطقوس التي يقوم بها المسلمون قبل الشروع في الأكل، وذلك حسب العادة والطريقة المتبعة من لدن المسلمين، الذين يرفعون أيديهم مفتوحة ويقولون: «باسم الله الرحمن الرحيم، الشيطان الرجيم» (كذا) إلخ، والذين يقولون بعد الانتهاء من الأكل: «الحمد لله»، شاكرين بذلك الله ومحمدا وأبا العباس السبتي ومولاي علي، على طريقة المسلمين، وحسب عادتهم»(78).

غير أن المحققين لم يكونوا يترددون في الإفصاح عن أسماء المبلغين كلما تأكد لهم عجز المغاربة عن الانتقام منهم.وهكذا قرر المحققون كتابة بأنهم لا يرون مانعا في إطلاع Jorge Camelo على أسماء الذين بلغوا عنه، «لأن المتهم شخص بسيط لا يمكنه أن يسيء إلى الشهود المذكورين»(79). ولهذا السبب واجه المحققون كذلك عدة مرات المبلغ والمبلغ عنه في الظروف التي سنعود إليها.

ويعود إسراع المتهمين في الاعتراف والتبليغ ورغبتهم في الحصول على رضا المحققين بطلب المثول بين أيديهم، إلى الفزع الذي كانت محاكم التفتيش تحدثه في نفوس كل الذين كانوا يسقطون في شباكها. كما يعود الموقف نفسه إلى مختلف الضغوط التي كان المتهمون عرضة لها من قبل قائد السجن وحراسه الذين كانت إحدى مهامهم تتمثل في حث السجناء على الاعتراف وطلب المثول أمام المحققين(80). كما كان باقي السجناء يدفعون الذين التحقوا بهم إلى الاعتراف دون تأخير.

---

(77) Inq. Evora, proc. n° 5174, fol. 4 r°; n° 8623, fol. 3 v°
(78) Inq. Evora, proc. n° 8582, fol. 4 v° .
(79) Inq. Evora, proc. n° 6350, fol. 24 r° .
(80) Inq. Lix. proc. n° 3577, fol. 6 r°- v°, 7693, fol. 8r°, 10710, fol. 25 r°.Inq. Evora, proc. n° 9288, fol. 22 r° - v° .

لقد كان João Nunes يعود من الجلسات في حيرة كبيرة لعدم معرفته بما يجب عليه الاعتراف به، لذا «نصحه المغربي João Barreto عدة مرات بأن يعترف بالخطايا التي سيسألونه عنها، وأكد له أنهم سيطلقون سراحه فور ذلك»(81). كما قدمت سجينة برتغالية للمغربية Joana Caldeira نفس النصيحة(82).

كما يعود الاعتراف المبكر إلى تعوّد المغاربة على مسطرة المحكمة واستيعابهم لها مع مرور الوقت. لقد فهم من اعتقل منهم بعد 1555 أن الاعتراف بأي شيء، أحسن بكثير من الإصرار على إقناع المحققين ببراءتهم ونفي التهم التي تنسبها المحكمة إليهم. وقد استخلص المغاربة تلك النتيجة بفضل محن من سبقوهم إلى المحاكمات، أو الذين كانوا قابعين بسجون محاكم التفتيش في إنتظار الحفل الديني الذي ينطق خلاله بالحكم. فقد سارعت Francisca Lopes فور إطلاق سراحها إلى تحذير Madanela Rodriguês وزوجها وأخبرتهما بأنها اضطرت إلى التبليغ عنهما، ونصحتهما بالتوجه إلى المحكمة للاعتراف قبل اعتقالهما(83). كما تمكن António Alberto خلال اعتقاله من بعث رسالة إلى زوجته ونصحها بالاتصال بمحام قبل الالتحاق بالمحكمة للاعتراف(84). كما اتفق المغاربة الذين بلغ عنهم António Correa على «الاتصال برجل قانون لكي ينصحهم بشأن ما يجب عليهم أن يفعلوه»، وذلك قبل أن يلتحقوا بالمحكمة قصد الاعتراف(85).

كما عمل بعض المغاربة الذين كانت محاكماتهم جارية على جعل مواطنيهم يستفيدون من تجربتهم، وذلك بإطلاعهم على نوع الأسئلة التي يطرحها المحققون(86). وهكذا نصح João Barreto المعتقل سنة 1554 بإلحاح مواطنه João Nunes بالاعتراف بأي شيء، ولو بما لم يفعله: «سواء اقترفت خطايا أم لا، فعليك بالاعتراف لكي لا يحرقوك»(87). وأخبر مغربي آخر المحققين بأن مواطنه ورفيقه بالسجن،

(81) Inq. Lix. proc. n° 6466, fol. 34 v° .
(82) Inq. Evora, proc. n° 3038, fol. 9 v° .
(83) Inq. Lix. proc. n° 9670, fol. 6 v° .
(84) Inq. Lix. proc. n° 10837, fol. 32 r° .
(85) Inq. Lix. proc. n° 10817, fol. 22 v° .
(86) Inq. Lix. proc. n° 13187, fol. 18 r° .
(87) Inq. Lix. proc. n° 6466, fol. 23 r°- v° .

Pero Lourenço، نصحه بالاعتراف بسرعة بأي شيء، واقترح عليه أن يعترف بأكل الكسكس والتوسل إلى الله، والتشهد، طالما «أن كل المورسكيين يقولون ذلك، وأن كل الذين جاءوا من Setúbal قاموا بنفس الاعترافات (...) لأنه لا مفر لك من ذلك، وإلا فستقبع هنا طول حياتك»(88). كما نُصحت Anna Barbosa بالاعتراف «بأي شيء، حتى ولو بما لم تفعله (...) اقتداء بما قامت به الأخريات، لأن من اقترفت منهن خطيئة اعترفت بأربع»(89). وادعت Maria Lopes اعترافها «بهذه المحكمة المقدسة بما لم تفعله»(90).

وهكذا استوعب المغاربة مع مرور الوقت هذا الفرق الكبير بين محاكم التفتيش والمحاكم المدنية. لقد فهموا أن الخطير ليس هو الاعتراف ولو بخطايا جسيمة، ولكنه الامتناع عن الاعتراف بالخطايا التي كان المحققون على يقين بأن المورسكيين قد اقترفوها بسبب أصلهم وردتهم الحديثة.وتؤكد المحاضر التي اعتمدناها أن جل المغاربة سلكوا ذلك الأسلوب الذي كان المحققون يستحسنونه.لقد كانوا يلحون في الطلب للمثول أمام المحققين، وكانوا يتبادلون التهم بينهم، ناسين بذلك بسرعة ما سبق لهم أن تعهدوا به قبل اعتقالهم بالامتناع عن الاعتراف والتبليغ(91). لقد كانت الاستثناءات قليلة، ودفع أصحابها الثمن غاليا لأن المحققين اعتبروهم "سلبيين" وحكموا عليهم بالإعدام، أو أنقذوا أنفسهم بأعجوبة باعترافهم في الجلسات الأخيرة من محاكمتهم بعد مقاومة طويلة(92).

وفي حالة ما إذا امتنع المتهم عن الاعتراف بعد ثلاث أو أربع جلسات، كانت المحكمة تلتجئ إلى وسائل الإكراه. لقد كانت تمدد مدة المحاكمة والاعتقال بالابعاد بين الجلسات. لم يستدع المحققون Maria Madeira للمثول أمامهم إلا بعد أربعة أشهرلكونها لم تعترف إلا خلال الجلسة الرابعة، ولأن ذلك الاعتراف لم يقنعهم. لذا اضطرت إلى الإلحاح في طلب المثول أمام القضاة الذين ذكرتهم باعتقالها منذ سنة، وبأنها لا تزال تنتظر أن يقرروا في شأنها. وبما أنها لم تضف أي جديد لما ذكرته في الجلسات

(88) Inq. Lix. proc. n° 10831, fol. 27 v°- 28 r° .
(89) Inq. Lix. proc. n° 11129, fol. 14 r°- 15 r°, 17 r° .
(90) Inq. Evora, proc. n° 9288, fol. 22 r° .
(91) Inq. Evora, proc. n° 10769, fol . 18 v° . Inq. Lix. proc. n° 2263, fol. 22 v°, 12626, fol. 41 v° .
(92) *Cf.* proc. de J. Nunes, Inq. Lix. proc. n° 6466, de D. Fernandez n° 6405; de jorge Camelo. Inq. Evora, proc.n° 6350 .

السابقة، فإنها أمرت بالعودة إلي زنزانتها.وبعد أسبوع، طلبت الحضور أمام القضاة واعترفت بالقيام بطقوس إسلامية منذ مدة طويلة بحضور امرأتين كانتا آنذاك مسلمتين. ولما استدعيت لجلسة الغد لم تضف جديدا، فأعيدت بسرعة إلى السجن. وبعد أربعة أشهر، مثلت أمام المحققين لتقول بأن اعترافاتها كاذبة، وأنها قالتها بإيعاز من قائد السجن، وبتحريض من مغربية تسمى Mor Rodriguês(93).

لقد كان المحققون صارمين مع من كان يمتنع عن الاعتراف، أو كان يتراجع عما اعترف به، إذ كانوا يأمرون بعزله وتثقيله بالسلاسل.لقد عانى المغربي João Nunez من جراء ذلك بعد أن تراجع في الجلسة السادسة عن اعترافه.وحسبما ورد بشهادة مسيحي محدث، كان ذلك المغربي «يجر سلسلة كان الشاهد يسمعها من المستوى العلوي للدار حيث كان يقيم، كما كان يسمعه كلما التحق João Nunez المذكور بقاعة الجلسات، وسمعه بعض المرات يتألم من جراء السلسلة المذكورة»(94). واعترف ذلك المسيحي المحدث بأنه نصح المتهم بالاعتراف وأكد له أنهم «سينزعون عنه تلك السلسلة فور ذلك، وسيشملونه برحمتهم»(95). وعاين Francisco Carvalho، وهو مغربي، معاناة مواطنه من جر تلك السلسلة(96).

واعتاد المحققون وضع المتهمين العنيدين والمتمسكين بقناعاتهم، أو من يعتبرونهم كذلك، تحت المراقبة، وكانوا يكلفون حراس السجن بالتجسس عليهم من خلال ثقب سرية(97). كما كان المحققون يكلفون متهمين آخرين بالتجسس عليهم ودفعهم إلى الكلام للاطلاع على قناعاتهم ومعتقداتهم(98). وبهذه الوسيلة تمكن António de Carvalho من التبليغ عن المورسكيين الذين كانوا يقاسمونه زنزانته(99).

وغيرت بعض التبليغات التي توصل بها المحققون في هذا المستوى من المحاكمة مجرى هذه الأخيرة. لقد اعتقل Fernão Salgado خلال شهر أبريل 1557. وعرفت محاكمته ست جلسات تمت من 5 مارس إلى 4 شتنبر 1557. وبعد أن نفى قيامه بأي

(93) Inq. Evora, proc. n° 9288, fol. 20 r°- 22 v° .
(94) Inq. Lix. proc. n° 6466, fol. 37 r°- v° .
(95) *Ibid.*, loc. cit.
(96) *Ibid.*, fol. 40 v° .
(97) Inq. Evora, proc. n° 8433, fol. 14 v° .
(98) Inq. Lix. proc. n° 2467, fol. 5 r°- 11 r°, 13187, fol. 23 v°- 24 r° .
(99) Inq. Lix. proc. n° 8425, fol. 5 r°, 56 .

طقس من الطقوس الإسلامية، عاد للاعتراف ببعضها وبتفكيره في الفرار إلى المغرب. كما عجز عن الاستمرار في حماية زوجته، واضطر إلى الاعتراف بأنها كانت تشاطره معتقداته وقناعاته. وقد حدد المحققون موقفهم من تلك الاعترافات يوم 4 شتنبر، إذ ورد بمحضره: «مثل أمام المحققَيْن هذا المتهم يوم رابع شتنبر من 557 (كذا) حيث استجوب واعترف ببعض الخطايا (...)، وقد قبلت تلك الاعترافات التي تخوله عفو الكنيسة، وتلزمه بالتكفير عن خطاياه، وتفرض عليه السجن المؤبد». إلا أنه، وفي الوقت الذي كان ينتظر تنظيم الحفل الديني لسماع النطق بالحكم، لم يحتط من موريسكي كان يخدم السجناء ومن آخر بعثه المحققون خصيصا للتجسس عليه، وفاه بأقوال بلغت إلى القضاة فيما بين 9 فبراير و 22 منه. وبما أن ذلك المغربي رفض الاعتراف رغم أن المحققين أطلعوه على إسمي المبلغين وعلى ما قاله بمحضرهما، فقد حكم عليه بالإعدام حرقا خلال الحفل الديني الذي نظم يوم 15 ماي 1558(100).

وعرف مغربي آخر نفس المصير لامتناعه عن التبليغ بأصدقائه والاعتراف بأفعال قام بها داخل السجن(101).

وفي حالة ما إذا استمر المتهم، رغم كل التحذيرات والوسائل المعتمدة من لدن المحكمة، في الامتناع عن الاعتراف بما نسب إليه والتبليغ عن الذين شاركوه تلك الأفعال، كان يخبر بأنه في حال تمسكه بموقفه، فإن المحكمة ستسمح للنيابة بتلاوة صك الاتهام. وبذلك تعطى للمتهم آخر فرصة لتفادي عقاب صارم.وفي حالة الاستمرار في إعلان براءته، تتقدم النيابة بلائحة التهم المنسوبة للمتهم، وتطلب من المحكمة قبولها. وإذا كان المتهم قاصرا (أقل من 25 سنة)، تعين المحكمة له وكيلا يحثه على الاعتراف ويساعده في اختيار محاميه(102). ولم يكن تدخل النيابة ضروريا في حالة ما إذا اقتنع المحققون بتورط المتهم. فقد حكم على المغربي Duarte Fernandez، دون أن يتدخل ذلك الموظف.

وبعد تلاوة صك الاتهام، يطالب المتهم بالرد عليه فصلا فصلا ونفي ما ورد به.وبما أن ذلك الرد والرفض لم يكونا في غالب الأحيان يؤثران على قرار القضاة،

(100) Inq. Lix. proc. n° 2467, fol. 5 r° - 32 r°.
(101) Inq. Lix. proc. n° 6405, fol. 10 r°; 2263, fol. 20 r°- 21 v°.
(102) Inq. Lix. proc. n° 10854, fol.11;12108, fol. 10 v°, etc.

فإن هؤلاء كانوا يأمرون المتهمين باختيار أحد المحامين المقبولين لدى المحكمة. وآنذاك توضع نسخة من صك الاتهام رهن إشارة المتهم ومحاميه ليعدا على ضوئه دفاعهما. لقد كان القانون الداخلي للمحاكم يلزم المحامي بأداء القسم بعد كل تنصيب بالدفاع بصدق وأمانة عن موكله، وبمساعدته في الدفاع عن نفسه، وبأن يتنازل عن القضية، وأن يخبر المحققين بذلك، كلما تبين له أن حالة المتهم ميؤوس منها(103). وبالطبع، كانت هذه الشروط تحد من صلاحيات الدفاع، طالما أن المحققين كانوا مقتنعين بأن كل من لم يعترف في هذا المستوى من المحاكمة ملحد عنيد. لذا كان دور أولئك المحامين يقتصر في الغالب على نصح المتهم بالاعتراف، وهو ما كان المحققون يؤكدون عليه خلال التنصيب. فقبل أن ينصب المحققان محامي المغربي João، طلبا منه أن يقسم بأنه سيحث «يوحنا المذكور على الاعتراف الشامل بكل خطاياه، وعلى الإفصاح عن نيته حين قال بأنه لا يزال مسلما»(104).

فما أن سمح لمحامي المغربي Pedro Alvarez بمقابلة موكله حتى «طلب منه بإلحاح ونصحه بالاعتراف بكل خطاياه دون ترك أي شيء، خصوصا وأنه شرع في الاعتراف ببعضها»(105). وقد اقتصرت مهمة محامي المدعو António de Melo على نفس النصائح(106).

وهكذا سارع عدد من المغاربة إلى الاعتراف بعد مقابلة محاميهم تفاديا لتوريط أنفسهم أكثر، ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يترددون في التخلي عنهم كلما امتنعوا عن تنفيذ نصائحهم. فبعد اطلاع محامي Jorge Camelo على صك الاتهام ومحضر الجلسات، تخلى عنه مبررا ذلك باستحالة الدفاع عنه(107). وتعود قلة حماس المحامين كذلك لكثرة المتهمين خلال مراحل الاعتقالات الجماعية. فقد كانوا مكلفين بعدد كبير من القضايا بعد 1555، وكان على بعض موكليهم انتظار عدة أيام لمقابلتهم(108). ومع ذلك، يجب الاعتراف ببعض المحاولات الجادة التي بذلها بعض محامي المغاربة للدفاع عن موكليهم. فقد دخل محامي João Nunes في صراع مع النيابة، وقدم كل الحجج لاثبات

---

(103) الفصل 131 من قانون 1552 السابق الذكر

(104) Inq. Evora, proc. n° 7643, fol. 19 r° - v° .

(105) Inq. Evora, proc. n° 8582, fol . 15 v°; *Cf.* aussi: Inq. Lix. proc. n° 10831, fol. 19 r° .

(106) Inq. Lix. proc. n° 11128, fol . 10 v° .

(107) Inq. Evora, proc. n° 6350, fol. 24 r° .

(108) Inq. Lix. proc. n° 12720, fol. 19 v°- 20 r° .

براءته، وقدم مذكرة مفصلة تنم عن رغبة أكيدة في تقديم المساعدة. وتجدر الإشارة إلى أن المجهود المذكور ارتكز على عدة شهادات لصالح المتهم قدم بعضها برتغاليون(109).

كان المحامون يقدمون دفاعهم كتابة، وكانوا يعرضون على القضاة أسماء الشهود ويطالبون باستدعائهم.وكانوا يحرصون على أن يكون بعض أولئك الشهود برتغاليين، حتى ولو لم يكونوا يعرفون المتهم معرفة جيدة(110). إلا أن جل الشهود كانوا من المورسكيين، وكان منهم من سبقت محاكمته(111). كان المحققون يستمعون إلى أولئك الشهود في غياب المتهم ودفاعه. وكان القضاة يستدعون بعد ذلك شهود الاتهام لتأكيد تبليغاتهم.

وعلى إثر ذلك، يستدعى المتهم ويطلب منه الاعتراف. وفي حالة الاستمرار في الامتناع عن ذلك، كان يخضع إما لمواجهة المبلغين عنه أو للتعذيب.

كانت الغاية من تلك المواجهة تتمثل في إتاحة الفرصة للمبلغين لكي يرددوا للمتهم ما قاله في حق الدين المسيحي، وأن «يذكروه بخطاياه»(112). ولم يكن الشاهد يقتصر على تلك النصيحة إذا كان سجينا، بل كان يحاول استغلال تلك الفرصة لصالحه. فقد نصح Nicolão da Costa الذي لم يعترف بدوره إلا بعد مواجهته مع المبلغ عنه، المغربي Diogo da Silva «بالاعتراف بالحقيقة، وبالتخفيف عن ضميره اقتداء بما فعله هو، طالما أنه لن يلحقه أي ضرر مما يلحق المتهمين في المحاكم المدنية»(113).

ولم تعترف Felipa Lopes إلا بعد مواجهتها مع زوجها الذي طلب منها الجلوس على ركبتيها والتماس العفو من المحققين عما قامت به من أفعال ذكّرها بها(114).

واعتادت المحكمة إخضاع المتهمين المتنعين عن الاعتراف بما هو منسوب إليهم، أو الذين عجزوا عن إثبات براءتهم، للتعذيب الذي كان معمولا به في المحاكم

(109) Inq. Lix. proc. n° 6466, fol. 53 - 56 r°.

(110) *Ibid.*, fol. 38 r°- 39 v°; 10837, fol. 6 r°- 15 r° ; 12626, fol. 25 r°- 30 r°, 33 r° ; 12720, fol. 26 r°- 28 r°; 8425, fol. 20 r°- 25 r° .

(111) من بين المورسكيين الكثيرين الذين استدعوا للشهادة نذكر على سبيل المثال:
Inq.Lix. proc. n° 12626, fol. 22 v°- 26 r°; 10831, fol. 28 v°- 30 v° ;12720, fol. 22 r° .

(112) Inq. Evora, proc. n° 5002, fol. 3 v°- 5 r°. *Cf.* aussi Inq. Lix. proc. n° 10817, fol, 2 v°; 12626, fol. 40 r°...

(113) Inq. Lix. proc. n° 5254, fol. 13 r° .

(114) Inq. Lix. proc. n° 7246, fol. 7 v°- 8 r° .

المدنية(115)، وسمح به قانون 1552 المنظم لمحاكم التفتيش. ففي حالة ما إذا اعترف المتهم بالمنسوب إليه خلال حصة التعذيب، كان المحققون - الذين كانوا يحضرونها-يأمرون بإيقافها فورا. وفي هذه الحالة، كان على المتهم تأكيد اعترافه خلال الأيام الثلاثة التالية.وفي حالة امتناعه عن ذلك، يعاد من جديد لقاعة التعذيب(116). وحدد القانون المذكور طرق التعذيب والوسائل المستعملة فيه(117).

وتم تعذيب خمسة مغاربة(118)، منهم ثلاث نساء. وكان المتهم يحذر من لدن القاضي من العواقب التي قد تنجم عن تعذيبه، ويحمله مسؤولية ما قد يقع من موت أو تكسير لأحد الأطراف أو غير ذلك. وقد طلب بعض المتهمين مهلة للتفكير، بينما اعترف البعض الآخر قبل الشروع في تعذيبهم(119).

وسجلت بعض المحاضر وقائع جلسات تعذيب مغاربة.فقد نقل Diogo Rodriguês إلى قاعة التعذيب رغم سنه التي بلغت الثمانين، ورغم الإعاقة التي كان يعاني منها. ورغم أنه حذر مما قد يترتب عن تعذيبه من عواقب، فإنه تمسك بموقفه، مما جعل القاضيين يعطيان الأمربالشروع في العملية. وهكذا:

«وضعوا عليه أربعة حبال، على كل ذراع حبل واحد، وعلى كل فخذ حبل، وأمرا بجر تلك الحبال. ولما جُر حبلا الفخذين توسل بالسيدة العذراء فطلب منه [المحققان] قول الحق. ولما جروا حبلي الذراعين صاح وتوسل إلى السيد المسيح، مدعيا أنهم يريدون قتله. طلب منه القضاة من جديد قول الحق، فاستمر في التوسل إلى السيد المسيح دون إضافة شيء، مؤكدا أنه سبق له قول كل الحقيقة، وأنه كان في حالة سكر لما فاه بتلك الكلمات. طلب السيدان المحققان بنقل الحبلين إلى مقدمة الفخذين مع التضييق عليهما.قال [المتهم] بأن الخمر هو الذي جعله يقول ويفعل ما نسب إليه، وتوسل إلى السيدة العذراء والسيد المسيح، رافضا قول شيء آخر.أمر السيدان المحققان بجر الحبلين أكثر، فتوسل إلى السيد المسيح، مضيفا أنه قال الحقيقة، وأنه كان في حالة سكر حينما فاه بتلك العبارات.(...) ونظرا لتأخر الجلسة، فقد أمر السيدان المحققان بتأجيل ذلك التعذيب، وتكراره كلما دعت الضرورة».

---

(115) عن التعذيب بالمحاكم المدنية، راجع:

P. de Azevedo, **Documentos**... *Op. cit.* I, p. 236, *Cf.* aussi II, p. 227.

(116) A. Baião, **A Inquisição** ... *Op. cit.* pp. 80 - 81.

وخُصص الفصل السادس والأربعون من القانون المذكور لهذه القضية

(117) I. Révah, **Etudes**, ... *Op. cit.* p. 217 .

(118) Inq. Lix. proc. n° 6754, fol. 52 v°- 53 r°; 12720, fol.43 r°, 1114, fol. 106 v° ; Inq.Evora, proc. 8056, fol. 64 v°, 10439, fol. 45 v° .

(119) Inq. Evora, proc. n° 8056, fol. 64 v°- 65 v° .

إلا أن المحققين اكتفيا بتلك الحصة وحكما على المغربي العجوز بالعمل سنتين بالسفن الحربية(120).

وتجدر الإشارة إلى أن المحققين لم يحكموا على المغاربة الذين خضعوا للتعذيب بالإعدام لاضطرارهم إلى الاعتراف بالمنسوب إليهم. وبالمقابل، لم يخضع من أعدم منهم للتعذيب. وبما أن ذلك الاعتراف جاء متأخرا، وبعد الخضوع لامتحان التعذيب، فإنهم حاولوا قدر المستطاع إقناع المحققين بصدق توبتهم، وبرغبتهم في قضاء ما تبقى من عمرهم كمسيحيين صادقين، وكانوا يرددون ذلك وهم جاثون قبل الرد على أسئلة القضاة، أو يعترفون وهم يبكون ويضربون صدورهم. فـ Francisca Lopes التي طلبت العفو والمغفرة، «جلست على ركبتيها وشرعت في ضرب صدرها»، والتمست من المحققين إرسالها إلى دير لتضع نفسها في خدمة السيدة العذراء، ولتتفادى بذلك معاشرة المسلمين(121).

والتمس مغربي آخر بإلحاح إرساله إلى دير ليتوب هناك ويتنصر من جديد بصدق، وليتفادى الاتصال بالمسلمين والتحدث إليهم «لكي لا يضلوه»(122).

وهكذا يكون جل المغاربة قد اضطروا في مرحلة من مراحل محاكمتهم إلى الاعتراف بمحاولة الفرار إلى وطنهم، أو بقيامهم بطقوس إسلامية.وقبل المحققون تلك الاعترافات باستثناء خمس حالات اعتبرت ناقصة وغير مقنعة، فأحالوا أصحابها على القضاء المدني، أي أعدموهم. لقد أحرق اثنان منهم بعد محاكمتهما مرتين كما ينص على ذلك القانون. فقد حوكم Salvador Soarez سنة 1557(123)، واعتقل مرة أخرى سنة 1562(124)، بينما لم ينتظر Cristovão Fernandes إطلاق سراحه وشرع في انتقاد العقيدة المسيحية بالدير الذي كان يتعلم به العقيدة(125). وأعدم Fernão Salgado(126) وDuarte Fernandez(127) وPedro Alvarez(128) لعدم إقناعهم القضاة الذين اعتبروا

(120) Inq. Lix. proc. n° 12720, fol. 43 v° - 44 v° .
(121) Inq. Lix. proc. n° 2263, fol. 22 r° .
(122) Inq. Lix. proc. n° 172, fol. 4 v° - 5 r° .
(123) Inq. Lix. proc. n° 13187 .
(124) Inq. Lix. proc. n° 12932 .
(125) Inq. Lix. proc. n° 3590 .
(126) Inq. Lix. proc. n° 2467 .
(127) Inq. Lix. proc. n° 6405.
(128) Inq. Evora, proc. n° 8582, fol. 53 r°.

اعترافاتهم ناقصة، وغاظهم امتناعهم عن التبليغ عن أقاربهم وأصحابهم. وبذلك لم تتجاوز نسبة المحكوم عليهم بالإعدام حرقا 2٪ من مجموع 261 مغربيا.

وبرأت المحكمة ساحة مغربيتين(129)، بينما حكم على باقي المغاربة بالاعتراف بخطاياهم، وبالسجن وارتداء لباس التوبة. وحدد المحققون مدة الحبس بالنسبة للبعض(130)، بينما ترك ذلك في أغلب الحالات لتقدير القضاة(131).

كان المتهمون باللواط يجلدون قبل إرسالهم إلى السفن الحربية لمدد تتراوح بين سنتين وعشر سنوات(132). وكان Diogo Rodriguês(133) وAntónio de Ataíde(134)، المغربيين الوحيدين اللذين حوكما بتهمة الارتباط بالإسلام ومحاولة الفرار إلى المغرب، وأرسلا إلى السفن الحربية لاعتبار المحققين اعترافاتهم ناقصة. إلا أن سن الأول (ثمانين سنة)، وعجز الثاني، حالا دون تنفيذ قرار المحكمة. وأعفت المحكمة أغنى المغاربة António Alberto من الحبس مقابل دفع مائتي «كروزادو»(135).

كان اعتقال المغاربة يؤدي إلى مصادرة أملاكهم التي كانت تحصى يوم الاعتقال من لدن موظفي المحكمة وتوضع لدى شخص أمين(136). وكان المعتقلون يفتشون قبل إيداعهم بالسجن حيث يوضع محضر لكل ما كان في حوزتهم(137). وتخصص الأموال المحجوزة لتغطية حاجيات المتهمين خلال اعتقالهم. ويبدو أن المحكمة كانت في بعض الحالات على الأقل ترجع إليهم ما بقي من تلك الأموال، بدليل أن أحدهم طالب بعد إطلاق سراحه بإرجاع مبلغ كان أودعه لدى مواطنة له وصادرته المحكمة بعد اعتقالها(138). كما لم تصادر المحكمة كل أموال António Alberto بعد أن أدى

---

(129) راجع النطق بالحكم بالمحضرين:

Inq. Evora, proc. n° 8368, 9288.

(130) Inq. Evora, proc. n° 8056, fol. 68 r°, Inq. Lix. proc. n° 6636, fol. 6 v°.

(131) Inq. Lix. proc. n° 2970, fol. 14 v°; 14455, fol. 10 r°; 6533, fol. 11 r°.

(132) Inq. Lix. proc. n° 4026, fol. 19 r°, 6636, fol. 6 v°; Inq. Evora, proc. n° 8056, fol. 68 r°.

وعن المستفيدين من ظروف التخفيف، راجع مثلا:

Inq. Lix. proc.n° 1617, fol. 8 r°; 12108, fol. 12 r°

(133) Inq. Lix. proc. n° 12720, fol. 45 r° .

(134) راجع النطق بالحكم بالمحضر: Inq. Lix. proc. n° 10860

(135) Inq. Lix. proc. n° 10837, fol. 77 r° .

(136) Inq. Lix. proc. n° 7695, fol. 24 r°; Inq. Evora, proc. n° 4432, fol. 22 v°- 23 r°, 5336, fol. 20 r° .

(137) Inq. Evora, Proc. n° 6868, fol. I v°; 5203, fol. 9 v°; Inq. Lix. Proc. 7560, fol. 3 r° ...

(138) Inq. Lix. proc. n° 1592, fol. 14 - 17 v°

الذعيرة المفروضة(139). ويعود السكوت عن تلك المصادرات للقرار الذي اتخذه البابا سنة 1547 بمنع مصادرة أملاك المعتقلين لمدة عشر سنوات(140).

كان المتهمــون يرسلون بعد الاعتراف بخطاياهم خلال الحفل الديني (autodafé) أو خارجه، إلى مؤسسات تلقين العقيدة تحت إشراف رهبان. وكان إطلاق سراحهم رهينا بالنتائج المحصل عليها هناك، ذلك أن الطلبات التي كانت ترفع في هذا الشأن إلى المفتش العام كانت ترفق بشهادة تؤكد تلك الحصيلة(141). كما كان التسريح رهينا بمظاهر التوبة التي يعبر عنها المعتقلون. وكانت المحكمة تحصر التوبة المذكورة في الاعتراف الصادق وبكل خشوع، وفي التبليغ عن رفاق السجن.لذا طلب عدد من المغاربة المثول أمام المحققين بعد التكفير عن خطاياهم من أجل الاعتراف بخطايا والتبليغ عن غيرهم(142). ولهذا السبب اختلفت مدد إقامتهم بتلك المؤسسات الدينية.فإذا كان البعض قد قضى بها بضعة أيام فقط(143)، فإن بعضهم الآخر قبعوا بها ثلاثة أو أربعة أشهر(144). إلا أن الذين أقاموا بها سنة كانوا قليلين(145).

وبذلك تكون محاكمة واعتقال جل المغاربة قد تطلبت أقل من سنة(146). وتطلب ذلك مدة أقل بالنسبة للذين اعتقلوا بعد سنة 1560. وهكذا لم تقض Maria Fernandez بسجن محكمة يابرة إلا ثلاثة أشهر فقط(147). وتم نفس الشيء بالنسبة لمن اعتقلوا فيما بين 1541و 1545، إذ كان المحققون لا يتأخرون في القضايا، كما يتجلى ذلك من خلال العدد المحدود للجلسات قبل النطق بالحكم(148). وتؤكد المحاضر التي اعتمدناها أن الذين عانوا من مدد حبس طويلة اعتقلوا وحوكموا خلال العقد الخامس

(139) Inq. Lix. proc. n° 10837, fol. 77 r° .
(140) A .Baião, **A Inquisição**, *Op. cit.* pp. 22-24; F. de Almeida, *Op. cit*, p.414; A.Herculano, III, pp. 268-269
(141) Inq. Lix. proc. n° 10831, fol. 44 r°, 10864, fol. 25 r°, 12383, fol. 15 r°...
(142) Inq. Lix. proc. n° 10820, fol. 18 r°; 12690, fol. 16 r°- 20 v°,3590, fol. 33 r° - 36 v° , 172, fol. 11 v°, 10934, fol. 15 r°, 13187, fol. 18 r°- 23 v° ...
(143) Inq. Evora, proc. n° 7917, fol. 16 r°, 17 v° . Inq. Evora, proc. n° 7960, fol. 13 r°, 15 r°.
(144) Inq. Lix. proc. n° 9909 , fol. 15 v°, 17 v°; Inq. Lix. proc. n° 12383, fol. 13 v° , 15 v°
(145) Inq. Evora,proc. n° 8617, fol. 7 r°, 10 r° .
(146) Inq. Evora, proc.n° 7960, fol. 1, 13 r°, 15 r°. Inq. Lix. proc.n° 1626, fol. 2, 17 r°.
(147) راجع مثلا: Inq. lix. proc. n° 8617, 2 v°, 7 r°, 10 r° .
(148) راجع مثلا: Inq. Lix. proc. n° 263 (1541), 4169 (1541), 3206 (1542), 9957 (1543), 3192 (1543), etc...

من القرن. فقد عرفت المحاكمات عشر جلسات أحيانا قبل النطق بالحكم(149). ويعود تمطيط محاكمات المغاربة إلى توقف محاكم التفتيش عن اضطهاد المسيحيين المحدثين خلال تلك الفترة. فقد اعتقل Rodrigo Alvarez يوم 3 غشت 1555، ولم يكفر عن خطاياه إلا خلال الحفل الديني المنظم يوم 3 يونيو 1558، وأطلق سراحه يوم 4 غشت من نفس السنة. كما أن Pedro Alvarez اعتقل يوم 22 شتنبر 1555، ولم يعترف بخطاياه إلا بعد ثلاث سنوات(150). وبالطبع، حدثت حالات استثنائية. فقد اعتقلت Felipa Mendez يوم 21 مارس 1545، وحضرت الحفل الديني يوم 2 غشت 1551، وأطلق سراحها يوم 15 يوليوز من السنة التالية(151). إلا أن هذه الحالات كانت نادرة، مما يفهم منه أن السجن المؤبد كان يعني بالنسبة لمحاكم التفتيش الإقامة مدة أسابيع أو شهور بمؤسسات تلقين العقيدة.

وبعد تعليم العقيدة والصلوات للمعتقل، وبعد أن يتقدم بطلب إطلاق سراحه، غالبا ما كان المفتش العام يستجيب لذلك. ويبدو أن الطلب المذكور كان يقدم بإيعاز من المحققين أنفسهم، ذلك أننا وقفنا على حالات مغربيات شاركن في نفس الحفل الديني وأطلق سراحهن خلال نفس الشهر(152). فبعد أن اعتبر المفتش العام أن Isabel Correa «تعلمت ما يكفي من العقيدة، واطلعت على أمور ديننا الكاثوليكي، وتابت بكل خشوع وتواضع»(153)، سمح لها بمغادرة السجن. وتجدر الإشارة إلى أن المحكمة كانت تعتبر ذلك التسريح مجرد تحويل للعقاب، إذ كان المستفيدون من هذا الاجراء ملزمين بالإقامة في مكان يحدده المحققون، وقد يكون غير مكان إقامتهم.

كان المسرحون ملزمين بأداء القسم قبل مغادرة السجن بشأن الاحتفاظ بالسر حول كل ما شاهدوه أو سمعوه خلال اعتقالهم. كما كانوا ملزمين بعد تسريحهم بارتداء لباس خاص، «رداء التوبة»، أو «اللباس المهين» الذي يميزهم عن باقي أفراد

---

(149) راجع مثلا: Inq. Lix. proc. n° 10837 , 11128 ; Inq. Evora, proc. n° 11237 , etc ...

(150) Inq. Evora,proc . n° 8062, fol. 1 r°, 24 v° , 31 v° .

(151) Inq. Evora, proc . n° 8433, fol . 4 r°, 18 r° , 21 r° .

(152) Inq. Lix. proc. n° 7245, fol. 16 v°, 20 r° 7560, fol. 23 v°, 25 r° , 12689, fol. 14 r°; 3182, fol. 12 v°, 15 r° ; 7692, fol. 19 v°, 22 r°; 357?, fol. 13 v°; 15 r°; 7693, fol. 14 v°, 17 r° ...

(153) Inq. Evora, proc. n° 6736 , fol. 16 r° .

المجتمع. وكان عليهم كذلك الاعتراف بخطاياهم خلال الحفلات الكبرى الأربع، والتوصل بالقربان المقدس وحضور الصلاة أيام الأحد والعيد...(154).

وطرحت الإقامة الإجبارية المفروضة على المغاربة في أماكن لم يكونوا يعرفون بها أحدا عدة مشاكل، خصوصا وأنهم كانوا يرتدون لباسا مميزا يدل على أن حامله غادر مؤخرا سجن محكمة التفتيش. لقد أرسل القضاة مغربية مقيمة بـ Vila Viçosa للاستقرار مؤقتا بيابرة.وقد وجدت صعوبة في الحصول على قوتها لرفض الجميع إعطاءها أي شيء. وقد اضطرت إلى مكاتبة المفتش العام لتطلب بحجج قوية، إعفاءها من اللباس والسماح لها بالعودة إلى مقر سكناها لكي لا تموت جوعا(155). وكان ارتداء ذلك اللباس يضايق حتى مالكي الأسرى المسرحين.فقد طلبت برتغالية من المفتش العام إعفاء عبدها من ذلك لكي يتمكن من خدمتها في ظروف عادية(156).

واختلفت مدة ارتداء اللباس المذكور من سجين إلى آخر.فقد أعفي منه البعض(157)، بينما ارتداه آخرون بضعة شهور(158). ووقفنا على حالات دام فيها ارتداء اللباس أكثر من سنة. فقد أطلق سراح Francisco de Sousa يوم 12 غشت 1560، وسمح له بخلع اللباس يوم 23 مارس 1562(159).أما Lúzia، فقد ارتدته يوم 3غشت 1558 وسمح لها بخلعه يوم 12 أبريل 1561(160).

ولم يعتقل مرتين إلا مغربيان، ويبدو أن المحققين غضوا الطرف عن الآخرين الذين كان يستحيل عليهم التملص كلية من هويتهم الثقافية(161).

---

(154) راجع مثلا: Inq. Lix. proc. n° 13187, fol. 17 r°.

(155) Inq. Evora, proc. n° 8617, fol. 13 v°.

(156) Inq. Lix. proç. n° 9520, fol. 24 r°, 27 v°.

(157) أطلق سراح Salvador Soares يوم 11 نونبر 1558 وسمح له بخلع لباس التوبة بعد أربعة أيام (Inq. Lix. proc. n° 13187, Fol. 17 r°, 25 r° وتجدر الإشارة إلى أن النطق بالحكم الخاص بمغربي آخر لم يتضمن الإشارة إلى ذلك اللباس: (Inq. Lix. proc. n° 6466, fol. 57 r°).

(158) فرض على Diogo Fernandez ارتداء ذلك اللباس فيما بين 13 ماي و12 أكتوبر 1557: Lix. proc. n° 12383, fol. 15 v°, 17 v°.
وارتدته Maria Bernaldez كذلك من 28 فبراير إلى 30 شتنبر 1557
(*Inq. Lix. proc. n° 31184, fol. 22 r°, 23 r°*). etc ...

(159) Inq. Evora, proc. n° 5002, fol. 43 r°, 44 r°.

(160) *Inq. Evora, proc. n° 10769, fol. 23 r°, 24 r°.*

(161) راجع على سبيل المثال: Inq. Lix. proc. n° 172, fol. 11 v°; 13187, fol.18 r°-24 r°.

وبذلك نلاحظ أن محكمة التفتيش البرتغالية اضطهدت مبكرا الموركسيين عموما، والمغاربة على وجه الخصوص، خصوصا فيما بين 1550–1565. وتعود هذه الموجة العنيفة من الاضطهاد إلى تخلي المحاكم مؤقتا عن التنكيل باليهود المتنصرين للأسباب التي ألمحنا إليها. وفيما بعد، أصبحت محاكمات المغاربة قليلة، أو كادت أن تختفي كلية. لم يمثل اضطهاد الموركسيين عموما، والمغاربة على وجه الخصوص، إلا نسبة ضعيفة من نشاط المحققين، الأمر الذي يفهم منه قلة أعدادهم وتراجعها تدريجيا من جهة، وعدم إحساس المجتمع البرتغالي بأي خوف من تلك الأقلية المكونة أساسا من عبيد وأسرى، أو من أشخاص بسطاء، بخلاف ما كان يشعر به إزاء المسيحيين المحدثين من جهة ثانية.

وحوكم أولئك المغاربة بتهمتين أساسيتين: التمسك بالإسلام وبالهوية الثقافية الوطنية من جهة، ومحاولة الفرار إلى المغرب من جهة ثانية. وتؤكد التهمتان معا رفض أولئك الأجانب، رغم الضغوط ووسائل الإكراه التي كانوا عرضة لها، الاندماج في المجتمع المسيحي والتنكر لهويتهم الثقافية ولعقيدتهم.

النطق بالحكم (الإعدام حرقا) على ‹السي عبد الله› المدعو Duarte Fernandes ،

المتهم بالقيام بالفرائض الدينية الإسلامية من صلاة وصيام، وبالامتناع عن التبليغ عن معارفه.

(Inquisição de Lisboa, Processo n° 6405, fol. 32)

الخاتمة

اهتمت الدراسة بمغاربة انتزعتهم أحداث جسام من وطنهم وألقت بهم في بلد كان يتخبط في أزمة اقتصادية واجتماعية ودينية حادة تولد عنها تزايد التعصب والتطرف وعداء الآخر. ومما زاد من محن أولئك الأجانب تزامن استقرارهم في البرتغال مع إحداث محاكم التفتيش التي أوكل إليها المجتمع البرتغالي مهمة قمع كل مظاهر الاختلاف والتميز، مهما كانت بسيطة وبعيدة عن الدين والعقيدة. فقد فرض المجتمع البرتغالي التنصر على أولئك الغرباء بكل وسائل الإكراه المتوفرة لديه، وألزمهم بأن يتحولوا مباشرة بعد توصلهم بماء المعمودية إلى برتغاليين، رغم أنهم كانوا غرباء عن البلاد، لم تدم مدة إقامة بعضهم به إلا شهورا معدودة.

ففي هذه الظروف، تعذر على المغاربة الاندماج. وتولد عن الشعور بالغربة والحنين إلى مسقط الرأس تصور مثالي للوطن ولسكانه وقيمهم ومعتقداتهم، وإصرار على العودة إليه بكل الوسائل.وتنطبق هذه الملاحظة على الجميع، مهما اختلفت دوافع وأسباب التحاقهم بالبرتغال، ومدة إقامتهم به.

ومكنتنا الدراسة الإحصائية للمحاكمات التي استهدفت المغاربة من تأكيد الاستنتاج المذكور بالأرقام. فقد لاحظنا أنه بالنسبة لمحكمة لشبونة، تمثل السبب الرئيسي لاعتقال جل أفراد تلك الجالية في محاولاتهم الفرار إلى المغرب أو إلى موانئ جنوب إسبانيا.صحيح أن محكمة التفتيش كانت تفسر تلك المحاولات بارتباط المعتقلين بالإسلام، غير أن الاطلاع على محاضر المحاكمات لا يترك أدنى شك بشأن دور الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن في تحديد موقف أولئك الغرباء من البرتغال وسكانه.

لقد اعتبر أولئك الأجانب البرتغال بلدا لا تتوفر فيه أدنى شروط الاستقرار. ونتج ذلك التصور عن الظروف الصعبة التي كان البرتغال يمر بها آنذاك. فبما أن المغاربة كانوا في الأصل من الرحل أو من أعيان الدولة الوطاسية، فإنهم لم يكونوا لذلك

مؤهلين لاحتراف مهن تضمن موارد محترمة. لذا اضطروا إلى العيش من أعمال شاقة ومؤقتة، وبرواتب منخفضة لا تناسب المجهود العضلي المطلوب من أشخاص تقدم بجلهم العمر. وهكذا لا تترك مصادر محاكم التفتيش التي اعتمدناها أدنى شك بشأن الفاقة التي كان المغاربة يعانون منها هناك، الأمر الذي عجل بخيبة أمل من التحقوا بالبلاد عن طواعية، للأسباب السياسية التي ألمحنا إليها. فقد حوكم بعضهم بسبب محاولته الفرار إلى المغرب بعد إقامة في البرتغال لم تتجاوز بضعة أشهر. وتعكس المصادر التي اعتمدناها نفس خيبة الأمل، ونفس الندم، لدى كل الأجانب الذين كانوا يعيشون هناك، بل وحتى لدى العلوج الذين عملوا بالمغرب وعادوا لسبب أو آخر إلى البرتغال. وبالطبع كانت تلك الظروف أصعب بالنسبة لمن كان يعيش في الأسر.

وزاد عداء البرتغاليين للأجانب، ولو كانوا متنصرين، من معاناة الجالية التي تهمنا، ذلك أن عددا من الأحكام المسبقة، العنصرية والثقافية والدينية، حالت دون تعايش الطرفين.

لقد مكنتنا الدراسة التي أنجزناها حول الثقافة والعقليات والعقيدة بكل من المغرب والبرتغال خلال النصف الأول من القرن السادس عشر من تحديد عالمين مختلفين ومتعاديين، كانا في حالة حرب دامت عدة قرون، وتأججت منذ احتلال سبتة في مطلع القرن الخامس عشر. فإذا كان البرتغال قد برر توسعه بالمغرب وغرب أفريقيا بأسباب ودوافع دينية محضة، فإن رد فعل المغاربة لم يتأخر لنفس الأسباب، الأمر الذي أفشل المخططات البرتغالية.

فبالرغم من أن نسبة مهمة من المغاربة المقيمين في البرتغال اضطرت، للأسباب التي سبقت دراستها، إلى التنصر، فإن ذلك لم يمنعهم من الاستمرار في كره النصارى وقيمهم، طالما أن تلك الردة لم تكن تمثل غاية بالنسبة إليهم. كما استعمل البرتغاليون من جهتهم كل وسائل الإكراه والضغط المتوفرة لديهم لدفع أولئك الغرباء (وغيرهم من المسلمين واليهود)، إلى التنصر، إلا أنهم لم يقوموا بأي عمل يمكن من جعل تلك الردة صادقة وحقيقية، ولم يعملوا على توفير شروط اندماجهم. بل على العكس من ذلك، لاحظنا أن البرتغاليين عاكسوا ذلك الاندماج. وقد تبين لنا من خلال مصادر محاكم التفتيش التي اعتمدناها أنهم كانوا يصبحون أكثر عداء لمن كان يرتد

من المسلمين أو اليهود. وكان الموقف المذكور وليد تصور لتلك الردة التي لم يكونوا يخصونها بطابع ديني محض. لقد كانوا ينتظرون منها تجريد المرتد كلية من هويته الثقافية وتحويله حالا إلى برتغالي، حتى ولو كان حديث العهد بالبلاد ولغتها وعاداتها وتقاليدها. لذا سرعان ما تنبه المرتدون إلى أن اعتناق المسيحية، الذي كانوا ينتظرون منه تحسين علاقتهم مع البرتغاليين، في انتظار فرصة الفرار أو الانعتاق، كان يعمق أكثر الهوة الفاصلة بينهم.

لقد شكلت قناعات أولئك الأجانب الدينية وسيلة لتمييز أنفسهم عن الآخر ولتبرير موقفهم منه. كما مثلت مظهرا من مظاهر خيبة أملهم في البلد الذي كانوا يعيشون فيه، ووسيلة من وسائل الانتقام من مجتمع ظالم.

لا يمكن فهم موقف المغاربة المرتدين من الدين الذي اعتنقوه دون اعتبار الأسباب التي كانت وراء ردتهم، ومدى صدق هذه الأخيرة.فبخلاف ما ادعوه أمام المحققين، نتجت تلك الردة عن إكراه اتخذ عدة أشكال وضغط مستمر، ولم يكن قط سبب نزوحهم إلى البرتغال. لقد كان المغاربة قاسين في حكمهم على العقيدة المسيحية، وتعزز ذلك الموقف لديهم بسبب الشعور الحاد بالغربة الذي كانوا يعانون منه، وبسبب عداء البرتغاليين الذي لم يكونوا يفهمون دواعيه، وأخيرا بسبب ظروف العيش القاسية التي كان عليهم تحملها. وقد تولد عن الموقف المذكور وضعية غريبة تعرضنا إليها: لقد أضحى أولئك المرتدون يعملون على منع ردة المسلمين منهم.

وبذلك لم يأخذ كل المغاربة ردتهم مأخذ الجد. فبالرغم من حضورهم الحفلات الدينية المسيحية، كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين، وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الإسلام هو الدين الحق.ويتجلى هذا الموقف السلبي من المسيحية بوضوح فيما خصوا به ذلك الدين من انتقادات مست العقيدة، وخصوصا مبدأ الثالوث المقدس، وصفات السيد المسيح، والقربان المقدس، والكنائس، والنواقيس، والتماثيل... وبالمقابل، تمسك المرتدون بعقيدتهم الأصلية، وقد رأينا أن منهم من قام ببعض شعائرها بسجن محكمة التفتيش.

وبما أن كل المغاربة، عبيدا وأحرارا، رجالا ونساء، لم يتحملوا الغربة وظروف العيش في البرتغال، فقد أضحوا يعملون على العودة إلى بلادهم. وتتبعت الدراسة

الاستعدادات التي كانت تسبق ذلك، والوسائل المعتمدة، والأسباب التي أدت إلى فشل جل المحاولات. كما أوضحت أسباب تراجع أعداد الجالية المغربية في البرتغال بعد 1565 قبل اندثارها في نهاية القرن.

ومكننا تتبع موقف محكمة التفتيش من الأقلية التي تهمنا، اعتمادا على دراسة إحصائية، من تأكيد خلاصات الفصول السابقة.لم يكن المجتمع البرتغالي يشعر بالخوف من الجالية الإسلامية نظرا لقلة عددها وشظف عيشها. لذا كان عدد المتابعين ممن كانت المحكمة تسميهم «مورسكيين» قليلا، لا يمثل بالنسبة للمحاكم الثلاث إلا 5,5٪ من مجموع المحاكمات التي عرفها القرن الذي يهمنا، وأقل من 1٪ من المحاكمات التي عرفتها محاكم التفتيش خلال عمرها الطويل.

وإذا كانت محاكمات المغاربة تعود إلى السنوات الأولى من عمر تلك المحاكم، فإن عددها بلغ أوجه فيما بين 1551-1565. وتسمح المحاضر بالوقوف على نوع من "التسامح" خص به المحققون المعتقلين من المغاربة. فإذا استثنينا الخمسة منهم الذين أعدموا حرقا، استفاد الباقون من «عفو» المحققين في الظروف التي ألمحنا إليها. ولم يخضع من المغاربة للتعذيب إلا خمسة أفراد.كما لم تطل مدة الاعتقال خلال المحاكمة وتلقين العقيدة، ولم تتجاوز في جل الحالات سنة.

من الأكيد أن إحداث محاكم التفتيش ضاعف من المحن التي كان المغاربة يعانون منها، إذ عرضهم لمعاناة السجن والخوف من الإعدام حرقا، ولمهانة "لباس التوبة". ويمكن الجزم على ضوء ما سبق، أن تلك المحاكم حولت إقامة المغاربة في البرتغال إلى جحيم، ورفعت بالتالي من عدد محاولات فرارهم إلى أرض الوطن.

اَلْمَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ

أولا: وثائق الأرشيف الوطني :

Arquivo Nacional da Torre do Tombo

1 ـ مصادر محاكم التفتيش الدينية :

أ ـ محاضر المحاكمات:

* محاضر محاكمات المغاربة

Inquisição de Lisboa, Processo n° 7457, Afonso Fernandez (1553).
Inq. Lix. Proc. n°4043, Afonso Manuel (1575).
Inq. Lix. Proc. n° 6636, Alle, Mouro (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 4169, Alvaro Afonso(1541).
Inq. Lix. Proc. n° 4118, Alvaro de Carvalho (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 193, Alvaro de Carvalho (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 4169, Alvaro Mendez (1551).
Inq. Lix. Proc. n° 11128,Anna de Melo (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 6753, Anna Roboa (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 11127,Anna de Valença (1583).
Inq. Lix. Proc. n° 6743, Antónia Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 6762, Antónia Gonçalvez (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 6728, Antónia Rodriguez(1556).
Inq. Lix. Proc. n° 6754, Antónia da Silva (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 6732, Antónia Vaz (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 10817,António d'Abreu (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10837,António Alberto (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10826,António Almeida (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10833,António Alvarez (1543).
Inq. Lix. Proc. n° 10860,António d'Ataíde (1555).
Inq.Lix. Proc. n° 10849,António de Cabedo (1556).
Inq.Lix. Proc. n° 10820,António de Carvalho (1554).
Inq.Lix. Proc. n° 10831,António de Faria (1556).
Inq.Lix. Proc. n° 10830, António Fernandez et son épouse (1541).
Inq. Lix. Proc. n° 10866, António Fernandez (1541).

Inq. Lix. Proc. n° 10842, António Fernandez (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 10864, António Fernandez (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10836, António Gil (1543).
Inq. Lix. Proc. n° 10839, António da Graça (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 10835, António de Jesus (1563).
Inq. Lix. Proc. n° 10827, António Mourisco (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 10863, António Mourisco (1570).
Inq. Lix. Proc. n° 10816, António mouro de nação(1582).
Inq. Lix. Proc. n° 7811, António Raposo (1544)
Inq. Lix. Proc. n° 10821, António de Sousa, mourisco (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 10854, António de Sousa (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10857, António Vaz (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 9432, Barbosa,mourisca (1544).
Inq. Lix. Proc. n° 12042, Bastião de Moura, mourisco (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 5153, Bernaldo do Couto (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 565, Breatiz Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 1104, Breatiz Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 6424, Breatiz Pirez (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 568, Breatiz Vaz (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 6449, Breatiz Vieira(1556)
Inq. Lix. Proc. n° 3565, Catarina Afonso (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 3552, Catarina Caldeira (1558).
Inq. Lix. Proc. n° 3555, Catarina de Couto (1541).
Inq. Lix. Proc. n° 3568, Catarina d'Eça (1554).
Inq.Lix. Proc. n°3577, Catarina Fernandez (1556).
Inq.Lix. Proc. n°3551, Catarina Fernandez (1558).
Inq. Lix. Proc. n°3564, Catarina Gomes (1559).
Inq. Lix. Proc. n°3578, Catarina Mendez(1543).
Inq. Lix. Proc. n°16451, Catarina Mendez(1544).
Inq. Lix. Proc. n°3550, Catarina, Mourisca forra (1543).
Inq. Lix. Proc. n°2967, Catarina do Porto (1557).
Inq. Lix. Proc. n°2970, Catarina da Silva (1556).
Inq. Lix. Proc. n°12085, Çayde,Mouro (1546).
Inq. Lix. Proc. n°3590, Cristovão Fernandez (1554).
Inq. Lix. Proc. n°3206, Diogo d'Abranches (1542).
Inq. Lix. Proc. n°263, Diogo Alvarez (1541).
Inq. Lix. Proc. n°12194, Diogo Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. n°12383, Diogo Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. n°259, Diogo de Melo (1543).
Inq. Lix. Proc. n°12720, Diogo Rodriguez (1553).
Inq. Lix. Proc. n°1024, Diogo da Silveira (1557).

Inq. Lix. Proc. nº264, Diogo da Silveira (1557).
Inq. Lix. Proc. nº3213, Diogo de Sousa (1543).
Inq. Lix. Proc. nº6405, Duarte Fernandez (1553).
Inq. Lix. Proc. nº7246, Felipa Lopes (1554).
Inq. Lix. Proc. nº7245, Felipa Mourisca (1557).
Inq.Lix. Proc. nº12108, Felipe, Mourisco forro (1557).
Inq.Lix. Proc. nº2467, Fernão Salgado(1557).
Inq.Lix. Proc. nº 12692, Francisca Fernandez (1543).
Inq.Lix. Proc. nº 12689, Francisca Fernandez (1556).
Inq.Lix. Proc. nº12690, Francinca Lopes (1552).
Inq.Lix. Proc. nº12684, Francisca Lopes (1562).
Inq.Lix. Proc. nº2240, Francisco Barros (1563).
Inq. Lix. Proc. nº 2570, Francisco Fernandez (1554).
Inq. Lix. Proc. nº 7560, Francisco Gonçalvez (1556).
Inq. Lix. Proc. nº 9681, Francisco Gozmão (1554).
Inq. Lix. Proc. nº 2263, Francisco Lopes (1554).
Inq. Lix. Proc. nº 12691, Francisco Luíz (1543).
Inq. Lix. Proc. nº 2257, Francisco Machado (1558).
Inq. Lix. Proc. nº 4026, Francisco Mourisco (1557).
Inq. Lix. Proc. nº 4029, Francisco Mourisco (1560).
Inq. Lix. Proc. nº 172, Francisco de Torres (1555).
Inq. Lix. Proc. nº 2242, Francisco Vaz (1543).
Inq. Lix. Proc. nº 12829, Gaspar Mourisco (1562).
Inq. Lix. Proc. nº 2033, Gil Mourisco (1566).
Inq. Lix. Proc. nº 12487, Gonçalo Mourisco (1556).
Inq. Lix. Proc. nº 6533, Guiomar da Cunha (1555).
Inq. Lix. Proc. nº 10362, Hamet (1557).
Inq. Lix. Proc. nº 10372, Hamet (1557).
Inq. Lix. Proc. nº 10363, Hamet, cativo (1560).
Inq. Lix. Proc. nº 4116, Inês Machado (1557).
Inq. Lix. Proc. nº 9278, Isabel Afonso (1556).
Inq. Lix. Proc. nº 9281, Isabel de Campos (1541).
Inq. Lix. Proc. nº 9280, Isabel de Crasto (1558).
Inq. Lix. Proc. nº 9279, Isabel Gomes (1543).
Inq. Lix. Proc. nº 9285, Isabel de Sousa (1543).
Inq. Lix. Proc. nº 15795, Jerónimo Gonçalvez (1542).
Inq. Lix. Proc. nº 9909, Joana Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. nº 9913, Joana Mourisca (1543).
Inq. Lix. Proc. nº 4098, João de Abranches (1563).
Inq.Lix Proc. nº 9515, João Baptista (1562).
Inq. Lix. Proc. nº 9528, João Baptista (1591).

Inq. Lix. Proc. n° 12639, João Barreto (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 9520, João Drago (1555).
Ini. Lix. Proc. n° 5488, João Fernandez (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 8425, João Fernandez (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 1585, João Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 8501, João da Fonseca (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 1588, João Garcia (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 9507, João Gomes (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 6787, João Gonçalvez (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 1636, João Lourenço, Fernando, Pero de Faria,Antonio Fernandez et Fernando de Couto (1550).
Inq. Lix. Proc. n° 9512, João de Medina (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 1592, João Mourisco (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 8501, João Mourisco (1562).
Inq. Lix. Prco. n° 6466, João Nunes (1555).
Inq. Lix. Pron. n° 1617, João Pereira (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 1623, João de Perolonga (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 12626, João de Sousa (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 1626, João de Sousa (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 6018, João de Tavora (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 6471, Jorge Lopes (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 6393, Jorge Vaz (1541).
Inq. Lix. Proc. n° 7693, Leonor Cabalyna (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 7695, Leonor Lopes (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 7698, Leonor Machada (1548).
Inq. Lix. Proc. n° 7692, Leonor de Melo (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 7696, Leonor da Silva (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 7700, Leonor Vaz (1553).
Inq.Lix. Proc. n°12320, Luís Botelho (1561).
Inq.Lix. Proc. n°3932, Luís Duarte (1556).
Inq.Lix. Proc. n° 12293, Luís de Molena (1587).
Inq. Lix. Proc. n° 12318, Luís Mourisco (1559).
Inq. Lix. Proc. n° 13206, Maçoude (1563).
Inq. Lix. Proc. n° 11646, Madelena da Costa (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 9670, Madalena Rodriguez (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 10991, Manuel Cerveira (1542).
Inq. Lix. Proc. n° 1114, Manuel Garcia (1586).
Inq. Lix. Proc. n° 9239, Manuel Mourisco (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 8493, Manuel d'Oliveira (1560).
Inq. Lix. Proc. n° 10996, Margarida Mourisca (1542).
Inq. Lix. Proc. n° 3187, Maria Alvrez Barbosa (1557).

Inq. Lix. Proc. n° 9865, Maria de Brito (1558).
Inq. Lix. Proc. n° 17897, Maria Escrava (1546).
Inq. Lix. Proc. n° 3182, Maria Fernandez (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 9956, Maria Fernandez (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 3186, Maria Fernandez (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 3192, Maria Gonçalvez (1543).
Inq. Lix. Proc. n° 3190, Maria Henrique (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 9884, Maria Henrique (1560).
Inq. Lix. Proc. n° 9863, Maria Lopes (1543).
Inq. Lix. Proc. n° 3188, Maria Mourisca (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 3191, Maria Rodrigues (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 9957, Maria Vaz (1543).
Inq. Lix. Proc. n° 12869, Martinho Mourisco (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 12875, Martinho Mourisco (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 1455, Mecia da Silva (1553).
Inq. Lix. Proc. n°5254, Nicolão da Costa (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 6797, Pedro de Carvalho (1577).
Inq. Lix. Proc. n° 708, Pedro Lourenço (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 10953, Pedro de Mendonça (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 10827, Pedro Mourisco et António (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 6440, Pedro de Noranha et Pedro Mourisco (1553 et 1556).
Inq. Lix. Proc. n° 10934, Pedro de Sousa (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 12933, Salvador Mourisco (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 13187, Salvador Soares (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 12932, Salvador Soares (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 12061, Simão Dias (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 12057, Simão Lopes (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 5511, Violente Mourisca (1546).
Inq.EVora; Proc. n° 5272, Abdala (1544).
Inq.Evora, Proc. n° 4250, Afonso Anes (1559).
Inq.Evora, Proc. n° 6868, Anna Fernandez de Melo(1559).
Inq.Evora, Proc. n° 6728, Anna Rodriguez (1556).
Inq.Evora, Proc. n° 2827, Antónia Fernandez de Ataíde (1559).
Inq.Evora, Proc. n° 9470, Antónia Fernandez (1554).
Inq.Evora, Proc. n° 6258, Antónia Guerra ou Guarra (1555).
Inq.Evora, Proc. n° 11323, António Fernandez (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 8859, António Fernandez (1567).
Inq. Evora, Proc. n° 11468, António da Silva (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 11252, Brites Fernandez (1555).
Inq. Evora, Proc. n° 8383, Brites Fernandez (1558).
Inq. Evora, Proc. n° 8617, Brites Mendes (1555).

Inq. Evora, Proc. n° 1102, Brites Morgada (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 8055, Catarina Cardosa (1559).
Inq.Evora, Proc. n° 8203, Catarina Lopes (1556)
Inq. Evora, Proc. n° 11384, Catarina Rodrigues(1543).
Inq. Evora, Proc. n° 11554, Catarina Taborda (1555).
Inq. Evora, Proc. n° 7960, Cristovão Mendes (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 5174, Diogo Afonso (1545).
Inq. Evora, Proc. n° 8439, Felipa Gomes (1554).
Inq. Erora, Proc. n° 8433, Felipa Mendes (1545).
Inq. Evora, Proc. n° 7472, Fernão Pinto (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 5174, Francisco Dias (1558).
Inq. Erora, Proc. n° 1474, Francisco Faneira (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 9638, Francisco Fernandes (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 6121, Francisco Machado (1554).
Inq. Evora, Proc. n° 5002, Francisco de Sousa(1559).
Inq. Evora, Proc. n° 10537, Garcia Fernandes (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 2618, Garcia Fernandes (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 5006, Garcia Rodrigues (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 4498, Guiomar Rodriguez Fragosa (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 7917, Guiomar da Silva (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 1265, Helena Vaz (1560).
Inq. Evora, Proc n° 5245, Henrique Colaço (1557).
Inq. Evora, Proc. n° 936, Inês Lourenço (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 6736, Isabel Correa (1557).
Inq. Evora, Proc. n° 6080, Isabel Fernandes (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 8614, Isabel Fernando (1557).
Inq. Evora, Proc. n° 4174, Isabel Gomes (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 5239, Isabel de Mendonça(1560).
Inq. Evora, Proc. n° 5155, Isabel Pegada (1557).
Inq. Evora, Proc. n° 3038, Joana Caldeira (1560).
Inq. Evora, Proc. n°11237, Joana Mendes (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 5336, Joana de Sousa (1566).
Inq. Evora, Proc. n° 5203, João Fernandes (1558).
Inq. Evora, Proc. n° 7643, João Mourisco (1578).
Inq. Evora, Proc. n° 8056, João de Noranha(1579).
Inq. Evora, Proc. n° 8623, João de Rodrigues Corcheiro(1560).
Inq. Evora, Proc. n° 9823, João Rodrigues (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 4648, João da Silva (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 6350, Jorge Camelo (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 6462, Leonor de Melo (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 6789, Leonor Rodrigues (1561).

Inq. Evora, Proc. n° 8368, Leonor Tarrinha (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 7179, Luisa Fernandes (1567).
Inq. Evora, Proc. n°10769, Luzia Mourisca (1556).
Inq. Evora, Proc. n° 5256, Margarida Fernandes (1567).
Inq. Evora, Proc. n° 11323, Margarida da Silva (1557).
Inq. Evora, Proc. n° 9765, Maria Fangueira (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 9417, Maria Fernandes (1553).
Inq. Evora, Proc. n° 4432, Maria Fernandes (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 5178, Maria Fernandes (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 11218, Maria Fernandes (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 5462, Maria da Gama (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 9177, Maria Gomes (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 8652, Maria Lopes (1556).
Inq. Evora, Proc. n° 9092, Maria Lopes (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 9288, Maria Madeira (1556).
Inq. Evora, Proc. n°10439, Maria Madeira (1560).
Inq. Evora, Proc. n°10824, Maria Mendes (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 5179, Maria Nunes (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 8582, Pedro Alvares (1559).
Inq. Evora, Proc. n° 6455, Pedro del Rio (1561).
Inq. Evora, Proc. n° 8062, Rodrigo Alvares (1558).
Inq. Evora, Proc. n° 8646, Rodrigo Anes (1560).
Inq. Evora, Proc. n° 4498, Rodriguês Fragoso (1559).
Inq. Coimbra,Proc. n° 3864, Antónia Vaz (1571).

*- محاضر محاكمات جزائريين :

Inq. Lix. Proc. n° 10855, António cativo (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 10858, António Mourisco (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 8346, Bastião Coresma (1577).
Inq. Lix. Proc. n° 10872, Celema, cativo (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 12319, Luís Mourisco (1560).
Inq. Lix. Proc. n° 1113, Manuel Fernandez (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 1728, Manuel de Menezes (1583).
Inq. Lix. Proc. n° 10933, Pedro Botelho (1562).

*- محاكمات تونسيين :

Inq. Lix. Proc. n° 6729, Antónia de Mendoça (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 9431, Briolina de Mendoça (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 3575, Catarina Velha (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 260, Diogo Coutinho (1562).

Inq. Lix. Proc. n° 9310, Isabel de Mendonça (1558).
Inq. Lix. Proc. n° 11645 Madenela de Sequeira (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 3184, Maria Bernaldez (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 9955, Maria Fernandez (1561).
Inq. Evora,Proc. n° 9385, Antónia Fernandez (1559).
Inq. Evora,Proc. n° 6085, António de Tunes (1558).

•- محاكمات أتراك أو علوج كانوا في خدمتهم :

Inq. Lix. Proc. n° 3984, Afonso de Veneza (1565).
Inq. Lix. Proc. n° 13100, Agostinho Genoves (1558).
Inq. Lix. Proc. n° 1058, André Genoves (1579).
Inq. Lix. Proc. n° 10840, António Napolitano (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 10859, António Turco (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 12052, Bastião Turco (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 5152, Bernaldo da Trindade (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 3535, Curigiano escorses (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 3571, Demetrio (1551).
Inq. Lix. Proc. n° 11977,Diogo Botelho (1566).
Inq. Lix. Proc. n° 2255, Francisco Duarte (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 7562, Francisco Turco (1582).
Inq. Lix. Proc. n° 12827, Gaspar Mourisco (1563).
Inq. Lix. Proc. n° 10379, Henrique Luís (1554).
Inq. Lîx. Proc. n° 9519, João Coelho (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 1606, João de Melo (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 6416, João Turco (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 6392, Jorge de Ataíde (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10712, Lourenço (1552 et 1554).
Inq. Lix. Proc. n° 5824, Lourenço,Mourisco (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 9234, Manuel do Mar (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 12865, Martinho Turco (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 12863, Martin Varela (1560).
Inq. Lix. Proc. n° 2863, Matheus Mourisco (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 10897, Thome Turco (1563).
Inq. Lix. Proc. n° 8482, Vicente Escarbones (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 8481, Vicente Genoves (1550).

•- محاضر محاكمات هنود مسلمين :

Inq. Lix. Proc. n°1047, André (1564).
Inq. Lix. Proc. n°10843, António Abexim (1560).
Inq. Lix. Proc. n° 10851, António, Indio (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 10824, António, Indio (1555).

Inq. Lix. Proc. n° 10856, António, Indio (1560).
Inq. Lix. Proc. n° 10823, António, Indio (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 10846, António, Indio (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 10834, António, Tndio (1565).
Inq. Lix. Proc. n° 10850, António de Mendez (1562).
Inq. Lix. Proc. n° 10921, Archiles, Indio (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 4370, Baltesar, Indio (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 5085, Baltesar, Indio (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 12459, Bartolameu Forjam (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 10976, Belchior, Indio (1563).
Inq. Lix. Proc. n° 3556, Catarina d'Aguiar (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 5831, Domingos, Indio (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 12589, Duarte da Costa (1563).
Inq. Lix. Proc. n° 351, Estevão, Indio (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 2241, Francisco, Indio (1560).
Inq. Lix. Proc. n° 2945, Gaspar Correa (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 2939, Gaspar, Indio (1555).
Inq. Lîx. Proc. n° 2947, Gaspar, Indio (1563).
Inq. Lix. Proc. n° 2984, Gaspar, Indio (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 1620, João Dias, Indio (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 5824, Lourenço (1561).
Inq. Lix. Proc. n° 12321, Luís de Sousa (1563)
Inq.Lix. Proc. n° 1117, Manuel, Indio (1561).
Inq.Lix. Proc. n°2867, Miguel, Indio (1560).
Inq.Lix. Proc. n°6223, Pedro, Indio (1558).
Inq.Lix. Proc. n°3304, Pedro, Indio (1560).
Inq.Lix. Proc. n°12916, Sebastião, Indio (1576).
Inq.Evora, Proc. n°7717, Constantino Mascarenhas (1588).
Inq.Evora, Proc. n°6847, Jerónimo Correa (1559).

•- محاضر محاكمات مسلمين من غرب إفريقيا :

Inq.Lix. Proc. n° 6731, Antónia, preta jalofa (1566).
Inq.Lix. Proc. n° 10832, António Fernandez, Jalofo (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 10845, António Jalofo (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 10815, António Mourisco (1577).
Inq. Lix. Proc. n° 10870, António Negro Jalofo (1566).
Inq. Lix. Proc. n° 10862, António Preto Jalofo (1566).
Inq. Lix. Proc. n° 12047, Bastião Jalofo (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 12086, Bastião Jalofo (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 4184, Cosme Gonçalvez (1554).

Inq. Lix. Proc. n° 12995, Domingos, Jalofo (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 2254, Francisco de Carvalho (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 4031, Francisco, escravo Jalofo (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 7565, Francisco Negro Jalofo (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10949, Pedro Preto (1566).
Inq. Evora,Proc n° 7626, João Fernandez (1544).

*- محاضر محاكمات موريسكيين أندلسيين :

Inq. Lix. Proc.n°4128, Alvaro Fernandez de Luna (1600).
Inq. Lix. Proc.n°3567, Catarina Garcia Grenadil (1582).
Inq . Lix. Proc.n°10502, Diogo Fernandez (1553)
Inq. Lix. Proc.n° 4653, Esperança Fernandes (1600).
Inq. Lix. Proc.n° 5267, Julião Calvo (1599).
Inq. Lix. Proc.n° 9235, Manuel Cabral (1560).
Inq. Lix. Proc.n° 9869, Maria de Mendonça (1600).
Inq. Lix. Proc.n° 3189, Maria escrava de Grenada (1573).
Inq. Evora, Proc.n° 8052, Baxira Gabriel (1548).
Inq. Evora, Proc n° 5003, Diogo Roxo (1562).
Inq. Evora, Proc.n° 7853, João Cano (1549).

*- أبناء مغاربة أو مسلمين آخرين أنجبوا بالبرتغال:

Inq.Lix. Proc. n° 11129, Anna Barbosa (1558).
Inq.Lix. Proc. n° 9514, Joane Mouriseo Mulato(1559).
Inq.Lix. Proc. n° 7308, Lourenço, Mulato (1553).
Inq.Lix. Proc. n° 6747, Luisa da Rosa (1558).
Inq.Lix. Proc. n° 9236, Manuel Coelho (1562).
Inq.Lix. Proc. n° 12067, Simão de Crasto (1560).
Inq.Evora Proc. n° 5044, Esperança Rodriguêz (1555).
Inq.Evora,Proc. n° 185, Jérónima Mourisca (1565).
Inq.Evora,Proc. n° 5013, Luís António (1575).
Inq.Evora,Proc. n° 8110, Luisa Fernandez de Camões (1559).
Inq.Evora, Proc. n° 7891, Paulo Fortuna (1554).

*- محاضر محاكمات موريسكيين أجانب لم يحدد مسقط رأسهم :

Inq. Lix. Proc. n° 12084, Bastião Henriques (1577)
Inq. Lix. Proc. n° 3551, Catarina Fernandez (1558).
Inq. Lix. Proc. n° 2570, Francisco Fernandez (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 259, Diogo de Melo (1543).
Inq. Lix. Proc. n° 15795, Jerónimo Fernandez (1542).

Inq. Lix. Proc. n° 6472, Jorge Fernandez (1541).
Inq. Lix. Proc. n° 3194, Maria Escrava (1542).
Inq.Evora,Proc. n° 186, João Escravo (1576).

•- محاضر محاكمات مسيحيين محدثين مغاربة :

Inq.Lix. Proc. n°9565, António de Barcellos (1586).
Inq.Lix. Proc. n°12055, Bastião Pereira (1586).
Inq.Lix. Proc. n° 8943, Francisco de Castro (1586).
Inq.Lix. Proc. n° 7740, Leonor Lopes (1541).
Inq.Lix. Proc. n° 12315, Luís de Calez (1555).
Inq.Evora,Proc. n° 6859, Gabriel Nunes (1543).
Inq.Evora,Proc. n° 8005, Joana Fernandez (1567).
Inq.Evora,Proc. n° 5256, Margarida Fernandez (1567).
Inq.Evora,Proc. n° 5259, Pedro Fernandez Branco (1592).

•- محاضر محاكمات مسيحيين أقحاح :
بحارة متهمون بالتهريب وبنقل مغاربة من البرتغال إلى المغرب :

Inq.Lix. Proc. n° 4080, Afonso Alvarez 0 Bique (1541).
Inq.Lix. Proc. n° 7459, Afonso Vaz (1541).
Inq.Lix. Proc. n° 16627, Alvaro Pirez (1542).
Inq.Lix. Proc. n° 1048, Andre Fernandez (1549).
Inq.Lix. Proc. n° 5088, Baltesar Velho (1543).
Inq.Lix. Proc. n° 12043, Bastião Vaz (1555).
Inq.Lix. Proc. n° 5235, Bento Rodriguês (1553).
Inq.Lix. Proc. n°1278 Cristovão Pais (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 14543, Diogo Rodriguêz (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 167, Francisco Bayão 0 Gago (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 7558, Francisco Gonçalvez (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 8944, Francisco Nunes (1552).
Inq.Lix. Proc. n°7568, Francisco Salvado (1551).
Inq.Lix. Proc. n°7567, Francisco Vaz (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 8487, Gil Vaz (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 13255, João de Campos (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 13221, João Inglês (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 5455, João Salvado (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 6078, Lourenço Rodriguês (1554).

Inq. Lix. Proc. n° 14229, Lúcas Giraldo (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 5316, Miguel Diaz (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 4191, Miguel de Paiva et Gil de Paiva (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 3486, Pedro Cardoso (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 6107, Pedro Luís (1541).
Inq. Lix. Proc. n° 6438, Pedro Martins (1551).
Inq. Lix. Proc. n° 8722, Pedro Pardo (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 3855, Rui Lourenço (1552).
Inq. Lix. Proc. n° 12562, Vicente Lourenço (1552).

– محاضر محاكمات علوج عادوا من المغرب العربي :

Inq. Lix. Proc. n° 8481, Vicente Genoves, (1550)
Inq. Lix. Proc. n° 4079, Afonso Fernandez (1557).
Inq. Lix. Proc. n° 13185, Agostinho Rodriguêz (1554).
Inq. Lix. Proc. n° 10916, Antão, dos regnos de Castela (1551).
Inq. Lix. Proc. n° 2265, Francisco de Antunez (1579).
Inq. Lix. Proc. n° 2244, Francisco Rodriguez (1584).
Inq. Lix. Proc. n° 3559, Francisco de São Cabral (1584).
Inq. Lix. Proc. n° 2032, Gil Fernandez (1579).
Inq. Lix. Proc. n° 5271, Jafare Castelhano (1578).
Inq. Lix. Proc. n° 6465, Jorge Mendez Morato (1576).
Inq. Lix. Proc. n° 1853, Manuel Cordeiro (1593).
Inq. Lix. Proc. n° 1852, Manuel de Góis (1586).
Inq.Lix. Proc. n° 2853, Miguel Chauso (1579).
Inq.Lix. Proc. n° 2856, Miguel de Lúcas (1579).
Inq.Lix. Proc. n° 705, Paulo Antão (1564).
Inq.Lix. Proc. n° 1669, Rogel de Esperança (1576).
Inq.Evora, Proc. n° 9059, André Barralho (1585).
Inq.Evora, Proc. n° 4639, Domingos Fernandez (1581).
Inq.Evora, Proc. n° 8773, Francisco Fernandez (1578).
Inq.Evora, Proc. n° 7579, Manuel Raimundo (1587).

– محاضر تعكس تدين وأخلاق البرتغاليين :

Inq. Lix. Proc. n°3990, Afonso Lopes (1582).
Inq. Lix. Proc. n°6614, Aleixo Cartes (1547).
Inq. Lix. Proc. n°4079, António Fernandez (1557).
Inq. Lix. Proc. n°5540, António Lopes (1556).
Inq. Lix. Proc. n°5883, António Machado (1547).
Inq. Lix. Proc. n°5887, António de Melo (1547).

Inq. Lix. Proc. n°12456, Bartolameu Joannes (1557).
Inq. Lix. Proc. n°12452, Bartolameu Sonches (1550).
Inq. Lix. Proc. n°12050, Bastião Castro (1550).
Inq. Lix. Proc. n°12048, Bastião Fernandez (1560).
Inq. Lix. Proc. n°12045, Bastião Pirez (1555).
Inq. Lix. Proc. n°10988, Belchior Carvalho (1565).
Inq. Lix. Proc. n° 7381, Brás Anes (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 240, Diogo Almeida (1565).
Inq. Lix. Proc. n° 241, Diogo Alvarez, ermitão (1555).
Inq. Lix. Proc. n°12731, Diogo Homem (1547).
Inq. Lix. Proc. n°12588, Duarte Fernandez (1547).
Inq. Lix. Proc. n° 3738, Guiomar Dias (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 12572, João Alvarez d'azevedo (1556).
Inq. Lix. Proc. n° 1596, João Correa (1574).
Inq. Lix. Proc. n° 12645, João Gomes (1568).
Inq. Lix. Proc, n° 12641, João Gonçalvez Prior (1555).
Inq. Lix. Proc. n° 147, João Rodriguêz Pançada (1588).
Inq. Lix. Proc. n° 10995, Margarida Rodriguêz (1553).
Inq. Lix. Proc. n° 705, Paulo Antão (1564).
Inq. Lix. Proc. n° 2846, Roque Camelo (1541).
Inq. Evora, Proc. n°8062, Alvarez, mestro (1555).

ب - سجلات التبليغات : Livros das denúnciações

Inq. Lix. **Denúncias**, n° 52, (1537-1543), 214 folios.
Inq. Lix. **Denúncias**, n° 53, (1543-1550), 180 folios.
Inq. Lix. **Denúncias**, n° 54, (155I-1554), 257 folios.
Inq. Lix. **Denúncias**, n° 55, (1554-1559), 274 folios.
Inq. Lix. **Denúncias**, n° 56, (1560-1576), 340 folios.
Inq. Lix. **Denúncias**, n° 57, (1588-1597), 236 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 83, (1541-1544), 312 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 84, (1542-1548), 409 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 85, (1547-1551), 226 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 86, (1544-1550), 264 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 87, (1553-1559), 148 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 88, (1564-1565), 258 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 89, (1571-1572), 240 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 90, (1573-1578), 286 folios.
Inq. Evora, **Denúncias**, n° 91, (1588-1602), 299 folios.
Inq. Coimbra, **Denúncias**,n°74, (1541-1543), 374 folios.
Inq. Coimbra, **Denúncias**,n°75, (1542-1543), 330 folios.
Inq. Coimbra, **Denúncias**,n° 76, (1556-1590), 286 folios.
Inq. Coimbra, **Denúncias**,n° 77, (1590-1620), 207 folios.

ج - سجلات "المصالحة" (مع الكنيسة) : livros das reconciliações

Inq.Lix. **Reconciliações**, n° 703, (1544-1559), 174 folios.
Inq.Lix. **Reconciliações**, n° 704, (1559-1587), 290 folios.
Inq.Lix. **Reconciliações**, n° 705, (1587-1605), 142 folios.

د- سجلات الزيارات : Livros das visitaçòes

Inq. Lix. **Visitacões, Madeira**, n°788, (1591-1592),332 folios.
Inq. Lix. **Visitacões, Ilhas**, n° 786, (1592-1593), 190 folios.
Inq. Lix. **Visitacões, denúnciações, Ilhas, Alentejo e Beira**, n° 794, (1575, 1576, 1579), 385 folios.
Inq. Lix.**Visitacões, reconciliações, Ilhas, Alentejoe Beira**, n° 795, (1575, 1576, 1579), 72 folios.
Inq. Lix.**Visitacões, Mosteiro, S. Roque**, n° 799, (1587-1618), 67 folios
Inq. Lix.**Visitações**, Lix. n° 803, (1587), 95 folios.
Inq. Lix.**Visitacões**, Lix. **Confessões e reconciliações**, n° 802, (1587-1618), 109 folios.
Inq. Lix.**Visitacões, Mosteiro S. Roque**, n° 800, (1587), 64 folios.
Inq. Lix. **Visitacões, Priado do Crato, ratificações**, n° 807, (1587), 92 folios.
Inq. Lix.**Visitacões, Priado do Crato, ratificações**, n° 808, (1587-1588), 38 folios.

هـ - سجلات النيابة : cadernos do Promotor fiscal

Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 193, (1555-1573), 397 folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 194, (1541-1590), 179 folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 195, (1570-1590), 276folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 196, (1557-1590), 445folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 197, (1571-1590), 326folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 198, (1543-1586), 496folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 199, (1570-1589), 776folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 200, (1574-1589), 506folios.
Inq. Lix. **Papeis Antigos**, n° 201, (1582-1587) 333folios.
Inq. Coimbra, **Papeis Antigos**, n°285, (1570-1636), }
Inq Coimbra, **Papeis Antigos**, n° 286, (1570-1636), } 913 folios
Inq. Coimbra, **Papeis Antigos**, n° 287, (1596-1636), 897 folios.

و- مصادر أخرى تهم محاكم التفتيش :

Inq. Lix. **Notícias dos Autos de Fé**, n°6, (1563-1628),127 folios.
Inq. Coimbra, **Notícias dos Autos de Fé**, n°4, (1567-1627), 266 folios.

Inq. Lix. **Repertório dos presos**, n°166, (1549), 286 folios.

Inq. Lix. **Lista dos relaxados**, n°7, (1563-1599), folios 5-19.

Inq. Lix. **Manuscritos da Livraria**, n°1328,

"Minutas de Cartas e outras cousas", 235 folios.

Inq.Lix. **Ms. Livraria**, n°1353, (1581 - 1582) 140 folios.

Inq.Lix. **Ms. Livraria** ,n° 976, **Livro dos acordos e determinações tomadas no Conselho Geral do Sancto Offício da Inquisição destes Reynos e Senhorios de Portugal**, 60 folios.

Inq.Lix.Ms.Livraria n°1402, **Taratado de Couzas necessarias do Sancto Offício** (1575).

2 - مصادر أخرى من الأرشيف الوطني :

- Chancelarias Regias :

* **Chancelaria de Dom João I** : Liv. I, II, III, IV, V.

* **Chancelaria de Dom Duarte** : Liv. I, II, III.

- Cartas dos Governadores de Africa, doc. n° 76,

- **Livro dos tributos reais com os Mouros e Alarves da cidade de Almydina com toda a Duquela e terra de Xiatima com seus Castelos contibuyam aos Reys destes reyno ; os quaes começaram a pagar nos annos de 510 e 512**. Nucleo Antigo, doc. n° 869, 84 folios.

- **Livro da dizíma das mercadorias que entraram na cidade de Arzila no anno 1511.** Nùcleo Antigo,doc.n° 556, 18 folios.

- **Livro da dizíma do peixe da cidade de Azemor**. Núcleo Antigo,doc. n° 575, 29 folios.

ثانيا : مصادر مطبوعة بلغات أجنبية :

ALBUQUERQUE, **A. de, Cartas de Affonso de Albuquerque seguidas de documentos que as elucidam**, Lisboa : Academia Real das Sciências de Lisboa,6 vol,1884-1935.

L'Anonyme portugais, **Description du Maroc sous le règne de Moulay Ahmed Mansour d'après un manuscrit de la Bibliothèque Nationale**, trad. du portugais par H.de Castries, Paris: Leroux, 1909, 149 p.

AZEVEDO, P. de, **Documentos das Chancelarias Reais anteriores a 1531 relativos a Marrocos**, Lisboa : Academia das Sciências de Lisboa, 1915 ; Vol.I, (1415-1450) XV + 680 p., vol. 2 (1540-1456), 768 p.

BAIÃO, A., **Documentos do Corpo Chronológico relativos a Marrocos (1488 a 1514)**, Publ. Academia das Sciências de Lisboa, Coimbra :Imprensa da Universidade, 1925, 137 p.

CAMÕES, L. de, **Os Lusíadas**, nouvelle édit. revue (lère 1572), préface de Carolina Machaëlis Vasconcellos, Lisboa : Imprensa Nacional, 1971, CCLXIV + 375 p.

CASTRIES, H. de, **Sources inédites de l'histoire du Maroc, lère série,dynastie sa'dienne,** France, Col. de doc. et mémoires publiée sous les auspices du Comité au Maroc et de l'Union Coloniale Française, Paris, E. Leroux, 1905, t.I, XV + 682 p.

CENIVAL, P. de, **Chronique de Santa Cruz du cap de Gué (Agadir).Texte Portugais du XVIe siècle**, Paris : Geuthner, 1954, 170 p.

CENIVAL, P. de, MONOD, Th., **Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal par Valentin Fernandez (1506-1507)**, Paris: Larose, 1938,214 p.

CENIVAL, P. de, **Sources inédites de l'histoire du Maroc.lère série, dynastie Sa'dienne, Archives et Bibliothèques de Portugal**, Pub. de la Section Historique du Maroc, Paris: P. Geuthner; Tome I(Juillet 1486-avril 1516),1934, XVI + 782 p., 9 planches hors texte; Tome II, lère partie (mai 1516-décembre 1526), Paris Geuthner,1939, 388 p.

CENIVAL, P. de, LOPES, D. et RICARD, R., **Sources inédites de l'histoire du Maroc, lère série, dynastie Sa'dienne, Archives et Bibliothèques de Portugal**, Paris : P. Geuthner, Tomme II ; 2ème partie (Janvier 1527-décembre 1534),1946, XII +pp.389-711.

CHENIER,L., **Recherches historiques sur les Maures**, Paris : 1787,3 vol. in 8°, VII + 424 p., 2 cartes + 476 p. + 564 p.

COELHO, L., LOPES, D., **Documentos inéditos de Marrocos,Chancelaria de D. João II**, Pub. Academia das Sciências de Lisboa, Lisboa : Imprensa Nacional, 1943, vol.1, XI + 441 p.

FREIRE,B., "Cartas de Quitação del Rey D. Manuel", in : **Archivo Histórico Portuguêz**, vol.1, 1903, p. 48 ; vol. II, 1904, pp. 74-75 ; vol.III, 1905, pp. 157-158; vol. V, 1907, pp. 325-326, 473-474, 474-475 ; vol.VIII, 1910, p. 399 ; vol. IX, 1914, pp. 452-453.

GALVÃO, D., **Crónica de D. Afonso Henrique**, édit. par J. de Bragança, Portugália, s.d., 309 p.

As Gavetas da Torre do Tombo, Publication Centro de Estudos Históricos Ultramarinos, vol. I (Gav.I II), 1960, XV + 943 p.vol. II (Gav. III- XII), 1962, 789p.; vol. III (Gav.XIII-XIV), 1963, 811p.;Vol. IV(Gav.XV, maços 1-15), 1964, 569 p.; vol.V (Gav.XV maços 16-24), 1965, 741 p.;Vol.VI (Gav.XVI-XVII, maços 1-3),1967, 801 p. ; vol.VII (Gav. XVII, maços 3-9), 1968, 633 p; vol. VIII (Gav. XVIII. maços 1-6), 1970, 727 p. ; vol. IX (Gav.XVIII. maços 7-13), 1971, 763 p.; vol. X (Gav.XIX-XX, maços 1-7),1974, 747 p. ; vol. XI (Gav-XX,Maços 8-15), 1975, 457 p. ; vol. XII (Gav.XX.maços 15 et 16-XXXIII,maços 168), 1977, 559 p.

GÓIS, D. de, **Crónica do felicíssimo rei D. Manuel**, Nova edição conforme à primeira de 1556, Publ. Universidade de Coimbra, introduct.D.Lopes, Coimbra: Acta Universitatis Conimbrigensis, 4 vol.,1949-1955,1026 p.

LOUREIRO, F.S., **Jornada del-Rei Dom Sebastião à Africa e crónica de Dom Henrique**, Liaboa: Imprensa Nacional-Casa da Moeda,1978, LXI + 205 p.

MARMOL,C. de, **L'Afrique**, trad. franç. de Nicolas Perrot Sieur d'Ablancourt, Paris: 1667, vol.I, 532 p.;vol. II, 578 p. ; vol. III, 304 p.

MILLIE, S.J. et KHALIFA, **Les quatrains de Mejdoub maghrébin du XVIe siècle**, Paris : G.P. Maisonneuve et Larose, 1966, 196 p. dont 37 de texte arabe.

OSÓRIO, B., **Ceuta e a capitania de D. Pedro de Meneses (1415-1437)**, Publ.Academia das Sciências de Lisboa, Coimbra : Imprensa da Universidade, 1933, 190 p.

PEREIRA, D.P., **Esmeraldo de Situ Orbis**, Lisboa : Publ. Sociedade de Geografia de Lisboa,1975, 173 p.

PINA, R. de, **Crónicas de Rui de Pina : D. Sancho I,D. Afonso II,D.Sancho II, D. Afonso III, D. Denis, D. Afonso IV, D. Duarte,D.Afonso V, D. Joao II**. Introd. e revisão de M. Lopes de Almeida. Porto : Leilo e Irmão Editores, col. Tesouros da Literatura e da História, 1977, 1034 p.

PISANO, M. de, **Livro da guerra de Ceuta**, trad. du latin par Roberto Corrêa Pinto, Publ. Academia das Sciências de Lisboa,Coimbra: Imprensa da Universidade, 1915, 50 p.

RESENDE, G. de, **Crónica de dom João II e Miscelânea**, nouvelle édit.conforme à celle de 1798, introd. de J. Veríssimo Serrão, Lisboa : Imprensa Nacional-Casa da Moeda, 1973, XXXII + 382 p.

RIBEIRO, A., "Relaçâo da vida d'el-Rey D. Sebastião", édit. par F. de Sales de Mascarenhas Loureiro, **Revista da Faculdade de Letras de Lisboa**, IVe série, n° 2, 1978, pp. 481-559.

RICARD, R., **Un document portugais sur la place de Mazagan au début du XVIIe siècle**, Paris : P. Geuthner, 1932, 72 p.

RICARD, R., **Les Portugais au Maroc de D. de Góis, extraits de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal**, Publ. Institut des Hautes Etudes Marocaines, t. XXXI, Rabat : Felix Moncho, 1937, 268 p.

RICARD, R. "Les Portugais et l'Afrique du Nord sous le règne de Jean III (1521-1557) d'après la chronique de Francisco de Andrade", **Hespéris**, publ. Institut des Hautes Etudes Marocaines, Paris, Larose, t. XXIV, 1937, 4e trimestre, pp. 259-345.

RICARD, R., **Les Portugais et l'Afrique du Nord, extraits des "Annales de Jean III de Luís de Sousa**, Publ. Institut Français au Portugal, Paris : 1940, 208p.

RICARD, R. **Mazagan et le Maroc sous le règne du Sultan Moulay Zidane (1608-1627) d'après le "Discurso" de Gonçalo Coutinho, gouverneur de Mazagan (1629)**, Paris : P. Geuthner, 1956, 188 p.

RICARD, R. et LOPES, D., **Sources Inédites de l'histoire du Maroc, lère série dynastie sa'dienne, Archives et bibliothèques du Portugal**, T. III (Janv. 1535-Déc. 1541), Paris : P. Geuthner, 1948, XX + 564 p. ; t.IV (janvier 1542- décembre 1550), Paris : P. Geuthner, 1951, XII + 431 p.; t.V (1552-1580), Bibliographie et index alphabétique, Paris : P. Geuthner, 1953, XVI + 253 p.

RODRIGUES, B., **Anais de Arzila, crónica inédita do século XVI**, Publ.sur ordre de "l'Academia das Sciências de Lisboa" par D. Lopes, Coimbra : Imprensa da Universidade:, t.I (1508-1525), 1915, LII + 498 p. ; t. II (1525-1535, supplemento : 1536-1550), 1919, XIX + 563 p.

TORRES, D. de, **Relation de l'origine et succez des chérifs et l'estat des Royaumes de Marroc, Fez, Tarudant et autres provinces qu'ils usurpèrent**, trad. franç. de C. de Valois, Duc d'Angoulême, Paris : 1636, 452 p.

TORRES, D. de, **Relación del origen y suceso de los Xarifes y del estado de los reinos de Marruecos, Fez y Tarudante**, Edición, estudio, índices y notas de M. Garcia-Arenal, Prólogo de J. Caro Baroja, Madrid : Siglo Veitiuno Editores, 1980, 328 p.

WITTE, C.M. de, "Une lettre inédite du Roi Jean II au Pape Innocent VIII sur l'affaire de Graciosa", in : **Studia** n° 1, Lisbonne : 1958, pp. 91-100.

ZURARA, E. de, **Chronique de Guinée**, trad. franç. L. Bourdon et R. Ricard, Dakar : IFAN, 1960, 302 p.

ZURARA, E. de, **Crónica de Guiné**, introd. novas anotações e glossário de José de Bragança, Porto : Livraria Civilização, 1973, CXII + 437p.

ZURARA, E. de, **Crónica do Conde D. Duarte de Meneses**, édit. par Larry King, Lisboa: Presses de "Universidade Nova", 1978, 376 p.

ثالثا : دراسات بلغات أجنبية :

ALMEIDA, P. de, **História da Igreja em Portugal**, Nova edição preparada e dirigida por D. Peres, Porto : Portucalense Editora, 1967, 532 p. Vol. 2, Porto : Liv. Civilização, 1968, 725 p. Vol. 3,1970, 654 p. Vol. 4, 1971, 444 p.

AMIEL, C., **Les archives de l'Inquisition portugaise. Regards et réflexions**, Paris : Centre Culturel Portugais, 1979, 29 p.

AZEVEDO, L., **História dos Cristãos Novos portugueses**, réimpression (lère édit. 1921), Lisboa : Livraria Clássica Editora, s.d.(1975), IX + 515 p.

AZEVEDO, L., **Epocas de Portugal económico. Esboços de História**, réimpression (lère édit. 1929), Lisboa : Livraria Clássica Editora, s.d. (1978),502 p.

AZEVEDO, P. de, "Os escravos", in : **Archivo Histórico Português.** I,1903, pp. 289-307.

BAIÃO, A., **AInquisição em Portugal e no Brasil, subsídios para a sua História**, édit. Arch. Hist. Port. Lisboa : 1921.

BAIÃO, A., **Episódios dramáticos da Inquisição portuguesa**, Lisboa Seara Nova, vol.I, 1936, 369 p. vol. II, 1937, 409 p. vol. III, 1938, 279 p.

BAIÃO, A. CIDADES, H., MURIAS, M., **História da expansão Portuguesa no mundo**, Lisboa : Editorial Atica, vol - I, 1937, 391, vol. II, 1939, 379 p.

BARRETO, L.F., **Descobrimentos e Renascimento, formas de ser e pensar nos séculos XV e XVI**, 2ème édit. (lère non mentionnée), Temas Portugueses, Lisboa: Imprensa Nacional-Casa da Moeda, s.d.(1983) 327 p.

BATAILLON, M., **Etudes sur le Portugal au temps de l'Humanisme**, Coimbra: Acta Universitatis conimbrigens, 1952, XI + 311 p.

BENCHEKROUN, M., **La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattásides (XIII, XIV, XV, XVIe siècles)**, Rabat : 1974, 654 p.

BENITEZ, R. "Un plan para la aculturación de los Moriscos valencianos,'les ordinacions' de Ramirez de Haro (1540)", in: **Les Morisques et leur temps**, Actes de la Table Ronde tenue à Montpellier du 4 au 7 juillet 1981. Paris : édit. C.N.R.S., 1983, pp. 127-157.

BENITEZ, R., "Proyectos de aculturación y resistencia morisca en Valencia de Tomas de Villanueva a Juan Ribeiro", in : **Religion, identité et sources documentaires sur les Morisques andalous**, Tunis: Publ. Institut Supérieur de documentation, 1984, I, pp. 53-64.

BENNASSAR, B., **L'Inquisition espagnole, XVe, XIXe siècles**, Paris : Hachette, 1979, 402 p.

BERQUE, J., **L'intérieur du Maghreb (XVe-XIXe siècles)**, Paris: Gallimard, 1978, 546 p.

BERQUE, J., **Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb. XVII e siècle**, Paris: Sindbad, 1982, 297 p.

BOUCHARB, A., "Spécificité du problème morisque au Portugal: une colonie étrangère refusant l'assimilation et souffrant d'un sentiment de déracinement et de nostalgie". in : **Les Morisques et leur temps**, édit.C.N.R.S. 1983, pp. 219-233.

BOUCHARB, A., "Convictions religieuses et visions de Dieu chez les Morisques vivant au Portugal, in : **Religion, identité et sources documentaires sur les Morisques andalous**, Publ. Institut Supérieur de documentation, Tunis,1984, T.I., pp. 67-75.

BRAUDEL, F.,"Espagnols et Morisques au XVIe siècle", in: **Annales, Economie, Société, Civilisation**, 2e année, oct. - déc.1947, n° 49 pp. 397-410.

BRAUDEL,F., **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II**, 3ème édit. (lère 1949), Paris : Armand Colin, 1976, t.1, 589 p., 24 illustrations hors texte; t.II, 629 p.

BRIGNON, J., AMINE, A., BOUTALEB, B. et al., **Histoire du Maroc**, Paris, Hachette/ Casablanca : Librairie Nationale.s.d. (1968), 415 p.

BRUNEL, R., **Essai sur la confrérie religieuse des 'Aissaoûa au Maroc**,Paris, P. Geuthner, XVI + 258 p.

CARDAILLAC, L., **Morisques et Chrétiens, un affrontement polémique (1492-1640)**, Paris : Klincksieck, 1977, 545 p.

CARVALHO, M.B., "L'idéologie religieuse dans la 'Crónica dos feitos de Guiné' de Gomes Eanes de Zurara", **Bulletin des Etudes Portugaises, XVIII**, Coimbra : Livraria Bertrand, 1955, pp. 34-63.

CERJEIRA, G., **0 Renascimento em Portugal**, 4ème édit.revue (lère en 1926), Coimbra: Coimbra Editora, t. I, **Clenardo e a sociedade portuguesa** (com a traduçao das suas principais cartas); t. II, **Clenardo, o Humanismo e a Reforma**, 1975, 242 p.

CHAUNU, P., **L'Expansion européenne du XIIIe au XVe siècles**, Paris: Presses Universitaires de France, col. Nouvelle Clio,n°26,1969, 396 p.

CIDADE, H.. **A Literatura portuguesa e a Expansão ultramarina**, 2ème édit., Coimbra Arménio Amado editor, t.I, Século XV e XVI, 1963, 365 p.; t.II., Século XVII e XVIII, 1964, 428 p.

CORTESÃO, J., **Os Descobrimentos portugueses**, Lisboa : Livros Horizonte, 6 vol., 1975 -1978, 1635 p.

CORTESÃO,J., **A Expansão dos Portugueses no período henriquino**, Lisboa, Livros Horizonte, s.d. (1975), 293 p.

CORTESÃO,J., **Os factores democráticos na formação de Portugal**, Préface de V.M.Godinho, 3ème édit.(lère 1964), Lisboa : Livros Horizonte, 1978, XLVII + 265 p.

COUR, A., **L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830)**, Paris: E. Leroux, 1904, 254 p.

DELUMEAU, J., **La Peur en Occident, XIV-XVIIIe siècles,** Paris: Fayard, 1978, 485 p.

DERMENGHEM, E., **Le culte des saints dans l'Islam maghrébin**, Paris: Gallimard, 1954, 351 p.

DIAS, J.S. da Silva, **Correntes do sentimento religioso em Portugal nos séculos XVI e XVII,** Coimbra, vol.I, 1960, 457 p.

DIAS, J.S. da Silva, **A política cultural da época de João III**, Coimbra, 1969, 2 vol.,

1003 p.

DIAS, J.S. da Silva, **0 Erasmo e a Inquisição em Portugal,o processo de Fr. Valentim da Luz**, Coimbra: Publ.Universidade de Coimbra, 1975, 317 p.

DIAS, J.S., da Silva, **Os Descobrimentos e a problemática cultural do século XVI**, Lisboa : Editorial Presença, 1982, 306 p.

DICIONARIO DA HISTORIA DE PORTUGAL, Direction de Joel Serrão, Porto Livraria Figueirinhas, 6 vol., s.d. (1979).

DONCEL, J.A., **Los Moriscos en tierras de Córdoba**, Córdoba : Publ. del Monte de Piedad y Caja de Ahorros de Cordoba, 1984, 382 p.

ELIADE, E., **Le sacré et le profane**, Paris : Gallimard, 1965, 192 p.

FARIA, M.I. Ribeiro, et FARIA, G.P., **Inquisição, Colectórios, Regimentos, Sermões e listas dos Autos de Fé existentes na livraria Visconde de Trindade, (inventário)**, Coimbra : Publ. Bibliothèque Générale de l'Univeraité de Coimbra, 1977, 214p.

FERNANDEZ, L. Suares, **Les Juifs espagnols au Moyen-Age**, trad. de l'espagnol et préfacé par R.Israël-Amsaleg, Paris: Gallimard, 1983, 346 p.

FIGANIER, J., **História de Santa Cruz do Cabo de Gué (Agadir) 1505-1541**, Lisboa : Agêcia geral das colónias, 1945, 403 p.

FREYRE, G., **Maîtres et esclaves, la formation de la société brésilienne**, 2ème édit. (1ère 1952), trad. du portugais (Casa-grande a Senzala) par Roger Bastide, préface de L. Febvre, Paris: Gallimard, 1978, 550 p.

GARCIA-ARENAL, M., **Los Moriscos**, Madrid :.Editora Nacional, 1975,318 p.

GARCIA-ARENAL, M .,- **Inquisicion y Moriscos, Los procesos del Tribunal de Cuenca**, Madrid: Siglo Veintiuno Editores,1978,171 p.

GODINHO, V.M., **História económica e social da Expansão portuguesa**, Lisboa : Terra Editora, 1947, 145 p.

GODINHO, V.M., "Les Grandes Découvertes", in : **Bulletin des Etudes Portugaises** Coimbra : Livraria Bertrand, t. XVI, 1952, pp. 3-54

GODINHO, V.M., "Les fluctuations économiques au XVIe siècle. Problèmes de diagnostic et d'interprétation", **Económia**, n° 9, fasc. 3, 1956, pp. 109-116.

GODINHO, V.M., **O"Mediterrãneo" saariano e as caravanas do ouro. Geografia económica e social do Sáara Ocidental e Central do XI ao XVI século**, São Paulo : Coleção da Revista de História 1956, 159 p.

GODINHO, V.M., "Le tournant mondial de 1517-1524 et l'Empire portugais", in: **Rev.Studia** (Lisbonne) n°1, janv.1958, pp. 184-199.

GODINHO, V.M., "Crises et changements géographiques et structuraux au XVIe siècle" **Económia**, (Lisbonne), n°11,mars1958, pp.1-14.

GODINHO, V.M., "Les incidences de la course et de la concurrence sur l'économie maritime portugaise au XVIe siècle", in : Rev. **Económia**, vol. X, fasc. 4, déc. 1960, pp. 143-155.

GODINHO, V.M., "Les finances publiques et la structure de l'Etat portugais au XVIe siècle", **Económia**, n° 14, juin 1962, pp. 105-115.

GODINHO, V.M, **Os Descobrimentos e a económia mundial**, Lisboa :Arcádia, vol.I, 1963, 546 p. ; vol. II,. 1965, 620 p.

GODINHO, V.M., **L'économie de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles**, Paris : S.E.V.P.E.N. 1969, 857 p.

GODINHO, V.M., **Ensaios sobre história de Portugal**, 2ème édit. augmentée, Lisboa : Sá da costa, 1978, 448 p.

GODINHO, V.M., **Estrutura da antiga sociedade portuguesa**, 4ème édit. (lère 1971), Lisboa : Arcádia, 1980, 318 p.

GOULVEN, J., **Safi au vieux temps des Portugais**, Lisbonne : 1938, 127 p.

GUERIN, J.F., **Les Morisques aragonais et l'Inquisition de Saragosse (1540-1620)**, Thèse de 3ème cycle, Montpellier : déc. 1980, 407 p. dactylographiées.

HAJJI, M., **L'activité intellectuelle au Maroc à l'époque sa'dite**, Rabat : Dar el-Maghrib, 1976, 2 vol. 782 p.

HAZARD, P., **La crise de conscience européenne** (1680-1715), Paris: Boivin et Cie, 1935 T. 2 vol., 326 et 316 p.

HERCULANO, A., **História da origem e estabelecimento da Inquisicão em Portugal**, 3ème édit. (lère édit. 1854-1859), Revisão de Vitorino Nemsío, introdução de Jorge Borges de Macedo,Lisboa : Livraria Bertrand, vol. 1, 1975, CXXXVIII + 321 p.;vol. 11, 1975, 298 p. ; vol. III, 1976, 351 p.

HERMOSILLA, Y.C., "La sorcière morisque d'après les documents inquisitoriaux (1500-1650)", in : **Religion. identité et sources documentaires sur les Morisques andalous**, Tunis : Institut Supérieur de documentation, t. II, 1984, pp. 9-24.

HERMOSILLA, Y.C., "Esclavage et magie chez les Nouveaux- Chrétiens en Espagne au XVIe siècle", **Revue d'histoire maghrébine**, n°35-36, déc. 1984, pp. 115-136.

JULIEN, C.A., **Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie, Algérie, Maroc, de la conquête arabe à 1830**, 2ème édit. revue et mise à jour par R. le Tourneau, Paris: Payothèque, 1978, 367 p.

KAMEN, H., **Histoire de l'Inquisition espagnole**, trad. de l'anglais par T. Prigent et H. Delattre, Paris:Albin Michel, 1966, 338 p.

LAROUI, A., **L'histoire du Maghreb, un essai de synthèse**, Paris : F. Maspéro, petite coll. Maspéro, 1975, vol. 2, 193 p.

LE GOFF, J., "Les marginaux dans l'Occident médiéval", in : **Les marginaux et les exclus de l'histoire**, Publ. Université de Paris VII, Cahiers Jussieu, Paris : Union Générale d'Editions, col.10-18, 1979, pp. 19-28.

LEITE, D., **História dos Descobrimentos**, présentation et notes de V.M. Godinho, Lisboa: Cosmos, vol. I, 1959,717 p. ; vol. II, 1962, 630 p.

LE TOURNEAU, R., "Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour dans le royaume de Fès", **Hespéris**,1954, XIX, fasc. I-II,pp. 45-63.

LE TOURNEAU, R., **Les débuts de la dynastie sa'adienne jusqu'à la mort du sultan M'hammed ech-Cheikh (1557)**, Publ. de l'Institut d'Etudes Supérieures Islamiques d'Alger, n° IX, Alger :1954, 65 p.

LIMA, D.P. de, **História da dominação portuguesa em Çafim** (1506-1542), Lisboa : 1930, 115 p.

LIMA, D P. de, **Azamor, os precedentes de conquista e a expedição do Duque dom Jaime**, Lisboa:1930,54 p.

LOBO, A. de Sousa S., **História da sociedade em Portugal no seculo XV e outros estudos históricos**, réimpression (lère edit. 1903), Lisboa : Cooperativa Editora, 1979, 807 p.

LOPES, D., **História de Arzila durante o domínio Português, (1471-1550 e 1577-1589)**, Coimbra : Imprensa da Universidade, 1924, 491 p.

LOPES, D.,"0s Portugueses em Marrocos", in : **História de Portugal**,direct. de D. Pires, Barcelos : Portugalense Editora, 1931, t.III, pp. 385-544 ; t. IV, 1932, pp. 78 - 121.

LOPES, D., **Textos em aljamia Portuguesa. Estudo filológico e histórico**,nova edição inteiramente refundida (lère edit. 1897), Lisboa : Imprensa Nacional, 1940, 278 p.

LOUREIRO, F.S., **D. Sebastião antes e depois de Alcácer Quibir**, Lisboa : Vega, 1978, 258 p.

MAGALHÃES, J.A. Romero, **Para o estudo do Algarve económico durante o século XVI**, Lisboa : Cosmos, 1970, 288 p.

MARQUES, O., **História de Portugal**, 8ème édit. Palas Editores, vol. I, 1978, 697 p.

MARQUES, O., **Introdução à história da agricultura em Portugal**, Lisboa : Cosmos, 1978, 350 p.

MARTINS, O., **0s filhos de D. João I**, réimpression (lère édit.1891), s.d. (Lisbonne), s.d. (1973), 413 p.

MASSIGNON, L., **Le Maroc dans les premières années du XVIe siecle, Tableau géographique d'après Léon l'Africain** ; Mémoires de la societé historique d'Alger, Alger : A. Jourdan, 1906, XVI + 305 p.

MAURO, F., **Le XVIe siècle européen, aspects économiques**, Paris: P.U.F., nouvelle Clio, n° 32, 1966, 388 p.

MECHOULAN, H., **Le sang de l'autre ou l'honneur de Dieu : Indien, Juif et Morisque au Siecle d'Or**, Paris : Fayard, 1979, 304 p.

MENDONÇA, J.L. de, et MOREIRA, A.J., **História dos Principais actos e procedimentos da Inquisição em Portugal,** réimpression (lere édit. 1842), Introdução de J. Palma Ferreira, Lisboa : Imprensa Nacional - Casa da Moeda, 1980, 429 p.

MUCHEMBLED, R., **Culture populaire et culture des élites dans la France moderne (XVe-XVIIIe siècles)**, Paris: Flammarion, 1978, 398 p.

ORTIZ, A.D., et VINCENT, B., **História de los Moriscos, vida e tragedia de una minoria**, Madrid : Biblioteca de la"Revista de Occidente", 1978, 313 p.

PEREIRA, I. da Rosa, "O processo de Damião de Góis na Inquisição de Lisboa (4 avril 1571-16 dec. 1572)", **Anais da Academia Portuguesa da História**, 2e série, vol. XXIII, t. I, 1975, pp. 118-156.

PEREIRA, I. da Rosa, **Notas Históricas acerca de índices de livros prohibidos e bibliografia sobre a Inquisição**, Lisboa :1976, 55 p.

PEREIRA, I., da Rosa, "Processos de feitiçaria e de bruxaria na Inquisição de Portugal", **Anais da Academia Portuguesa da História**, 2e série, vol. XXIV, t.I, 1977, pp. 85-178.

PEREIRA, I. da Rosa, e alunos, "Notas sobre a Inquisição em Portugal no século XVI", **Lusitânia Sacra**, n° X, 1978, pp. 259-300.

PREMARE, A.L. de, **Sidi Abd-er-Rahman el Majdub**, Paris: C.N.R.S.Rabat : SMER, 1985, 299 p.

REDONDO, A., "El primer plan sistemático de asimilación de los Moriscos granadinos, el del doctor Carvajal (1526)" in: **Les Morisques et leur temps**, Paris: C.N.R.S., 1983, pp. 113-123.

REVAH, I.S., **La censure inquisitoriale Portugaise au XVIe siècle**,Lisboa : Instituto de Alta Cultura, 1960, 261 p.

REVAH, I.S., **Etudes portugaises**, publ. par les soins de C. Amiel, Paris: Fundação Calouste Goulbenkian, Centre Culturel Portugais, 1975, 290 p.

RICARD, R., "La côte atlantique du Maroc au début du XVIe siècle d'après des instructions nautiques portugaises", in **Hespéris**, 1927, vol. VII, 2ème trim., pp. 229 - 258.

RICARD, R., **Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de l'Espagne et du Portugal**, Louvain : Aucam, 1930, 237 p.

RICARD, R., **Les Espagnols sur la côte d'Afrique aux XVe et XVIe siècles**, Paris : Larose, 1935, 111 p.

RICARD, R.I "Recherches sur les relations des Iles Canaries et de la Berbérie au XVIe siècle", in : **Hespéris**, 1935, t. XXI, fasc. I-II, pp. 79-129.

RICARD, R., **Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc**, Coimbra Acta Universitatis Conimbrigensis, 1955, 500 p.

ROSENBERGER, B., "Travaux sur l'histoire du Maroc aux XVe et XVIe siècles publiés en Pologne", Compte-rendu in: **Hespéris-Tamuda**, vol. XII, fasc. unique, 1971, pp. 193-218.

ROSENBERGER, B., et TRIKI, H., "Famines et épidémies au Maroc", in: **Hespéris-**

Tamuda, vol. XIV, fasc. unique, 1973, pp. 109-175 vol. XV fasc. unique, 1974, pp. 5-103.

SARAIVA, A.J., **Inquisição e Cristãos-Novos**, 4ème édit. (1ère fév. 1969), Porto Editorial Inova, déc. 1969, 319 p.

SERGIO, A., **Ensaios**, 3ème édit. (1ère 1974), édit.critique, Lisboa: Classicos Sá da Costa, vol.1,1980, 409 p.; vol.IV, 198,289 p.

SOUSA,VITERBO, "Occorancias da vida mourisca", **Arquivo Histórico Português**, vol.V, 1907, pp. 81-93, 161-170, 247-265.

TAVARES, M.J. Pimenta Ferro, "Judeus e Mouros em Portugal dos séculos XIV e XV; tentative de estudo comparativo", **Revista de História ecónomica e social**, (Lisbonne) n° 9, janv. - juin 1982, pp. 75-89.

TAVARES, M.J., **Os Judeus em Portugal no século XV**, Lisboa : Presses de Universidade Nova de Lisboa, 1982, 535 p.

TERRASSE, H., "le Maroc, ancien pays d'économie égarée", **Revue de la Méditerranée**, t.IV, n°17, 1947, pp. 1-30.

TERRASSE, H., **Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français**, t.2, Casablanca : Edit. Atlantides, s.d.(1950), 509 p.

VASCONCELLOS, J. Leite de, **Etnografia portuguesa**, Lisboa: Imprensa Nacional, vol. IV, 1958.

VERLINDEN, C., **L'esclavage dans l'Europe médiévale.** T. I. : **Espagne et Portugal à l'époque des Grandes Découvertes**, 930 p.

VILLANUEVA, J. Pérez, direct.**Inquisición española, Nueva visión, nuevos horizontes**, Actes du premier symposium international sur l'inquisition espagnole, tenu à Cuenca en septembre 1978.Publ. Caja Provincial de Ahorros de Cuenca, Madrid: Siglo XXI, 1980, 2 vol., 1027 p.

WITTE, C.M. de, "Les bulles pontificales et l'Expansion portugaise au XVe siècle", **Revue d'histoire ecclésiastique** (Louvain), XLVIII, 1953, pp. 683-718; XLIX, 1954, pp. 438-461; LI,1956, pp.413-453 et 809-836; LIII, 1958, pp. 5-46 et 443-471.

مصادر ودراسات عربية

1- مصادر عربية مخطوطة:

- الزياتي، عبد العزيز: **الجواهر المختارة، فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، مخطوط، الخزانة العامة، ج.66.
- عرضون، أحمد بن : **مقنع المحتاج في أدب الأزواج**، مخطوط، الخزانة العامة، ك 1026 .
- الفاسي، عبد الرحمن : **ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب**، مخطوط، الخزانة الحسنية، 1222.
- الهبطي، عبد الله: **الألفية السنية**...مخطوط، الخزانة الحسنية، 2808.

2 - مصادر عربية مطبوعة :

- ا لبوخصيبي، أبو بكر : **أضواء على ابن يجبش التازي**، الدار البيضاء، 1976 .
- الشفشاوني، ابن عسكر: **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976.
- الفاسي، محمد العربي: **مرآة المحاسن، من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، طبعة حجرية، فاس، 1906.
- الفاسي، محمد المهدي، **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع، وما لهما من الأتباع**، طبعة حجرية، 1895.
- الفشتالي، عبد العزيز الفشتالي: **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط.ب.ت.
- القاضي، أحمد بن : **درة الحجال في أسماء الرجال**، تونس- القاهرة، 1970-1971.
- مجهول: **تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية**، نشر كولان، الرباط، 1943 .
- الناصري، أحمد بن خالد : **الاستقصا...**، ط.البيضاء، ج. 4 -5.
- الوزان، الحسن : **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 1983 .

– الونشريسي ، أحمد ، **المعيار المعرب...**، بيروت،دار الغرب الإسلامي، 1981 .

– اليفرني، محمد ، **نزهة الحادي بملوك القرن الحادي**، نشر هوداس، ط.2.

– اليوسي، الحسن، "رسالة العكاكزة"ضمن **رسائل الحسن اليوسي**، تحقيق فاطمة القبلي، الدار البيضاء، 1981، صص 271–299.

3 – دراسات باللغة العربية :

– بوشرب، أحمد: **دكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور**، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984.

– بوشرب، أحمد : "محضر محاكمة امرأة مغربية من طرف محكمة التفتيش الدينية البرتغالية"، **المناهل**، عدد 21، 1980، صص 229–278، **ومجلة تاريخ العرب والعالم**، عدد 43، ماي 1982.

– بوشرب، أحمد : "المورسكيون بالبرتغال"، **المناهل**، ع.24، 1982، صص354 –392، **المجلة التاريخية المغربية**، تونس، جوان، 1982 صص 31–52.

– بوشرب، أحمد :"محضر محاكمة بحار برتغالي من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية"، **مجلة كلية الآداب**، فاس، عدد خاص، 1985. صص 247–320.

– بوشرب، أحمد: «وثائق محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية، مصدر من مصادر الثقافة والعقليات بالمغرب خلال القرن السادس عشر» **بحوث**، كلية الآداب، المحمدية، ع.5، 1993 صص 61–78.

– حجي، محمد : **الحركة الفكرية في عهد السعدين**، فضالة، 1977، جزءان.

– الشاذلي، عبد اللطيف: **التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري**، سلا، 1989.

– الفكيكي، حسن : **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة (1415– 1574)**، أطروحة مرقونة، كلية الآداب، الرباط.

– القدوري، عبد المجيد : **ابن أبي محلي، الفقيه الثائر**، الرباط، عكاظ، 1990 .

– النجمي، عبد الله : "العكاكزة" **مجلة كلية الآداب**، الرباط، ع.5–6. صص 59–94.

– النجمي، عبداللة : «من تاريخ التصوف المغربي في القرن العاشر الهجري» **مجلة تاريخ المغرب**، ع.1. فبراير، 1981.

– الوارث، أحمد : **الأولياء بالمغرب خلال القرن السادس عشر**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، مرقونة. كلية الآداب، فاس.

فهرس المحتويات

الفصل الثالث : أوضاع البرتغال الاقتصادية والاجتماعية والدينية

الباب الثاني

موقف المغاربة من البرتغاليين وقيمهم

الفصل الرابع : ظروف الإقامة في البرتغال

الفصل الخامس : التعايش المستحيل

الفصل السادس : انعكاس الغربة والحنين إلى الوطن على موقف المغاربة من البرتغال

الفصل التاسع : المغاربة ومحاكم التفتيش: الخطايا والأحكام

مطبعة فضالة

زنقة ابن زيدون - المحمدية (المغرب)

الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)

هذا الكتاب

اهتمت هذه الدراسة بمغاربة انتزعتهم أحداث جسام من وطنهم وألقت بهم في بلد كان يتخبط في أزمة اقتصادية واجتماعية ودينية حادة، تولد عنها تزايد التعصب والتطرف وعداء الآخر. ومما زاد في محنة أولئك الغرباء، تزامن استقرارهم في البرتغال مع إنشاء محاكم التفتيش الدينية التي أوكل إليها المجتمع مهمة قمع كل مظاهر الاختلاف والتميز، مهما كانت بسيطة وبعيدة عن الدين والعقيدة.

لقد حاولنا من خلال تتبع ظروف إقامة المغاربة في البرتغال، وموقفهم من ذلك البلد وسكانه وقيمهم، ورؤيتهم لنفسهم ولغيرهم، توضيح ما إذا كان أولئك الغرباء، الذين أدخلوا ذلك البلد في أوقات مختلفة، وفُرض على جلهم التنصر تحت الإكراه، قد انسلخوا من هويتهم، وحاولوا الاندماج داخل المجتمع البرتغالي وتبنّي قيمه، أو أن سنوات الغربة، مهما طالت، لم تزدهم إلا ارتباطاً بوطنهم وتمسكاً بثقافتهم وعقيدتهم.

ومما لا شك فيه أن موضوعاً كهذا، يفرض علينا تحديد خصائص ومميزات الثقافة والعقليات والقناعات الدينية بالبلدين، الأمر الذي يجعل هذه الدراسة تهتم بموضوع لم تسبق معالجته، وهو موضوع الثقافـ
والذهينات في المغرب خلال القرن السادس عشر. ومما ز
اعتمادها على مادة مصدرية لم توظف قط ببلادنا، تبدو لأول وهلـ
تهم تاريخنا البتة، تتمثل في مصادر محاكم التفتيش الدينية البرتغال

